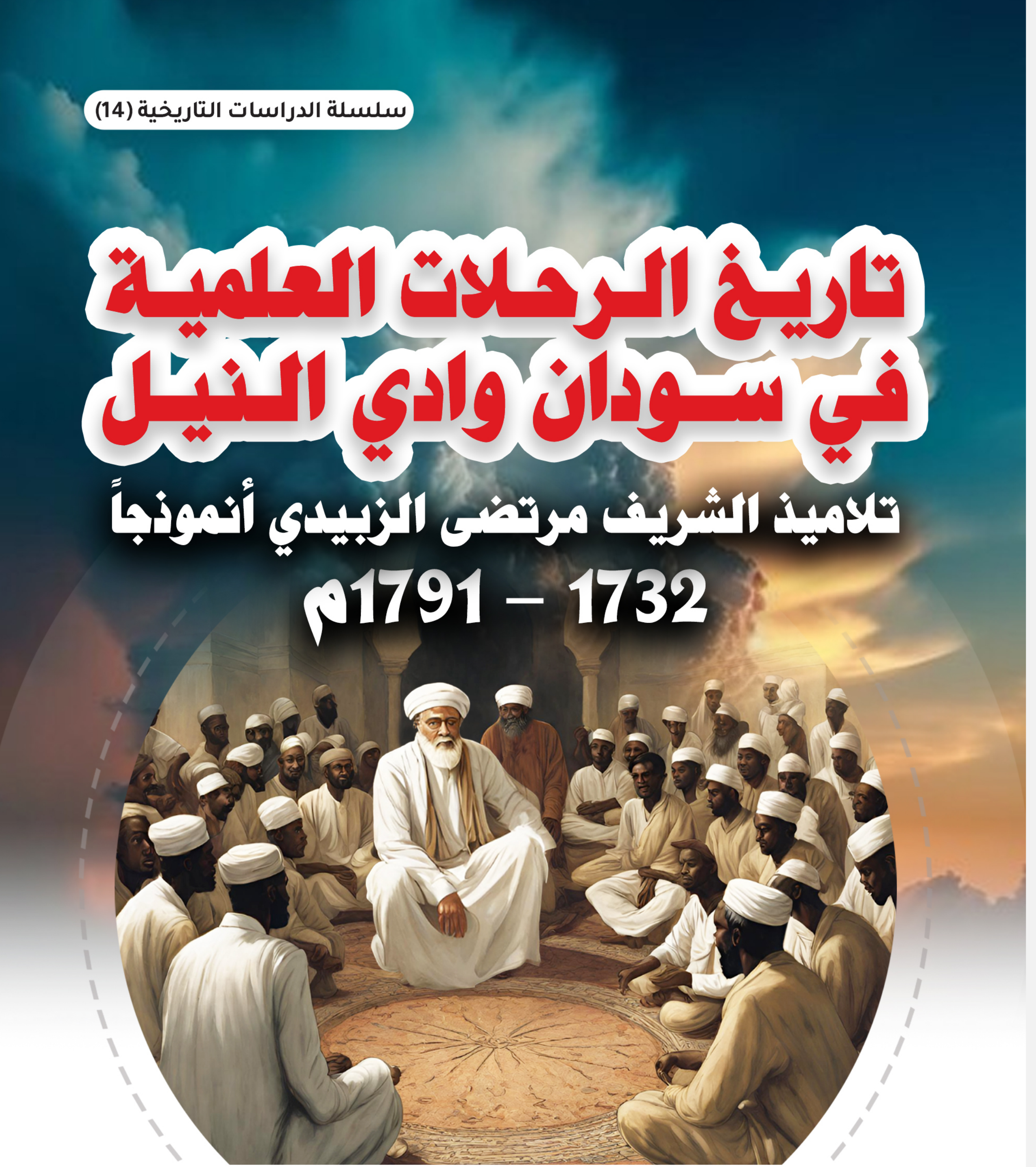
سلسلة الدراسات التاريخية (14)

تاريخ الرحلات العلمية في سودان وادي النيل

تلاميذ الشريف مرتضى الزبيدي أنموذجاً

1732 – 1791م



الدكتور خالد محمد فرح

الطبعة الأولى - 2023

تاريخ الرحلات العلمية في سودان وادي النيل
تلاميذ الشريف مرتضى الزبيدي أنموذجا - ١٧٣٢ – ١٧٩١م
الدكتور خالد محمد فرح
الطبعة الأولى 2023

سلسلة الدراسات التاريخية (14)

تاريخ الرحلات العلمية في سودان وادي النيل

تلاميذ الشريف مرتضى الزبيدي أنموذجاً

1732 – 1791م

الدكتور خالد محمد فرح

الطبعة الأولى - 2023

اســم الكــتاب:
تاريخ الرحلات العلمية في سودان وادي النيل
تلاميذ الشريف مرتضى الزبيدي أنموذجا
(1732 – 1791م)

الـمؤلــف:
الدكتور خالد محمد فرح

الناشـــــر:
دار آريثيريا للنشر والتوزيع - الخرطوم - السودان
جوال: -121566207 00249122094856

البريــد الإلكترونــي:
arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر :
الطبعة الأولى 2023م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية
أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

صدق الله العظيم

التوبة الآية (١٢٢)

إهداء

إلى روح والدي ومُرشدي ومعلمي الأول

الأستاذ محمد فرح الفحل (1928 – 2015م)

عليه رحمةُ الله ورضوانه في عليين

الفهـــــرس

تقديـــــم
(1)

شرَّفني صديقي الأديب والباحث في الدراسات السودانية، سعادة السفير الدكتور خالد محمد فرح، بكتابة تقديم لكتابه عن تاريخ التواصل والرحلات والإجازات العلمية في سودان وادي النيل في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي.

والحق أنني كنتُ متهيِّباً لكتابة تقديم لكتاب في موضوع أجد من هو أجدر مني على تناول جوانبه المختلفة، ولكنني فور البداية في قراءته، جذبني موضوعه، وأسلوب عرض وترتيب موضوعاته، وأرجو أن أوفَّق في تقديم بعض الإضاءات والأفكار في بعض الجوانب التي وردت في الكتاب.

لاحظتُ في السنوات الأخيرة منحىً واتجاهاً جديداً في الدراسات السودانية المعاصرة، وهي ظاهرة التوثيق للحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية، وكتابة المذكرات الذاتية والغيرية. ولم يقتصر هذا المنحى على تلك الظواهر فحسب، بل شمل أيضاً الكتابة عن المدن والقبائل والأُسر والبيوتات، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى تحسين تصورنا ومعرفتنا بالسودان، وبخاصة تاريخه الاجتماعي، في خضم ما تمور به الساحة السودانية في الوقت الحاضر من تحولات واضطرابات وحيرة.

وفي هذا السياق، يأتي هذا الكتاب الذي أشار المؤلف في مقدمته أنه يندرج تحت دراسات التاريخ الاجتماعي والثقافي وليس السياسي. ولقد بذل المؤلف جهداً عظيماً، درس من خلاله موضوعه في أناة وصبر، وحرص كبير على الاستيثاق والتوثيق لمادته.

تناول الكتاب مسألة التواصل العلمي والرحلة في سبيل طلب العلم، التي قام بها طائفة من الطلاب والفقهاء وأصحاب الطرق الصوفية من أهل السودان إلى شتى بقاع العالم الإسلامي. وقد تناول عددٌ من المؤلفين والكُتَّاب هذا الموضوع بشئ من الإيجاز كما أشار إليهم المؤلف، بمثل ما نجد في مؤلف البروفيسور الراحل عزالدين الأمين (قرية كُترانج وأثرها العلمي)، وكذلك كتناب الدكتور الراحل يحي محمد إبراهيم (تاريخ التعليم الديني في السودان)، وكتاب البروفيسور معتصم أحمد الحاج

عن (أزهر السودان) أو المعهد العلمي بأم درمان، وكتاب الدكتور عبدالعزيز أمين عبد المجيد (التربية في السودان)، وكتاب البروفيسور الراحل محمد إبراهيم أبوسليم (علماء وأدباء ومؤرخون في تاريخ السودان) وغير ذلك من المؤلفات ذات الصلة.

أما هذا الكتاب، فقد تناول مؤلفه فيه وبصورة متعمقة، الأثر العلمي والفقهي للسيد الشريف محمد مرتضى الزبيدي 1732 – 1791م، صاحب المعجم اللغوي الشهير (تاج العروس من جواهر القاموس) على طلاب وفقهاء السودان على وجه التحديد.

حدَّد الكاتب بوضوح الأهداف الأساسية من تأليف الكتاب، فذكر أنه يهدف إلى تسليط الضوء على تاريخ التعليم والحركة العلمية والفكرية في سودان وادي النيل خلال القرن الثامن عشر الميلادي، وإبراز دور وإسهام العلماء والفقهاء والمتصوفة في إطار مجمل الحراك العلمي والفكري في العالم آنذاك، وذلك من خلال اختيار نموذج محدد، يتمثل في استقصاء أسماء وأطراف من سير تلاميذ العلامة الشريف المرتضى الزبيدي من السودانيين الذين تلقوا العلم والإرشاد على يديه بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ومن أهداف البحث التي ذكرها المؤلف أيضاً، محاولة الوصول إلى نمط المؤلفات السودانية ذات الصلة بأنماط وطرائق التأليف السائدة عصرئذٍ، من حواشٍ ومتون وشروح ومختصرات، وهذه لعمري أهداف جليلة لا شك أنها ستسدُّ فراغاً كبيراً في هذا المجال الخصب الذي لم يجد حظه من البحث والتنقيب، عدا بعض الجهود المتفرقة هنا وهناك.

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، يبدو أن المؤلف قد وجد عنتاً شديداً بسبب شُح المصادر والمراجع المتصلة بهذا الموضوع الفريد والمتداخل في موضوعاته، فهو أقرب للتاريخ الاجتماعي المتشعب والمحفوف بالكثير من المحاذير، منه إلى مجال التاريخ السياسي. ومع هذه الصعوبات، علاوة على صعوبة الاتصال بالمصادر الموثوقة، وبالرواة السودانيين، وبخاصة إذا علمنا أن جل الكتاب قد أُنجز والمؤلف خارج السودان، بحكم ما تقتضيه طبيعة منصبه الدبلوماسي الرفيع، فإنَّ المؤلف قد استطاع بمهارة ودأبٍ كبيرين الوصول إلى بعض المصادر الأولية والثانوية مما هو منشور ومخطوط، وكذلك الإفادات الشخصية، والمواد المبذولة على شبكة الانترنت.

لقد اشتملت المصادر والمراجع على طائفة ممتازة، بعضها معروف ومنشور، ومنها ما هو نادر أو مخطوط. وقد تمكن المؤلف بدأب وصبر، من استعراض تلك المصادر وفحصها بعين ناقدة صارمة، والموازنة بينها، في محاولة للوصول لجوانب الضعف والقوة فيها، وتصحيح بعض المعلومات الواردة فيها، أو على الأقل تقديم قراءة مختلفة أو مغايرة لبعض ما ورد فيها من آراء. ولقد حفل الكتاب ببعض الآراء الجريئة التي ربما لا تجد قبولاً من بعض القراء، والتي نأمل - مع ذلك - أن تجد اهتماماً من المهتمين بالدراسات السودانية.

وفي معرض التآليف والتصانيف السودانية، كنتُ اتطلّع لأقرأ عرضاً وافياً لكتابيْ البروفيسور الراحل قاسم عثمان نور (معجم المؤلفين السودانيين من عصر الفونج إلى العصر الحديث)، وكتاب: رحلة الكتاب السوداني.

في تقديرنا أنَّ الكتاب السوداني المطبوع والمخطوط، لم يحظ بالتسجيل والتوثيق في أمهات كتب الببلوغرافيات والفهارس وسجلات الكتب، فلا نكاد نجد كتاباً سودانياً واحداً في كشاف حاجي خليفة: (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، أو كتاب كارل بروكلمان: (تاريخ الأدب العربي)، أو كتاب: (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع) وغيرها من فهارس الكتب المطبوعة أو المخطوطات والببلوغرافيات العامة والمتخصصة.

استعرض المؤلف نشأة وتطور التعليم الديني في السودان في حقبة ما قبل القرن الثامن عشر، وقدَّم بعض الآراء الجريئة حول الموضوع، تستحق الدراسة والتأمُّل. وقد أورد المؤلف رواد التعليم في السودان من أمثال الشيخ تاج الدين البهاري، وغلام الله بن عايد، والشيخ حمد أبو دُنَّانة، وغيرهم، وبخاصة (رواد الثقافة الإسلامية في جزيرة الفونج)، وهو عنوان الكتاب الذي أعدَّه الراحل محمد محجوب مالك اعتماداً على كتاب الطبقات لمحمد النور ولد ضيف الله.

تحدث المؤلف عن هجرات الأمويين إلى بلاد النوبة والحبشة، وهذا موضوع يشوبه بعض الغموض والالتباس، لأنه ارتبط بصورة أو أخرى بأصل الفونج، وما يتداوله الرواة عن هجرة بقايا هؤلاء العرب إلى بلاد السودان عبر هضاب الحبشة. ولعل في كتاب الدكتور عبد المجيد عابدين: (العرب والحبشة)، ما يلقي بعض الأضواء على

هذا الموضوع. ومهما كانت الأسباب، فإنَّ ضعف التوثيق والتسجيل، ساهم بشكل كبير في عدم وجود مدونات عن أدب الرحلات والهجرات عموماً لبلاد السودان.

استعرض المؤلف بتفصيل ممتاز روافد التعليم والثقافة في السودان، وأجملها في الرافد اليمني والمصري والعراقي والمغربي/ الأندلسي والحجازي والشامي. وأرى أن من الممكن إضافة رافد بلاد السودان الغربي، ففي الإسلام هم أسبق، وفي حركات الإحياء والإصلاح هم أبكَرْ، بل في ثقافة العرب والإسلام ريادتهم لحزام السافنا معروفة، وإسهامهم في ميدان التعليم الديني في السودان معروفة كذلك.

يُحمد للمؤلف تناول مسألة صلة دارفور بالعروبة والإسلام، وهو جانب يحتاج إلى المزيد من الدراسة والبحث، فما كُتب عنه قليل مقارنة بما كُتب عن السودان النيلي. فبخلاف ما نجده في كتاب (تشحيذ الأذهان) لمحمد بن عمر التونسي، وما كتبه الرحَّالة الأجانب مثل ناختقال وبراون، فإنَّ هذا الجانب العلمي في حياة السودان قليل التوثيق، حيث لم ترد عنه إلا ربما إشارات مما ورد في كتاب الطبقات. ولعل المؤلف يتوسع قليلاً ليكتب عن علماء وفقهاء كردفان، ومراكز الثقافة الدينية في كردفان مستقبلاً، وهذه دعوة للمزيد من الاستقصاء مما ذكره ود ضيف الله عن الفقيه (الفكي) جودت الله، ومختار بن محمد جودت الله فقهاء كردفال، فقد قال عن الأول: (..... أما جودت الله، فمن بني محمد، ومحله الزلطة في دار الريح. تفقَّه بالقدال بن الفرضي وخدمه... يشاوروه على الشراد. وعنه أخذ العلم مختار ولده وهو شارح الأخضري..).

وقال عن مختار إنه « ولد في الزلطة... وقرأ التوحيد والرسالة وجميع الفنون. وعمرت خلوته وكثر طلبته، وشرح الأخضري «. وكذلك من الأولياء من معاصري ود ضيف الله، والذين أغفل ذكرهم في طبقاته، الشيخ محمد أحمد حمد النيل العركي الذي استقر في مدينة النهود، وأسس مركزاً مهماً للثقافة والتعليم الديني في غرب السودان، وقد هاجر هذا الشيخ من الجزيرة، وهو أحد أحفاد الشيخ محمود العركي المشهور.

تناول الكاتب أيضاً علاقة السودان والسودانيين بكتب التراجم والطبقات، وعالم المعاجم والأسانيد والأثبات. وقد استطاع بتوفيق كبير، إيراد واستعراض الكثير منها، وقدم بعض النماذج. كما أورد بعضاً من السير الذاتية والغيرية والمذكرات الشخصية

التي توسَّع التأليف في مجالها كثيراً في السنوات الأخيرة، بيد أننا لاحظنا انه ربما فات على المؤلف إيراد بعضٍ من مذكرات طائفة من السفراء والدبلوماسيين، علماً بأنَّ هذا هو مجال المؤلف المهني!

والواقع أن علاقة السودان بهذا النوع من التأليف ضعيفة، وتفتقر إلى الكثير من أساليب بناء المعاجم والتراجم. ومن الملاحظات المهمة في هذا الصدد، واعتماداً على ما اطلعتُ عليه في التراجم الأولى، مسألة تصنيفها على حسب حروف الهجاء، وهو أمرٌ يرخي سدولاً من الغموض على تسلسل نمو وتطور الثقافة الإسلامية في السودان، وربما يستدعي الأمر إعادة ترتيبها وفق منهج تاريخي أو زمني محدد.

لقد بذل المؤلف جهداً عظيماً في استقصاء الموضوع من جوانبه المختلفة، بأمانة وجدية وصبر وأناة، مما يجعل الكتاب فريداً في بابه، ومصدراً مهماً لطُلّاب العلم في شتى الدراسات الاجتماعية والتربوية، فضلاً عن مجال التاريخ الثقافي والفكري للسودان، ولا شكَّ أنَّ القارئ سيجد فيه متعةً وفائدةً وزيادةً في المعارف.

الدكتور الحاج سالم مصطفى
مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية
جامعة أم درمان الأهلية
يناير 2022م

تقديـــــم
(2)

الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على خير خلقه سيدنا النبي محمد وعلى عترته الطاهرين.

لقد أحسن بي الدكتور خالد محمد فرح الفحل الظن، فرآني اهلا لكتابة مقدمة بين يدي كتابه عن تاريخ التواصل والرحلات والإجازات العلمية في سودان وادي النيل في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، متخذا من الشريف محمد مرتضى الزبيدي الحسيني وتلاميذه نموذجا.

ولقد راق لي هذا المبحث لاهتمامي القديم المتجدد به، كما تروق لي أساليب الدكتور خالد لهذا الموضوع وما يشابهه من الدراسات الاسلامية والسودانية، من حيث التناول المستوعب لجواهرها وأطرافها، واستطراداته الممتعة، وروحه الحفية بموضوعاته وبمطالعيها، من متابعيه الحفيين به على تنوع فئاتهم.

مضى الدكتور خالد بطريقته المشوقة إلى مطلبه الاسنى، بعد توطآته عن التعليم الديني في السودان قبل القرن الثامن عشر، وواقع الحياة العلمية فيه محليا وخارجيا، حتى وصل إلى موضوع التراجم والاسانيد والاجازات قديما وحديثا. وفصل عن السيد محمد مرتضى الزبيدي سيرته وعصره وآثاره وتلاميذه بالسودان وهو ذروة مبتغى المؤلف ومبتغانا. وتحت هذه المطالب الاساسية الحافلة، تفرَّعت مطالب فرعية تضمنت فوائد جمة، أفصحت لي عن اهتمامات الكاتب وتتبعه لقضايا متجددة - على قدمها - في التصوف وإصلاحه، وحركاته التجديدية وتاثيره الاجتماعي.

برز اهتمام الكاتب بالتراجم والاسانيد والاجازات، وما عرف بما الف فيها من معاجم وفهارس وبرامج وأثبات ومشيخات وسلاسل واسناد، وكلها بمعنى. وهو بلا ريب اهتمام ينشأ من أهمية هذه المؤلفات. فهذه الفهارس التي تعطي معلومات عن الكتب وعن الاساتذة في الوقت نفسه، تعرف في أيامنا

بالببليوجرافيات الحيوية، التي تصف الكتب وتترجم للاشخاص في وقت واحد و(فهارس الشيوخ)، هي تلك القوائم التي كان بها العالم المسلم يحصر ويسجل ويصف الكتب التي درسها على شيوخه، سواء كانت تلك الدراسة بالقراءة والسماع أو الاجازة، وسواء كانت تلك الدراسة مباشرة أو غير مباشرة، أكان الشيخ الأستاذ معاصرا لذلك العالم أو سابقا عليه.

كانت (فهارس الشيوخ) جزءاً من منهج البحث العلمي الذي درج عليه العلماء المسلمون، حيث كان العالم ينسب الفضل لأهله، ويسند تكوينه العلمي إلى كل من ساهم فيه. وذلك قمة الامانة العلمية، فلم يكن العالم المسلم يكتفي بإسناد المعلومات إلى مصادرها فيما يكتب وحسب. بل كان ينسب كل خلية فكرية في عقله، إلى من ملأ تلك الخلية بالمعلومات والمصدر الذي اعتمد عليه.

لقد خرجت فكرة إعداد الفهارس بالكتب المدروسة من بطن علم الحديث، ثم انتقلت المسألة من إسناد مجموعات الحديث إلى تسجيل كل المرويات في جميع فروع المعرفة الإنسانية التي تداولها المسلمون. وبذلك نستطيع أن نقول إنّ البحث العلمي الموضوعي والمنصف، يؤكد أنَّ المسلمين قد عرفوا علم الببليوجرافيا بكل فروعه، قبل أوربا بعشرة قرون على الاقل.

إن الببليوجرافيا الحيوية، التي هي أحد فروع علم الببليوجرافيا التي تسعى إلى حصر وتسجيل ووصف الانتاج الفكري لمؤلف معين،أو الذي درسه عالم معين من إعطاء معلومات عن المؤلف، هي إحدى الانشطة الرائعة التي عرفها المسلمون ومارسوها بكفاءة واقتدار، وتمثلت في آلاف الفهارس التي انتجوها، ووصلنا خبرها، كما وصلت الينا الكثير من نماذجها.

فمن فوائد هذه الفهارس: تصويرها خير تصوير طرق تحصيل العلوم، ومراحلها وسبل التواصل العلمي، وكشفها عن تطور حركة الفكر ونشاط التأليف، وتلمس الروافد الثقافية المكونة لملكات علمائها، والتعريف بمدى الاقبال على كل موضوع ومجال الاعلام العاملين فيه. كما تتيح لنا الوقوف على مجالات المعرفة التي سادت في فترة معينة من العالم الاسلامي، وكساد بعض المجالات في فترات أخرى، وتكشف مراكز العلم في العالم الإسلامي وانتقالها بين أرجائه. كما تحفل الفهارس بأسماء المدارس

والرباطات والخوانق والزوايا والمساجد، وتعرّفنا على الكتب المهمة في فترات زمنية محددة، وعن كتب مهمة امتدت أهميتها، وتجددت الحاجة اليها في أزمان وبلاد متعددة، والكتب الاساسية في الدراسة والتعليم، والعلماء الافذاذ في المجالات المختلفة. وتشير إلى المدارس الفكرية والمذهبية وتطورها وانتقالها في أنحاء العالم الاسلامي وتتجلى أهمية هذه الفهارس كببليوجرافيات حيوية كانت مجالا للدرس والبحث، شانها في ذلك شأن المجالات الاخرى. وكان الطلاب يدرسونها. وعلى سبيل المثال فان ابن خير الاشبيلي، أبا بكر محمد بن خير بن عمر الأموي ت 1179م قد درس ضمن ما درس من أمهات الكتب أربعة وسبعين فهرساً، والتجيبي، القاسم بن يوسف السبتي البلنسي ت 1329م درس ثمانية وعشرين فهرسا، والنعال البغدادي، صائن الدين محمد بن الانجب ت 1261م درس أربعة وثلاثين فهرسا، بينما الوادي آشي، محمد بن جابر ت 1348م يبلغ مجموع ما درسه من فهارس عشرة، وابن عطية، أبومحمد عبدالحق بن غالب المحاربي ت 1147م درس ثمانية. والمجاري، أبوعبدالله محمد بن علي بن عبد الواحد ت 1457م سبعة عشر. وهكذا كان حرص الدارسين بالغا على دراسة وتعلم ما تيسر من فهارس لاعتقادهم باحتوائها مصادر العلم. ويمكن القول إن هذه الفهارس كانت مولد علم الببليوجرافيا عند المسلمين.

من كل ذلك وغيره، جاء اهتمام هذهالرسالة بالسيد محمد مرتضى الزبيدي، وبفهرسه الكبير المعروف بالمعجم المختص والكبير. هذا المصدر الذي نجد فيه جملة من الفوائد التي سبق ذكرها، ولكنه يتميز بترجمته لمناطق الظل والمحجوبية في العالم الاسلامي، ومنها سودان وادي النيل وما إليه، حيث لن يمكننا أن نطلع على صلة بعض علمائه بمراكز العلم وعلمائها وما حصلوه الا من خلال معجم شيوخ مرتضى الزبيدي هذا. ويكشف لنا معجم مرتضى الزبيدي عن صلاته المتعمقة مع علماء شمال افريقيا والسودان الغربي. ولكن تاريخ التفاعل العلمي يقول لنا ان التفاعل بين مصر وتلك الأقاليم، بعيد الأمد في التاريخ العلمي الاسلامي،وأن شخصياتٍ علمية سكنت مصر، كان لها تأثيرٌ مماثلٌ لما قام به سيد مرتضى الزبيدي بعدهم، ولعل تاثيرهماالتاسيسي في العلوم والتصوف، كان أشد من تاثير الزبيدي، ووقعهم على الأرواح كان أشد، وعِلقةُ الناس بهم كانت أوثق وعلى سبيل المثال، فبذهابي إلى تاريخ ما قبل مرتضى الزبيدي، أجد شخصيتين قاهريتين، أو كانت قاهرة المعز وطنا لهم في فترات من حياتهم، كان لهما

دور مماثل سابق في الاتصال بالسودان الكبير وسودان وادي النيل في فترتي الاستعراب والأسلمة ما قبل مملكتي الفونج ودار فور، ثم في فترة المملكتين فأولهما جلال الدين السيوطي ت 1505م مع قيام دولة الفونج في سودان وادي النيل، الذي اشتهر في زمنه في الحواضر العلمية في ممالك افريقيا جنوب الصحراء، وتنوقلت مؤلفاته فيها مع التفاعل معها شرحا وتحشية وتدريسا، وله معاجم كبير وصغير ومنتقى، حتى توهم بعضهم انه قام برحلة إلى بلاد التكروروتمبكتو. ولعله واسطة عقد اسانيد التصوف القادري والشاذلي مع الشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني ت 1505 (أو 1503) وبعض المصادر تشير إلى أخذ المغيلي على السيوطي. وعنهما الشيخ عمر (آعمر) ت 1553 م بن أحمد البكاي الكبير الكنتي ت 1513م، ومنه إلى حفيده المختار الكنتي ت 1811م، وبه بدا التصوف الطرقي في موريتانيا، ومنه إلى الشيخين عثمان بن فودي ت 1817م وسيديا الكبير ت 1868م، وإلى الفاضليين في موريتانيا ومنهم إلى المريديين وغيرهم والشخصية الثانية هو الإمام مصطفى البكري الصديقي ت 1749م، شيخ الخلوتية المحدثة ورائدها الاحيائي في بلاد السلطنة العثمانية واليمن والمغرب الاقصى واندونسيا وسوداننا (بلاد الفونج والفور) والقرن الافريقي وحتى السودان الغربي وبلاد برنو.

وقد بلغ من الشهرة والمكانة ابان فترته القاهرية المصرية (1720 - 1749)م، بحيث أصبح مقصدا للعلماء والصوفية والشعراء والكبراء وكثر طلب العهد الخلوتي منه حتى ليقال ان خلفاءه بلغوا مائة الف. فقد ورد في مخطوط لمحمد بن مصطفى البكري ت 1782م بعنوان (الجوهر الفريد في حل بلغة المريد) و(بلغة المريد ومشتهى الموفق السعيد) في شرح منظومة لوالده في آداب الطريق الصوفي واصفاً لبعض نشاطه ما نصه:

(... فلقد رأيت لاستاذنا الناظم قدس الله أروحنا به، من المريدين من خدمه طول عمره في سائر تقلباته، وغص بأكوابه، ولم يخلفه على عادة الخلفاء، بل بقي على قدم الإرادة كالآحاد أولي الخفاء. ورأيت من المريدين من أخذ العهد عليه، وخدمه سبعة أيام مقيماً لديه، وفي ثامن يوم من بعد أخذ العهد أقامه خليفة عنه، وأجازه بكل ما له فيه سند، وأجازه بكل ما له فيه سند، وأرسله هاديا مهديا على القوم، إلى بلاد سنار والبربر والفور ...) أهـ. ولم يبلغنا أن سناريا أو فوراويا أجيز من مصطفى البكري، ولكن يمكنني الاشارة إلى أثر لربما تكون له علاقة بالبكري في أسرة سودانية

سنارية وهي أسرة الشيخ أحمد الطيب البشير ت 1824م، وهو مدخل طريقته الخلوتية وناشرها بالسودان منذ 1766م عن طريق شيخه تلميذ البكري الشيخ محمد بن عبدالكريم السمان المدني ت 1776م. فأخوا الشيخ أحمد الطيب بن البشير اسم احدهما البكري، واسم الآخر عبداللطيف، وافترضتُ تسميتهما تيمنا بمصطفى البكري، وبشيخه في الخلوتية: عبداللطيف بن حسام الدين الحلبي الخلوتي ت 1709م. وعليه فلربما كان إعراض الشيخ أحمد الطيب في بداية أمره عن الأخذ عن شيوخ سنار الكبار من القادريين والشاذليين وتوجهه إلى الحجاز 1760م، كان عن موعد ووعد وعهد قد سبق عقده، وليس صدفة واتفاقا، وإنما كان قصداً واختياراً والله تعإلى أعلم.

من بين أهل السودان الشرقي الذين حظوا بالتتلمذ على السيد مرتضى الزبيدي ونالوا منه إجازات، جمع معتبر – على ما نحو بسطهُ المؤلف في كتابه هذا - يدل على أنَّ تلقيهم للعلم تقاليده ممتد في أجيالهم منذ القدم. ونشير مع المؤلف إليهم كما يشير غيرنا باعتبارنا (السودانيين)، ضمن الملأ العلمي الذي اتصل بمراكز العلم وأعلامها، لا نُقصِّر عن الآخرين. نافين عنا ما نرمى به بتأخُّر التحاقنا بركب السادة المتقدمين وتقاليدهم العلمية، مما أحلَّنا نحن معاشر السودانيين، طوايا الرُّقُم في الفهارس وصفحاتها الذهبية، التي ترقى بأصحابها إلى ذرى الأعلام.

وللسودانيين دون شك، سبقُ وحضورٌ ثابت ومشهود، يؤرَّخ له بإبان وبُعيد إرساء تقليد الرواية والسند نفسه، ويتمثل ذلك الحضور الباكر في اثنين من النوبيين اشتغلا بما يعتمد على الرواية والإسناد في القرون الثلاثة الأولى، الحديث والحكمة، وهما يزيد بن أبي حبيب الدنقلاوي، المحدّث والفقيه، ومفتي مصر وعالمها توفي 128هـ/ 745م، وذو النون المصري النوبي، ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض، المحدث الفقيه، والصوفي الحكيم ت 245هـ/ 859م.

هذا، وحتى قبل نشاة الممالك الكبيرة في السودان أي قبل 1500م، نجد أن حركة انتقال الطلاب والحجاج بين ممالك السودان الأوسط والغربي والحجاز واليمن ومصر، كانت تعبر أرض سوداننا، ونحن نفترض إلمام علمائه بهذا التقليد المشيخي. ويصدق ذلك – على سبيل المثال - في هجرة الشيخ غلام الله بن عائذ العقيلي الزيلعي من اليمن إلى إقليم دنقلة بالسودان في حوالي 1450م.

وإقليم (زيلع) الصومالي المعروف ايضا باسم (الطراز)، كان على اتصال وثيق بالتقاليد العلمية المعروفة في التلقي والاسناد، لاتصال الاقليم الوثيق بجواره اليمني والحجازي.ذلك بأننا نجد في فهرس شيوخ الحافظ شمس الدين الذهبي التركماني الدمشقي ت 1348م، جماعة ينسبون إلى زيلع وزبيد، وفيهم من اسمه غلام الله ايضا، كما نجد من بين تلامذته زيلعياً مشهوراً هو جمال الدين الزيلعي الحنفي ت 1361م صاحب (نصب الراية) في تخريج احاديث (الهداية) في الفقه الحنفي للبرهان الميرغيناني السمرقندي الاوزبكي الحنفي ت 1197م. ووفاة الذهبي كانت قبل قرن من التاريخ التقريبي لهجرة غلام الله بن عايد الزيلعي من اليمن إلى السودان، وأنَّ العلوم القرآنية والحديثية والفقهية للشيخ غلام الله بن عائد العقلي الزيلعي التي تلقاها السودانيون، كانت جارية على تلك التقاليد .

وبعد ذلك بجيل واحد أو جيلين، نجد الشيخ محموداً العركي في مطلع حكم الفونج مطالع القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، يدرس في الازهر الشريف، ولابد أنَّ رحلته تلك، لم تكن خارج تقليد أصبح شائعا في الرحلة لطلب العلم بالقاهرة والحرمين، ونرى شيخيه الشقيقين اللقانيين المالكيين الشاذليين شمس الدين ت 1528م وناصر الدين ت 1551م، درسا الفقه المالكي والتصوف الشاذلي على الفقيه العارف أحمد زروق البرنسي الفاسي دفين مصراتة الليبية 1493م. وعلى الناصر اللقاني درس محمد بن سلامة البنوفري المالكي ت 1589م، وعلى البنوفري درس الرعيل المتفقه المشهور أفراده من المشائخ السودانيين الكبار كابراهيم بن جابر، ومحمد بن سرحان الحاكمابي، وعبدالرحمن بن حمدتو البكري. ومع ذلك، لا نجد في كتب التراجم والفهارس المصرية وغيرها لمن ترجموا للبنوفري وأستاذه الناصر اللقاني، اسما من أسماء تلاميذهم السودانيين، بينما نجد أسماء معروفة لدينا من أقطار أخرى كتونس وتمبكتو، وورود اسم أحمد بن أحمد والد أحمد بابا التنبكتي الفقيه والمؤرخ والببليوغرافي المعروف المتوفى 1627م. فما الذي جعلهم يهملون سودانيين بالقرب منهم، ويثبتون الصنهاجي والشنقيطي والتواتي البعيدين. ولذلك نحمد للسيد الشريف الزبيدي صنيعه.

ردد المؤلف في عدة مواضع من كتابه، فكرةً عن تأثُّر الإصلاحيين الصوفيين في القرن الثامن عشر الميلادي وما تلاه، بالحركة الوهابية في نجد والجزيرة العربية. وترديد

المؤلف لهذه الفكرة ليس استطراداً عرضياً، وإنما يبدو لي أنه اهتمام قر في نفسه، مع ما يشي بركونه وتبنِّيه لهذه النظرة. وهذا الاتجاه ليس عند الدكتور خالد وحسب، بل عند طائفة واسعة من الباحثين العرب والمسلمين والاجانب، من بين أبرزهم الأكاديمي الأمريكي: جون فول الذي يبدو أن خالداً قد التقط منه هذه الفكرة.

ومضمون تلك الفكرة هو أنَّ سلسلة من الحركات الصوفية الاصلاحية التي ازدهرت في ذلك القرن والقرن الذي تلاه، قد تأثرت بحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي 1702 – 1793م في الجزيرة العربية. فكأن أولئك الباحثين قد عزوا ظهور وازدهار حركات إصلاحية ذات منشأصوفي، وبروز فقهاء إصلاحيين إحيائيين انطلاقاً من الحجاز خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، إلى التأثير الوهَّابي، وكأنَّ الوهابية هي التي فتحت طريق الإصلاح في العالم الإسلامي. وبنظري فإنَّ هذا الادعاء خاطئ. إن ما يبدو إصلاحا متأثرا بالسلفية في حركات إحيائية في مجتمعات صوفية، إنما هو في الواقع، محض رجوع إلى فترة الضبط الفقهية التي كانت لها السلطة المجتمعية قبل سيادة التصوف الطرقي، ومن ثم تطور الفكر الصوفي من منهجه الزهدي البسيط، إلى التصوف الفلسفي. إن سيادة الطرقية،إنما كان رداً وإحياءً حركياً فكرياُ، حينما عجزت الحركة الفقهية التقليدية إزاء التحديات، وملء الفراغ بين السلطة والمجتمع، وحين ضعف السلطة ازاء تحديات الخارج.

ولما سادت الطرقية وطال بها العهد بعد أداء ادوارها العظيمة، ومالت للجمود والانكفاء والانغماس في طلب السلطة والدنيا، برزت الإحيائية الفقهية لضبط التوازن، وإعادة المجتمعات للمسارات الطبيعية. وكان يقوم بهذا الاصلاح صوفيون فقهاء ذوو نظرة نافذة للازمات والانحرافات .

وإذا ما نظرنا إلى قلب اراضي العثمانيين قبل قرنين من مولد الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي في عام 1703 م، نجد ظهور حركة اصلاحية قادها الشيخ محمد علي البركوي (1523 - 1573) صاحب كتاب: (الطريقة المحمدية والسيرة الاحمدية)، وقدظهرت حركته الاصلاحية في أقوى عهد للعثمانيين، عهد سليمان القانوني. وأشهر شيوخ الاسلام فيها: أبو السعود أفندي، وبلغت حركته مبلغا أهَّله إلى قبول الشيخ ابي السعود محاججته، بل نال تأييد الصدر الاعظم صوقللو محمد باشا. دعا الشيخ البركوي إلى وقف دعم الطرق الصوفية ومنعها من تحصيل مال أوقافها، ومنع ما

أسماه بدعا، وعبادة للأضرحة. ورغم عدائه للتصوف، الا أن كثيرا من أعلام الصوفية راوا في كتابه (الطريقة المحمدية) في الزهد والرقائق نصا صوفياً راقيا، فاقبلوا عليه بالشرح والتعليق والتحشية، وأبرزهم الشيخ العارف عبد الغني النابلسي ت 1731م (الحديقة الندية شرحالطريقة المحمدية)، والعارف السمان، محمد بن عبدالكريم البكري المدني ت 1776م اختصره.

ثم ظهر تيار البركوي بقوة وفعالية في عهد السلطان مراد الرابع (1623 - 1640)، في عهد الشيخ قاضي زاده، حتى اكتسب اتباعه بحركتهم نسبة (قاضيزادلية) الذين انتشروا في اسطنبول واثرت دعوتهم في السلطان نفسه حيث تجاوزت دعوتهم وقف دعم الطرق الصوفية ووقف صرف ريع اوقافهم إلى اغلاق الزوايا والتكايا ومحاربة الظواهر المخالفة للشرع واغلاق المقاهي والخمارات ومنع التدخين ولعل صدى تلك الدعوات والمحاجات الفقهيةحولها، وصل إلى سودان وادي النيل فيما نعلمه من تناظر علمي بين الشيخ ادريس بن محمد الارباب، والشيخ علي الأجهوري الأزهري، واستدلال الأرباب بفتوى للسلطان مصطفى العثماني وبالجملة، فإن دورات المواجهة بين هذه الاتجاهات الإصلاحية والتصوف، قد ظلت متفاعلة سلفاً على مدى قرنين، قبل أن تنعقد نطفة الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي.

إن الإصلاح في المجتمعات الصوفية ذاتي المنشا في تقديرنا، وهو نابع من البيئات نفسها من مصلحين تخرجوا في السياق الصوفي ذاته، ولظروف حدت بهم إلى التصدي إلى تحديات داخل المجتمعات أو خارجية. وكلما كان الصوفي مرتبطا بالفقه وعلم العقيدة التقليدي والحديث وعلومه،فإنه يغلب على منهجه التصوف الزهدي، ويضمحل عنده التصوف الفلسفي ونظرياته.

يرى المؤلف تبعا لرؤيته في الاصلاح الصوفي، أن مؤلف السيد الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، (... يمثل تجليا وتجسيدا لثمرة الحراك الفكري، والتفاعل المعرفي الذي كان يمور به مجتمع العلماء بالحجاز منذ القرن السابع عشر، وخصوصا في بحر الثامن عشر الميلادي، وذلك على خلفية بروز شبكة لعلماء الحديث النبوي وكبار مسنديه آنئذ. ثم ازدادت ديناميكية ذلك الحراك، خاصة بعد ظهور حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهذا ما حدا بالزبيدي بوصفه أحد شهود ذلك الحراك إلى محاولة الاسهام بهذا الجهد الفكري، الذي يستهدف في نظرهم الانتقال

بالتصوف من دائرة محي الدين بن عربي والحلاج وعبدالكريم الجيلي ومن إليهم، إلى دائرة أبي القاسم الجنيد والغزالي وأضرابهم، أي إلى التصوف السني القائم على العقيدة الصحيحة، والتمسك بما يثبت من السنة المتواترة والاحاديث النبوية الصحيحة، مما مهد لظهور طائفة من الحركات الدينية والاصلاحية والطرق الصوفية التجديدية).

ومع استحضار ما ورد في هذا التقديم، مما أثبتناه من زيف الربط بين الوهابية والاصلاح الصوفي،إلا أن الملاحظة الكبرى على القول بجهود الوهابية والمصلحين الصوفيين ممن تاثر بها ومن لم يتأثر في الانتقال بالتصوف من الدائرة الرؤية (الأكبرية) اي دائرة الشيخ (الأكبر) محي الدين بن عربي ت 1240م، والذي تتجمع في دائرته رؤى من سبقه كالحسين بن منصور الحلاج ت 922م، ومن تلاه كعبد الكريم الجيلي ت 1418م، فضلا عمن عاصره كعمر بن الفارض ت 1234م. فالملاحظة الكبرى على رؤية المؤلف هذه، هي إنبعاثاالاكبريةباقوى مما كانت بعد الزبيدي بعد الوهابية، وشرح الزبيدي على إحياء الغزالي، وظهور الحركات الصوفية والدينية الاصلاحية.

والدليل على ذلك أنه قد تأسست في عصر الزبيدي، طرق جديدة تكاد تكون الفلسفة (الاكبرية) سمة جوهرية في فكرها وأدبها، كما التحقت طرق قديمة بالجديدة في التاثر بالمنهج (الأكبري) كالقادرية حنبلية الاصل جنيدية المنهج،والنقشبندية، والشاذلية التي كانت بدءاً،كانهابمفازة من التاثير (الأكبري) وإن لم يكونوا من أعدائه وخصومه، فقد حملوه ووجهوا ما أشكل من عباراته على حسن الظن، وفوضوا أمره إلى العلي القدير.

وبرز ذلك التأثر في مؤلفاتهم وتفاسيرهم وقصائدهم ودواوينهم الشعرية والنثرية وفي مقدمات موالدهم، وفي فهارس مشيخاتهم ذكروا اسانيدهم إلى الاكبرية متسلسلة بالشيوخ متصلة بالشيخ(الاكبر)، أو بروحانيته أويسية، أو في لقاء يقظة او رؤيا منامية

ويبدو للناظر في صفحات أدبيات الشاذلية عموماً، الاثر (الاكبري) في مصطلحاته ومفاهيمه ومصاديقها: (الحقيقة المحمدية)، (أولية النور المحمدي)، (الانسان الكامل)، (النفس الرحماني)، (الطور الرحماني)، (الختم)... الخ. كما ظهر الاثر (الاكبري) في أحزابهم واورادهم ومناجياتهم الالهية وصلواتهم النبوية .

تظهر (الاكبرية) في تفاسير اشارية صوفية عرفانية باطنية لاعلام عظام في الشاذلية والنقشبندية بعد عصر السيد الزبيدي اولها (البحر المديد في تفسير الكتاب المجيد)

للعارف الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني الشاذلي ت 1809م، ثم تفسير(روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني) لابي الثناء شهاب الدين الالوسي المجدديالنقشبندي ت 1881م، وليس ختما بتفسير (البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور)، وهو أيضا شاذلي من سند العربي محمد العربي الدرقاوي. وليس ببعيد عنا هنا عنوان الحكم الطيبية للشيخ أحمد الطيب البشير سماني الطريقة خلوتيها، وشرحه لحفيده الشيخ عبد المحمود بن نور الدائم: النفس الرحماني في الطور الانساني وهو عنوان (أكبري) بامتياز.

واذا كان الاقدمون من عهد الشيخ الأكبر وما تلاه في قصائدهم، يورون تورية في بثهم للمفاهيم في قصائدهم كوحدة الوجود، بعد مقدمات مطولة في عرض معقد يفهم ظاهره ويغمض باطنه كما نرى في تائية ابن الفارض الكبرى، وعينية عبدالكريم الجيلي، بينما تبوح تائيات المتأخرين في عصر الزبيدي وما بعده بسرها بدارا مبرزة تلك المفاهيم، مع جرأة صريحة في غير تعقيد، لأن الملأ الصوفي والعلمي أصبح معترفا بالنهج (الاكبري) بحيث إذا ما اختبر صوفية العصر لبيب تكشفوا له عن (أكبريين) في ثياب طرق شتى. ففي تائية محمد الحراق الشاذلي، وتائية محمد بن عبدالكبير الكتاني، وفي عينية السيد السمان، و عينيات عدة لتلميذه عبدالمحمود النوري في شرب كاسه تجد الاثر (الاكبري)، ومن السمانية سرى الاثر الاكبري فيمن يفترض أنه مصلح، ألا وهو تلميذهم الامام محمد أحمد المهدي الثائر والمصلح السوداني ت 1885م.

ولابد ان مشيخته السمانية وصلته بالتراث (الاكبري) فنجد في منشوراته استشهادا في تفسير الآية 182 من سورة (الأعراف) اقتباسا من ما يعرف بتفسير ابن عربي، كما استشهد بالباب 366 من الفتوحات المكية عن وزراء المهدي، كما انتشر كتاب ابن عربي (عنقاء مغرب في ختم الاولياء وشمس المغرب) بين مثقفي الانصار. كذلك نجد مناصراً للمهدي هو العالم الحسين ابراهيم الزهرا، يؤلف رسالة في نصرته ردا يستشهد فيها بنقل من شرح فصوص الحكم لابن عربي لمؤيد الدين الجندي ت 1300م. وقد التبس على مؤلف كتاب عنه: المرحوم أبي سليم، فظن أن مؤيد الدين الجندي هو صاحب مختصر خليل الملقب بالجندي.

الطريقة القادرية طالما شاع عنها سنيتها وحنبلية مؤسسها، ورغم تاثرهابالاكبرية منذ قرون سابقة للزبيدي، الا انه بعد عصر الزبيدي، نرى اهم أعلامها في القرن التاسع عشر الامير عبدالقادر الجزائري المجاهد المعروف ت 1883م، هو من أعاد إحياء

(الاكبرية) بتدريس نظرياتها وتأليف كتابه الاساسي في التصوف (المواقف الروحية والفيوضات السبوحية) المعروف ايضا بالمواقف في التصوف والوعظ والارشاد، وهو تحرير لدروسه في دمشق التي قضى فيها الثلث الاخير من عمره. وكانت تلك الدروس الصوفية يغلب عليها نظريات محي الدين بن عربي. وقدم الامير الجزائري الخدمة الكبرى (للاكبرية) بطباعته ونشره لاول طبعة محققة من الفتوحات المكية اتى بها من قونية بتركيا. والعجيب هنا ان الامير عبدالقادر الجزائري يسند نفسه إلى طريقة محي الدين بن عربي، اخذها عن والده عن الشريف مرتضى الزبيدي نفسه. ويذكر مرتضى الزبيدي سنده إلى الشيخ الاكبر محي الدين بن عربي في بعض كتبه منها (إتحاف الاصفياء برفع سلاسل الاولياء) و(عقد الجوهر الثمين في الذكر واللباس والتلقين).

وتبرز لنا مؤلفات قادرية اخرى نهلا من المعين (الأكبري) منها الكتاب المشهور: نعت البدايات وتوصيف النهايات للشيخ المصطفى ماء العينين بن محمد فاضل القلقمي ت 1910م. وأما الخلوتية التليدة والخلوتية الطارفة، فهي بنت (الاكبرية)، وأما التجانية فان (أكبريتها) فرع على أكبريةالخلوتية، وهلمَّ جرا.

وبالجملة، فلقد أعطانا الاخ الكريم الحبيب الدكتور خالد بسفره هذا، إعادة الاطلالة إلى عالم الفكر الاسلامي الرحب،وموقع سوداننا الحبيب منه.

الخليفة / مجاهد أحمد النور الزاكي التيجاني

أم درمان، أبو سِعد المربعات

جمادى الآخرة 1443هـ / يناير 2022م

المقدمة

هذا الكتاب الذي أود أن أضعه بين أيديكم حضرات القراء الكرام، هو في الأصل أطروحة علمية نلت بموجبها درجة الماجستير بامتياز في التاريخ والحمد لله، من جامعة الزعيم الأزهري بالسودان في شهر ديسمبر ٢٠٢٠م. جاءت تلك الرسالة الاكاديمية تحت هذا العنوان الطويل نوعاً ما: (تاريخ التواصل والرحلات والإجازات العلمية في سودان وادي النيّل في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي: الشريف مرتضى الزبيدي وتلاميذه أنموذجاً). وقد كان لي الشرف في أن كان المشرف على تلك الرسالة، هو المغفور له بإذن الله، البروفيسور علي صالح كرار، أستاذ التاريخ بعدد من الجامعات السودانية، والمدير العام الأسبق لدار الوثائق القومية بالخرطوم، ربما كواحدة من آخر الرسائل التي أشرف عليها قبل انتقاله إلى جوار ربه مأسوفا عليه، في الثامن عشر من شهر نوفمبر عام 2021م.

شهد مناقشة الرسالة إلى جانب المشرف عليها المرحوم البروفيسور علي صالح كرار، كل من الدكتور قسم السيد حمزة احمد، الأستاذ المساعد بجامعة الزعيم الأزهري مشرفاً مساعداً، والبروفيسور سيف الإسلام بدوي بشير، الأستاذ بجامعة النيلين ممتحناً خارجياً، والبروفيسور حاتم الصديق محمد أحمد، الأستاذ بجامعة الزعيم الأزهري ممتحناً داخليا. وأنا أنتهز هذه الفرصة لكي أجدد لهم جميعا أسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان، على ما وجدته من كل واحد منهم، من إرشاد وتوجيه ورعاية وحسن تعامل. بيد أنني أود أن أخص بجزيل الشكر والتقدير والعرفان، أستاذي البروفيسور حاتم الصديق محمد أحمد، مدير معهد الدراسات السودانية والدولية بجامعة الزعيم الأزهري حيئذ، على ما ظل يطوقني بها دائماً، من أياد بيضاء، وخدمات جليلة، بدءاً بتيسير أمر تسجيلي للتحضير للماجستير في معهدهم الفتي، وأخيراً وليس آخرا، بمساعدته الجمة لشخصي، في شأن طباعة هذا الكتاب ونشره، من ضمن منشورات مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر الذي يتولى إدارته حاليا. فالله وحده أسأل أن يجزيه عني خير الجزاء. كذلك يطيب لي أن أنتهز ذات السانحة، لكي أعرب عن صادق آيات شكري وامتناني وعرفاني، لجميع من

أعانني وساعدني بأي نوع من أنواع المساعدة خلال جميع مراحل إعداد الأطروحة، من كافة الاخوة والاصدقاء والمعارف من داخل السودان أو خارجه، وهم لعمري أناس كثيرون حقاً، يضيق المجال بالفعل عن ذكرهم بأسمائهم كافة. فلهم مني جميعا خالص الشكر والتقدير.

أما وقد وفقني الله تعالى إلى طبع هذه الرسالة ونشرها في شكل كتاب بالعنوان المختصر الحالي، والموفي بالغرض في ذات الوقت كما أظن، فإنه لا يسعني أيضاً - وبطبيعة الحال -إلاّ أن أتقدم بوافر الشكر والعرفان للاخوين الصديقين العالِمين: الدكتور الحاج سالم مصطفى، أستاذ علوم الوثائق والمكتبات والمحاضر حالياً بمركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية بجامعة ام درمان الاهلية، وللشيخ/ الشاب العلامة الخليفة مجاهد احمد النور الزاكي التجاني، على قبولهما بكل أريحية التقديم لهذا الكتاب، بتقديمين باذخين ضافيين،أضفيا على مادته رونقاً وبهاءً، ورفداه بإضافات علمية سديدة حقّاً، فجزاهم الله عني خير الجزاء..

وعلى سبيل التعريف الموجز بفحوى هذا الكتاب، فان الدراسة التي اشتمل عليها، تتناول جانباً مهماً من تاريخ النشاط العلمي والثقافي الذي شهدته بلاد سودان وادي النيل أو السودان الشرقي، خلال الحقبة التي سبقت الغزو التركي المصري للبلاد في عام 1820م.

وتركز الدراسة بالتحديد، على بيان الأثر العظيم الذي خلفه العالم الموسوعي المسلم الشهير الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلادي، الشريف محمد مرتضى الزبيدي، (1732– 1791م)، والذي ارتبطت شهرته على نحو خاص، بتأليف معجمه اللغوي الشهير: (تارج العروس من جواهر القاموس)، على حركة التعليم الإسلامي في السودان، وذلك عن طريق تسمية عدد من تلاميذه السودانيين، الذين إما أنه قابلهم كفاحاً ودرسهم مثافنةً، خلال فترة مكوثه بالقاهرة، ومنحهم إجازات منه بدروسه وأماليهم ومروياته مباشرةً، أو أنه أجازهم عن طريق الاستدعاء والمراسلة.

إن جل تلاميذ الشريف مرتضى الزبيدي السودانيين المعنيين هاهنا، مُتَرجَم لهم في الواقع، في متن كتابه المرموق، الذي دون فيه أسماء وتراجم أساتذته وتلاميذه الكثيرين المنتمين إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي في ذلك العصر، الموسوم ب(المعجم المُختص).

ومن أجل رسم الخلفية المناسبة، واستحضار السياق الملائم بالنسبة لهذا البحث، فقد عمدت الدراسة بإيجاز أيضاً، إلى تناول عمليتي انتشار العروبة والإسلام في سودان وادي النيل، فضلاً عن تاريخ التعليم فيه عموماً، وتاريخ التعليم الإسلامي فيه على وجه الخصوص، وذلك منذ مجئ الإسلام إلى البلاد.

وتقدم الدراسة - بطبيعة الحال – بعض المعلومات عن الشريف الزبيدي وزمنه، كما تقدم لمحة عامة عن الأوضاع التي كانت سائدة في العالم عموماً، وداخل العالم الإسلامي على وجه الخصوص في بحر القرن الثامن عشر الميلادي، الموافق للقرن الثاني عشر الهجري، مع إشارة خاصة لما قد كال عليه الحال في كل من مصر والسودان.

هذا، والله ولي التوفيق

خالد محمد فرح

باريس، أكتوبر 2023م

توطئـة منهجـية
أ. موضـوع البحـث

استـهـلال:

يطمح هذا البحث إلى التطرُّق إلى جانب مهم من تاريخ النشاط العلمي والفكري والثقافي الذي كان يمور به سودان القرن الثامن عشر الميلادي، الموافق للقرن الثاني عشر الهجري، كما يتمثل بصفة خاصة في حركة التواصل والرحلة من أجل طلب العلم، التي بادر إليها نفرٌ من الطلاب والفقهاء والعلماء وغيرهم من سالكي طرق التصوف من السودانيين، من أجل الاتصال بطائفة من كبار العلماء والفقهاء، وأعلام المتصوفة البارزين آنئذٍ، في عدد من أمصار العالم الإسلامي، بغرض التعرف على أولئك المشائخ الأعلام، والجلوس إليهم، بغية الاستزادة مما عندهم من المعارف والعلوم والأوراد والأسرار وهلمَّجرًّا.

ويسعى البحث بالتحديد، إلى تسليط الضوء على الأثر العلمي والفقهي للسيد الشريف محمد مرتضى الزبيدي 1732 – 1791م، الذي ارتبط اسمه بصفة خاصة عند سائر الناس بتأليفه لمعجمه اللغوي الشهير الموسوم ب (تاج العروس من جواهر القاموس). ويعُتبر الزبيدي واحداً من أساطين علوم التراث العربي والإسلامي بصفة عامة، تأليفاً، وتدريساً ومُدارسةً، وتحقيقا على نطاق العالم الإسلامي قاطبة في بحر القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي.

فهذا البحث يسعى إذن، للفت النظر بالتحديد إلى أثر إشعاع المرتضى الزبيدي العلمي والفقهي على سودان وادي النيل بصفة خاصة. على أن البحث قد يعرض أيضاً، لشذرات متفرقة حول أثر الزبيدي على المشهد العلمي والحياة العقلية في بضع أجزاء من بلاد السودان الأوسط خاصة، وبلاد السودان الغربي على نحو أقل، وذلك نسبة لما بين بلدان السودان الشرقي والأوسط والغربي، من تواصل وتواشج جغرافي وتاريخي وعلمي وثقافي، مثبت وغير منكور.

وسنعمد من خلال هذا البحث، إلى التوقف وقفات فاحصة، مع نبذٍ من تراجم جملة صالحة ممن تتلمذوا على يد المُرتضَى الزبيدي مباشرة، أو بصورة غير مباشرة

خصوصاً عبر الأسانيد المتقاربة، من السودانيين بالمعنيين الخاص: أي سودان وادي النيل، والعام: أي غيرهم من مواطني بلاد السودان الأوسط والغربي، وكذلك من حصلوا منه على إجازات لمؤلفاته ومروياته بالمراسلة.

ب. الأسباب التي حدت بالباحث لاختيار هذا الموضوع:

لقد استوقفت هذا الباحث في الواقع، حادثتان اثنتان خلال قراءاته العامة في تاريخ الدعوة والثقافة الإسلامية في السودان عموماً، ودفعتاه إلى التفكير وإمعان النظر والتنقيب، بغية التوسع في البحث عن نظائر وأشباه لتينك الحادثتين، وذلك باستبطان افتراضٍ مفعمٍ بالأمل في أن يجتمع له منها من خلال البحث والتنقيب، قدرٌ مناسب من المعطيات، التي ربما تصلح مادة كافية للدراسة من خلال أطروحة علمية معتبرة.

أما الحادثة الأولى، فقد وقف عليها الباحث عند قراءته في بعض المصادر التي تتحدث عن تاريخ الحركة العلمية والتربوية في السودان عموماً، وهي قول المرحوم الدكتور يحي محمد إبراهيم في كتابه: (تاريخ التعليم الديني في السودان (، نقلاً عن صفحة 469 من الجزء العاشر من معجم: (تاج العروس (للزبيدي، وذلك في معرض حديثه عن الحركة الثقافية والعلمية في سلطنة دار فور ما نصه:

(... ويشير المرتضى الزبيدي (ت1205م – هكذا ! وهو خطأ واضح في التأريخ وإنما الصحيح أنه توفي في عام 1205 للهجرة وليس للميلاد، والتي توافق عام 1791م – التعليق للباحث) في ذيل شرحه للقاموس المحيط للفيروزبادي إلى أن سلطان دار فور (لعله محمد الفضل) (وهذا التعليق الأخير هو للدكتور يحي نفسه، وفيه نظر سوف يعرض له الباحث لاحقاً إن شاء الله)، لما سمع بنبأ هذا الشرح وإتمامه، أرسل من يستنسخه ليكون من الذخائر النفيسة في مخطوطات خزائنه) [1]

على أننا قد وقفنا فيما بعد أيضاً، في كتاب (النفس اليماني والروح الريحاني)، لمؤلفه مفتي زبيد باليمن: (وجيه الدين عبدالرحمن بن سليمان الأهدل (1179 – 1250هـ)، الذي كان من تلاميذ العلامة مرتضى الزبيدي، على ما نصه في رسالة بخط الزبيدي نفسه أرسلها لوالد المؤلف، وهو الشيخ سليمان بن يحي مقبول

1. يحي محمد إبراهيم،تاريخ التعليمالديني في السودان، دار الجيل، بيروت، 1987م، ص 256

الأهدل (ت 1197هـ/1783م)، وقد عرض فيها لذات المعلومة الآنف ذكرها، ولكن بتوسع أكثر، وذلك على النحو التالي، والحديث للزبيدي: (ومما منَّ الله تعإلى عليَّ، أني كتبتُ على القاموس (يعني كتاب القاموس المحيط للفيروزبادي، وهذا الشرح من الباحث) شرحاً غريباً، في عشر مجلدات كوامل، جملتها خمسمائة كراس، مكثتُ مشتغلاً به أربعة عشر عاماً وشهرين، واشتهر أمره جدا، حتى استكتبه ملك الروم نسخةً (يعني السلطان العثماني بإسطنبول والشرح للباحث أيضا) وسلطان دار فور نسخة، وملك الغرب نسخة، ونسخة منها موجودة في وقف أمير اللواء محمد بيك بمصر(غالباً يقصد محمد بك أبو الدهب 1735 – 1775م -التعليق من الباحث)، بذل في تحصيله ألف ريال، وإلى الآن الطلب من ملوك الأطراف غير متناه .

واتفق أن جاءني كتاب من السيد العلامة فخر السادة الملوك الأشراف، مولانا السيد عبدالقادر الكوكباني، في صحبة فخر السادة الأشراف السيد علي الفتاوي، يطلب نسخة من الكتاب، فحصلت له الجزء الأخير منه، وهو مشتمل على شرح الواو والياء المُسمى: بالإعياء، إلى آخر الكتاب. وهذا العام قد توجه به السيد المذكور إلى بلاد اليمن، فإن سمح خاطركم (والخطاب موجه من الزبيدي إلى والد الأهدل كما هو واضح، والتعليق للباحث) بإرسال مكتوب إلى السيد عبدالقادر المشار إليه بتحصيله بالاستكتاب فلا بأس، وإن قدَّر الله الإرسال إليكم بشئ من أوله فعلتُ وسأفعل إن شاء الله تعإلى)[1].

أما خصوصية ذكر دار فور في هذا السياق بالذات، من دون سائر ممالك وسلطنات بلاد سودان وادي النيل التي كانت قائمة آنئذٍ، فإن من السائغ والموضوعي أيضاً تفسيره بالحقيقة التاريخية المتمثلة في قدم وعراقة الصلات التجارية بينها وبين مصر عن طريق القوافل التي كانت تسلك درب الأربعين، والتي ترجع على الأقل، إلى القرن السادس عشر الميلادي، الذي شهد أوج سيطرة ونفوذ سلطنة التُّنْجُر. ذلك بأنَّ بعض المصادر، تشير إلى أنَّ ذلك الطريق قد كان سالكاً ومطروقاً بالقوافل التجارية بصورة موثقة، على الأقل منذ عام 1573م، عندما كان بعض التجار والجلابة

1. وجيه الدين الأهدل،**النفس اليماني والروح الروحاني في إجازة القضُاة بني الشَّوكاني**، تحقيق عبد الله محمد الحُبْشِي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1433هـ - 2012م، صفحة 271

المصريين، يتاجرون عبره فيبيع الأسلحة مقايضةً بالذهب لسلاطين (أوُري) التي كانت هي عاصمة سلطنة التنُجُر.[1] وإلى ذلك، يذكر يحي محمد إبراهيم نقلاً عن مذكرة أبي سن عن دار فور ما نصه: (واشتهر السلطان تيراب (1752 – 1787م – هكذا! والذي عند نعوم شقير أنه حكم بين عامي 1768 – 1787م) بجلب الكتب من مصر وتونس، ويقال إنه بنى حوالي 99 مسجدا).[2]

ولكن الأمر الراجح عندنا أن الزبيدي، قد كان مُلمَّاً بقدر طيب من أخبار دار فور كما كان على دراية بحب سلاطينها للعلم والعلماء. وتفسير ذلك هو أنه كان له تلاميذ من دار فور بالتحديد، درسوا على يديه، وأخذوا عنه العلم كفاحاً كما سنرى لاحقاً وهو الأمر الذي يدفعنا إلى ترجيح أن يكون أحدهم أو جماعة منهم، قد أوعزوا عن طريق المراسلة مثلاً، أو مباشرةً إلى السلطان المعني في دارفور أيّاً كان ذلك السلطان وزينوا له فكرة اقتناء نسخة من كتاب (تاج العروس) للزبيدي، ذلك الكتاب الذي طار صيته في الآفاق آنئذٍ، وذلك أسوة بنظرائه من ملوك وسلاطين الممالك الإسلامية الآخرين، الذين حرصوا بدورهم على اقتناء نسخ من ذلك السفر النفيس.

ويجب ألاَّ ننسى في معرض استعراضنا لملابسات مجمل ذلك السياق التاريخي، أن السلطنة السودانية الكبيرة الأخرى، التي كانت نظيرةً لدار فور في المنعة والقوة والنفوذ والثراء، وخصوصاً في مجال نشر الإسلام وخدمة العلم والعلماء، ألا وهي مملكة الفونج، كانت قد دخلت في تلك الآونة من أواخر القرن الثامن عشر، في طور ملحوظ من الانحطاط والتدهور، وخصوصاً على المستويين السياسي والأمني الأمر الذي جعل عواهلها مشغولين عن مثل هذه الجوانب الفكرية والثقافية - على أهميتها -، بأولويات أخرى أكثر أهميةً وإلحاحا، كانت تقتضي في المقام الأولالمحافظة على بيضة السلطنة نفسها ووحدتها، وتأمين بسط سلطانها على جميع مكوناتها .

وأما الحادثة الأخرى ذات الصلة الوثيقة بهذا الموضوع تحديداً، مما وقف عليه الباحث، فتتمثل فيما أورده الراحل الأستاذ الدكتور عز الدين الأمين (1920 –

1. Yusuf Fadl Hasan, " The Fur Sultanate and the Long Distance Caravan Trade c. 1650 – 1850", in Yusuf Fadl Hasan & Paul Doornbos, (eds), **The Central Bilad al-Sudan: Tradition & Adaptation**, Tamaddon Printing Press, Khartoum, 1977, p 209

2. يحي محمد إبراهيم، تاريخ التعليم الديني في السودان، مرجع سبق ذكره، ص 237 – 238

2018م)، في كتابه بعنوان: (قرية كُترْانج وأثرها العلمي في السودان) : والذي ذكر فيه المؤلف ما نصه بالتحديد فيما نحن بصدده:

(إنَّ الإجازات العلمية التي بين أيدينا، تمثل إجازات الأزهر التي حصل عليها بعض علماء قرية كُترانج خلال العصر التركي، إذ لم نقف على الإجازات التي حصل عليها بعضهم في عصر الفونج من مثل ما حصل عليه الشيخ أحمد بن عيسى بن مضوي من أساتذته: الشيخ أحمد الدردير، والشيخ محمد الأمير، والشريف المرتضى الزبيدي والشيخ عبدالرحمن العريش، والشيخ عبدالله اللبان، والشيخ محمد الحفناوي والشيخ حسن الجداوي، والشيخ البيلي، والشيخ أحمد جاد الله، والشيخ محمد الصبَّان. فلقد ضاعت كل هذه الإجازات في فترة المهدية)[1].

وهكذا نرى البروفيسور عزالدين الأمين رحمه الله، وهو يذكر هاهنا ضمن أشياخ جدِّه الشيخ العلامَّة (أحمد ود عيسى)، الشريف المرتضى الزبيدي نفسه، من بين طائفة من مجايليه من شيوخ الأزهر الشريف، وعلمائه في تلك الحقبة.

فهاتان الحادثتان اللتان طرأتا للباحث، علاوة على وقوفه أيضاً في فترة لاحقة، على مجموعة من التراجم لعلماء من بلاد شنقيط، استخرجها الدكتور حماه الله ولد السالم، أستاذ التاريخ في كلية الآداب بجامعة نواكشوط بموريتانيا، من كتاب للشريف محمد مرتضى الزبيدي، أشار إليه بعنوان: (مُعجَم المشائخ)، وضمنها الدكتور ولد السالم في كتابه الموسوم ب: صحراء المُلَثَمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب)[2]، كل ذلك قوَّى من عزيمة الباحث وفتح شهيته، من أجل البحث عن كتاب (معجم المشائخ) المذكور هذا للزبيدي، بأمل العثور فيه على أسماء من عسى أن يكونوا مذكورين فيه من الأعلام السودانيين على وجه التحديد.

فكما استخرج الدكتور ولد السالم تراجم مواطنيه الموريتانيين، وغيرهم من جيرانهم منسكان بلاد السودان الغربي، ممن كانوا تلاميذَ للزبيدي وبعضهم شيوخٌ له، فلا أقل من أن يجتهد هذا الباحث أيضاً في التنقيب عن تراجم لعلماء سودانيين آخرين

1 عز الدين الأمين،**قرية كترانج وأثرها العلمي في السودان**، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، 1975، ص 65،6م

2 حماه الله ولد السالم،**صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخينالعرب**، دار الكتب العلمية، بيروت.

ربما يكونون قد تتلمذوا افتراضاً على يد ذلك العالم الذي كان ذائع الصيت في عصره سوى الشيخ أحمد ود عيسى الأنصاري الذي كنا قد وقفنا من قبل، على إشارة دالة على تتلمذه على يد الشريف الزبيدي، على نحو ما هو مثبت في كتاب البروفيسور عز الدين الأمين: (قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان) الذي سبقت الإشارة إليه.

ج. أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في تقديرنا، في كون أنه سوف يكون بحثاً غير مسبوق في بابه، من حيث أنه مكرسٌ بالكامل وحصراً، لبيان التأثير العلمي والفقهي لعالم وفقيه ولغوي مسلم مرموق (شريف هندي الأصل في الأساس)، من رجال القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، على الحياة العلمية والثقافية في السودان. ذلك بأنَّ جل الأدبيات والدراسات السابقة، التي تناولت تأثر السودان بالتيارات الثقافية والمعرفية الوافدة – إن لم يكن كلها – قد تركز في الواقع، حول دراسة التيارات الصوفية دون العلمية والفقهية.

والدليل على ذلك أنه لا يندر أن تجد أطروحة علمية، أو مطلق مصنف آخر بعينه مفرداً – على سبيل المثال – لدراسة أثر السيد أحمد بن إدريس الفاسي (1750 – 1837م) في السودان، على غرار كتاب الدكتور يحي محمد إبراهيم الموسوم ب (مدرسة أحمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان) الذي أحصى فيه الدكتور يحي ما عدتهم ثلاثة عشر عالماً متصوفاً سودانياً تتلمذوا تتلمذا مباشراً على يد السيد أحمد بن إدريس وصاروا خلفاء له، ينشرون علمه وأوراده في الآفاق، إلى جانب العشرات من (التابعين) الذين سلكوا على يد أولئك التلاميذ المباشرين، أو لأثر الشيخ محمد بن عبدالكريم السمان المدني (1719 – 1775م)، كمثل كتاب الشيخ عبدالمحمود نور الدائم (1845 – 1915م) المسمى: (أزاهير الرياض) وكذلك كتاب الشيخ البروفيسور حسن الفاتح قريب الله (1940 – 2005م) بعنوان: (السمانية في سطور)، أو كتاب الصحافي الرائد،والسالك التجاني، الراحل الأستاذ الفاتح النور بعنوان: (التجانية والمستقبل)، الذي اشتمل على قدرٍ وافٍ من المعلومات عن تأثير الشيخ أحمد بن محمد المختار التجاني (1737 – 1815م) وطريقته على السودان وانتشارها بين ربوعه. بينما لا نكاد نجد في المقابل – في حدود ما نعلم -، دراسة

علمية، أو أي مصنف آخر بعينه، يتناول أثر عالم لغوي، أو أديب، أو فقيه مسلم أجنبي يعود تاريخه إلى تلك الفترة، على المشهد العلمي والفقهي والأدبي داخل السودان، بصورة منهجية دائبة ومستفيضة، على نحو ما نأمل أن نقوم به من خلال هذه الدراسة، عبر نموذج العلامة المرتضى الزبيدي وتلاميذه السودانيين، المباشرين منهم وغير المباشرين .

د .أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف التي يمكن ان نجُملها في الآتي:

1. تسليط الضوء على تاريخ التعليم والحركة العلمية والفكرية في سودان القرن الثامن عشر الميلادي، وإبراز دور وحضور وإسهام العلماء والفقهاء والمتصوفة والطلاب والمريدين والسالكين السودانيين، في إطار مجمل مشهد الحراك العلمي والثقافي والفكري الذي كان سائداً عصرئذٍ في العالم الإسلامي، وذلك من خلال اصطفاء نموذج محدد، يتمثل في محاولة استقصاء أسماء ولُمَع من سير تلاميذ العلامة الشريف المرتضى الزبيدي (1732 – 1791م)، من السودانيين الذين تلقوا العلم والإرشاد على يديه، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

2. كذلك يهدف البحث إلى مقاربة علاقة العلماء والفقهاء والمتصوفة السودانيين بصفة عامة، بتأليف ذلك النمط من المصنفات ذات الصلة بالأسانيد وطرائق اتصال الروايات، وذلك من قبيل ما يندرج في عداد ما يسمى بالأثبات والمعاجم والمشيخات والبرامج والفهارس والمشيخات.

3. محاولة تصويب واستدراك وتحقيق بعض المعلومات والبيانات ذات الصلة بعدد من المسائل التي عرضت لها الدراسة، والتي وردت خصوصاً في بعض المراجع الثانوية.

4. محاولة كشف النقاب عن حركة التواصل العلمي والفقهي والصوفيوإلقاءبعض الأضواء على طائفة من الأعلام من الأجانب والسودانيين، الذين لعبوا أدواراًبارزة في ذلك الحراك والتواصل العلمي والصوفي، دون أن يكون لهم ذكر مشهودأومرصود على نحوٍ كافٍ فيما بين أيدينا من المصادر .

5. إبراز جهود بعض العلماء والمتصوفة السودانيين في التأليف في مجال تدوين

أسانيدهم العلمية والصوفية، ولُمَع من سير وتراجم مشائخهم، أسُوة بنظرائهم في سائر أرجاء العالم الإسلامي.

6. وأخيراً، يهدف البحث إلى إبراز مكانة السودان والسودانيين من حركة البعث الصوفي السني التجديدي التي انتظمت مشرق العالم الإسلامي في بحر القرن الثامن عشر الميلادي، وحتى مطالع القرن التاسع عشر، وهو لعمري ذات القرن الذي عاش فيه العلامَّة المرتضَى الزبيدي، وتأثر حتماً ببيئته ورموزه وأجوائه العلمية بصفة عامة، حيث سيتعرض الباحث بالمناقشة والتحليل وشئ من الاستدراك لطائفة من الأدبيات ذات الصلة بتلك الموجة التجديدية، وخصائصها،وملابساتها، ورموزها وعلاقتهم بالسودان على وجه التحديد.

هـ. مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتمحور إشكالية هذا البحث، حول رصد ودراسة وتحليل الوقائع والأحداث التاريخية ذات الصلة تحديداً، بالنشاط الفكري والعلمي والفقهي والثقافي، الذي كان يذخر به سودان القرن الثامن عشر الميلادي. ذلك القرن الذي شهد على الصعيد السياسي فيما يلي بلاد سودان وادي النيل، أفول نجم عشيرة الفونج كطبقة مؤسِّسة وحاكمة لسلطنة سنار، في الوقت الذي شهد فيه في المقابل صعود نجم وزرائهم (الهمَج) ابتداءً من زعيمهم الشيخ (محمد أبو لكيلك) ومن خلفوه من أبنائه وأحفاده، حتى انتهاء حكمهم تحت سنابك جيش إسماعيل باشا بن محمد علي باشا، التي غزت بلاد السودان وضمتها عنوة إلى أراضي امبراطوريتها، وبسطت سيطرتها عليها في عام 1821م.

وقد كانت الأوضاع السياسية في مصر التي كان الزبيدي قد هاجر إليها من اليمن والحجاز، واتخذها موطنا له، وأقام بها إلى أن توفاه الله ودُفن فيها في عام 1205هـ/1791م، في حالة مشابهة من الاضطراب والفوضى لتلك التي كانت سائدة في السودان نفسه، حيثضَعُف سلطان المماليك، وارتخت قبضتهم على حكم البلاد بسبب ما وقع بينهم منانقسامات وحروب داخلية، فضلاً عن تمرد العربان في أطراف الدولة، وهو الأمر الذي أغرى نابليون بونابرت باجتياح مصر في نهاية المطاف، فيما عرف بالحملة الفرنسية في عام 1798م، على نحو ما يرد تفصيله باستفاضة في تاريخ الجبرتي الذي كان معاصراً لتلك الأحداث والتطورات جميعها.

أما على الصعيد الديني والروحي، فقد شهدت ذات الفترة، بروز موجة جديدة مما درج نفر من الباحثين على تسميته بالتصوف العلمي السني التجديدي، الذي جعل ينتظم مشرق العالم الإسلامي حينئذٍ، بما في ذلك سودان وادي النيل، وذلك على نحو ما تمثل في عدد من الحركات الدينية، والطرق الصوفية الجديدة مثل الحركة الوهابية السلفية، ثم الطريقة الإدريسية وما تفرع منها من طرق مثل: السنوسية والختمية والرشيدية والإسماعيلية، كما شهدت ذات الفترة أو بعدها بقليل، ظهور طرق صوفية جديدة أخرى، وثيقة تلك الصلة بتلك الموجة التجديدية الإحيائية، كان من أهمها وأبرزها على وجه الخصوص، الطريقتان: السَمَّانية والتجانية.

وأما فيما يتعلق بالإشكالية الأساسية لهذه الدراسة، فإنها سوف تسعى إلى عرض وإبراز وتحليل جملة من البيانات والمعلومات ذات الصلة، التي من شأنها أن تساعد على استكمال وتوضيح مجمل صورة مشهد التواصل العلمي والفقهي والصوفي الذي كان وما يزال متواصلاً لعدة قرون، بين السودان وجواره الإسلامي في كلا العالمين العربي والإفريقي، وهو الذي يقع بينهما موقع واسطة العقد، بل يمثل بينهما دور حلقة الوصل بامتياز. فمن بين تلك التساؤلات في هذا الجانب على سبيل المثال:

- هل هنالك رصد وتوثيق وتدوين لمعلومات وبيانات خطية أوسير وروايات شفهية قد تكون موجودة أومحفوظة في مكان ما في السودان، عن بعض الأعلام الذين درسوا على يد الزبيدي، بخلاف ما خطه هو بنفسه عنهم في كتابه (المعجم المُختص) مثل بعض أعضاء أسرة آل عيسى بن بشارة الأنصاري بكترانج، والشيخ حسن بن عبدالرحمن بن صالح بن بانقا بن الشيخ عبدالرازق أبوقرون، الذين لهم أيضاً ترجمات وافية في بعض المصادر الأخرى مثل: طبقات ودضيف الله، ومنظومة الذيل والتكملة للشيخ إبراهيم عبدالدافع، وكتاب إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري لمحمد عبدالمجيد السراج، وكتاب قرية كترانج وأثرها العلمي في السودان للأستاذ الدكتور عزالدين الأمين؟. وهل هناك على وجه الخصوص، رصد وتدوين لسير وتراث تلاميذ الزبيدي من دار فور بالتحديد؟. ذلك بأننا قد لاحظنا أن كلا المصادر الخطية والشفوية تذكر أسماء معينة لعلماء من دارفور درسوا بالأزهر، ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا العلم فيها، مثل: الشيخ حسين ود عماري، والشيخ عبدالرحمن كاكوم على سبيل المثال، ولكن سنلاحظ أن تلاميذ الزبيدي الدارفوريين قد طواهم النسيان فيما يبدو .

وكذلك يحق لنا أن نتساءل أيضا: هل كان للزبيدي تلاميذ سودانيون آخرون ربما يكونون قد اتصلوا به في أثناء فترة إقامته بمصر أو في الحجاز، ومن هم يا ترُى ؟. ذلك بأن الحجاز والأراضي المقدسة على وجه التحديد، قد كانت دائماً وأبدا، مقصد سائر المسلمين في السودان، ومهوى نفوسهم التي يتوقون لزيارتها لأداء المناسك والمجاورة فيها دوما. هذا، خصوصاً لأن المصادر تفيدنا على سبيل المثال بأن الشيخ جبريل بن عمر الطارقي، وهو أستاذ العلم الشهير الشيخ عثمان دان فوديو (1754– 1817م) قد كان من تلاميذ الزبيدي ودرس عليه في الحجاز بالتحديد، وحصل منه على إجازة بمروياته. ولا شك بالطبع في متانة الصلة الروحية والعلمية، بل والاجتماعية التي ظلت تربط بين الشيخ عثمان بن فودة وآله ببلاد سودان وادي النيل.

ح. نطاق البحث وحدوده:

يشمل الحيِّز المكاني لهذا البحث، سودان وادي النيل، أو السودان الشرقي في المقام الأول، وقد يتعداه قليلاً على سبيل التوسع، بسبب التماثل والتداخل والتواصل الوثيق، لكي يلامس أطرافاً مما يسمى ببلاد السودان الأوسط أيضا، بل السودان الغربي بدرجة أقل.

وأما الحيز الزماني للبحث، فكما يظهر من عنوانه، هو بحر القرن الثامن عشر الميلادي، الموافق للقرن الثاني عشر الهجري، وهو ذات القرن الذي وُلد فيه السيد محمد مرتضى الزبيدي في عام 1144هـ/1732م، كما توفي فيه أيضاً في سنة 1205هـ/1791م.

على أنَّ مقتضيات وضع موضوع البحث في سياقه، قد تحتم على الباحث العودة إلىالوراء لعدة قرون سابقة لعصر الزبيدي، أو تجاوز عصره، وذلك بغية التوقف وقفات فاحصة من أجل استجلاء تأثير هذا العالم وإشعاعه على الحركة العلمية في السودان خلال الحقب اللاحقة.

خ. منهج البحث:

سوف يتبع الباحث إن شاء الله تعالى، المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي، القائم في الأساس، على القراءة الفاحصة والمتأنِية، والملاحظة المتأمِّلة، فمحاولة التفسير، ومن ثمَّ الاستنتاج. وسوف يعتمد الباحث مقاربة بنيوية متعددة ومتكاملة المشارب والمداخل تمتاح من سائر حقول العلوم الإنسانية، متى ما كان ذلك ملائماً ومفيداً في استجلاء الحقيقة التاريخية.

د. الدراسات والأدبيات السابقة:

لم تقع بين يدي الباحث، بل لم يقرأ أو يسمع عرضاً في الواقع، عن وجود أي مصنف علمي يعالج موضوع هذه الدراسة بالتحديد، ألا وهو علاقة العالم الموسوعي الشهير، الشريف محمد مرتضى الزبيدي بالسودان بصفة عامة، وبالحياة العلمية والفكرية فيه على وجه الخصوص، ناهيك عن حقيقة وجود جماعة مستفيضة من أبناء هذا البلد الذين تتلمذوا على يديه، وحصل بعضهم منه على إجازات بأماليه ومروياته ومؤلفاته، فيما عدا الإشارتين الفريديتين حقاً اللتين ذكرناهما من قبل، وهما طلب أحد سلاطين الفور إعداد نسخة خاصة به من المعجم اللغوي الشهير للزبيدي المسمى: (تاج العروس)، ثم الإشارة الأخرى التي أوردها الأستاذ عز الدين الأمين في كتابه: (قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان)، والتي ذكر في معرضها أن الشيخ (أحمد بن عيسى بن مضوي الأنصاري (1150هـ/1737م - 1241هـ/1826م)، قد درس على أيدي طائفة من جهابذة العلماء في مصر، وحصل منهم على إجازات، وأنَّ العلامة محمد مرتضى الزبيدي كان أحد أولئك العلماء الذين جلس إليهم الشيخ أحمد ود عيسى، ونال منه إجازةأسُوة ببقية من ذكرهم من أولئك العلماء الأجلاء. [1]

على أنَّ هنالك بالفعل، بعض الكتب المصدرية، والمراجع الثانوية التي اطلع عليها الباحث، والتي أشارت باقتضاب لصلة الشريف مرتضى الزبيدي بالسودان وتتلمُذ بضعة أفذاذ قليلين من السودانيين على يديه. نذكر منها هنا على سبيل المثال: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمحمد النور ولد ضيف الله، وكتاب: مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة التركية في السودان لأحمد بن الحاج أبوعلي، وكتاب: الذيل والتكملة من نظم الشيخ إبراهيم عبدالدافع وشرح الشيخ أحمد السلاوي، وكتاب: إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري للأستاذ محمد عبدالمجيد السرَّاج، إلى جانب مرجعين مهمين آخرين في هذا الباب هما: كتاب تاريخ التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية التي قامت عليها للدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد، وكتاب: تاريخ التعليم الديني في السودان للدكتور يحي محمد إبراهيم .

1. عزالدين الأمين،**قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان**، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، 1975، ص 65

غير أن الباحث قد اعتمد في إعداد هذه الدراسة بصفة أساسية، على كتاب مصدري عمدة هو كتاب: المُعجم المختص لمحمد مرتضى الزبيدي، الذي أثبت فيه هو بنفسه أسماء ولمع من سير من تتلمذ عليه من السودانيين، أو حصلوا منه على إجازات .

هذا بالإضافة إلى جملة من المراجع الأخرى ذات الصلة مثل كتاب الأكاديمي الألماني البروفيسور استيفانريخموت بالإنجليزية بعنوان: (عالم مرتضى الزبيدي 1791-1732م: حياته وشبكة علاقاته وكتاباته)، فضلاً عن مُصنَّف سوداني جديد صدر مؤخراً هو كتاب: العلماء السناريون وأثرهم الخارجي في العلم والإرشاد، من تأليف المدني محمد التوم. وهنالك عدد آخر من الكتب المصدرية والمراجع الثانوية التي سوف يعرض لها الباحث بشيء من التفصيل والمقاربة النقدية، عند حديثه عن مصادر هذه الدراسة ومراجعها.

ط. صعوبات البحث ومعوقاته:

لا شكَّ في أنَّ أول وأبرز صعوبة تعترض سبيل من يحاول مقاربة موضوع جديد وغير مطروق مثل هذا الموضوع، الذي تجشمنا خوض غماره، هو ندُرة المصادر والمراجع، وشح البيانات والمعلومات ذات الصلة بهذا الموضوع تحديداً، بصفة عامة. فهو إذن في تقديرنا، حقل بحثي أنُف، وعر المسالك، ونادر المعالم الهادية، ولا يلوح للعيان من أجل بلوغ غايته، طريق سالكٌ ومُعبدَّ، يمكِّنُ من السير فيه بسهولة ويسر.

ذلك بأنَّ هذا المبحث، هو أدخل في مجال التاريخ الاجتماعي والثقافي للسودان، منه في مجال التاريخ السياسي الذي ظل يحظى بجل التركيز والاهتمام البحثي والتوثيقي منذ عقود، وتوفرت عنه بالتالي، مادة غزيرة ومتنوعة، أكثر من سابقه بمراحل.

ي .أهم مصادر البحث ومراجعه:

اعتمدت هذه الدراسة على جملة من المصادر الأولية المتمثلة في عدد من الكتب المصدرية، والوثائق، والمخطوطات التي عثر عليها الباحث إما منشورة في بعض الكتب أو المراجع المصدرية والمراجع الثانوية، أو حصل على بعضها بصورة مباشرة. كما اعتمد أيضاً على طائفة معتبرة من المواد ذات الصلة المنشورة إما في كتب مصدرية أو مراجع أخرى، أو دوريات، أو صحف، أومضابط مؤتمرات علمية، أو مواقع الكترونية بالشبكة العنكبوتية، إو إفادات شخصية من أنُاس ذوي معرفة واطلاع بالمباحث التي تطرقت إليها الدراسة.

أولاً: المصادر:

1. يأتي في مقدمة المصادر الأولية التي اعتمد عليها هذا البحث، كتاب: (المُعجم المُخْتص)، الذي يعُرف أيضاً ب (معجم المشايخ) للحافظ محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ /1791م)، وهو المصدر الذي اعتمدنا عليه بصفة أساسية في التعرف على طائفة من الأعلام السودانيين الذين تتلمذوا على الشريف المرتضى الزبيدي، خصوصاً إبان فترة إقامته بمصر، وحصل نفر منهم على إجازات منه على نحو ما هو مثبت في هذاالمصدر الأساسي.

2. كتاب: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودانلمحمد النور بن ضيف الله(1727 – 1810م)، بوصفه مصدرا أساسياً لا غنى عنه لبيان مجمل خصائص وملامح الحياة الفكرية والعقلية والتعليمية بالسودان منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي وحتى خواتيم القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر الميلاديين .

3. كتاب: تاريخ ملوك السودان (مخطوطة كاتب الشونة) لمؤلفه أحمد بن الحاج أبوعلي، تحقيق الشاطر بصيلي عبدالجليل 1961م، ثم تحقيق البروفيسور يوسف فضل حسن 2018م، وهو مصدر أساسي لإلقاء الضوء على البيئة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية التي كانت سائدة بصفة عامة خصوصا في سودان القرن الثامن عشر، الذي يمثل الحيز الزمني الرئيسي بالنسبة للدراسة .

4- كتاب: الذيل والتكملةلطبقات ود ضيف الله، نظم إبراهيم عبدالدافع، شرح الشيخ أحمد السلاوي، تحقيق يوسف فضل حسن ومحمد إبراهيم أبوسليم.

5. كتاب: عجائب الأثار في التراجم والأخبار، تأليف عبدالرحمن الجبرتي (تاريخ الجبرتي).

6. كتاب: قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان تأليف البروفيسور عزالدين الأمين

7. كتاب: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات تأليف الشيخ عبدالحي بن عبدالكبير الكتاني المغربي.

8. كتاب: النفس اليماني والروح الروحاني في إجازة القضُاة بني الشوكاني، لمؤلفه وجيه الدين عبد الرحمن بن سليمان الأهدل اليمني الزبيدي.

9. كتاب: أزاهير الرياض للشيخ عبدالمحمود ود نور الدائم.

10. كتاب: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (أي الهجري)، تأليف محمد خليل المُرادي، أيضا في بيان عالم الجبرتي وبيئته ومعاصريه في مختلف أصقاع العالم الإسلامي.

ثانياً: أهم المراجع باللغة العربية:

1. كتاب: التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية التي قامت عليها، للدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد .

2. كتاب: تاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبدالمجيد عابدين.

3. كتاب: تاريخ التعليم الديني في السودان للدكتور يحي محمد إبراهيم.

4. كتاب: التحولات الفكرية في العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر: أعلام وكتب وحركات وأفكار، تحرير الدكتور عليان الجالودي.

5. كتاب: أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري، مؤلفه مجهول، وهو من تحقيق وتعليق الدكتور محمد التونجي.

6. كتاب: الأعلام لخير الدين الزركلي.

7. كتاب: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، للسلطان الشيخ محمد بلو بن الشيخ عثمان دان فوديو.

8- كتاب: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تأليف الشيخ محمد بن محمد مخلوف.

9. كتاب: سر الأسرار ونور الأنوار الجامع لأسانيد وأثبات الأخيار، تأليف الشيخ الطيب مونة بن سعيد، أحد خريجي وعلماء معهد أم درمان العلمي(1901 – 1995م)، مؤسس ومدير معهد الأبيض العلمي.

10. كتاب: صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، تأيف الدكتور حماه الله ولد السالم.

أهم المراجع بلغات أخرى:

1- Yusuf Fadl Hasan, The Arabs and the Sudan

2- Ali Salih Karrar, The Sufi Brotherhoods in the Sudan

3- J. Spaulding & R.S. O`Fahey, Kingdoms of the Sudan

4- Stefan Reichmut, The World of Murtada Al Zabidi, 1732-91, Life, Network and Writings, Gibb Memorial

5- Muslim Identity and Social Change in Sub-Saharan Africa, edited by Louis Brenner

6- Yusuf Fadl Hasan, (ed), Sudan in Africa, Khartoum University Press, 1985

7- The Central Bilad al-Sudan: Tradition & Adaptation (eds), Yusuf Fadl Hasan & Paul Doornbos, Tamaddon Printing Press, Khartoum, 1977

8- Neil McHugh, Holy Men of the Blue Nile, Northwestern University Press, 1974

9- El Sufismo y las normas del Islam (ed) Alfonso Carmona, Murcia, Spain, 2006

10- John O. VOLL, (Hadith Scholars and Tariqahs : An UlamaGroup in the 18th Century Haramayn and their Impact in theIslamic World), an article published in the Journal of Asian and African Studies, Volume 15 (3-4), January 1980

هذا، وعلى سبيل الاستعراض الموجز، والمناقشة المقتضبة لما جاء في عدد من المصادر والمراجع حول موضوع الدراسة، نود أن نبدأ بمناقشة ما ورد في بعض تلك المصادر عن الاجازات التي منحها الشريف مرتضى الزبيدي لنفر من تلاميذه السودانيين، وخصوصاً لتلميذه الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري، وعبره بالاستدعاء لعدد من تلاميذه الآخرين بالسودان، وتلك المصادر المعنية في هذا السياق هي كل من كتاب: الذيل والتكملة من نظم الشيخ إبراهيم عبد الدافع وشرح الشيخ أحمد السلاوي المغربي، وكتاب: قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان للبروفيسور عز الدين الأمين،

وكتاب: إرشاد الساريلتراجم آل عيسى الأنصاري لمحمد عبد المجيد السرَّاج، وكتاب: تاريخ التربية في السودان للدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد .

فقد لاحظنا - على سبيل المثال - بعض الاختلافات بين المصادر، في بيان تاريخ ميلادوتاريخ وفاة الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري. فمحمد عبد المجيد السراج، الذي ترجمللشيخ أحمد ترجمة وافية في كتابه (إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري)، يقول إنه قد وُلد في عام 1134هـ التي توافق سنة 1717م ، وأنه توُفي في عام 1239هـ الموافقة للعام 1824م[1]، بينما يتفق عزالدين الأمين مع السراج في تاريخ الميلاد أي سنة 1134هـ ولكنه يخالفه في تاريخ الوفاة، فينقل من مخطوطة كاتب الشونة لأحمد بن الحاج أبو علي، أنه قد توُفي في عام 1241هـ التي توافق العام 1826م. وفي الحالين يكون عمره حين وافته المنية قد أربى على المائة عاما .

أما نحن، فإننا نميل إلى الاعتقاد في صحة التقدير الأول لتاريخ ميلاد هذا الشيخ كما هو مثبت في النسخة التي بين أيدينا من كتاب (الذيل والتكملة)، وهو عام 1150هـ/1737م، وكذلك تأريخ وفاته الذي تذكر سائر المصادر أنها حدثت في عام 1241هـ/1826م، ولم يشذ عنها إلا محمد عبدالمجيد السراج الذي زعم أن الشيخ أحمد ود عيسى قد توفي في عام 1239هـ/1824م، وربما كان ذلك سهواً أو توهما منه، ليس إلاَّ. أما التقدير الذي نميل نحن إليه، والذي يجعل عمره حين وفاته حوالي 89 عاماً ميلادياً، والتي تزيد عن التسعين عاماً هجرياً بنحو عام أو عامين، فإنه يتوافق بالضبط مع ما ذهب إليه الشيخ السلاوي في ترجمته للشيخ أحمد ود عيسى من أنه قد تجاوز التسعين من عمره، رغم أنَّ نسخة كتاب (الذيل والتكملة) التي بين أيدينا، مكتوب فيها خطأ - والراجح أنه خطأ مطبعي - أنه (قد جاوز السبعين.. رحمه الله).[2]

أما كتاب: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، لمؤلفه محمد النور ود ضيف الله، فعلى الرغم من اشتماله على أسماء عدد كبير من العلماء والفقهاء والمتصوفة، المنتشرين في آفاق العالم الإسلامي وخصوصاً ممن

1. محمد عبد المجيد السراج، **إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري**، منشورات سنار عاصمة للثقافة الإسلامية، سنار ص 18

2. كتاب: **الذيل والتكملة**، نظم إبراهيم عبد الدافع، شرح الشيخ أحمد السلاوي، تحقيق يوسف فضل حسن ومحمد إبراهيم أبو سليم، ص103.

كانت لهم صلة ما بالسودان، وبشيوخ التصوف وسالكي طرقه وطلاب العلم فيه، إلا أنه لم يردفيه ذكر للمرتضى الزبيدي إلا مرةً واحدة عرضاً في معرض ترجمته للشيخ (حسن بنعبد الرحمن بن صالح بن بانقا بن الشيخ عبد الرازق أبو قرون .

ومهما يكن من شئ، فإن تلك الإشارة الخاطفة للزبيدي في كتاب الطبقات هي في تقديرنا، إشارة مهمة للغاية وذات دلالة خاصة، فضلاً عن أنها تعضد ما ورد في غيرها من المصادر، وعلى رأسها كتاب (المعجم المختص) للزبيدي، عن حقيقة تتلمذ الشيخ حسن بن عبد الرحمن بن صالح ولد بانقا، تلمذة غير مباشرة عليه، وحصوله منه على إجازة لمروياته صحبة تلميذه المباشر الشيخ أحمد ود عيسى الأنصاري. وفيما يلي نص ترجمة الشيخ حسن ود بانقا كما وردت في طبقات ود ضيف الله:

(الشيخ حسن بن عبدالرحمن بن صالح ولد بانقا: وُلد بالثلاثاء يوم عاشوراء سنة تسعة وخمسين ومائة وألف (1746م) وقرأ القرآن على الفقيه حمد ولد أبي راس والفقيه علي، والفقيه بشير والفقيه مقبول ابني عثمان علامة: أعني (مختصر خليل) و(الرسالة) على الفقيه عبدالهادي بن إسماعيل بن الفقيه الزين، والفقيه محمد الخنَّاقي، (وألفية ابن مالك) على الفقيه حمد بن الفقيه نواوي تلميذ الفقيه حسن سكيكرة، والفقيه أحمد بن عيسى الأنصاري، والفقيه عبدالقادر ود التويم. واستجاز كتب الحديث ومصطلحها بالمكاتبة صحبة الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري وغيره عن الشيخ أحمد الدرديري، والشيخ محمد الأمير، والشيخ الشريف المرتضى.... سلك الطريقة القادرية البهارية اليعقوبية على والده)[1].

أما لماذا لم يسترسل ود ضيف الله في التعريف بمحمد مرتضى الزبيدي، أو يثبت خصوصا لقبه هذا الذي هو به أعرف أعني: (الزبيدي)، فربما لأنَّ هذا الأخير، كان مشهوراً ومعروفاً بما فيه الكفاية بالنسبة لمعاصريه وهو الراجح، أو ربما كان ذلك بسبب المعاصرة بينه وبين ودضيف الله نفسه الذي وُلد في عام 1727م، أي قبل الزبيدي بنحو خمسة أعوام فقط، وقد قيل إن المعاصرة حجاب. وهي لعمري ذات الحجة التي يسوقها بعض الباحثين أحياناً، في معرض تعليلهم إغفال ود ضيف الله

1. محمد النور ولد ضيف الله، **الطبقات في خصوص الأولياءوالصالحين والعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق البروفيسور يوسف فضل حسن، الطبعة الثانية، 1974م، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص 189- 190

ترجمة الشيخ أحمد ود عيسى الأنصاري نفسه، وهو علم معاصر له، وكذلك إغفاله ترجمة الشيخ أحمد الطيبالبشير مؤسس الطريقة السمانية في السودان (1742 – 1824م)وهو علمٌ بارزٌ معاصرٌ آخر له أيضاً، على علو كعبهما، وذيوع صيتهما.

أما كتاب الدكتور يحي محمد إبراهيم رحمه الله، بعنوان: (تاريخ التعليم الديني في السودان)، الذي صدر عن دار الجيل ببيروت في عام 1987م، والذي عمد المؤلف إلى اختصار مادته، فضمنها في كتيب أصغر منه حجماً نشره تحت عنوان: (دراسات سودانية في التربية والثقافة)، الذي صدر عن دار ومكتبة الهلال ببيروت أيضاً في العام 1995م، وذلك بعد أن أضاف إليه بعض المباحث والفصول التي كان قد نشرها من قبل في كتابه الموسوم ب (مدرسة أحمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان)، إلى جانب مقالات له أخرى كان قد نشرها من قبل في فترات مختلفة، فعلاوة على أن هذا الباحث قد عثر فيه خصوصاً على المعلومة المتعلقة بطلب أحد سلاطين الفور من الشريف مرتضى الزبيدي، أن يزوده بنسخة مستنسخة من سفره القيم (تاج العروس)، وهي لعمري المعلومة التي قدحت في ذهنه فكرة هذا البحث، فلقد ألفى هذا المرجع أيضاً، أعني ذلك الذي هو بعنوان: (تاريخ التعليم الديني في السودان)، مرجعاً غزير المادة، ومتنوع المصادر والمراجع وطرائق استخلاص البيانات، فضلاً عن أنه حسن التبويب، وسلس الأسلوب. وقد أفاد منه الباحث كثيراً خصوصاً فيما يتعلق بأدبيات حقل التربية والتعليم في التراث الإسلامي عموماً، وعلى نحو أخص فيما يتعلق بعالم الأسانيد والإجازات، وما يرتبط بها من مصطلحات فنية شديدة الخصوصية والدلالات، فضلا عن إشاراته لعناوين أمهات المصادر والمراجع ذات الصلة بهذه المجالات .

وفي كتاب الدكتور يحي محمد إبراهيم (تاريخ التعليم الديني في السودان)، إشارة مهمة ومفيدة حقاً، فضلاً عن أنها وثيقة الصلة بموضوع بحثنا من وجه ما من الوجوه، على نحو ما سوف نعرض له لاحقا. فقد نقل يحي محمد إبراهيم عن (علي أبي سن) في مذكرته الشهيرة عن دار فور، ما مفاده أن السلطان تيراب: (حكم 1752 – 1787م)، كان شغوفاً باقتناء الكتب، وأنه كان يبعث بمن يشتريها له من مصر وتونس.[1]

1. يحي محمد إبراهيم،**تاريخ التعليم الديني في السودان**، دار الجيل بيروت، ص 237 - 238.

وفي تقديرنا الخاص، أنَّ وضع المؤلف رحمه الله آنذاك، مسؤولاً كبيراً بدار الوثائقالقومية بالسودان، قد يسَّر له بكل تأكيد، أمر الإطلاع على محفوظات تلك الدار وأتاح له أيضا التواصل مع القائمين على دُور حفظ الوثائق الأخرى في مصر وغيرها، وقد مكنه كل ذلك بالتأكيد، من الاطلاع على الكثير من المخطوطات ذات الصلة، التي لم تحقق أو تتطبع أو تنشر بعد للأسف. ومن الأدلة الواضحة على ذلك – على سبيل المثال – المقال الضافي والعمدة في بابه الذي نشره الدكتور يحي تحت عنوان: (المخطوط السوداني: النشأة، والتطوُّر والوضع الراهن)، بالعدد الثالث عشر من مجلة (دراسات إفريقية)، الذي صدر عن مركز البحوث والترجمة بجامعة إفريقيا العالمية، في شهر يونيو 1995م.

وقد استوقفت هذا الباحث من بين تلك الكنوز التي وقف عليها الدكتور يحي، بصفة خاصة تلك المادة الغزيرة والمتنوعة، وعالية القيمة للغاية، التي تشتمل عليها المخطوطات والأوراق المحفوظة باسم المؤرخ (الشعبي)، الشيخ محمد عبد الرحيم رحمه الله .

هذا، وإن كانت لنا من مآخذ طفيفة خصوصاً على الكتيب الصغير للدكتور يحي محمد إبراهيم بعنوان: (دراسات سودانية في التربية والثقافة)، فإننا قد لاحظنا عليه كثرة الأخطاء الطباعية، الناجمة في الغالب ربما، عن عدم فهم الطابع أو الراقن للفظ المعني أحياناً، خاصةً إذا كان من العامية السودانية. فمثلاً كلمة (الحيران) بالحاء المهملة والياء الممالة وهي جمع (حوار)، وهمتلاميد مدرسة تعليم القرآن، أوما تعُرف ب (المسيد) أو (الخلوة) في السودان، أو (الكُتَّاب) كما تعرف في بلاد عربية أخرى، رأيناها ترُسم باضطراد هكذا: (الجيران) بالجيم المنقوطة .

كذلك لاحظنا أن المؤلف أدخل كردفان وأعلامها وشيوخها في نطاق نفس الفصل الذي عنوانه: (جذور التعليم الإسلامي في دار فور)، ولم يجعل لكردفان فصلاً منفصلا لوحدها، وهي قمينة به بكل تأكيد. أو كان عليه أن يعنون ذلك الفصل ببساطة: (جذور التعليم الإسلامي في غرب السودان) مثلاً، حتى يزول الخلط والالتباس.

كما لاحظنا أن المؤلف قد كرر نفس الخطأ في تعيين تاريخ وفاة الزبيدي الذي وقع فيه (سهواً غالبا)، في صفحة 256 من كتابه (تاريخ التعليم الديني في السودان)حيث كتب هناك أن الوفاة قد حدثت في عام 1205ميلادية، وذلك غير صحيح وإنما الصحيح هو أنها حدثت في عام 1205 هجرية الموافق لعام 1791 ميلادية، فإذا بنفس الخطأ يظهر

مرة أخرى في صفحة 103 من كتيبه بعنوان: (دراسات سودانية في التربية والثقافة).

أما افتراض المؤلف الدكتور يحي أن يكون السلطان الدارفوري الذي طلب نسخة من معجم (تاج العروس) هو السلطان (محمد الفضل) ترجيحاً منه، فإنه ترجيحٌ مُستبعد في نظرنا. ذلك بأن الزبيدي نفسه قد نصَّ على أنه قد فرغ من تأليف كتابه المومى إليه بجميع أجزائه في عام 1188هـ الموافقة لسنة 1774م [1]، وهذا التاريخ يوافق تقريبا السنة السادسة أو السابعة لحكم السلطان تيراب، الذي تولى الحكم بحسب نعوم شقير بين عامي 1181هـ/1768 و1201هـ/1787م، أو السنة الثانية والعشرين من حكمه الذي امتدَّ - بحسب معظم المصادر - منذ عام 1752م، وحتى عام 1789م وهو الراجح.

هذا، ومما يعضد ما ذهبنا إليه من افتراض أن يكون السلطان تيراب هو الذي طلب نسخة من كتاب (تاج العروس) للزبيدي، ما سبقت الإشارة إليه من قبل من حقيقة شغفه باقتناء الكتب، وإرساله الرسل لكي يشتروها له من مصر وتونس.[2]

ولعل أقوى الأدلة على أن السلطان المعني هو (محمد تيراب)، هو أن الزبيدي قد ذكره بالاسم في كتابه (المعجم المختص)، وذلك في معرض إشارته إلى أن أحد تلاميذه الذين درسوا عليه العلم في مصر، أصله من دار فور، وأنه كان من زمرة حاشية السلطان تيراب، سلطان دار فور، كما سيرد ذلك لاحقاً في قائمة طلاب الزبيدي السودانيين.

هنالك مُصنفَّ بعينه، شدَّ عنوانه انتباه الباحث، واجتذبه اجتذاباً شديداً للغاية لأول وهلة، حتى توهم أنه جديرٌ حقَّاً بأن يبُوأ موقعاً متقدماً ضمن النخبة الأولى من المصادر الأساسية لهذا البحث. إنه كتاب بعنوان: (الأزهر الشريف والسودانيون في العصرالمملوكي 2)، من تأليف (محمد عبدالعظيم الخولي)، وهو صادر عن مكتبة الثقافة الدينية بدون تاريخ .

إنَّ هذا الكتاب، ذا العنوان الجاذب الذي يوشك أن يكون خادعاً ومُضللاً نوعاً ما،هو مبذول لحسن الحظ على شبكة الانترنت، ولكن صفحاته غير مرقمة للأسف. وقد عثر

---

1. زُهير ظاظا، مقال عن كتاب تاج العروس للزبيدي، منشور بموقع الورَّاق الالكتروني على الانترنت www.zaza@alwarraq.com
2. يحي محمد إبراهيم، **جذور التعليم الديني في السودان**، مرجع سبق ذكره، ص 237 - 238

عليه الباحث هناك عرضاً، أثناء بحثه وتنقيبه عن المواد الملائمة وذات الصلة ببحثه

أما وصفنا لعنوان هذا الكتاب بأنه خادع ومضلل، فلعلنا لا نكون مغالين فيه. ذلك بأن الصفة (سودانيين) خاصةً في الوقت الراهن، ينبغي ألا تنصرف إلا للدلالة على سكان السودان الحالي، الذي يعُرف في الدوائر الأكاديمية ، وخصوصاً بين علماء التاريخ ودارسيه ب (سودان وادي النيل)، أو (بلاد السودان الشرقي) .

ولكننا لما بلونا هذا المُصنفَّ، وقلبنا صفحاته جميعها، ونحن نظن أن تحت القبة شيخاً واصلاً كما يقول المثل الشعبي، ألفيناه في الواقع، يرمي إلى المعنى القديم لمصطلح (بلاد السودان)، كما كان يعرفها الجغرافيون والمؤرخون العرب في القرون الوسطى. أي تلك المساحة الشاسعة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، والتي تمتد من لدن سواحل المحيط الأطلسي غرباً، وحتى تخوم البلدان المطلة على المحيط الهندي شرقا، مثل الصومال وزنزبار، وما بينهما من سلطنات وكيانات إسلامية أخرى في بلاد التكرور، ومالي، وكانم برنو، وباغرمي، وودّاي، والجبرتة، والحبشة، وزيلع وغيرها .

على أن هذا الكتاب، لم يخلُ مطلقاً - مع ذلك - من الإشارة إلى بعض الأعلام السودانيين، أو ذوي الصلة بالسودان الحالي .

فقد ذكر المؤلف من ضمن من ترجم لهم: الشيخ محمد بن علي بن قرم الكيماني المصري الشافعي، الذي قال عنه: (ذهب إلى بلاد السودان الشرقي، ودخل إقليم سنار، ثم توطَّن بربر، وبنى له مسجداً صار مركز اً لتعليم الفقه الشافعي)..[1]

ثم ذكر فيه أيضاً الشيخ محمد بن محمد أكداوي بن الشيخ محمد المضوي، الذي أخذ علم الكلام والفقه والنحو من جده المصري .. الخ، ويبدو أنه قد نقل هذه المعلومة من الترجمة المثبتة عن هذا الشيخ في طبقات ود ضيف الله .

وكذلك ذكر المؤلف الشيخ الخطيب عبدالرحمن بن حمدتو، الذي (تفقه على يد الشيخ البنوفري، فأجاز له بالتدريس، وقد عاد لبلاد السودان الشرقي، لينشر علمه بين طلابه،

1. محمد عبدالعظيم الخولي، **الأزهر الشريف والسودانيون في العصرالمملوكي 2**، نسخة الكترونية، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، وبدون ترقيم للصفحات

وقد نبغ فيهم الشيخ عبد الله الأغبش الذي كان من زهاد العلماء وكبار الصالحين)[1].

ولعل اصطفاء المؤلف - الذي نرجِح مجرد ترجيح، أن يكون مصري الجنسية - لهؤلاء الشيوخ (السودانيين) الثلاثة دون غيرهم، من الجائز تفسيره بأن اثنين منهم من أصول مصرية، بينما تفقه ثالثهم في مصر على يد عالم مصري كبير، هو الشيخ البنوفري.

والحق أن المؤلف لم يقتصر في تراجمه على أولئك النفر الثلاثة المذكورين من المشائخ والعلماء وطلاب العلم السودانيين فحسب، وإنما أشار إشارات خاطفة أخرى كذلك، أيضاً نقلا عن طبقات ود ضيف الله كما يرد في ثبت مراجعه، إلى بضعة أعلام آخرين مثل: الشيخ العجمي بن حسونة، وأخيه الأكثر شهرةً منه: الشيخ حسن ود حسونة، والشيخ عبدالله العركي، والشيخ عمارة بن شايقي، والشيخ الجنيد بن طه، والشيخ عبداللطيف بن الخطيب عمَّار. [2]

ومهما يكن من أمر في ختام تقويمنا لهذا المصنَّف، فإن هذه الملاحظات التي أوردناها حول مادته، خصوصاً من زاوية صلته المباشرة بموضوع بحثنا، لا تقدح ولا تقلل البتة من قيمته كمصدر مهم لتراجم طائفة كبيرة من علماء بلدان إفريقيا المسلمة والذين يعنينا أمر نفر منهم بلا أدنى شك ولو وجزئياً، فيما نحن بصدده من هذا البحث.

أما بالنسبة للمراجع ذات الصلة، من تأليف الباحثين والأكاديميين الغربيين التي عرضت لهذا الموضوع بصفة خاصة، فلعل من أبرزها وأشملها إحاطة – على الأقل - بإطاره النظري والمعرفي العام، هو كتاب الأستاذ الجامعي الألماني البروفيسور (استيفانرايخمُوت (Stefan Reichmuth بعنوان: (عالَم مُرتضَى الزبيدي 1732

1791م: حياته، وشبكة علاقاته، وكتاباته.) [3]

على أننا قد لاحظنا أن هذا المؤلف، رغم أنه قد ذكر خبر طلب سلطان دارفور من العلامة مرتضى الزبيدي، من ضمن عواهل آخرين من أقطار العالم الإسلامي، تزويده

1. محمد عبدالعظيم الخولي، **الأزهر الشريف والسودانيون في العصر المملوكي 2**، مكتبة الثقافة الدينية، نسخة الكترونية، بدون تاريخ صدور وبدون ترقيم للصفحات.
2. نفس المرجع أعلاه
3. Stefan Reichmut, **The World of Murtada Al Zabidi, 1732-91, Life, Network and Writings**, Gibb Memorial Trust, 2009.

بنسخة من معجمه الشهير: تاج العروس من جواهر القاموس، فضلاً عن أنه قد أفرد فقرة بارزة في كتابه، للحديث عن طائفة من أعلام بلاد المغرب العربي وإفريقيا جنوب الصحراء، الذين زاروا الزبيدي بمصر، وتتلمذوا عليه، وأخذوا عنه الإجازات.[1] وقد ذكر المؤلف من أولئك الأعلام بالإسم، كلاً من الشيخ صالح الفلُانَّي (1752 – 1803م)، والشيخ جبريل بن عمر الأغاديسي الذي توُفي بعد عام 1785م بحسب تقدير ذات المؤلف، إلا أننا لاحظنا أنه قد أشار إشارات عجلى وغير استقصائية إلى تراجم تلاميذ الزبيدي من بلاد السودان الشرقي، وذلك على الرغم من أنه قد أفرد للبعض منهم فقرة معتبرة بعنوان: c) Eastern Sudan: Darfur, Sinnar[2]

ولعل أبرز ما جاء به ريخموت في كتابه هذا في هذا الباب وأجدره بالاحتفاء في تقديرنا، هي إشارته الفريدة حقاً لعالم سوداني مجهول من تلاميذ الزبيدي، لم يذكره الزبيدي نفسه في معجمه، كما أن المصادر السودانية ذاتها قد غفلت عنه، ولكن مصدرا شامياً قد وثقَّ له توثيقاً ضافياً.

وذلك العالم السوداني الجوَّالة المغمور، الذي جسَّد في تقديرنا، معاني الجد والاجتهاد في طلب العلم والاسترشاد، وجوب الآفاق، وادراع المخاطر من أجل تحصيلهما، هو الشيخ أحمد بن عبدالله بن سالم بن إدريس السناري، الذي كان تلميذا للعلامة أحمد بن عيسى الأنصاري (ت 1826م) بالسودان، وللشريف مرتضى الزبيدي بمصر أيضا.[3]

وأما المصدر الشامي الذي وردت فيه ترجمة ذلك الشيخ السوداني غير المعروف على نطاق واسع، وفقاً لما جاء في رواية ريخموت فهو كتاب: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبدالرزاق البيطار (ت 1335 ه).

ومن المصادفات العجيبة التي حدثت في الوقت الذي كان فيه هذا الباحث في المرحلة الختامية تماماً من كتابة البحث ومراجعة نصه وتبييضه، أن صدر كتابٌ ذو صلة واشجة حقاً بموضوع الرسالة، بعنوان: العلماء السناريون وأثرهم الخارجي في العلم والإرشاد،

1. Stefan Reichmut, Ibid, pp. 63 - 64.

2. Ibid, pp. 194 – .691

3. tefan Reichmut, **The World of Murtada Al Zabidi, 1732-91, Life, Network and Writings**, Gibb Memorial Trust, 2009 p.196.

من تأليف المدني محمد التوم، وقد صدر حديثاً في عام 2019م. وقد استعرض مؤلف هذا الكتاب بالفعل، تراجم لبعض الأعلام السودانيين الذين تتلمذوا على المرتضى الزبيدي،مقتبساً إياها من كتاب المعجم المختص للزبيدي، ولم يستقصها جميعها استقصاءً تحقيقياً ونقدياً شاملاً، على نحو ما سوف يعرض له الباحث هاهنا أيضاً بتوسع حصري، مشفوع بخلفية إطارية تاريخية مفصلة في هذه الدراسة، في الوقت الذي تناول فيه مؤلف الكتاب المشار إليه هذه المسألة فقط من باب إيراد الشواهد والبينات على البعد الخارجي لعطاء وتفاعل العلماء السودانيين بصفة عامة. وهذا الكتاب المعني، كما يظهر لنا – على الأقل - من خلال الموضوعات المدرجة في فهرسه، يمثل بكل تأكيد، إضافةً جيدة في بابه، في مجال التاريخ الفكري والثقافي في السودان عموما، وما يلي منه به باب الرحلة العلمية، والتواصل المعرفي الخارجي خصوصا.[1]

ك .هيكل البحث:

يتكون هيكل هذا البحث، بعد صفحات العنوان، والآية الكريمة، ثم الإهداء، وبعده الشكر والعرفان، يتكون من مقدمة وخمسة أبواب على النحو التالي، علماً بأن كل فصل سوف يضم جملة من المطالب أوالمباحث التي سوف يأتي تفصيلها في مواضعها، اضطراداً مع محتويات الدراسة بأكملها:

1- المقدمة، وتضم الآتي:

أ. توطئة: موضوع الدراسة

ب.أسباباختيار الموضوع

ە. أهمية البحث

د. أهداف البحث

هـ. مشكلة البحث وتساؤلاته

و. نطاق البحث وحدوده

1. المدني محمد التوم،**العلماء السناريون وأثرهم الخارجي في العلم والإرشاد**، الخرطوم، 2019م، انظر تحت الفصل الرابع: الطلبة السناريون الذين أجازهم الحافظ الزبيدي.

ز. منهج البحث

و. الدراسات والأدبيات السابقة

ط. صعوبات البحث ومعوقاته

ي. أهم مصادر البحث ومراجعه.

2- الباب الأول: التعليم الديني في السودان قبل القرن الثامن عشر:
وسيحاول الباحث من خلال هذا الباب تتبعٌ واستقصاء مظاهر التعليم الديني في السودان إلى أقدم تاريخ ممكن قبل عصر الزبيدي، ألا وهو القرن الثامن عشر الميلادي، مع تركيز خاص على الفترة التي حظيت بتدوين وتوثيق ملحوظين، ألا وهي فترة حكم السلطنة السنارية1504 – 1821م، كما سوف يحتوي الفصل على إشارات إلى رحلات بعض السودانيين من أجل طلب العلم ونشره كذلك خلال ذات الفترة، فضلا عن استقبال السودان لطائفة من العلماء والفقهاء والمتصوفة في أرضه لذات الغرض .

3- الباب الثاني: الأوضاع العامة في القرن الثامن عشر داخلياً وخارجيا:
يسعى الباحث من خلال هذا الباب، إلى تقديم ملمح عام موجز عن القرن الثامن عشر الميلادي ومجرياته وخصائصه، وانعكاساتها بصفة خاصة على السودان وجواره الإقليمي العربي والإسلامي، ثم بقية العالم من حوله، سياسياً، واستراتيجياً وعسكرياً، واقتصاديا، وثقافيا، وعلميا. وسيتوسع فيه الباحث في مناقشة علاقة السودان بموجة البعث الإسلامي التجديدي والإصلاحي التي ظهرت في ذلك القرن وخصوصاً ما اصطلح على تسميتها بحركة التصوف السني التجديدي وملامحها ورموزها، ممثلة في الحركة الوهابية، والدعوة الإدريسية وما تفرع منها من طرق أخرى، إلى جانب الطريقتين السمانية والتجانية.

4- الباب الثالث: الأسانيد والإجازات العلمية والصوفية قديماً وحديثا:
وفي هذا الباب، يعطي الباحث ملمحاً عاماً عن تقاليد الأسانيد والإجازات وما يتصل بها عموماً من أدبيات ومصطلحات في الثقافة العربية الإسلامية بصفة عامة، كما سوف يحاول استقصاء موقع السودان والسودانيين في هذا المضمار .

5- الباب الرابع: المرتضى الزبيدي: سيرته، وبيئته، وعصره، ورموزه

وسيركز هذا الباب بطبيعة الحال على التعريف بالعلامة محمد مرتضى الزبيدي، متتبعاً سيرته منذ مولده ببلاد الهند الإسلامية، ثم رحيله عنها إلى زبيد باليمن واستيطانها حتى نسُب إليها، مما سيقودنا إلى الحديث قليلا عن مدينة زبيد ومكانتها كحاضرة من حواضر العلم والفقه والتصوف في العالم الإسلامي من قبل وصول العلامة المرتضى إليها ببضعة قرون. ومن ثم سيتطرق الباحث إلى بيئة الزبيدي وعصره ورموزه، على نحو ما قدمها لنا هو نفسه من خلال مؤلفاته العديدة، وكذلك بالرجوع إلى المصادر التاريخية المعاصرة له، وذلك على غرار كتاب: (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)، الذي يعد من أشهر المصنفات في تاريخ القرن الثامن عشر في المشرق الإسلامي، لمؤلفه عبد الرحمن الجبرتي، الذي كان هو نفسه أحد تلاميذ الشريف مرتضى الزبيدي .

6- الباب الخامس: تلاميذ المرتضى الزبيدي من السودانيين

وهذا الباب هو بيت القصيد حقاً في هذه الدراسة، إذ سوف يعرض الباحث من خلاله قائمة بأسماء نفر صالح من الأعلام السودانيين الذين تتلمذوا على يد العلامة المرتضى الزبيدي، ونال بعضهم إجازات منه بمروياته إما مباشرة، أو عن طريق المراسلة. وسوف نركز في المقام الأول على السودانيين بالمعنى الحديث والشائع حالياً أي مواطني جمهورية السودان بحدودها المعروفة الآن، ثم نضيف إليهم على سبيل التوسع ولاعتبارات الصلات والوشائج الخاصة، أسماء بعض الأعلام من بلاد وسط وغرب إفريقيا المسلمة، مع أعطاء بعض الشذرات والنبذ القليلة عن سيرهم، متى ما كان ذلك متاحاً ومتوفرا.

7- الخاتمة:

أ. النتائج

ب. التوصيات

8- ثبت المصادر والمراجع

9- الملاحق

الباب الأول

التعليم الديني في السودان قبل القرن الثامن عشر الميلادي

البـــــاب الأول
التعليم الديني في السودان قبل القرن الثامن عشر الميلادي

الفصل الأول
لمحة عن تاريخ التعليم الديني في السودان

المبحث الأول
توطئة: نبذة موجزة عن علاقة السودان بدنيا التعليم والكتابة عموما

من الأمور الثابتة التي لا خلاف حولها بين سائر الباحثين، أن بلاد سودان وادي النيل، قد عرفت التعليم والكتابة منذ عصور ما قبل الميلاد، وأن السودانيين قد استخدموا في ذلك عدداً معتبراً من اللغات وشفرات الكتابة عبر حقبهم المختلفة. ومما يشهد على ذلك، ما خلفَّه أسلافهم من نقوش خطية على جدران آثارهم الكثيرة والمنتشرة، خصوصاً على طول وادي النيل في بلاد النوبة السودانية، التي ما تزال تذخر آثارها بكميات هائلة من النقوش الكتابية، وبلغات وخطوط متعددة، تتراوح ما بين اللغة المصرية القديمة بخطها الهيروغليفي، فضلاً عن عدد من اللغات والخطوط الأخرى مثل المروية، والإغريقية، والنوبية، والقبطية، والعربية.

وبعد التحول الكبير الذي شهده السودان بسبب انتشار الإسلام واللغة العربية بين ربوعه، صار جل التعليم مركّزاً على هذين المعطيين الجديدين، اللذين بدءا يتسربان معاً في بطء وتدرج إلى داخل البلاد، عقب انبلاج فجر الدعوة الإسلامية مباشرة، أي منذ القرن السابع الميلادي، ثم تسارعت وتيرتهما بصفة خاصة، على إثر انهيار مملكة المقُرَّة النوبية في عام 1317م، وتدفق موجات الهجرات العربية نحو بلاد السودان الشرقي بكميات كبيرة، على نحو أثر تأثيراً مباشراً في إعادة تشكيل هويتها الثقافية والحضارية العامة .

على أنَّ مما يجدر التنبيه إليه في هذا الباب، أنَّ بعض البينات المتوفرة سلفاً، فضلاً عن الحس السليم وقرائن الأحوال، تتظاهر جميعها على ترجيح أن يكون التعليم العربي والإسلامي في السودان، قد كان سابقاً في أوانه، لقيام الكيانات السياسية التي

حكمت في البلاد تحت راية الإسلام، مثل سلطنات الفونج، وتقلي، والفور والمسبعات.

كذلك تنبغي الإشارة أيضاً، إلى حقيقة تاريخية أخرى مهمة، وذات صلة وثيقة بهذا الأمر، ألا وهي أن بضع ممالك وإمارات وكيانات بشرية إسلامية ومستعربة، كانت قد نشأت بالفعل في بعض أطراف السودان الشمالية والشرقية خاصة، وذلك قبل قيام السلطنات الكبرى في البلاد بقرون. فقد كانت هنالك – على سبيل المثال – إمارة الكنوز في الشمال، وإمارة عبد الله بن عبد الحميد العمري، وممالك الدجن والخاسةوالبلو في شرق السودان، فضلاً عن مملكة التنُجُر الإسلامية في أقصى غرب السودان أو دارفور الحالية. وقد ساعد قيام تلك الكيانات الإسلامية والمستعربة بكل تأكيد، على تعزيز الثقافة العربية والإسلامية، والتعليم العربي والإسلامي في البلاد كما ساعد على توطيد أركان الوجود البشري العربي والإسلامي، مما أدى عبر عملية تراكمية استغرقت زمناً طويلاً، إلى تكثيف الضغط على مملكة (علوة (المسيحية مما تسبب في سقوطها لاحقاً، وقيام سلطنة الفونج، وهي كبرى ورائدة السلطنات الإسلامية التي نشأت تباعا في بلاد سودان وادي النيل، وعملت بهمة ونشاط على تعزيز الثقافة الإسلامية في البلاد، بما في ذلك تشجيعها للحركة العلمية، والنشاط والتبادل الثقافي والمعرفي مع سائر بقاع العالم الإسلامي، وهو الموضوع الذي عليه مدار البحث الحالي.

المبحث الثاني
أثر دخول الإسلام في السودان على واقعه التعليمي

لعل من نافلة القول أن نقرر في بداية مقاربتنا لهذا المبحث، أن التربية والتعليم مهما اختلفت صورهما ومظاهرهما، يكونان حيث يكون هنالك مجتمع بشري مستقر بصفة عامة. فهما يعتمدان في تكريسهما ونقلهما إلى النشء، على وسيلة التلقين والمشافهة حيث لا تكون هنالك كتابة، بينما يستندان إلى الكتابة والخط في حال توفر هذين الأخيرين على نحو يقل أو يكثر .

ولا مُعوَل بطبيعة الحال على نوعية النظام السياسي السائد أو توجهه الحضاري العام في البلد المعني، خصوصاً إذا تميز ذلك النظام، بالحد الأدنى من درجات الانفتاح والتسامح مع مختلف رعاياه وخياراتهم الثقافية والعقدية، وإن كنا لا ننكر دور النظام السياسي ووجهته العامة في تشجيع نمط ومحتوى التعليم .

نخلص من ذلك إلى افتراض أن يكون التعليم الديني، وخصوصاً بلغته العربية الغالبة التي ارتبط بها، حتى لكأنهما وجهان لعملة واحدة، من المحتمل أن يكون قد ظل سائداً داخل أصقاع سودان وادي النيل المختلفة بصورة ما من الصور، منذ أن عرفت هذه البلاد بواكير إشعاعات فجر الدعوة الإسلامية، والوجود البشري العربي أوالمستعرب في ربوعها، ولم ينتظر قيام ما نسميه بالكيانات الإسلامية الكبرى مثل سلطنات الفونج، وتقلي، والمسبعات، ودارفور، والتي تضافرت مجتمعة لاحقاً كما هو معروف على الانطلاق بالمجتمع السوداني نحو وجهة حضارية وسياسية جديدة مفارقة لما كانت عليه الأوضاع في سودان القرون الوسطى وما قبلها .

ونحن لا ننكر بالطبع، طبيعة ونوعية العناصر البشرية التي شكلت جل العرب والمستعربين الذين هاجروا إلى السودان، والذين لاحظ نفر من المؤرخين، ومن أبرزهم البروفيسور يوسف فضل حسن، أن معظمهم قد كانوا من البدو الأميين أوشبه الأميين غالباً، والتجار قليلي الاهتمام عموماً بالعلم والتعليم، وتأثير ذلك على

الواقع التعليمي فيالسودان خلال الحقبة التي سبقت قيام السلطنات الإسلامية الكبرى.[1]

ولكن ذلك لا يمثل بالضرورة، دليلاً قاطعاً على أنَّ تلك المجموعات من البدو الأميين والتجار اللامبالين، لم تشمل كذلك نفراً ولو قليلاً من المتعلمين المتدينين والمتفقهين إلى درجة تقل أو تكثر، وأصحاب الرسالة المتحمسين لتربية النشء وتعليمهم مبادئ لغتهم العربية وعقيدتهم، وتبصير العامة بامور دينهم وفقه عباداتهم ومعاملاتهم الإسلامية .

ويستدرك البروفيسور يوسف فضل في ذات السياق فيقول: (وقد شارك هاتين الفئتين (أي البدو والتجار، وهذه الزيادة من الباحث) بعض العلماء الذين أسهموا في بث تعاليم الدين الإسلامي وتعميق مفاهيمه. ولعل أول هؤلاء العلماء هو الشيخ غلام الله بن عائد اليمني .وقد قدم من الحليلة باليمن إلى دنقلا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر) [2].

ولئن كنا على علم ببعض الشذرات، التي استقيناها خاصةً من الروايات الشفاهية التي تناولت جوانب من سير بعض الفقهاء والعلماء والمتصوفة ومعلمي القرآن الذين عاشوا وازدهر نشاطهم في سودان وادي النيل قبل قيام السلطنة الزرقاء، أو سلطنة سنار 1504 – 1821م، مثل الشيخ غلام الله بن عائد المذكور، والشيخ حمد أبو دُنَّانة الذي يرُجح أنه عاش في حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، والشيخ حمد أبو شميلة المحسي الدي كان سابقاً له، والشيخ شرف الدين جد العبابسة بمنطقة الرباطاب، والشيخ عيسى ولد قنديل جد المجاذيب، والشيخ حاج بلول البديري بمنطقة الغابة بشمال السودان[3]، والدي يٌنسب إليه مصحف ما يزال موجوداً، كُتب على صفحته الأولى انه فرُغ من كتابته في العاشر من شوال سنة 870 هـ[4]، والشيخ

1 يوسف فضل حسن، مقدمة تحقيق كتاب **الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان** لمحمد النور بن ضيف الله، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الطبعة الثانية، 1974م، ص 4.

2 **يوسف فضل حسن، المرجع أعلاه، مقدمة تحقيق كتاب الطبقات،ص 4**

3 يرجح الأستاد الطيب محمد الطيب في كتابه **المسيد** أن تكون مدرسته لتعليم القرآن قد أسست في حوالي عام ثمانمائة للهجرة،**المسيد**، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الأولى، 1991م، صفحة 77.

4 2 المسيد، المصدر السابق، صفحة 79.

حمد ولد زروق الحضرمي نزيل الصبابي شمال الخرطوم بحري، والشيخالبُنداري الشامي نزيل الحلفاية، وجار النبي وجبارة الحضرميين، وأولاد عون الله وغيرهم، فإنه لا يغدو من المستحيل تصور وجود أشخاص على مثل هذه الشاكلة مند بداية اتصال سودان وادي النيل بالمؤثرات البشرية والثقافية العربية والإسلاميةوإنغابت عنا المعلومات عن أسمائهم وتواريخ حيواتهم وسيرهم وانشطتهم والأماكن التي عاشوا فيها، غالباً بسبب ضعف التدوين والتأليف والتوثيق في هده البلاد بصفة عامة وخصوصاً في العصر الوسيط، أوربما بسبب ضياع الوثائق والمصنفات التي تعود إلى تلك الحقب، لهدا السبب أو ذاك .

ولعل في أسماء أولئك النفر من الأعلام الذين عاشوا ونشروا العلوم العربية والإسلامية في ربوع السودان، قبل ظهور السلطنات الإسلامية الكبرى، ردا على الحكم المتسرع نوعاً ما في رأينا، الذي عبر عنه الشيخ محمد النور بن ضيف الله 1727 – 1809م في كتابه العمدة في بابه الموسوم ب: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، في معرض حديثه عن الحالة العلمية والفقهية التي كانت سائدة في بعض أرجاء أرض سودان وادي النيل، قبل القرن السادس عشر الميلادي، من أنها لم تشتهر فيها كما زعم مدرسة علم ولا قرآن، وان الناس كانوا يعيشون في جهل مطبق، وغفلة مستحكمة عن أبسط مقتضيات العقيدة والعبادات والسلوك الإسلامي الصحيح المتوافق مع قواعد الشريعة الإسلامية، بحيث أن الرجل منهم كان إذا طلق امرأته، تزوجها غيره في نفس اليوم، من دون مراعاة لعدة الطلاق، حتى قدم الشيخ محمود العركي من مصر ما بين عامي 1530 – 1540م بالتقريب، فعلَّمَ الناس العدة.[1]

ورداً على ذلك الحكم المتسرع نفسه، ينقل الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عن الشيخ إبراهيم عبد الدافع، أحد محرري ومنقحي مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية في السودانية لمؤلفها أحمد بن الحاج أبو علي قوله: (لعل صاحب الطبقات إنما أراد أن محموداً أول من نشر العلم في جهة النيل

1 استناداً إلى رأي الدكتور حسن الفاتح قريب الله الذي يرجح في ذلك تقدير عبد العزيز عبد المجيد لتاريخ مقدم الشيخ محمود العركي من مصر، انظر: حسن الفاتح قريب الله، **التصوف في السودان إلى نهاية عصر الفونج**، كلية الدراسات العليا جامعة الخرطوم، الطبعة الأولى، 1987م .، ص 39 – 41.

الأبيض، وأما الجهة الشرقية (جهة الجزيرة والنيل الأزرق) فقد كان فيها أولاد عون الله، وهم سبعة رجال في مدة العنج، أي النوبة، وكان احدهم المسمى بالضرير قاضياً مدة العنج، قبل ظهور الفونج، وقبورهم بنواحي ولد أبي حليمة ظاهرة. وأن الشيخ إدريس المشهور(يعني إدريس بن محمد الأرباب)، كانت ولادته في ثلاث عشر بعد التسعمائة، وكان يقرأالقرآن عند ولد بندار قدام الحلفاية، وقدوم محمود العركي كان بعد ذلك.) ثم يستمر ابن عبد الدافع محاججاً فيقول: (فكيف يقول المؤرخ (ود ضيف الله) إنه لم تشتهر قبل محمود مدرسة علم ولا قرآن، مع أن أولاد عون الله كانوا قبل الفونج والشيخ إدريس (الأرباب) شيخه البنداري الذي قرأ عليه القرآن وأصله من الشام وكان من الصالحين. وقد حصل كل هذا قبل محمود العركي. وكذلك الشيخ حمد ولد زروق قدم من اليمن، وهو شريف من أهالي حضرموت، وكان في مدة البنداري شيخ الشيخ إدريس في المكتب، وكذلك الشيخ إدريس قرأ عليه (أي على حمد ولد زروق)، وشهد له بجلالة القدر، وإنما ذكرنا ذلك لكون المؤرخ المذكور، لم يطلع على تواريخ بلاد النوبة، وما صار فيها من الحرب والصُلح (أ.هـ[1]

ويعمد الأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله إلى محاولة لتحقيق هوية أولاد عون الله المذكورين، فيقرر أنهم أحفاد لغلام الله بن عائد الشريف اليمني جد الركابية بالسودان وذلك حين يقول في هذا الخصوص ما نصه: (.... أولئك السبعة من أحفاد أحفاده، فغلام الله هو والد (رباط)، ورباط والد (سليم)، وسليم والد (عون الله)، وعون الله والد اولئك السبعة الذين ذكرناهم) .[2]

أما ذكر أولاد عون الله السبعة أولئك، الذين كانوا قضاة وفقهاء في زمن الفونج، مرتبطاً بمنطقة (أبو حليمة (الواقعة شمال الخرطوم بحري، فيدل على أن شعبة من الركابية من ذرية غلام الله بن عايد قد هاجرت من منطقة دنقلا حيث استقر جدهم أولاً، إلى ناحية الجنوب، حتى وصلوا إلى منطقة ملتقى النيلين الأزرق والأبيض وما جاورها، حيث استقرت منهم مجموعات في أبو حليمة نفسها، وفي الكدرو، والصبابي وغيرها، بل توغلوا جنوباً وغرباً حتى بلغوا نواحي البطانة، وحتى اعالي النيل الأزرق

1 عبد العزيز أمين عبد المجيد،**التربية في السودان والأسس النفسية والاجتماعية التيقامت عليها**، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص 90 - 91.

2 حسن الفاتح قريب الله،**التصوف في السودان إلى نهاية عصر الفونج**، مصدر سبق ذكره، ص 13.

كما بلغوا جبل الحرازة، وخُرسي، وبارا، وجبال النوبة في غرب السودان.

ذلك، ومن المؤكد أن جميع المشائخ والفقهاء والمعلمين الذين ورد ذكرهم آنفا، قد ظهرواتاريخيا ومارسوا أنشطتهم التربوية والتعليمية والدعوية، قبل ظهور الشيخ محمود العركي، على الأقل بنحو قرن، وربما قرنين من الزمان .

لقد سبق منا القول في المبحث التمهيدي السابق، بأن هنالك عدداً من الكيانات السلطوية، والمجتمعات البشرية ذات الهوية والانتماء العربي والإسلامي الواضح، التي ظلت تنشأ في مختلف أطراف سودان وادي النيل، والتي يعود بعضها إلى القرن الثامن الميلادي الموافق للقرن الثاني الهجري وهي كيانات ومجتمعات تمتعت بقدر معقول من الاستقرار النسبي، ولعشرات السنين، مما يتيح لها حياة إجتماعية راتبة يستحيل معها تصور إغفالها للعلم والتعلم، والسعي للتفقه في الدين وتربية النشء وتعليمهم مبادئ القرآن الكريم وغيره من أساسيات العلوم اللغوية والدينية. فمن بين تلك المجتمعات الإسلامية: مستوطنة خور نبت الواقعة شمال غرب مدينة طوكر بشرق السودان، التي عُثر فيها على جبانة إسلامية تعود بعض شواهد قبورها إلى القرنين الثامن والتاسع الميلادي، والتي تدل بعض أسماء الأشخاص المدفونين في مقابرها بصورة واضحة على هوية ربما كانت أموية، أو قوية الصلة بالأمويين، مثل: (هذا قبر الوليد بن محمد بن الوليد بن أبان ...) الخ،ذلك بأن الاسمين: الوليد وأبان هما اسمان امويان بلا ريب .

وتاسيساً على ذلك، ربما جاز لنا أن نفترض أن تكون لتلك المستوطنة العربية الإسلامية القديمة بشرق السودان، صلة بواقعة تاريخية أشارت إليها المصادر التاريخية، ألا وهي حادثة فرار جماعة من بني أمية من مصر من وجه العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية، كان على رأسهم محمد بن مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، والتجائهم إلى أرض النوبة. وعلى الرغم من أن المصادر التي روت لنا تلك الواقعة تخبرنا بأن تلك المجموعة الأموية قد جوبهت بمواقف عدائية في بلاد البجة مما اضطرها إلى عبور البحر الأحمر والعودة إلى الحجاز، إلا أنه لا يستبعد أن تكون قد بقيت منهم بقيَّةٌ بتلك النواحي من شرق السودان، أو أن تكون جماعة أخرى من رهطهم من بني أمية قد لحقوا بهم، او صنعوا مثل صنيعهم في اللجوء إلى ديار البجة في تاريخ لاحق

وفي هذا الخصوص، ينقل الدكتور عبد العزيز عبدالمجيد عن المقريزي في خططه قوله: (إن من أمراء بني أمية من هرب عن طريق مصر إلى بلاد النوبة) [1]

وعطفاً على ما ذهبنا إليه آنفاً بشان مستوطنة (خور نبت) الأموية بشرق السودان، يذكر يحي محمد إبراهيم نقلاً عن كتاب الإسلام والنوبة لمصطفى مُسعد من نصه: (وفي منتصف القرن الثامن الميلادي، وفدت جماعة أموية واستقرت في ميناء باضع، وتركت أثراً ما في سكانها. ويدل على وجود جماعات إسلامية في منطقة خور نبت غربي سواكن، ما عُثر من شواهد قبور يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادي، كما ثبت أثرياً وجود مسجد في سنكات يرجع تاريخه إلى سنة 219 هجرية/ 831 ميلادية) [2] اما تلك الكيانات السلطوية العربية الإسلامية المبكرة التي نشأت في سودان وادي النيل، فمن بينها إمارة عبد الله بن عبد الحميد العمري، الذي أسس إمارة عربية خالصة في شرق السودان بين النيل والبحر الأحمر في بحر القرن الثالث الهجري، الموافق للقرن التاسع الميلادي. وبالطبع فإنه يغدو من الصعب تصور خلو مثل تلك الإمارة بالكلية من أي مظهر من مظاهر الحضارة والثقافة الإسلامية وخصوصاً التعليم بطبيعة الحال، وذلك على الرغم من اضطراب الأحوال في تلك الإمارة، وحالة الكر والفر التي كانت تعيشها مع محيطها المجاور خصوصاً وأنَّ المصادر تعُلِمنا بأنَّ العمري نفسه، إلى جانب أ نهَّ كان تاجراً مغامراً ومقاتلاً توسُّعياً طموحاً، فقد كان أيضاً داعيةً وفقيهاً عالماً، ذا قدم راسخة في العلوم الدينية والشرعية، التي مارسها زماناً في مصر، قبل أن يبعثه أميرها آنئذٍ (أحمد بن طولون (في بعثة عسكرية إلى أرض البجة. وبالتالي، فإن ذلك من شأنه ان يحملنا على الاعتقاد في ترجيح واحتمال عنايته بالتعليم والعمل على نشر الثقافة العربية والإسلامية، والسعي إلى ازدهارها في إمارته، وإن لم تصلنا منها وثائق وشواهد وبينات مادية محددة في هذا الخصوص. وفي هذا السياق يكتب الأب فانتيني نقلاً عن مصادر تاريخية عربية وسيطة منها كتاب: المُقفَّى الكبير للمقريزي ما نصه:

(وُلد العمُري بالمدينة المنوَّرة. ثم انتقل إلى مصر ليدرِّس علم الحديث، ومن ثم سافر

---

1 عبد العزيز عبد المجيد،**التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسيةالتي قامت عليها**، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م.، ص 40

2 يحي محمد إبراهيم،**تاريخ التعليم الديني في السودان**، ص 21.

إلى القيروان ليتلقى علوم الشريعة والفقه. وفي عودته من مصر، سمع بخبر مناجم الذهب بأرض البجة. وقد أحسَّ برغبة محمومة للذهب، وكما لا ننسى أنه اشتعل حماساً لنشر الدعوة الإسلامية بين أوساط البجة الوثنيين. وقد كوَّن له جيشاً صغيراً خاصا. انطلق لصعيد مصر، ومن ثمَّ إلى أرض البجة) .[1]

وقبل جهود العمري المفترضة والمحتملة أيضاً في مجالي الدعوة الإسلامية ونشر التعليم الإسلامي، كمظهر من مظاهر سياسة إمارته في شرق السودان على الصعيدين التربوي والثقافي، توُقفنا المصادر التاريخية على بعثة تعليمية ودعوية أرسلها الخليفة هارون الرشيد العباسي إلى منطقة دنقلا بشمال السودان، خلال الفترة الواقعة بين سنة 170-193هـ /786 – 809م، فأنشأت فيها حلقات تعليمية وقامت بتعليم الأقلية المسلمة المقيمة هناك، أمور دينها. وقد جاء في هذا الخصوص: (أنه في مدة خلافة هارون الرشيد، قدم إليه جماعة من بر السودانوهو ببغداد وطلبوا منه أن يرسل معهم علماء يعلمونهم أمور الديانة. فأرسل معهم سبعة علماء من بني العباس، وصلوا دنقلا، وأقاموا بها، وتناسلت منهم ذرية كبيرة.[2]

وفي ذات السياق يحق لنا أن نفترض كذلك، قيام حياة ثقافية وعلمية مزدهرة كثيراً أوقليلا ً في كنف سائر الكيانات السلطوية الإسلامية التي نشأت في بعض أطراف السودان، قبل نشوء الممالك الإسلامية الكبرى في البلاد. وتتمثل تلك الممالك والإمارات الإسلامية السابقة في ممالك: (الدجن) و (الخاسة) و(الكنوز) وسائر الأجزاء السودانية من بلاد النوبة السفلى، وصولاً إلى مملكة المقرة، وخصوصا بعد تحولها نهائيا إلى الحكم الاسلامي منذ مطلع القرن الرابع عشر الميلادي .

ومن قبل سقوط المقرة يوقفنا اليعقوبي (ت 897م) على وجود للمسلمين في سوبا منذ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، كما يعُلمنا كل من ابن حوقل النصيبي وابن سليم الأسواني بوجود (ربض (أي حي يقطنه المسلمون بعاصمة مملكة علوة في القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي. فوجود الحي السكني في مدينة ما، مهما كان نوع السلطة السياسية التي تبسط سلطانها عليها أوتوجهها

---

1 جيوفاني فانتيني،**إعادة اكتشاف تاريخ النوبة القديم**، إصدار كلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا، الخرطوم، 2013م، ص 103

2 حسن الفاتح قريب الله،**التصوف في السودان إلى نهاية عصر الفونج**،مرجع سابق، ص 11.

العام، يقتضي بالضرورة وجودنوع ما من الحياة الاجتماعية والثقافية، بما في ذلك وجود نمط ما من أنماط التعليم والمدارسة، وخصوصاً في المسائل الحيوية والجوهرية بالنسبة لأي مسلم، ألا وهي تعليم القرآن ومبادئ العقيدة والفقه لأطفاله.

وتؤكد نتائج وبينات الكشف الأثري الذي أجرته بعثة المعهد البريطاني لشرق إفريقيا بموقع سوبا القديمة جنوب الخرطوم في ثمانينيات القرن الماضي بالفعل، ما ذهب إليه عدد من الكتاب والرحالة العرب والمسلمون في مؤلفاتهم، من رواية تتحدث عن وجود مجموعة من السكان العرب المسلمين في سوبا على الأقل منذ القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي، وأن تلك الجماعة كانت تعيش حياة اجتماعية وثقافية مستقرة ومتميزة، في كنف دولة علوة المسيحية، الأمر الذي يجعل من عكوف تلك الجماعة وممارستها لتعليم ثقافتها وعقيدتها، أمراً منطقياً وميسور الفهم والتصور كذلك.

فقد عثرتْ تلك البعثة في موقع سوبا القديمة – على سبيل المثال -، على قالب من الصخر به نقش باللغة العربية يعود تقديراً إلى ما بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلادي، وهو قالب كان مُعدَّاً لصناعة نوع من التعاويذ المعدنية المستديرة الشكل، أوما كانت تعرف في السودان ب (الحفيظة)، مما يشير إلى أن صاحبه كان صائغاً ينتج ذلك النوع من (الحفيظات)، ويبيعها للراغبين فيها، وخصوصا النساء والفتيات المسلمات عصرئذ كما نفترض. أما النقش الذي على القالب الصخري فهو عبارة: (تحصَّنتُ بك) هكذا .. ويرجح الباحث: بربِّ) العزَّة والجبروت. وتوكلت على الحي الذي لا يموت.) ![1]

وفي ذات السياق كتب البروفيسور سير لورنس كيروان في تقديمه للمجلد الذي حوى نتائج ذلك التنقيب الأثري في خرائب سوبا ما نصُّه:

“ By the late tenth century, Christian Soba had a Moslem quarter. There must be the remains of at least one early mosque awaiting discovery on the site.. “.[2]

---

1 D.A. Welsby & C.M. Daniels, **Soba: Archeological research at a medieval capital on the Blue Nile**, British Institute in Eastern Africa, London, 1991, p. 145 note (269) and p. 147.

2 Ibid, p. xviii.

ويجادل الدكتور يحي محمد إبراهيم كذلك، نقلاً عن كتابيْ: المكتبة السودانية العربية،والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى مسعد، الذي ينقل بدوره عن كل من اليعقوبي والمسعودي، بحدوث هجرة في القرون الأولى من الهجرة لجماعات من ربيعة إلى بلاد العلاقي بشرق السودان، انتقلوا إليها بالعيالات والذرية كما في عبارة اليعقوبي في كتاب البلدان: (وهؤلاء جذبهم ما نقُل إلى أسماعهم عن وجود معادن الذهب في تلك المنطقة، فاندفعوا إليها بقصد الاستقرار فيها، لا كتجار أوجماعات عابرة تنتهي مهمتها بنفاد ما فيها من سلع، أو بالحصول على السلع التي يريدونها من منتجات البلاد) .[1]

وبالطبع فإن بوسعنا أن نفترض أن تلك (العيالات والذرية (التي انتقلت بها قبيلة ربيعة من الجزيرة العربية إلى أرض المعدن بشرق السودان، لا بد لها من تربية وتعليم إسلامي قل أو كثر، وإن غابت عنا صفته وملامحه، وأسماء القائمين علىأمره وسيرهم وتواريخهم، ومواطنهم التي كانوا يعيشون فيها على وجه الدقة والتفصيل

أما إذا نظرنا في بعض الروايات الشعبية الرائجة، التي تشير إلى سبق الوجود البشري والثقافة والتعليم الإسلامي في بعض أصقاع سودان وادي النيل قبل ظهور الممالك الإسلامية المشهورة فيه، فإننا نجد في هذا الصدد على سبيل المثال، أن الدكتور يحي محمد إبراهيم ينقل عن راوية الأخبار والباحث المتبحر في التراث الشعبي السوداني الشيخ محمد عبدالرحيم (1878 – 1966م) أنَّ عالماً صاحب كرامات يدعى حاج شريف بن علي، قد ولد حوالي خمسمائة وثمانين هجرية الموافقة لسنة 1185م ببلدة الخنَّاق بشمال السودان، وبنى له مسجداً لا تزال آثاره باقية. وقد طاف ذلك العالم ببعض بلاد آسيا وإفريقيا، واجتمع بالولي المغربي الشيخ عبد السلام بن مشيش (ت 626 هـ - 1228م) بحسب رواية محمد عبد الرحيم. وإلى حاج شريف هذا ينتسب الأشراف في دنقلا. وهذا الشيخ هو نفسه الجد الأعلى للإمام محمد المهدي (1843 – 1885م).[2]

---

1 يحي محمد إبراهيم،**تاريخ التعليم الديني في السودان**، دار الجيل بيروت، 1987م، ص 21.

2 الطيب محمد الطيب، **المسيد**، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الأولى، 1991م، ص30، 2 يحي محمد إبراهيم،**المرجع السابق ذكره**، ص 21.

كما يذكر ذات المؤلف أن هنالك أسرة في شمال السودان اشتهر معظم أفرادها بالعلم قد قدمت إلى السودان خلال القرن الثاني الهجري، وكان كبيرها من دعاة الإسلام في دنقلا عند وصول العرب إليها. وقد أسلم على يده كثير من النوبة، وإليه ينتسب العرُاقاب(رسمها المؤلف العريقاب خطأ). ومن اولاده محمد الصغير الذي اخذ العلم عنه، ودُفن فيمروي في أواخر القرن الثاني الهجري .اما حفيده حمد العراقي فبعد ان تعلم على والده، رحل إلى نوري في اوائل القرن الثالث الهجري، ونشر الإسلام بين سكان مروي.[1]

أما عما نفترضه لوضع الاستعراب والأسلمة في غرب السودان بصفة عامة، فبوسعنا أن نشير إلى انه فيما يلي شمال كردفان على وجه التحديد، فإن الشواهد تتظاهر على عراقة الوجود العربي والإسلامي فيها، وسبقه ببضعة قرون قبل قيام السلطنات الإسلامية الكبرى، وهو ما قد ينطبق بنفس القدر كذلك، على اجزاء واسعة من سهول دارفور أيضا، نظراً لتأثرها بموجات من الهجرات العربية والإسلامية، سواء من مصر أوشمال إفريقيا، او بلاد السودان الأوسط وخصوصاً منذ سيادة حكم مملكة التنُّجُر عليها بين حوالي عام 1300 – 1600م. ذلك بأن عدداً من المؤرخين والباحثين يرجحون أن هذه كانت ذات هوية عربية او مستعربة على الأقل ومسلمة أيضاً، وذلك بالنظر لجملة من الشواهد والبينات التي يقدمونها في هذا السياق .

أما افتراضنا أن فيافي شمال كردفان قد كانت موئل وجود بشري عربي، وثقافة إسلامية عريقة، قبل قيام سلطنة الفونج في القرن السادس عشر الميلادي، فإن عليه شواهد واضحة من مصادر تاريخ سلطنة الفونج نفسها. فعلى سبيل المثال يوقفنا ود ضيف الله في كتابه الطبقات، على ان أسلاف بعض الأعلام من الأولياء والصالحين الذين نالوا شهرة واسعة وصيتاً ذائعاً في وسط وشمال السودان، ثم توارثت أسرهم تلك الشهرة والصيت الحسن من بعد في العلم والصلاح، إنما قدموا من كردفان في الأصل. نذكر من أولئك الشيخ دفع الله ود مقبل الجد المؤسس لعشيرة الأولياء العركيين بأبو حراز وطيبة وغيرها، وكذلك الشيخ محمد ولد فكرون، جد الشيخ شرف الدين راجل إنقاوي بالقرب من الزيداب .

ففي معرض ترجمته للشيخين المذكورين: دفع الله بن مقبل ومحمد ولد فكرون

---

1 يحي محمد إبراهيم ،المرجع السابق ذكره ، ص 21.

يقول ود ضيف الله في الطبقات: (دفع الله ود مقبل، قدم من دار الغرب. ومحله بير سرَّار. وقدم معه محمد ولد فكرون أبوالمشايخ ناس انقاوي. ولا أدري كان بينهما قرابة، أم خوة إسلام. ونزل جرف الجميعاب، تزوج هدية بنت عاطف بأرض الجميعاب، فولد منها أولاده الخمسالعدول.)[1] وعن بير سرار المذكورة يقول محقق كتاب الطبقات البروفيسور يوسف فضل حسن ما نصه في الهامش: (تقع على بعد ثلاثين ميلاً شمال الشرقي من بارا.. وبالقرب منها جبل علىخطيْ 30.32 درجة شرق، وهي عبارة عن مجموعة من الآبار يرتادها الكبابيشوالهواو ير للشرب)[2]

أما الجبل الذي يقع بالقرب من الموضع المسمى (بير سرار)، فيسمى (جبل المِليسا) وقد ارتبط هو وبير سرار المذكورة في الروايات الشفاهية المتداولة، والتي نال بعضها حظه من التدوين في مصنفات نفر من النسابة الوطنيين والمؤرخين الشعبيين، بانها المنطقة التي يعُتقد أنه قد نشأت حولها إمارة او سلطنة الجعليين الأولى أو (العباسيين) في السودان في بحر القرن الثالث عشر الميلادي تقريبا .

على أنَّ من الملاحظ بصفة عامة، هو أن البحث الأكاديمي الحديث، قد ظل يتجانف عن الخوض في مجرد مساءلة هذه الرواية الشعبية والشفاهية الشائعة جدا والتوقف عندها، أومقاربتها سواء كان ذلك عبر مناهج وأدوات البحث التاريخي أوالآثاري، ونحسب أنها قمينة بمحاولة سبرها وتمحيصها بطريقة منهجية وعلمية، على غرار ما فعل الدكتور أحمد المعتصم الشيخ قبل بضعة أعوام، بمقاربته العلمية المنشورة في كتاب عن (شعب العنج) شبه الأسطوري في السودان، على سبيل المثال .

وتوُقفنا بعض الروايات، على معلومة مفادها أن أسلاف الحاج بلول البديري صاحب المسجد العتيق بمنطقة الغابة بشمال السودان حالياً، والذي يعود تأسيسه إلى القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي، كانوا يعيشون بدار الغرب أي كردفان من قبل، ثم ارتحلوا منها أولاً إلى سنار، ثم إلى بلدة الغابة المذكورة.[3]

---

1 **محمد النور ولد ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م ص 206.

2 ولد ضيف الله، **الطبقات**، المصدر السابق، الهامش(3)، ص 206.

3 الطيب محمد الطيب، **المسيد**، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الأولى، 1991م ص 122.

وإذ ذاك، يخمِّن هذاالباحث حدساً أن يكون موضع (كاب بلول) التاريخي، الواقع في دار البديرية في أقصغرب كردفان قريبا من حدودها مع دار فور، ربما كانت له علاقة بحاج بلول المذكور.

هذا، وإلى شمال كردفان أيضاً، قدم الشيخ (جار النبي) من حضرموت في تاريخ سابقلقيام دولة الفونج، وأقام بقرية دليل، وأن صاحب قرية دليل قام على قدمه في الدين والصلاح والطب، وإقبال الخلق عليه للتبرك بدعائه.[1]

ويلمح محقق كتاب الطبقات إلى احتمال أن تكون قرية دليل المذكورة، هي تلك القرية الواقعة إلى مقربة من مدينة الأبيض الحالية حاضرة ولاية شمال كردفان، وبالتحديد على خطيْ 13.43 درجة شمال و 29.18 درجة شرق.[2] ويبدو أن قرية دليل هذه قد اندثرت كموضع سكني، وتحول موضعها في تاريخ لا نعلمه إلى (مقابر دليل) القائمة إلى يوم الناس هذا إلى الجنوب الغربي من مدينة الأبيض.

وإلى كردفان ودارفور أيضاً، هاجرت – كما نرجح – طوائف من العرب والبربر المستعربين إما من مصر أومن الشمال الإفريقي، إما مباشرةً أو عبر بلاد السودان الأوسط، قبل قيام سلطنة سنار وسلطنات الفور والمسبعات وتقلي ببضعة قرون فأقاموا فيهما واستوطـــنوهما في شكل تجار ورعاة ماشية ومعلمي قرآن، مثل الهـــــوارة أوما يعرفون هناك ب (الجلابة الهوارة)، الذين يقال إنهم قد لعبوا دوراً جوهرياً في تأسيس وظهور مدينة الأبيِّضِ وضواحيها، حيث اشتهر من أسلافهم المتقدمين (الحاج عيسى) والفقيه (موسى ود البرد) وأبناؤه السبعة الذين نشروا العلوم الدينية في تلك البقاع، كما تقول الرواية الشفاهية المتداولة. كما يبدو كذلك، أن الجلابة الهوارة قد لعبوا دوراً كبيراً في ازدهار الحياة التجارية والدينية والثقافية بسلطنة التنُّجُر بدارفور على نحو ما هو مثبتٌ في بعض الوثائق التي تتناول تاريخ تلك المملكة الغامضة والمبهمة الملامح لطول العهد وندرة ما وصلنا عنها، والتي يرى عدد من الباحثين – على الرغم من ذلك – أنها قد أرست أسس الوجود والثقافة العربية والإسلامية في دارفور، وإنما جاءت سلطنة الكيرالاحقاً، لكي تكمل ما بدأته تلك السلطنة في هذا المضمار .

---

1 **الطبقات لمحمد ولد ضيف الله**، ص 131

2 المصدر السابق، الهامش رقم) 16(، ص 131

ولئن كنا قد عوَّلنا نوعاً ما فيما يتعلق بمحاولتنا التدليل على أولية الوجود والثقافة العربيةوالإسلامية في كردفان ودارفور منذ ما قبل قيام الممالك الإسلامية الكبرى في سودان وادي النيل، على الاستنتاج، والقياس، والبينات الظرفية، نظراً لندرة المادة المدونة، فإن هنالك بعض الحواضر السودانية الأخرى، وخصوصاً في شرق السودان التي توُقفنا المصادر الخطيةَّ بالفعل على ازدهار الثقافة والعلوم العربية والمعارف العربية والإسلامية فيها في القرون الوسطى، ومن تلك الحواضر كل من مينائي سواكن وعيذاب على البحر الأحمر. وذلك على نحو ما هو مثبتٌ في مؤلفات بعض الكتاب المعاصرين، وخصوصاً الرحالة الذين زاروا تينك المدينتين أو استقوا اخبارهما ممن زاروهما مثل: ابن جُبير، وناصر خسرو، وابن بطُّوطة، والأدفوي، والمقريزي وابن عبد الظاهر وغيرهم .

فقد زار ابن بطُّوطة سواكن، وذكر في رحلته أن أميرها حينئذٍ كان من آل بن أبي نُميْ أشراف مكة و حُكَّام الحجاز في عهده في القرن الرابع عشر الميلادي، بل كان ذلك الأمير ابن أمير مكة ذاتها، وإنما آلت إليه إمارة سواكن من أخواله البجة سكان تلك المنطقة .وذلك لعمري في حد ذاته، دليلٌ واضحٌ على الصلة الواشجة بين الحجاز، وذلك الجزء من بلاد سودان وادي النيل، مع كل ما يقتضيه ذلك من الاحتمالات الراجحة للتأثير والتأثرُّ المتبادل، وخصوصاً في النواحي العلمية والثقافية والدعوية وهلم جرا .

أما عن ثغر عيذاب وما كان يمور به من حياة علمية وثقافية عربية وإسلامية عامرة وخصبة في القرون الوسطى، فبحسبنا أن نقتبس هذه الفقرة الواضحة الدلالة في بابها، من مقال للدكتور بشير إبراهيم بشير رحمه الله بعنوان: (عيذاب: حياتها الدينية والأدبية): (وما إن صارت عيذاب معبراً للحُجَّاج، حتى صارت مركزاً هاماً لسماع الحديث يضُارع مراكز السماع الكبرى بالامبراطورية الإسلامية. وليس تفهُّم ذلك بعسير، فقد جرت العادة في ذلك الزمان ان يحط كبار الفقهاء ورجال العلم رحالهم في المراكز الاستراتيجية في طريق قوافل الحج طمعاً في الاجتماع بغيرهم من رجال الحديث والعلماء. فكان للحجاج صادرين وواردين نشاط ديني واسع بعيذاب... فهناك جملة من العلماء النابهين الذين أقاموا زماناً بالثغر صادرين وواردين من الحجاز فكان أن تيسرت لهم سبلالمشاركة في الحياة الدينية والفكرية. فقد تقدم

أن الداعي الفاطمي ناصر خسرو أقام بعيذابلمدة ثلاثة أشهر وهو في طريقه للحج من مصر وأنه باشر الخطابة بمسجدها بالتماسأهلها، ومنهم الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب السعدي، والذي كانفقيهاً رحالة في طلب الحديث، وصنفَّ عدة كتب. توُفي بعيذاب في طريق عودته من الحج عام 1160م. ولعل أشهر من دخل عيذاب من الحجاج، الإمام أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي، الصوفي مؤسس الطريقة الشاذلية. وكان اتخذ الأسكندريةموطناً، وكان يخرج منها كل عام إلى الحج عن طريق عيذاب، إلى أن توُفي وهو في طريق عودته من الحجاز، ودُفن بموضع قريب من عيذاب يعُرف بحُميثرا، وذلك في سنة 1258م. ومنهم الإمام الكبير أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي النحوي. دخل عيذاب في طريق عودته من الحج وسمع بها، وقد أوردها ضمن قائمة البلدان التي سمع بها حيث يقول: (... سمعتُ بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والأسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلة وطهرمس والجيزة ومنية ابن خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس وبعيذاب من بلاد السودان وينبع ومكة شرفها الله تعإلى وجدة وأيلة ...)[1]

1 1بشير إبراهيم بشير، (عيذاب: حياتها الدينية والأدبية (، مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، العدد الثاني، المجلد الخامس، يوليو 1979م، ص 66 و67.

المبحث الثالث

التعليم ووفود المعلمين والرحلة من أجل طلب العلم ونشره في عهدالسلطنات الكبرى

أ. مدخـــل:

ما من شكٍّ في أن واقع الدعوة الإسلامية والثقافة العربية والإسلامية، فضلاً عن التوجه الحضاري العام ذي الطابع الإسلامي الواضح، بما في ذلك العنصر المتعلق منه بمكوني التربية والتعليم على وجه التحديد، قد استقام ميسمه، واشتد عوده واتضحت هويتهة بصورة حاسمة ومميزة، ويسهل التحقق من ملامحها ومقوماتها وخصائصها العامة على نحو كبير، خلال حكم ما آثرنا تسميتها بالسلطنات الإسلامية الكبرى مثل سلطنة سنار أو الفونج 1504 – 1821م، وسلطنة تقلي 1530 – 1884م، وسلطنة دار فور 1630 – 1874م، ومن قبلها سلطنة التنُجر كما أشرنا إلى ذلك آنفا، وذلك انطلاقاً من البيناتالخطية والروايات الشفاهية المتوفرة والمتاحة، التي تناولت تاريخ تلك السلطناتالإسلامية الكبرى التي نشأت في بلاد سودان وادي النيل، ومختلف جوانب الحياة التيكانت سائدة فيها .

على أننا قد رأينا فيما مضى، أنه قد قامت بالفعل كيانات سلطوية وممالك وإمارات ومشيخات وحواضر إسلامية خالصة في بعض أطراف السودان الشمالية والشرقية بصفة خاصة، كما تطرقنا كذلك إلى الجهود الفردية التي اضطلع بها بعض العلماء والمتصوفة الأفذاذ الذين كانوا قد ألموا بتلك الأصقاع، ومارسوا أنشطتهم التعليمية والدعوية، في ظل حكم العناصر السودانية القديمة من نوبة وعنج وبجة وغيرهم لكي نستنتج من كل ذلك، أن النشاط الدعوي والتعليمي الإسلامي قد ظل قائماً بالفعل داخل هذه البلاد، ومستمراً فيها على الأرجح، منذ اول عهد اتصالها ببواكير المؤثرات الإسلامية.

ب: حالة الحراك العلمي في العالم الإسلامي المعاصر لقيام السلطنات الكبرى وانعكاسه على السودان:

ظهرت بلاد سودان وادي النيل بهويتها الإسلامية الغالبة، التي يؤرخ لها عادةً بقيام سلسلة السلطنات الإسلامية الكبرى التي نشأت في ربوعها، ابتداءً من مطلع القرن السادس عشر

الميلادي، الموافق لبداية القرن العاشر الهجري، مع نهاية فترة المماليك في مصر، وبداية سلطنة الدولة العثمانية عليها، الذي أعقب غزو السلطان سليم العثماني لها في عام 1517م

وعلى الرغم من أن مصر قد كانت حتى ذلك التاريخ، أكثر بلاد الإسلام ازدهاراً علمياً، مقارنةً بغيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى، مثل العراق وبلاد الشام والحجاز والمغرب، إلا أن ظهور السودان المسلم، قد تزامن مع فترة خمول وانحطاط وتدهور بين للحركة العلمية والأدبية والثقافية، في سائر أرجاء العالم الإسلامي بصفة عامة، وبما في ذلك مصر نفسها .

وفي ذلك يقول الدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد ما نصه:
(.... ظهر السودان في عهد التقليد، فلم يصرف العلماء ما عندهم من قوى إدراكية فيالاجتهاد والتخريج، بل وجهوها إلى التأليف والتحرير، ونحا أغلبهم في ذلك منحاالاختصار، وجمع الفروع الكثيرة في عبارات ضيقة تشبه الألغاز، وتحتاج في تفهمها إلىوقت طويل، حتى احتاجت إلى وضع كتب أخرى تشرح مبهمها، وتحل عقدها. وكانتروح الإدماج والاختصار غالبةً على أصحاب تلك الشروح أيضاً، فمسَّت الحاجة إلى التعليق عليها. فلا عجب إذاً أن يتأثر السودان - كما سنرى - في ثقافته الأولى بروح ذلك العصر، ولا عجب إذ لم نجد من أبناء السودان من العلماء أوالمؤلفين من نافس أساتذة الأزهر، أومن امتاز وعُرف في العالم الإسلامي بالتأليف او التجديد والاجتهاد) .[1] وإلى هذا الرأي نفسه تقريباً، يذهب البروفيسور يوسف فضل حسن حين يقول في مقدمته لتحقيق كتاب (طبقات ود ضيف الله): (وأرجو ألا يفُهم من المنحى الذي سلكته، أن العلماء الذي عُنوا بالدراسات الإسلامية والعربية، كانوا كلهم من أجلة العلماء الذين طبقت شهرتهم الآفاق، أوالذين يمكن مقارنتهم بعلماء الأزهر أوالحرمين أوتمبكتو أو تلمسان، بل إن إنتاج السودانيين رغم ما سردت من أمثلة للشراح والحواشي التي صنفوها، قليلٌ وتعوزه الأصالة - إلا النذر اليسير - إذا ما قوُرن بإنتاج علماء السودان الغربي، الذي ربما كان في مرحلة تطورية لا تختلف كثيراً عما كان عليه الحال في السودان الشرقي.[2]

---

1 عبدالعزيز عبدالمجيد، **التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسيةالتي قامت عليها**، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م .، ص 79- 80.

2 **الطبقات** لمحمد النور بن ضيف الله، تحقيق يوسف فضل حسن، المقدمة: بواكير الدعوة الإسلامية في السودان، ص 7.

المبحث الرابع
الحركة العلمية في كنف الممالك الإسلامية

تذخر المصادر الأولية والمراجع الثانوية لتاريخ الممالك الإسلامية التي نشات في بلاد سودان وادي النيل، ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي، الموافق لمفتتح القرن العاشر الهجري، ألا وهي ممالك وسلطنات: سنار اوسلطنة الفونج اوالسلطنة الزرقاء 1504 – 1821م، والتي شملت أيضاً مشيخة العبدلاب بالنظر إلى الاتحاد الكونفدرالي الذي كان قائماً بينهما، وسلطنة المسبعات بشمال كردفان 1650 – 1820م، وسلطنة تقلي بجنوب كردفان 1530 – 1884م، وسلطنة الفور 1640 – 1874م، بمعلومات جمة عن الحركة العلمية والثقافية التي كانت تمور بها تلك الممالك والسلطنات، شاملةً إنشاء المساجد، وكتاتيب القرآن، التي يعُرف الواحد منها في السودان ب (الخَلوة) أو(المَسِيد)، وهو المكان المخصص لتعليم القرءان الكريم وتحفيظه، وتدريس العقائد والعبادات والمعاملات، ومبادئ الفقه الإسلامي، إلى جانب أنه يمثل مكاناً لإيواء الضيوف والغرباء الطارئين والمسافرين العابرين وإطعامهم وإيواء طلبة العلم، فضلا عن استخدامه كمقصد ومكان لاجتماع أهل القرية او المدينة المعنية، للنظر في سائر أغراضهم وشؤونهم الاجتماعية والروحية والعلاجية وغيرها .

وتشمل تلك المعلومات أيضاً، ذكر أسماء ونبذ مفيدة من سير جملة من الأعلام النابهين في مجالات الدعوة الإسلامية، وتعليم القرآن، وتدريس الفقه، وغيره من العلوم الدينية واللغوية، إلى جانب الإرشاد الروحي والتصوف في السودان الشرقي في الفترة المعنية، كما تتطرق أيضاً إلى ذكر بعض من ألمَّ بأرض سودان وادي النيل واستوطنها، وأقام في ربوعها من العلماء والفقهاء والمتصوفة من أبناء الأمصار الإسلامية الأخرى، بغية نشر العلم والتصوف أحدهما أو كليهما، في عهد تلك الممالك والسلطنات الإسلامية .

وبالمقابل، تشير تلك المصادر والمراجع ذات الصلة، إلى جوانب من حركة الرحلة العلمية إلى خارج أرض سودان وادي النيل، من أجل طلب العلم او نشره، التي قام بها نفرٌ من من أبناء البلاد، من الطلاب والعلماء وشيوخ التصوف على حدٍّ سواء، مع ذكر لُمَع من أخبار رحلاتهم تلك، وذكر أسماء بعض ممن التقوا بهم من المشائخ

والعلماء، وما أخذوه منهم من علوم ومعارف وعهود وأوراد وأحزاب وهلم جرا، وما نالوها من شهادات وإجازات بذلك.

وفيما يلي نلُقِي نظرةً إجمالية على أوضاع الحراك العلمي داخل الممالك الإسلامية بالسودان الشرقي كُلاًّ على حدة:

أولاً: مملكة الفونج أو سلطنة سنار 1504 – 1821م:

يُعَدُّ كتابالطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمؤلفه الشيخ محمد النور ولد ضيف الله (1727 – 1809م)، ومخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة التركية المصرية بالسودان، لمُصنِّفها أحمد بن الحاجأبو علي المولود في عام 1784م والمتوفى بعد عام 1838م، أهم المصادر المكتوبة عنتاريخ سلطنة الفونج او (سلطنة سنار) .

أما كتاب الطبقات المومى إليه، فهو سفرٌ يحتوي فيما يلي جانب الحياة العلمية والثقافيةبالتحديد – وهو الأمر الذي يعنينا بالدرجة الأولى هاهنا – على تراجم لنحوٍ من مائتين وسبعين علماً من أعلام عهد السلطنة السنارية، من العلماء والفقهاء وخصوصاً المتصوفة السودانيين، فضلاً عن أخبار طائفة من بعض أبناء البلدان الإسلامية الأخرى الذين قدموا إلى السودان خلال تلك الفترة، فاستوطنوه وأقاموا فيه أو كانت لهم صلاتٌ على نحوٍ ما، مع أعلامٍ بأعيانهم داخل السودان.

كما يشير ذات المصنَّف إلى ارتحال طائفة من اولئك الأعلام إلى خارج السودان، إمَّا بغرض أداء مناسك الحج، أوبغرض تلقي العلم أو نشره في بعض الأحيان.

وقد ركَّز مؤلف كتاب الطبقات بصفة خاصة على الترجمة للأعلام الذين كانوا يعيشون في الرقعة الجغرافية التي غطتها سلطنة الفونج ومشيخة العبدلاَّب في وسط السودان وشماله الأوسط بصفة أساسية، بينما اشتمل كتابه على إشارات نادرة لمشائخ قليلين عاشوا في كردفان وشرق السودان، وخلا تقريباً عن الترجمة لمشايخ أصيلين من دارفور، وكذلك من بلاد النوبة الشمالية السودانية، على امتداد الرقعة الممتدة من لدن ديار المحس جنوباً، وحتى الحدود السودانية المصرية شمالا .

وتحتوي الترجمة للعَلَم المعني في كتاب الطبقات في العادة، على بيانات تتعلق باسم المترجم له ولقبه أو كنيته أحيانا، ومكان مولده، وتاريخ ميلاده، ونسبه لأبيه ولأمه

إن كان مهماً، والقبيلة التي ينتمي إليها، ونوع التعليم الذي تلقاه، ومكانه، والفقهاء الذين قرأ عليهم القرآن أوأخذ عنهم العلم، والشيوخ الذين سلك عليهم الطريق، وما قام به المُترجم له بعد إتمام دراسته من عمل، كتدريس أو قضاء او تأليف، ومقره أثناء العمل، مدة تدريسه اوقضائه، وذكر أسماء بعض أبرز تلاميذه، وما ظهر على يديه من الكرامات، وأهم الحوادث التي تعزى إليه، فضلاً عن ذكر بعض أهم الأحداث السياسية والاجتماعية والطبيعية التي حدثت في إبان سنوات نشاطه.

وهاهنا يعلق الدكتور عبدالعزيز عبدالمجيد على مادة كتاب الطبقات، مُعرباً عن اعتقاده قائلاً: (... يمكننا أن نقارن إحدى هذه التراجم بترجمة طبقات الشعراني، فنجد كثيراً من أوجه التشابه .. هذا، وليست قيمة الكتاب فيما يحويه من تراجم، ولكنه يكشف أمامنا صفحات من حياة السودان السياسية والعلمية والثقافية، ومن المعتقدات والتقاليد الشائعة في ذلك العصر(1500 – 1800م)، وعلاقة السودان بغيره من الأمم الإسلامية المجاورة، وأثر هذه الأمم على السودان. ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب هو الوحيد الذي نستطيع أن نعرف منه كيف كان يعيش سكان السودان في ذلك العهد) .[1]

وأما كتاب (مخطوطة كاتب الشُّونة*، فهو كتاب ألفَّه الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي (1784 – 1840 م) تقريبا في تاريخ السلطنة السنارية وتاريخ الإدارة التركية المصرية في السودان، واعتورهبشئ من التنقيح والتهذيب بعد سنوات من تاريخ تأليف صاحبه له، أربعة مشائخ سودانيون هم كلُّ من: الزبير بن عبد القادر ود الزين الشهير بلقبه الزبير ود ضوَّة(ت 1882م)، وإبراهيم عبد الدافع (ت 1882م) والأمين محمد الضرير (ت 1885م)، وأحمد الحاج محمد جنقال. ثم خضع هذا الكتاب لعمليتي تحقيق سابقتين، الأولى بقلم البروفيسور مكي شبيكة صدرت في عام 1947م، والأخرى بقلم الأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل، وصدرت في عام 1961م، بينما أصدر البروفيسور يوسف فضل حسن في عام 2018م، نسخة محققةً تحقيقاً علمياً سديداً لهذه المخطوطة، عن دار (سوداتك (ودار) مدارك بالخرطوم.[2]

1 عبدالعزيز عبدالمجيد، **التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسيةالتي قامت عليها**، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، الهامش(3)، ص 87.

2 خالد محمد فرح، (تاريخ كاتب الشونة مُحقَّقا: وقفات وخواطر مع المتن والتحقيق) مقال بمدونة الباحث بصحيفة سودانايل الالكترونية، نشُر بتاريخ 1 / أكتوبر / 2018م .www.sudanile.com

هذا، وعن مخطوطة كاتب الشونة يقول الدكتور قيصر موسى الزين:

(تتميز مخطوطة كاتب الشونة باتباعها التسلسل التاريخي المنتظم لأهم أحداث الفترة السنارية تحت ظل الفونج، وهي أقرب إلى التاريخ الحولي. وتتصف بالاختصار ودقة الملاحظات التي تدل على الحذق والمهارة. ولقد اعتمد عليها الدارسون الأوروبيون والأمريكيون مثل اسبولدِنق كثيراً، رغم محاولاتهم التقليل من شأنها. وتشكِّل مع مذكراتالرحالة الاسكتلندي جيمس برُوس المصدر الأساسي للتسلسل الزمني لفترات حكم سلاطينالفونج) .[1]

على أننا لاحظنا أنَّ الدكتور قيصر قد سها فيما يبدو، عندما زعم أن أحمد بن الحاج أبوعلي، الذي هو مؤلف كتاب مخطوطة كاتب الشونة، قد كان من مرافقي حملة إسماعيل باشا بن محمد علي باشا عندما غزا السودان في عام 1820م.[2]

ولعل المؤلف قد خلط بين أحمد بن الحاج أبو علي السوداني، وبين الشيخ احمد السلاوي المغربي المالكي(1791 – 1840م)، الذي كان قد قدم إلى السودان في رفقة جيش إسماعيل كامل بن محمد علي باشا، وبصحبته كل من الشيخين أحمد البقلي الشافعي، ومحمد الأسيوطي الحنفي، بغرض استمالة السودانيين للاذعان والقبول بسيادة والي مصر وحكمه لهم.

ومهما يكن من شئ، فإن مخطوطة كاتب الشونة، قد عرضت لجوانب شتى من مجريات الحياة الثقافية والعلمية في سودان وادي النيل في ظل السلطنة السنارية وخصوصاً في فترتها الأخيرة الواقعة ما بين منتصف القرن الثامن عشر وحتى مطالع القرن التاسع عشر الميلادي، وهي لعمري، ذات الفترة التي عاش فيها، وازدهر نشاط العلاَّمة محمد مرتضى الزبيدي، الذي تشكل صلته العلمية بالسودان والسودانيين الموضوع الأساسي لهذه الرسالة .

1 قيصر موسى الزين،**فترة انتشار الإسلام والسلطنات في السودان**، منشورات مشروع سنار عاصمة للثقافة الإسلامية 2017م، كتاب سنار (58)، الطبعة الأولى، 2017م، ص 25.

2 قيصر موسى الزين، المرجع أعلاه، ص 23.

المبحث الخامس

نماذج لتراجم بعض أبرز الفقهاء والمتصوفة الذين عاشوا في عصر الفونج

فيما يلي نورد نماذج لتراجم لبعض أبرز الأعيان من الفقهاء والعلماء والمتصوفة الذين عاشوا وازدهر نشاطهم في سودان وادي النيل، خلال فترة حكم سلطنة سنار 1504 – 1821م، على نحو ما هي مدونة في المصدرين الأساسيين الآنف ذكرهما أي: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمحمد النور بن ضيف الله، ومخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية فيالسودان. وقد توخينا في اختيارنا لهذه النماذج، اشتمالها مجتمعة على كل خصائص ومكونات العمل التربوي والتعليمي والإرشادي، والحراك العلمي والثقافي بصفة عامة من تدريس، وإرشاد صوفي، وتسليك للطريق، ورحلة من أجل طلب العلم، أومن أجل نشر العلم أو التصوف، فضلاً عن التواصل والتزاور والتراسل العلمي، واستصدار الشهادات والإجازات العلمية، وغير ذلك:

1- إدريس بن محمد الأرباب(1507 – 1651م): جاء في سيرته بكتاب طبقات ود ضيف الله، أنه ولد بالعيلفون، وقيل بالحليلة شوحَطَتْ شمال الخرطوم بحري الحالية، وأنه ينتمي لقبيلة المَحَس. وهو يعُتبر بحسب رواية الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن (1645 – 1743م) كما جاء في كتاب الطبقات، أول من أوقد نار الشيخ عبدالقادر الجيلاني ببلاد السودان، بمدد من رسول الله (ص)، ويقال أيضاً إنه قد جاءه رجلٌ من بلاد المغرب بالخطوة يدُعى (عبدالكافي) فلقنه الطريقة القادرية. أسَّس بلدة (العيلفون) جنوب شرقي الخرطوم وأقام بها، ومارس فيها نشاطه التعليمي والدعوي والإرشادي والاجتماعي، وظل يمكث بها إلى حين وفاته بعد عمر طويل جدا تجاوز المائة وأربعين عاماً، ودُفن بها حيث صار ضريحه هناك وما يزال، مزاراً دينياً مشهوراً، وعمَّرها من بعده أبناؤه وأحفاده وذريتهم إلى يوم الناس هذا. وقد منحه سلاطين سنار حق الشفاعة، فدخل سنار سبعين مرة في رعاية مصالح المسلمين. سلكَّ وأرشد الكثير من التلاميذ والمريدين، الذين

صار معظمهم أعلاماً نابهين فيما بعد. كان معاصراً لشيخ المالكية بالجامع الأزهر بمصر، الشيخ علي الأجهوري(1560 – 1656م)، وتبادل معه الرسائل، وأهداه الشيخ الأجهوري بعض الهدايا العينية (راية وعمامة وشَدَّة وجُوخة)، أرسلها مع أحد تلاميذ الشيخ إدريس نفسه، تقديراً لعلمه وصلاحه، واعترافاً منه بظهور رأي الشيخ إدريس على رأيه هو نفسه، في مسألة حُرمة تدخين التبغ من حِلِه.[1]

2- إبراهيم البولاد بن جابر: هو الشيخ إبراهيم بن جابر بن عون بن سليم بن رباط بنغلام الله بن عايد، الشريف اليمني حفيد الشيخ احمد بن عمر الزيلعي. وكان الشيخ غلامالله المذكور قد هاجر إلى السودان وأقام بدنقلا في اواسط القرن الرابع عشر الميلادي، وعُرفت ذريته من بعد باسم (الرِّكابية (على وجه العموم، نسبة لابنه (ركاب (شقيق ابنه رباط الجد المباشر للمترجم له. وُلد الشيخ إبراهيم البولاد بجزيرة (ترنج (بأرض قبيلة الشايقية بشمال السودان، وارتحل إلى مصر، ودرس بالجامع الأزهر على يد الشيخ محمد البنوفري(ت 1590م)، وأخذ عليه الفقه والأصـــــول والنحو. ثم عـــــاد إلى موطـــــنه (ترنج (بالسودان، ودرَّس فـــــيها (خليل (و) الرسالة (كما قال صاحب الطـــبقات، يعني: مختصر خليل بن إسحق، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي. وهو – وفقاً لود ضيف الله – اول من درَّسَ (خليل (ببلاد الفونج وشُدَّت إليه الرحال. ومدرسته في خليل سبع ختمات، وعلمَّ فيها أربعين إنساناً، صاروا كلهم اولياء وأقطاباً بإذن الله تعإلى كما قال ود ضيف الله، ومن جملتهم الشيخ الصالح عبد الرحمن أخوه.[2]

وعطفاً على ما ذكره ود ضيف الله من أنَّ الشيخ إبراهيم البولاد بن جابر قد كان أولَّ من درَّس مختصر خليل بن إسحق ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في مملكة سنار، فلعله يحق لنا ان نفترض من ضمن من قد يفترضون، بأن دخول مذهب الإمام مالك بن انس (ت 179 هـ)، في سودان وادي النيل وشيوعه فيه، ربما جاز التماسه في سوى

1 محمد النور ولد ضيف الله ، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م ، ص 50 – 65.

2 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 46، وللمزيد عن أولاد جابر انظر: .Holt, P.M. The Sons of Jabir and their Kins, A Clan of Sudanese Notables, BSOAS, Vol.XXX, 1967, p.146

تأثره بجواره الجغرافي الذي كان فيه هذا المذهب منتشراً، مثل صعيد مصر والحجاز، والمغرب العربي، ووسط وغرب إفريقيا المسلمة، في حقيقة أنَّ كثيراً من أفراد القبائل والمجموعات البشرية التي هاجرت من مواطنها بالجزيرة العربية إلى السودان من الراجح أنها كانت تتبع هذا المذهب الفقهي أساساً في عباداتها ومعاملاتها وربما تكون قد جلبت معها مذهبها ذاك إلى أرض السودان، التي ناسبها هذا المذهب تماما، لأنها أرض بداوة وبساطة، يلائمها مذهب مالك، كما يذهب إلى ذلك نفرٌ من الباحثين.

ذلك بأنَّ عدداً من القبائل التي نزحت إلى براري السودان منذ القرون الأولى للهجرة كانت تعيش في الحجاز ونجد وأطرافها الشرقية مثل: ربيعة، وجهينة، وبنو كاهل الذين هم من بني أسد بن ربيعة، وكنانة وبنو حنيفة وغيرهم. فلا يسُتبعد إذاً أن تكون تلك الجماعات قد هاجرت إلى سودان وادي النيل ومعها مذهبها الفقهي المالكي نفسه، ثم تعزَّز وجود مذهب مالك في أرض السودان وتوطَّد فيما بعد، بتضافر بعض العوامل الأخرى مثل: القرب الجغرافي والتداخل البشري والتواصل الثقافي مع مواطن انتشار ذلك المذهب كما بيناه آنفا، وخصوصاً بسبب قدوم طائفة من العلماء والفقهاء المالكيين إلى السودان من مختلف أمصار العالم الإسلامي خلال فترة حكم الممالك السودانية الإسلامية، وكذلك بفضل ارتحال عدد من الطلاب والعلماء السودانيين خلال ذات الفترة، واتصالهم بكبار علماء المذهب المالكي في مختلف معاهد العالم الإسلامي وخصوصاً في الجامع الأزهر بمصر، حيث جلسوا إليهم ونهلوا من علومهم ومعارفهم.

والحق هو أ نَّ مذهب الإمام مالك بن انس، الذي هو مذهب أهل المدينة، وإن زاحمته المذاهب الأخرى وخصوصاً في القرون المتأخرة، في بعض أقطار الخليج والجزيرة العربية عموماً، وخصوصاً مذهب الإمام الشافعي في جنوب اليمن وحضرموت ومذهب الإمام أحمد بن حنبل في سائر شبه الجزيرة العربية، إلاَّ أنه ما تزال منه بقية صالحة إلى الآن في الحجاز نفسه، وفي شرقي نجد بنواحي الأحساء[1]، وفي دولة

1 من محادثة مباشرة مع العلامة الدكتور جعفر مرغني، الذي كان قد وقف على التراث المالكي بالمنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية شخصيا، وقابل بعض أعيان شيوخ المالكية بحي الصالحية بالهفوف، أثناء تحضيره للدكتوراه في سبعينيات القرن الماضي.

الإمارات العربية المتحدة كذلك، وهو ما يفسر– على سبيل المثال- لجوء هذه الأخيرة للاستعانة بقضاة شرعيين متفقهين في المذهب المالكي من كل من السودان وموريتانيا، للعمل في محاكمها إلى يوم الناس هذا. وما تزال هنالك إلى اليوم، أسر مالكية مرموقة بمناطق الأحساء والهفوف، تعكف باهتمام على رعاية تراث أسلافها الباذخ، الذين نبغ فيهم علماء مالكيون أفذاذ، مثل آل مبارك، وآل عمير، وآل عبد اللطيف.[1]

3- الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب: هو الشيخ محمد بن عيسى بن صالح البديري، المشهور بلقبه (سوار الذهب)، وهولقبٌ صار سمة مميزة لأحفاده الذين أضحوا عشيرة كبيرة ومنتشرة في شتى بقاع السودان إلى يوم الناس هذا، حيث يعُرفون ب (السواراب) جرياً على صيغة النسب التقليدية في العامية السودانية. وُلد بمدينة (دنقلة (بشمال السودان، وعاش في بحر القرن السادس عشر، وعاصر الشيخ إدريس بن محمد الأرباب الذي مضت ترجمته آنفا. ذكر ود ضيف الله في طبقاته، أن هذا الشيخ قرأ (خليل) على أبيه الشيخ عيسى، فأخذ عنه ختمة تامة، والثانية إلى الجنائز، فتوُفي والده فدرَّس هو بعد أبيه. وقرأ العقائد والمنطق على المصري (أي الشيخ محمد القناوي المصري الذي قدم إلى السودان من مصر في حوالي منتصف القرن السادس عشر الميلادي وأقام بمدينة بربر)، وسلك عليه الطريق، ثم انتشر علم الشيخ محمد سوار الذهب في جزيرة الفونج.[2] وكان الشيخ محمد النور بن ضيف الله قد ذكر في مقدمة كتابه (الطبقات)، أن رجلاً يدُعى (التلمساني المغربي) قد قدم على الشيخ محمد سوار الذهب المذكور، وسلَّكه طريق القوم، وعلَّمه علم الكلام، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها، وانتشرعلم التوحيد والتجويد في الجزيرة، لأنه أخذ عليه القرآن عبد الله الأغبش، ونصر ولد أبو سنينة في أربجياً.هـ[3]

هذا، ويمثل الشيخ سوار الذهب ومدرسته العلمية والفقهية، تجسيداً وانعكاساً نموذجياً بامتياز للأثر المغربي، على الحراك العلمي في السودان. ذلك بأن الشيخ التلمساني

1 انظر في ذات السياق مقال الدكتور أحمد عبد العزيز الحداد (مذهب إمام دار الهجرة في الجزيرة العربية (بالنسخة الالكترونية من صحيفة الإمارات اليوم، عدد يوم 2 يونيو 2017م، وكذلك مقال معاذ بن عبد الله المبارك بعنوان: (الأحساء قبلة العلماء والأدباء (بموقع الرأي الالكتروني، بتاريخ 4 ديسمبر 2009م.

2 محمد النور ولد ضيف الله ، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 348.

3 **الطبقات لود ضيف الله** ، المصدر المذكور اعلاه، ص 42.

المذكور، وإن لم يسعفنا ود ضيف الله باسمه المجرد كاملاً، إلا ان من الواضح انه منسوب إلى مدينة (تلمسان (المشهورة ببلاد المغرب الأوسط أو الجزائر الحالية. وإذا ما كان طريق القوم الذي سلكه الشيخ التلمساني لتلميذه سوار الذهب هو الطريق القادري، وهو الراجح، فمن المحتمل ان يكون التلمساني نفسه قد سلك الطريقة القادرية عن سلسلة مشايخ اخذوها بدورهم عن شيخ قادري تلمساني شهير أيضا عاش في بحر القرن الخامس عشر الميلادي، هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي(ت 1503م).

ويتجلى الأثر المغربي في مدرسة سوار الذهب أيضاً، في وجود رواية ورش عن نافعالمدني في قراءة القرآن بمنطقة دنقلا واحوازها بشمال السودان، وهي كما هو معروف، الرواية الشائعة في شمالي إفريقيا وغربها كذلك إلى اليوم، فيما عدا ليبيا التي يقرأ اهلهابرواية قالون عن نافع، في حين أن الرواية القرآنية التقليدية الشائعة حقاً في عموم السودان، هي رواية أبي عمر الدوري عن أبي عمرو بن العلاء البصري، وقد ظلت سائدةً داخل البلاد لقرون عديدة، حتى قدمت عليها وزاحمتها رواية حفص عن عاصم الكوفي، حيث عملت على إدخالها وتكريسها ونشرها، إدارة الحكم التركي المصري ابتداء منذ عام 1821 فما بعده، وساعدها في ذلك بكل تاكيد سبق الدولة العثمانية إلى طباعة المصحف الشريف لأول مرة بهذه الرواية دون سائر الروايات، حيث أصبحت هي القراءة المتبعة في المدارس النظامية، بينما اقتصر تدريس رواية الدوري على الكتاتيب التقليدية.

وكذلك يتمثل الأثر الثقافي والعلمي المغاربي عبر مدرسة الشيخ سوار الذهب، والتي يعتبر الشيخ عبد الله الأغبش أحد أبرز خريجيها، في ظهور تلميذ الشيخ الأغبش الذي قرأعليه القرآن وأحكامه، ألا وهو: (الشيخ الدنفاسي)، كما أثبت ذلك صاحب الطبقات[1]، وذلك على الرغم من اختلاف الباحثين حول تعيين الهوية القطرية لهذا الدنفاسي نفسه، وعما إذا كان سودانياً، أومغربياً درس بالسودان. ومهما يكن من أمرفإن (منظومة الدنفاسي) في ألفاظ القرءان، قد كانت وما تزال فاشية ومشهورة جداً بين حفظة القرءان الكريم والمشتغلين بعلومه في سائر بلاد المغرب العربي، وغرب إفريقيا المسلمة كذلك بالتأثرُّ.

1 محمد النور ولد ضيف الله ، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 280، وفيها ذكر ود ضيف في معرض ترجمة الشيخ عبد الله الأغبش، أن من تلاميذه (الدنفاسي صاحب المنظومة الفي ضبط شكل القرآن.)

4- الشيخ أرباب بن علي الخشن (أرباب العقائد)1608 / 1691م:

هو الشيخ أرباب بن علي بن عون بن عامر. وُلد بجزيرة (توتي (الكائنة في وسط النيل بالخرطوم، قريباً من ملتقى النيلين الأزرق والأبيض، وهو ينتمي إلى قبيلة المَحَسْ. لُقَّب ب) أرباب العقائد (لأنه كان ماهراً في علم التوحيد. أخذ علم الفقه من الشيخ الزين ولد صغيرون (ت 1685م)، وتعلم علم العقائد من الشيخ علي ولد برِي (ت 1663م). شُدَّت إليه الرحال في علم التوحيد والتصوف، وبلغ عدد طلبته ألف طالب ونيِف، من دارالفونج شرقاً إلى دار البرنو غرباً، تلامذته وتلامذة تلامذته. وألفَّ كتاباً في أركان الإيمانوسماه (الجواهر) انتفعت به الناس شرقاً وغربا. وتلامذته هم شيوخ الإسلام منهم الحاجخوجلي، والفقيه حمد بن مريم، والفقيه حمد بن حتيك، والفقيه محمد بن ضيف اللهوهوجد مؤلف الطبقات، والفقيه هارون بن حصى، والشيخ فرح ولد تكتوك، والقرشي الصليحابي، وكثيرون غيرهم. وتوفي هذا الشيخ في عام 1691م بمدينة سنار عاصمة سلطنة الفونج، ودُفن بها.[1]

وفي تقدرينا أنَّ ترجمة الشيخ أرباب العقائد الذي يلقب أيضا بأرباب الخشن، نسبة لخشونة جسده من كثرة الوضوء كما جاء في الطبقات، تكتسي أهمية خاصة بالنسبة للمكانة العلمية، والتطور الحضاري للسودان بصفة عامة. ذلك بأن نشوء مدينة الخرطوم الحديثة قد ارتبط بحادثة انتقال ذلك الشيخ إلى موضعها الحالي، من مسقط رأسه جزيرة توتي، خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي، حيث أقام فيها دار سكنه ومسجده ومدرسته(مسيده) لتعليم القرءان والفقه والتوحيد، وذلك قبل ان ينتقل منها مرة أخرى إلى مدينة (سنار (، التي أقام فيها برهة، حتى وافته المنية بها، ودُفن في ثراها في حوالي عام 1691م .

أما كتاب (الجواهر) في أركان الإيمان الذي ألفه الشيخ أرباب بن علي، وأشار إليه مؤلف الطبقات، والذي كان مفقوداً زماناً طويلاً، وظل الناس في السودان خاصة يعرفونه بالاسم والعنوان فقط، ولم يعثر له أحدٌ على أثر، فقد عثر الأكاديمي والباحث السوداني الدكتور أحمد محمد البدوي مؤخرا على نسخة منه بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس، فاستنسخ صورة منها، بل أجرى بحثاً توصَّل من خلاله إلى أن الشيخ

---

1 انظر ترجمته بكتاب **الطبقات لود ضيف الله** ، الصفحتان 100 و101

أرباب بن علي وكتابه (الجواهر)، قد كانا وما يزالان معروفين معرفةً تامة بين المهتمين في سائر بلاد غر بي إفريقيا المسلمة، حيث يعُرف هناك بـــ (أرباب الخرطومي).[1]

واستناداً إلى تلك الصورة المستنسخة من النسخة المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس من مخطوطة ذلك الكتاب، والتي حصل عليها الدكتور احمد البدوي كماأسلفنا، عمد الأستاذ حسين الفضل، وهو أحد أحفاد الشيخ أرباب العقائد، ومعه اثنان آخران إلى إصدار أولنسخة مطبوعة داخل السودان من هذا السفر النفيس، كتاب (الجواهر) للشيخ أرباب بنعلي.[2]

5- الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن (1645 – 1743م):

هو خوجلي بن عبدالرحمن بن إبراهيم، وامه أسمها ضوَّة بنت خوجلِي. أبوه عبدالرحمن مَحَسِي كُبانِي، وأمه محسيةمشيرفية. وجده إبراهيم من تلامذة محمد بن الشيخ إبراهيم البولاد بن جابر. وُلد الشيخ خوجلي بجزيرة توتي في حوالي سنة 1645م [3]، وبدا الكتاَّب عند الفقيرة عائشة بنت ولد قدَّال، وأخذ علم الكلام والتصوف من الفقير أرباب بن علي (أرباب العقائد) وتفقه في (خليل) على الشيخ الزين ولد صغيرون. وهو ممن جمع بين التصوف والفقه، وحجَّ بيت الله الحرام، وسلك طريق القوم على الشيخ أحمد التنبكتاوي الفلاتي القطب الربأَّني القاطن بالحرم النبوي. وقد كان للشيخ خوجلي المترجم له، مريدون وتلاميذ كثيرون، صار معظمهم شيوخاً مشهورين، وخصوصاً بمنطقة الخرطوم الكبرى، والجزيرة، وبعض المناطق بشمال السودان.

هذا، وتكمن أهمية ترجمة الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن، الشهير بكنيته (أبوالجاز) والجاز هي ابنته كما يقولون، في كون أنها تتميز بالثراء والحيوية، فضلاً عن انها تعكس جوانب مهمة وذات دلالة خاصة فيما يتعلق بجوانب الرحلة العلمية، والتواصل الروحي التي شارك فيها بعض الفقهاء والمتصوفة في السودان بسهم وافر. فالشيخ خوجلي – على سبيل المثال – بدأ قادرياً في التصوف، وانتهى به الحال إلى الانتقال إلى اعتناق الطريقة

1 انظر مقال الدكتور احمد محمد البدوي حول هذا الموضوع، بصحيفة سودانايل الالكترونية، تاريخ النشر 9 نوفمبر 2018م .

2 كتاب: **الجواهر الحسان في معرفة أركان الإيمان**، تأليف أرباب العقائد(1017 هـ - 1102هـ)، تحقيق: حسين الفضل، ومحمد السيد أرباب، ومحمد صلاح عصملِ ي، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، 2017م.

3 أورد رتشارد هل في ترجمته له بمعجم تراجم أعلام السودان، أنه قد عاش 101 سنة قمرية، وهي تعادل 98 سنة ميلادية تقريبا، وبما أنه قد توفي في عام 1743م، فقد قدرنا سنة ميلاده بالتقريب في عام 1645م، بدلاً عن 1643م التي اقترحها هل .. انظر رتشارد هل، ص

الشاذلية في الحجاز، إبان قيامه باداء فريضة الحج، وذلك على يد من أسماه محمد ود ضيف الله ب (الشيخ أحمد التنبكتاوي) الفلاتي القطب الرباني القاطن بالحرم المدني. وقدصار الشيخ خوجلي منذئذٍ واحداً من رموز الطريقة الشاذلية وأقطابها في السودان، وربمايكون سابقاً في اعتناقه لهذه الطريقة، لقطب شاذلي سوداني شهير آخر، هو الشيخ حمدبن محمد المجذوب 1693 - 1776م، لأن هذا الأخير قد توُفي في عام 1776م، بينماحدثت وفاة الشيخ خوجلي في سنة 1743م أي قبله بأكثر من ثلاثين عاما .

على أنَّ كلاً من الشيخين خوجلي بن عبد الرحمن، وحمد المجذوب، قد سلكا الطريقة الشاذلية من مصدر واحد، هو منهل الطريقة الناصرية الدرعية المغربية لمؤسسها الشيخ محمد بن ناصر الدَّرعي (1011هـ 1602م - 1085هـ 1676م)، نسبة لوادي درعة بالمغرب الأقصى. ذلك بأنَّ الشيخ خوجلي قد سلك الطريقة الشاذلية على يد الشيخ أحمد التنبكتاوي، والصحيح التنبكتي نسبة لمدينة تنبكتو الشهيرة، عاصمة امبراطورية (صونغى) الإسلامية، وسلك هذا الأخير بدوره على يد الشيخ محمد بن محمد بن ناصر الدرعي، وربما يكون الراجح انه قد سلكها على يد ابنه وخليفته الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي(1647 - 1717م)، خصوصاً أن المصادر تذكر ان الشيخ أحمد بن ناصر قد حج إلى بيت الله الحرام، والتقى هناك بالعديد من علماء الحرمين، وتدارس معهم حول مختلف مسائل الفقه والعلم والتصوف، وألف رحلة أسماها (الرحلة الحجازية)، بينما سلك الشيخ المجذوب على يد الشيخ علي الدراوي نسبة لبلدة دراو بصعيد (مصر)، والذي أخذ هذه الطريقة بدوره عن الشيخ احمد بن ناصر الشاذلي.[1]

ومما يدل على ذلك، قول ود ضيف الله في معرض ترجمته لهذا الشيخ: (واما أصل طريقته فالأساس قادري، والأوراد والأخلاق شاذلي. فإن شيخه محمد بن الناصر الشاذلي.) [2]

---

1 محمد النور ولد ضيف الله ، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م ، ص 189، وانظر ترجمة الشيخ أحمد بن ناصر الشاذلي في موقع موسوعة ويكبيديا الالكترونية. فهذه الترجمة للشيخ خوجلي بن عبد الرحمن توقفنا إذن، على ملمح ذي دلالة خاصة من ملامح التأثير المغربي على مسيرة التصوف فيالسودان، كما يتجلَّى ذلك في نشاط الطريقة الشاذلية الناصرية الدرعية المغربية بالتحديد .

2 **الطبقات،** المرجع اعلاه، ص 196.

ولئن كان محقق كتاب طبقات ود ضيف الله، قد ذكر في الهامش رقم (5) في ذاتالصفحة، انه لم يعثر على ترجمة لمحمد بن ناصر الشاذلي، فنقول: هو أبو عبد الله محمدبن محمد بن محمد بن الحسين بن ناصر الدَّرعِي، فقيه ولغوي ومتصوف وجامع كُتبمغربي. وقد وصفته موسوعة (ويكيبيديا) المنشورة على الشبكة العنكبوتية بانه منالشخصيات الأكثر تأثيراً على التصوف المغربي، حيث يعُتبر مُجدَّداً للطريقة الشاذلية. وُلد في عام 1011هـ .1602م، ونشأ وذاع صيته، وازدهر علمه وطريقته بمنطقة "وادي دَرعة) بالمغرب الأقصى، وتوُفي في سنة 1085هـ.1676م.[1]

أما عن الشيخ القطب أحمد التنُبكتاوي أو التنبكتي، الذي أخذ عنه الشيخ خوجلي الطريقة الشاذلية الناصرية في الحجاز، فيخمِّن هذا الباحث تخميناً، حدساً معززاً ببينة ظرفية أنه ربما كان هو العلامَّة أحمد التنبكتي المالكي، الذي ذكره الأهدل في النفس اليماني، بوصفه أحد مشائخ جده الشيخ يحي بن عمر مقبول الأهدل (ت1147 هـ / 1734م)، بما يعني ضمناً وغالباً، أنه قد التقى بتلميذه اليمني يحي الأهدل في الحجاز. وقد وصف العلامة التنبكتي في كتاب الأهدل بأنه كان معاصرا ً للشيخ عبد الغني النابلسي (1641 – 1731م)، وأنه ألفَّ الشرح المسمَّى ب (رائحة الجنة بشرح إضاءة الدُّجنةَّ (.[2] فإذا ما علمنا أن الشيخ عبد الغني النابلسي قد عاش ما بين عامي 1641 و1731م، وأن الشيخ أحمد التنبكتي المذكور قد كان معاصراً له بحسب نص الأهدل، فقد ناسب أن يكون أحمد التنبكتي شيخا للشيخ خوجلي المولود في عام 1645 والمتوفى في عام 1743م، وناسب أن يكون ترجيحاً هو القطب أحمد التنبكتاوي نفسه.

6- الشيخ حسن بن عبدالرحمن بن صالح بن بان النقَّا:

هو الشيخ حسن بن عبدالرحمن بن صالح بن بانقا بن الشيخ عبدالرازق أبو قرون. وهوسليل أسرة تتألف من سلسلة من الشيوخ المشهورين بالعلم والصلاح، يوجد على رأسها جده الأعلى الشيخ عبدالرازق أبو قرون، وكذلك جده الآخر الشيخ بانقَّا

1 انظر ترجمته في www.wikipedia.com

2 عبدالرحمن بن سليمان الأهدل،**النَّفَس اليماني والروح الروحاني، في إجازة القضاة بنيالشوكاني**، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، دارالصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، 2012م، ص 72.

الضرير اللذين عاشا في القرن السادس عشر الميلادي. وُلد الشيخ حسن المُترجم له، على ما جاء عنه في كتاب طبقات ود ضيف الله، يوم الثلاثاء العاشر من محرم سنة 1159 هـ الموافق للثاني من فبراير 1746م. قرأ القرآن على الفقيه حمد ولد أبي راس والفقيه علي والفقيه بشير والفقيه مقبول ابني عثمان علامة: اعني (مختصر خليل) و(الرسالة) على الفقيه عبد الهادي بن إسماعيل، والعقائد (السنوسية) على الفقيه إسماعيل بن الفقيه الزين والفقيه محمد الخناَّقي و(ألفية بن مالك) على الفقيهين حمد بن الفقيه نواوي تلميذ الفقيه حسن سكيكرة، والفقيه احمد بن عيسى الأنصاري، والفقيه عبد القادر ود التويم. واستجاز كتب الحديث ومصطلحها صحبة الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري وغيره عن الشيخ أحمد الدرديري، والشيخ محمد الأمير، والشيخ السيد الشريف المُرتضى. سلك الطريقة القادرية البهارية على والده.. (أ. هـ [1]

ولعمري فإنَّ ترجمة الشيخ حسن بن عبد الرحمن بن صالح المذكورة آنفا، كافيةٌ في بيان حقيقة الرحلة من أجل طلب العلم، والتواصل العلمي بين سودان وادي النيل، وحواضر العالم الإسلامي الأخرى التي كانت قائمة في الماضي، وما فيها من مدارس ومعاهد وعلماء أجلاءَّ، على نحو ما هو مذكور – على سبيل المثال – من أمر شخوص العالم السوداني الشيخ احمد بن عيسى الأنصاري إلى الأزهر الشريف بمصر، وتلقيه العلم على أيدي بعض علمائه، الأعلام آنئذٍ، أمثال المشائخ: أحمد الدردير، ومحمد الأمير، والشريف محمد مرتضى الزبيدي، فضلاً عن طلب المترجم له من اولئك المشائخ المذكورين بالمراسلة، أن يجُيزوه في مؤلفاتهم ومروياتهم.

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 189 – 190.

المبحث السادس

الـمؤثـرات الثقافيــة علـى السـودان السنـاري فـي الـمجالـين الدعــوي والعلمـي ومصادرهـا

مثلَّت بلاد سودان وادي النيل، وخصوصاً بعد قيام مملكة الفونج الإسلامية فيها 1504 – 1821م، أول دولة يتكرَّس فيها الوجود العربي والإسلامي ويتوطَّد بصورة رسمية، بعد نكبة العرب والمسلمين في الأندلس عقب سقوط آخر معاقلهم في غرناطة، وطردهم منهم على أيدي الفرنجة، بقيادة الزوج الملكي الإسباني الملك فرديناند والملكة ايزابيلا في عام 1492م .

فكأنَّ الخالق جلَّ وعلا، قد قدَّر بمشيئته، كما لاحظ أحد الباحثين، أن يعوِّض الأمة الإسلامية عن فقدانها الأندلس، بانضمام بلد جديد إلى رقعتها، هي بلاد سودان وادي النيل .

فتعليقاً على ذلك التطور التاريخي المهم، يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد:

(... وقع حادث آخر ذو خطر، نحو ظهور السودان الشرقي – سودان وادي النيل – بين أمم العالم الإسلامي، وبذلك أضُيف إلى أقطارها قطران جديدان هما مملكة سنار وسلطنة دارفور.)[1]

لقد تميزت بلاد سودان وادي النيل منذ ما قبل قيام سلطنة سنار، وخصوصاً بعد قيام هذه الأخيرة، بانفتاح ملحوظ على مختلف أمصار العالم الإسلامي، حيث شكَّلَ من ناحية، بؤرة اجتذاب للعلماء والمرشدين والفقهاء والمتصوفة، الذي قدِ موا إليه من شتى ديار المسلمين، من أجل بث علومهم ومعارفهم بين أهله، كما شكل منطلقاً للطلاب والعلماء وأهل التصوف وسائر المريدين، نحو شتى الأمصار الإسلامية، بغية

1 عبدالعزيز عبدالمجيد، **التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسيةالتي قامت عليها**، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م.، ص 78.

الاتصال بكبار المشائخ والعلماء والمتصوفة، في مختلف الحواضر الإسلامية، لكي ينهلوا مما عندهم من العلوم والمعارف والأوراد والأسرار .

لقد تجلتَّ تلك المؤثرات الثقافية الخارجية على سودان وادي النيل، على مستويين اثنين رئيسيين: أحدهما الروافد الثقافية التي وردت إلى السودان من محيطه الإسلامي والآخر هو رحلات السودانيين إلى أقطار العالم الإسلامي، وخصوصاً بغرض الحج إلى المناسك المقدسة، وكذلك من اجل التعليم والتعلمُّ، والتبادل المعرفي والثقافي عموما، بالأضافة إلى استجلاب السودانيين لما كان يروق لهم من الكتب والمصنفات الفقهية واللغوية والتاريخية وغيرها، من شتى الحواضر الإسلامية.

أ. الرافد اليمني:

يعُتبر اليمن أحد المصادر التي قدمت منها أبكر المؤثرات العلمية والثقافية على سودان وادي النيل. فإليها – على سبيل المثال - ينُسب الشيخ غلام الله بن عائد الذي قدم من اليمن، وسكن بمدينة (دنقلة) بشمال السودان في حوالي منتصف القرن الرابع عشرالميلادي، حيث وجد أهلها في حيرة شديدة، وضلال مبين عن أصول العقيدة، ومبادئ العبادات والمعاملات الإسلامية الصحيحة، فشيَّد بها المساجد والمدارس، وأرشد الناسوعلمهم أمور دينهم، ثم خلفه أبناؤه واحفاده هناك، اولئك الذين سيعرُفون فيما بعدب (الرِّكابية) نسبة لأحد أبنائه المُسمى (رِّكاب)، والذين ظهر من بينهم فقهاء وعلماء وشيوخ تصوف كثيرون، نشروا الدين والعلم والفقه والتصوف في شتى أرجاء السودان .

وقد اشتهر من بين أحفاد غلام الله المذكور، كلٌّ من أولاد عون الله، وأولاد جابر والدواليب، والصادقاب، والشبواب، وغيرهم، الذين نبغ فيهم جميعاً عدد كبير من الأولياء والعلماء والفقهاء، الذين تذخر سائر المصنفات التي تتناول تاريخ الدعوةوالتعليم والثقافة والتصوف في السودان، بتراجمهم وأخبارهم.[1] وفي ذات السياق يقول الدكتور يحي محمد إبراهيم:

1 انظر في هذا الخصوص – على سبيل المثال – المراجع التالية: طبقات ود ضيف الله، وتاريخ التربية في السودان لعبد العزيز عبد المجيد، والتصوف في السودان لحسن الفاتح قريب الله، وتاريخ التعليم الديني في السودان للدكتور يحي محمد إبراهيم، والطرق الصوفية في السودان بالإنجليزية للبروفيسور علي صالح كرار.

(كان غلام الله يعيش مع أسرته على البحر الأحمر، ويحتمل أن ذلك كان في مدينة زيلع التي تنتمي إليها أسرته. وإذا تأكد هذا، فإن مدينة زيلع، كانت على صلة بالسودان عن طريق التجار الذين كانوا يحملون إليها العاج والريش والجلود، لمقايضتها بالمنسوجات والخرز والخزف. وليس ببعيد ان يكون الزيلعيون قد وقفوا على أخبار السودان بعامة، ودنقلا بخاصة من خلال حركة التبادل التجاري) .[1]

وبمناسة ذكر (زيلع (هاهنا، فإنه ربما جاز لنا ان نخُمِن بان يكون النسَّابة الوطنيون السودانيون، وكثيرون ممن تأثروا بهم من الباحثين، ربما يكونون قد أخطأوا في رسم اسم القرية التي كان ينتمي إليها الشيخ غلام الله بن عايد في بلاد اليمن. وأنهم ربما يكونون قد صحَّفوها من (اللِحيَّا) إلى (الحليلة) كما هي شائعة عندهم.

والحق هو أنه لا وجود لقرية باسم (الحليلة (باليمن كما لاحظ الباحث الأستاذ الطيب محمد الطيب محقا، وأثبته في كتابه (المسيد (، وذلك في معرض بحثه في سيرة الشيخ غلام الله بن عائد. ولكن هنالك بالفعل قرية اسمها (اللِحيَّا (بالقرب من زيلع ومن أعلامها كلٌّ من الشيخ أبو بكر العقيلي صاحب اللحيَّا، الذي كان من أولياء الله الكاملين، والشيخ أبو بكر المقبول الزيلعي، والشيخ عثمان الزيلعي.[2]

وبالطبع فإن (اللِحيَّا (قريبة في النطق والفهم كذلك من (الحليلة (المألوفة أكثر بالنسبة لسائر السودانيين خاصةً، لأنهم ربما فهموا منها أنها تصغير) الحِلةَّ (بكسر الحاء بمعنى القرية عندهم .

هذا، ويضيف الدكتور يحي محمد إبراهيم نقلاً عن كتاب صفة جزيرة العرب لعمر رضا كحالة، أن اللحيَّا: مدينة على الساحل الجنوبي من خليج جزان، على شاطئ العرب من البحر الأحمر.[3]

وإلى جانب غلام الله بن عايد وأحفاده، نجد بضعة مشائخ آخرين قدموا من اليمن إلى أرض سودان وادي النيل، قبيل قيام المملكة السنارية، أومع بواكير نشأتها، مثل الشيخ حمد ولد زروق الذي سكن (الصبابي (إحدى ضواحي الخرطوم بحري، وأقام

1 يحي محمد براهيم، **تاريخ التعليم الديني في السودان**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م.، ص 34 - 35.

2 يحي محمد براهيم،**تاريخ التعليم الديني في السودان**، المرجع المذكور أعلاه، ص 37.

3 يحي محمد براهيم، **تاريخ التعليم الديني في السودان**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ص 37.

فيها كُتَّاباً درس فيه الشيخ إدريس بن محمد الأرباب(1507 – 1651م) عندما كان صبياً صغيرا، وكذلك الفقيه (جار النبي (الذي قدم إلى السودان من حضرموت، وأقام بقرية (دليل (بالقرب من موقع مدينة الأبيِّض الحالية بكردفان[1]، ومن أرض حضرموت كذلك، قدم شيخٌ آخر يدُعى (جبارة (، لا تسعفنا المصادر عن سيرته بأي شئ سوى اسمه الأول فحسب.[2]

وبالطبع فإن الشريف محمد مرتضى الزبيدي اليمني 1732 – 1791م، الذي عليه مدار هذه الدراسة، يعتبر بكل تأكيد مظهراً مؤكداً من مظاهر التأثير العلمي والثقافي اليمني على بلاد سودان وادي النيل خلال فترة حكم سلطنة الفونج، وسلطنة دارفور كذلك. ذلك بأن عدداً من السودانيين قد درسوا عليه، واستجازوه إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة، كما سوف نرى لاحقا.

ب. الـرافـــد الـمصـــري:

أما الرافد المصري، فلعله يكون أقدم الروافد التي أثَّرت علمياً ودعوياً وثقافياً على سودانوادي النيل، وأعمقها أثرا. ذلك ببساطة لأن مصر قد كانت هي الموطن الذي قدمت من ناحيته بواكير مظاهر احتكاك بلاد السودان النيلي بالمؤثرات الإسلامية بصفة عامة، وذلكمنذ اصطدام النوبة بقوات العرب المسلمين القادمين من مصر بقيادة الصحابي عبد الله بنسعد بن أبي سرح، ووقوع معركة دنقلة في عام 31 هـ / 652م. ويغدو من المنطقي بالطبع، أن يكون ذلك الحدث المهم في العلاقات بين مصر الإسلامية وبلاد النوبة السودانية، قد تلته تطورات أخرى، كان من شأنها تعزيز الوجود الإسلامي في بلاد النوبة، بما في ذلك – بطبيعة الحال – بدايات تجلياته الثقافية والاجتماعية والعلمية والتعليمية .

ولعل مما يجدر ذكره في هذا المضمار، على سبيل الإشارة إلى وجود شواهد مادية قديمة، تحمل على الاعتقاد في وجود حياة اجتماعية راتبة ومستقرة، لجماعات مسلمة كانت تعيش في بلاد سودان وادي النيل، منذ القرون الأولى من الهجرة، أنَّ الكاتب الإيطالي الأب فانتيني، المتخصص في تاريخ المسيحية في السودان، قد نشر

---

1 **ولد ضيف الله، الطبقات**، ص 131.

2 **الطبقات المرجع السابق** ، ص 131.

في كتابه بعنوان: (المسيحية في السودان) نقشا على شاهد قبر لسيدة عربية مسلمة تدُعى (فاطمة بنت إبراهيم بن إسحق بن عيسى)، توفيت ودفنت في قبر يقع في منطقة قريبة من بلدة (مينارتي) بشمال السودان .والشاهد هو أن تاريخ وفاة تلك السيدة هو بحسب الأب فانتيني، هي سنة 423 من عهد الشهداء كما قال، الموافق لسنة 733م[1]

وبالطبع، فإن من الصعب تصوُّر مجئ تلك السيدة إلى أرض السودان في ذلك الزمان المبكر، وملابسات حياتها فيها، واستيطانها لها، إلى أن وافتها المنية، ودُفنت في ثراها، دون أن نتصور في ذات الوقت، وجود حياة اجتماعية وثقافية وتعليمية إسلامية متكاملة ومستقرة من حولها، لدرجة تقل أو تكثر.

على أننا في حاجة لمناقشة قراءة المؤلف لتاريخ وفاة هذه السيدة ومساءلته. إذ لماذا فهم فانتيني أن تاريخ وفاة تلك السيدة من عهد الشهداء المسيحي وهي سيدة مسلمة، فضلاً عن أن ذلك ليس منصوصا عليه أصلاً في النقش ذاته الذي يوضح أنها قد توفيت في اليوم الأول من شهر بؤونه من سنة 423 فحسب. ولماذا لا يكون هذا التاريخ بالتقويم الهجري، بمعنى أن تكون تلك الوفاة قد حدثت في عام423 للهجرة التي توافق عام 1032م، أيفي نهاية الثلث الأول من القرن الحادي عشر الميلادي. وليس هنالك عبرة بذكر شهربؤونة في هذا السياق، ذلك الشهر من شهور السنة القبطية التي ما تزال متداولة بين أهلمصر وشمال السودان على اختلاف مللهم، بمن في ذلك المسلمون الذين يذكرون أمشيروأبيب وغيرهما من الشهور القبطية إلى يوم الناس هذا.

وبحساب السنوات، فإن سيدة عربية كما يفترض ومسلمة، تتوفى في عام 733 ميلادية، أي في عصر الدولة الأموية، يكاد يكون من شبه المستحيل أن يكون اسم جد أبيها هو (عيسى (، لأنه في هذه الحال لا بد أنه قد كان من الصحابة، أو حتى من عرب الجاهلية، وبالطبع فإن أسماء أنبياء بني اسرائيل هذه لم يشع استخدامها بين الناس إلا ابتداء من العصر العباسي فما بعده. ولذلك ناسب في تقديرنا أن تكون هذه السيدة قد عاشت في القرنين الرابع والخامس الهجريين، الموافقيْن للقرنين العاشر والحادي عشر الميلاديْن على التوالي. وهو على كل حال تاريخ بعيد نسبيا، وكاف

---

1 جيوفاني فانتيني،**المسيحية في السودان**، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، 1998م، ص 78

للدلالة على إرهاصات الوجود العربي والإسلامي المستقر في سودان واي النيل منذ ذلك التاريخ.

هذا، ويبدو أنَّ الأب فانتيني قد تنبه لاحقاً لتلك المفارقة التي شابت تأريخه لوفاة تلك السيدة العربية المسلمة بأرض السودان وفقاً لما هو منقوش على شاهد قبرها، فعدَّل ذلك التاريخ في كتابه بعنوان: إعادة اكتشاف تاريخ النوبة القديم، فجعله عام 453 هـ وهو المعقول[1]، وهو عين ما خمَّناه من قبل، بيد أنه عاد وأخطأ في السنة الميلادية التي توافقه، فكتبها بين قوسين (737م)، وذلك غير صحيح، وإنما الصحيح هو أن ذلك التاريخ يوافق سنة 1032م كما ذكرنا آنفا.

ويُضاف إلى ذلك في ذات السياق، افتراض وجود حياة ثقافية وعلمية على مستوىً ما من المستويات في سودان وادي النيل، قادمة إليه من مصر أيضاً، لا بد أن تكون قد تأثرت بها الأجيال التي عاصرت غزو المسلمين لمملكة المقرة والأجيال التي تلتهم، والتي نبغ من بينها علماء وفقهاء ومحدثون أفذاذ، حتى اعتبر بعضهم من ضمن كبار التابعين، مثل يزيد بن أبي حبيب النوبي (53 – 128هـ) وأضرابه. فقد ورد في بعض المصادرالتاريخية، أن و الد يزيد نفسه، كان من سبي دنقلة .

أما عصر الفونج ومملكة سنار، فقد شهد بدوره قدوم عدد من العلماء والفقهاء من مصرإلى سودان وادي النيل، حيث استقروا فيه، وأقاموا المساجد والمدارس لتعليم القرآنوالفقه وغيره من العلوم العربية والإسلامية .

وكان في طليعة القادمين من علماء مصر إلى سودان وادي النيل في عهد سلطنة سنار، هو الشيخ (محمد القناوي)، الذي تتلمذ على الشيخين سالم السنهوري (ت 1015هـ /1606م) ويوسف الزرقاني[2] بالأزهر الشريف. وقد وصل الشيخ المصري محمد القناوي إلى مملكة سنار في أول النصف الثاني من القرن العاشر الهجري الموافق للنصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، في زمن الشيخ عجيب المانجلك زعيم مشيخة العبدلاب، والرجل الثاني في سلطنة سنار (ت 1611م) .

---

1 جيوفاني فانتيني،**المسيحية في السودان**، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، 1998م ، ص 108.

2 هو والد الشيخ عبد الباقي بن يوسف الزرقاني شارح مختصر خليل، وولده الشيخ عبد الباقي (ت 1099 هـ / 1687م) أشهر منه فيما يبدو.

استقر الشيخ (محمد القناوي المصري) بمدينة (بربر)، وبنى مسجده هناك لتدريس الفقه والنحو وسائر العلوم، كما تولىَّ القضاء فيها، وباشره بعفة ونزاهة[1]، وخلفه ابنه الشيخ (محمد اكداوي) الذي كان يُلقَّب ب (المُضوِّي) (ت 1684م) [2]

وجاء من مصر أيضاً إلى مملكة الفونج في منتصف القرن السادس عشرالميلادي الشيخ محمد بن علي قرم الكيماني الشافعي، تلميذ الخطيب الشربيني (ت 977 هـ/ 1569م)، واستقر هو كذلك بمدينة)بربر)، وبنى بها مسجداً ومدرسة لتعليم القرآن والفقه الشافعي، وكان من أوائل من درَّسوا فقه الإمام الشافعي بأرض السودان الشرقي، الذي قد ظل دائماً مرتبطاً بالفقه المالكي. وقد تتلمذ عليه عدد من أعلام السودان منهم المشائخ: عبد الله العركي، وإبراهيم الفرضي، والقاضي دُشين قاضيالعدالة وغيرهم.[3] ولئن كان بعض الناس ربما مالوا إلى الاعتقاد في أن انتشار المذهب المالكي في السودان، يعُزى في رأيهم بالدرجة الأولى، إلى التأثرُّ بالمغرب العربي وبلاد السودان الأوسط والغربي التي يسود فيها هذا المذهب، إلا أننا نميل إلى الاعتقاد فيما يرجحه البروفيسوريوسف فضل حسن من أن انتشار المذهب المالكي في السودان، قد تكرس وتعزز علمياًومعرفياً في المقام الأول، بفعل تأثير علماء المالكية في مصر، الذين تتلمذ على أيديهمعدد مقدر من فقهاء سودان وادي النيل كفاحاً أووصلتهم مؤلفاتهم فاطَّلعوا عليها. ومنأشهر اولئك علماء من امثال البنوفري، وسالم السنهوري، والزُرقاني، والأجهوري، والخراشي، والشبراخيتي، نزولاً إلى عهد بعض المتاخرين نوعاً ما مثل: أحمد الدردير، ومحمد الأمير، وعلي الصعيدي وغيرهم .

وعلى اختلافٍ من بلدان السودان الأوسط والغربي المتأثرة تأثرا بينا ببلاد المغرب العربي على المستوى المعرفي والثقافي، وخصوصا على المستوى الفكري، وكذلك على مستوى السند الصوفي والفقهي، وأيضاً على مستوى التأثر ببعض المؤلفات الفقهية المغربية المحضة والشديدة الخصوصية، فضلاً عن التأثر بالخط المغربي، ورواية ورش في قراءة القرآن التي لا توجد في السودان إلا بدنقلا وببعض الجيوب في دارفور،

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 101.

2 **الطبقات**، ص 104.

3 ود ضيف الله، كتاب الطبقات، ص 353 - 354.

نجد ان عامة السودانيين لا يبدو عليهم فيما هو ظاهر لدينا، وخصوصاً من خلال رواياتهم الشفاهية، وعلى نحو أخص استناداً إلى ما هو مدون من تراثهم المكتوب وفي مقدمته كتاب الطبقات لمحمد النور ولد ضيف الله، تأثرٌ مباشر أوملحوظ، بتراث وأسانيد شيخين علمين هما محمد عبد الكريم المغيلي(ت 1503م)، والمختار الكنتي (ت1811م) على سبيل المثال، وذلك على الرغم من اشتراك الجميع في الانتساب للمذهب المالكي وللطريقة القادرية .

وفي ذات الصدد، يوقفنا الأكاديمي المغربي المعاصر الدكتور عبد العلي الودغيري، على ملامح من تأثير تراث الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي على حركة الشيخ المجاهد عثمان دان فوديو (1754 – 1817م)، وهو كما هو معروف من علماء ومجاهدي بلاد السودان الأوسط المشهورين. فيذكر الدكتور الودغيري أن الشيخ عثمان دان فوديو قد نقل في كتابه بعنوان: (تعليم الأخوان بالأمور التي كفَّرْنا بها ملوك السودان) عن المغيلي، طرفاً من أجوبته على الاسئلة التي وجهها له أسكيا سلطان مالي، كما أثبت المؤلف سند الشيخ دان فوديو في الطريق القادري إلى الشيخ المغيلي المذكور، نقلاً عن بعض مؤلفاتالشيخ عثمان.[1]

وبالجملة نستطيع أن نقول،إنَّ التأثير الفكري والمعرفي والإسنادي العميق والحقيقي لبلادالمغرب العربي ومن تأثر بها من بلاد السودان الغربي والأوسط، على السودان الشرقي، إنما يتجلى بصورة واضحة في تراث وأدبيات الطريقة التجانية وروادها وعلى رأسهم مؤسس هذه الطريقة الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد التجاني(1737 – 1815م)، ومن قبلها الطريقة الشاذلية بالطبع، التي يشيع على نطاق واسع أنها ربما كانت أول الطرق الصوفية التي عرفها السودانيون عموما.

ج <u>الرافــد العراقـــي:</u>

على الرغم من أنه تعوزنا البينات الوافرة نوعاً ما، عن مظاهر الأثر العراقي وأبعاده في ثقافة سودان وادي النيل في عصر الفونج بالتحديد، إلا أننا نستطيع مع ذلك، أن نعود بافتراضنا لذلك الأثر العراقي، إلى تواريخ أبكر من تلك الفترة، وذلك على اعتبار

---

1 عبد العلي الودغيري، **اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح منالتأثير المغربي**، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2011م، الصفحتان 84 و85.

ان العراق وعاصمته بغداد، وحواضره الأخرى كالبصرة والكوفة والموصل وسامراء وغيرها، قد كانت دائماً حاملة مشاعل العلم والأدب والثقافة بامتياز على نطاق العالم الإسلامي، ولقرون عديدة، وخصوصاً خلال حكم الدولة العباسية (750 – 1258م). ولقد سبقت منا الإشارة فيما مضى، إلى ما ورد في بعض المصادر عن قيام الخليفة هارون الرشيد بإرسال بعثة تعليمية ودعوية إلى السودان، مؤلفة من سبعة علماء من بني العباس خلال الفترة ما بين عامي 786 و809م، بطلب من مسلمي بلاد النوبة السودانية، لكي يعلموهم القرآن الكريم، وأحكام الدين الإسلامي الحنيف.[1]

وبوسعنا أن نفترض أيضاً أن أولئك العلماء العباسيين، ربما كانوا من أتباع المذهب المالكي في الفقه، مما ساعد على تكريس هذا المذهب، وتوطيد أركانه في سودان وادي النيل منذ ذلك التاريخ المبكر .

ولعل من مظاهر الأثر العراقي في ثقافة مسلمي أهل السودان، هو انتشار رواية أبي عمر الدوري عن أبي عمرو بن العلاء البصري في قراءة القرآن، حتى غدت ما يمكن أن نطلق عليها (الرواية الوطنية (في البلاد إذا جاز التعبير. ذلك بأنها أقدم الروايات وأوسعها انتشاراً في أرض السودان، وإن كانت هنالك جيوب قليلة تقرأ برواية ورش عن نافعالمدني في كل من دنقلا وبعض أجزاء دارفور المتأثرة بدورها بالمغرب العربي وبلادغرب ووسط إفريقيا المسلمة. ولم يعرف أهل السودان رواية حفص عن عاصم الكوفي، إلا مع مقدم الحكم التركي المصري ابتداءً من عام 1821م فما بعده. وهكذا ظلت كتاتيب القرآن التقليدية، او ما تسُمى ب (الخلاوِي) تدُ رِس برواية الدُّ وري، بينما جعلت رواية حفص تنتشر فيما بعد، بفضل المدارس النظامية الحديثة. هذا، وما تزال قراءة أبي عمرو بن العلاء موجودة في جنوب العراق بنواحي البصرة، ولكنها أشيع هناك برواية (السُّوسي)، ولا ندري أن كان ما يزال يوجد في العراق من يقرأ برواية أبي عمر الدوري أيضاً أم لا.

على أن أبرز أثر ثقافي للعراق على سودان وادي النيل، يظل هو انتشار الطريقة القادرية في ربوعه لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني(470 – 561 هـ)، حتى غدت أكثر الطرق الصوفية أتباعاً في البلاد، وذلك منذ ان قدم الشيخ (تاج الدين البهاري)، خليفة مقام الشيخ عبدالقادر الجيلاني ببغداد إلى السودان من الحجاز بدعوة من

1 حسن الفاتح، **التصوف في السودان**، مرجع سبق ذكره، ص 10.

التاجر السوداني داؤود بن عبدالجليل في حوالي عام (1577م)، الذي زعم القس البريطاني سبنسر ترمنقهام في كتابه: الإسلام في السودان، أنه تاجر رقيق - هكذا - من دون إبراز أي دليل، أوالإحالة إلى أي مصدر[1]، حيث أقام فيه لمدة سبعة أعوام، سلك خلالها عدداً من وجهاء البلاد وأعيانها في الطريقة القادرية، ومنهم انتشرت الطريقة الكيلانية في مختلف أرجاء السودان .

هذا، ومن مظاهر الأثر العراقي في مسيرة العلم والإرشاد والثقافة الإسلامية في السودان خلال القرون المتأخرة، ما رواه الدكتور يحي محمد إبراهيم من معلومة عن صلة تلمذة ما للشيخ السوداني محمد المجذوب بن قمر الدين، على الشيخ إبراهيم السويدي العراقي (1734 – 1786م)[2]، وذلك حين يقول:

(واصل المجذوب نشاطه في المدينة (أي المدينة المنورة والزيادة من الباحث)، وأخذ عن الشيخ إبراهيم السويدي بعض العلوم العربية والدينية أثناء تدريسه بالمسجد النبوي وهناك انجلت عليه الحضرة الكريمة – كما يقول – بالأنوار فرأى ما يراه من كان في مثل حاله، ووقف بين النبي وباقي الأنبياء، وحصل على أسرار لطيفة حتى انقشعت كل الحجب، فرأى الرسول بلا واسطة، وأخذ عنه مباشرة) .[3]

غير أن هنالك إشكالاً يبدو في هذه الرواية التي أوردها يحي محمد إبراهيم، عن صلة الشيخ محمد المجذوب بن قمر الين (1796 – 1832م) بالشيخ إبراهيم السويدي، نقلاً عن كتاب: الوسيلة للمطلوب للشيخ محمد الطاهر المجذوب، ذلك أنَّ الشيخ إبراهيم السويدي قد انتقل إلى رحاب الله قبل أن يُولد الشيخ المجذوب بعشرة أعوام. اللهم إلا أن تكون صلة روحية على نحو ما خارق للعادة، أو في رؤية منامية. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الرواية في حد ذاتها، كافية للدلالة على التواصل الروحي بين هذين الشيخين السوداني والعراقي .

1 ج. سبنسر ترمنقهام، **الإسلام في السودان**، ترجمة فؤاد عكود، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2001م، ص 210.

2 أبو الفتح إبراهيم السويدي، عالم ومتصوف عراقي من رجال القرن الثامن عشر الميلادي، الموافق للنصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري. سليل أسرة بغدادية شهيرة من الفقهاء والعلماء، يأتي على رأسها الشيخ أبو البركات عبد الله بن الحسين السويدي (1104 – 1174 هـ / 1631 – 1695م). انظر ترجمته بكتاب **سلك الدُّرر** للمرادي، وانظر تراجم آل السويدي عموماً، بكتاب **تاريخ الأدب العربي بالعراق**، تأليف عباس العزاوي، من مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1962م.

3 يحي محمد إبراهيم،**مدرسة أحمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان**، دار الجيل، بيروت، 1993م، ص 361.

د) الرافـد الـمغربـي والأنــدلـسـي:

تزامنت بدايات قيام الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، مثل مشيخة العبدلاب 1450 – 1821م، وسلطنة الفونج 1504 – 1821م، مع خواتيم سني الحكم الإسلامي في الأندلس وزواله بالكلية عن شبه الجزيرة الإيبيرية، مع طرد المسلمين من مملكة غرناطة في عام 1492م، مما أدى إلى فرار جموع العرب والمسلمين بدينهم وتراثهم من أرض الأندلس، خصوصاً إلى بلاد المغرب العربي، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي الأخرى . ولقد وجد بعض أولئك الأندلسيين الفارين، ملجأً وملاذاً مناسباً في الدولة الإسلاميةالناهضةوالوليدة، التي نشأت في سودان وادي النيل وحذت حذو هؤلاء، طوائف أخرمن علماء وفقهاء ومتصوفة المغربي العربي الكبير كذلك .

ويتجلىَّ الأثر المغاربي في الثقافة الإسلامية السودانية، في التماثل والتشابه في المذهب الفقهي بين المنطقتين، حيث ينتشر المذهب المالكي في كليهما، كما تنتشر العديد من مؤلفات المالكية المغاربة، في شتى ربوع السودان، بين العلماء وطلبة العلم على حد سواء مثل: الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، والمدونة لسحنون، ومختصر خليل بن إسحق، وكتب السنوسي في العقائد، وكتاب السلم للأخضري وغيرها .

ومن بلاد المغرب العربي أيضاً، قدمت الطريقة الشاذلية على السودان الشرقي، ربما باعتبارها أول طريقة صوفية ترصد المصادر وصولها إلى بلاد سودان وادي النيل. ذلك بأنَّ الروايات الشفاهية تتظاهر على أن أول من جاء بالطريقة الشاذلية إلى السودان هو الشريف (حمد أبو دُنانَّة)، صهر الشيخ (محمد بن سليمان الجزولي الشاذلي)، مؤلف كتاب (دلائل الخيرات) في الصلاة على النبي الكريم، والذي استقر بمنطقة سقادي غرب المحمية بولاية نهر النيل، في حوالي عام 1445م، ونشر هذه الطريقة، وخلفَّ سبع بنات تزوجن كلهن من رجال أعلام من أهل السودان، فأنجبت كل واحدة منهن ولياً صوفياً مشهوراً في البلاد. على أنَّ مما يسُتغرب له حقاً، أن هذه الرواية - رغم شيوعها - لا ذكر لها في كتاب طبقات ود ضيف الله.

ومن الأندلس أو من تونس، قدم الحاج موسى جد الشيخ حسن ولد حسونة (ت1664م)، الذي كان من كبار رجال الدعوة والتصوف في سودان وادي النيل في عصر الفونج .

ومن المغرب أيضاً قدم الشيخ التلمساني المغربي في القرن السادس عشر الميلاديعلى الشيخ محمد عيسى سوار الذهب، فسلكه طريق القوم، وعلَّمه علم الكلام وعلوم القرءان، بما في ذلك رواية ورش عن نافع باعتبارها مظهرا واضحا من مظاهر التأثير المغاربي على ثقافة سودان وادي النيل الدينية، التي ظلت مرتبطة برواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء البصري.

ومن المغرب أيضا قدم على السودان الشرقي الشيخ مصطفي الشريف المغربي السوسي، تلميذ الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي الشاذلي، والذي أقام بحلفاية الملوك شمال الخرطوم، ونشر تدريس الفقه والتصوف والقرآن بتلك المنطقة.[1]

ومن قبل ذلك أيضاً، وفد من المغرب الشيخ (عبدالكافي) على كبير المتصوفة السودانيين، الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (1507 – 1651م)، فسلكَّه الطريق القادري وفقاً لما جاء في كتاب الطبقات لمحمد النور بن ضيف الله.[2]

وأخيراً، من تونس ببلاد المغرب العربي الكبير أيضاً، قدم إلى مملكتي سنار ودارفور على التوالي، الشيخ محمد بن عمر التونسي، ومن قبله والده وكذلك جدُّه في بحر القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، بغرض التجارة ونشر العلم وتعلمه أيضا. وقد كانت زيارة التونسي الحفيد لسلطنة دارفور في عام 1803م،وقد خلفَّ لنا عنها كتاباً نفيساً، يعد من أوثق مصادر تاريخ دارفور في تلك الحقبة، بعنوان: (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان.) [3]

على أننا نستطيع أن نقول في ختام هذا المبحث،إنَّ التأثير الفكري والمعرفي والإسنادي العميق والحقيقي لبلاد المغرب العربي وما تأثر بها من بلاد السودان الغربي والأوسط، على السودان الشرقي، إنما يتجلى بصورة واضحة في تراث وأدبيات الطريقة التجانية وروادها، وعلى رأسهم مؤسس هذه الطريقة الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد التجاني (1737 – 1815م)، وتلاميذه المباشرون، وتلاميذهم كذلك.

1 محمد النور ولد ضيف الله ، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان،** تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 340.

2 **الطبقات،** المصدر المذكور اعلاه، ص 42.

3 محمد بن عمر التونسي، **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان،** حققه وكتب حواشيه: خليل عساكر ومصطفى مسعد، راجعه محمد مصطفى زيادة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، 1965م

هـ) الرافـــد الحجـــازي:

بما أن الحجاز هو أرض الحرمين الشريفين، التي تنزلت بين ربوعها الرسالة المحمدية، وأشرقت فيها أنوار الدعوة الإسلامية، فصارت بذلك مهوى أفئدة المسلمين أجمعين في شتى بقاع الدنيا، فإنه يغدو من الطبيعي أن يكون هو منطلق التأثير الأول على المستوى الثقافي على سائر الأمصار الإسلامية، بما في ذلك بلاد سودان وادي النيل بطبيعة الحال . ذلك بأنَّ الحجاز هو موطن المشاعر المقدسة محط أنظار المسلمين، ومقصدهم الأول لأداءمناسك الحج والعمُرة، والزيارة والمجاورة في بيت الله الحرام، وفي مسجد النبي صلىالله عليه وسلم. ولما كانت طوائف كثيرة من أهل السودان، قد ظلوا عبر القرون، يقصدون أرض الحجاز لتلك الأغراض، ويلتقون بالتالي بمختلف صنوف المشائخ والعلماء والفقهاء والمتصوفة هناك القادمين من شتى أمصار العالم الإسلامي، فإن ذلك من شأنه أن يشجعهم على التقرب من أولئك المذكورين، بغرض التزود مما عندهم من المعارف والعلوم والأذكار والأوراد والأسرار وهلمَّ جرا، فضلاً عن محاولة إقناع بعضهم بالذهاب إلى سودان وادي النيل، من أجل نشر العلم فيه، بل للإقامة الدائمة في ربوعه في بعض الأحيان.

فعلى سبيل المثال، تخُبرنا الرواية الشفهية، أنَّ الشيخ حمد أبو دنانة، الذي يعزو إليه كثير من الباحثين نشر الطريقة الشاذلية في السودان في حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، على الرغم من أنه كان مغربي الأصل والنشأة والتكوين المعرفي، إلا انهم يرون أنه قد قدم إلى السودان من المدينة المنورة.

وفي أوائل عهد مملكة الفونج، قدم إلى السودان من الحجاز أيضاً، الشيخ (تاج الدين البهاري)، خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد، في حوالي عام 974هـ / 1577م، بدعوة من التاجر السوداني داؤود بن عبد اللطيف، الذي التقى به أثناء أدائه لفريضة الحج، فزينَّ له زيارة السودان، فزاره ومكث به سبعة اعوام، قام خلالها بالطواف في أنحائه، وسل ك عدداً من أعيان البلاد ووجهائها في الطريقة القادرية.

وبالمقابل، سافر نفر من العلماء وطلاب العلم السودانيون، إلى الحجاز في تواريخ مختلفة خلال فترة السلطنة السنارية، ثم رجعوا إلى البلاد، وفي جوانحهم الكثير من مظاهر الأثر الثقافي الحجازي على مجمل الحراك العلمي والمعرفي والروحي بسودان وادي النيل .

وحتى خلال العهود المتأخرة، يخُبرنا الجيلوجي والمستكشف الفرنسي لينان دوبولفون، الذي ألف كتاباً عن سياحته في ديار البشاريين على السواحل الشمالية للبحر الأحمر بشرق السودان في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، انه كانت تأتيهم سنوياً، بعثات دعويةمنتظمة من الحجاز، لكي تعلمهم أمور دينهم.[1]

الرافــد الشامــي:

ربما كان الرافد الشامي في تغذية الثقافة الإسلامية في السودان، أقل تلك الروافد المذكورة أثراً – على الأقل فيما هو ظاهر لنا من خلال المصادر -، وإن كنا لا نستبعد مطلقاً وجود أثر شامي كبير ومؤثر في رفد الثقافة الإسلامية في السودان وإن غابت عنا أو خفيت علينا مظاهره وتجلياته، خاصةً بسبب انعدام التدوين وطول العهد، وشح المصادر.

ذلك بان ما بين أيدينا من مصادر، لم تذكر لنا أسماء كثيرة لعلماء وفقهاء ومتصوفة قدموا إلى بلاد سودان وادي النيل من بلاد الشام الكبرى، سوى إشارة ود ضيف الله النادرة إلى الشيخ (البنُداري)، الذي قدم من الشام في أواخر عهد مملكة (علوَة) النوبية المسيحية، وأقام مسجداً ومدرسة لتعليم القرءان شرق بلدة (الحلفاية)، وذكُر أن الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (1507 – 1651م)، قد درس بها القرآن في صغره.

ولكن ود ضيف الله – على سبيل المثال – يفيدنا في طبقاته في معرض ترجمته للشيخ حسن ولد حسونة (1576 – 1664م)، بأنهَّ قد زار بلاد الشام، ضمن سياحته في بعض أقطار العالم الإسلامي التي استغرقت اثني عشر عاما. فلا بد أن تكون تلك الزيارة إلى الشام، وما شهدته من تواصل بين الشيخ حسن وعلماء الشام وأوليائه الصالحين آنئذٍ، قد خلفت أثرا ما .

على أن الأثر الصوفي الشامي على السودان يظهر على نحو أوضح وأقوى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وذلك من خلال تراث شخصيتين بارزتين شاميتي الأصل والتكوين، هما الشيخ الصوفي والشاعرالعرفاني (عبدالغني النابلسي) 1641 – 1731م، والشيخ (مصطفى كمال الدين البكري) 1688- 1749م، الذي هو

1 محمد عوض محمد،**السودان الشمالي: سكانه وقبائله**، دار المصورات للنشر، الخرطوم، الطبعة الثالثة، 2013م، ص 77.

مجدد الطريقة الخلوتية بامتياز. ولقد وُ لد ذلك الشيخ ونشأ وسلك هذه الطريقة ببلده الشام، قبل أن يرتحل إلى مصر لاحقا، حيث ازدهرت هذه الطريقة وكُتب لها الذيوع والانتشار.

وهي طريقة سيكون لها الأثر البالغ في مسيرة الفكر والتصوف في السودان الشرقي إذ أن من معطفها خرجت الطريقة السمَّانية الطيبية، التي كان من غراسها الإمامحمد أحمدالمهدي (1843 – 1885م) والحركة المهدية في السودان .

المبحث السابع

رحلات السودانيين العلمية في عصر الفونج

شهد عصر حكم مملكة الفونج في سودان وادي النيل، انفتاحاً ملحوظاً للطلاب والعلماء والمريدين السودانيين، على مختلف منارات الإشعاع الثقافي والعلمي والروحي في العالم الإسلامي، فنهلوا من معينها، وتفاعلوا معها أخذاً وعطاءا.

فمن أعلام السودانيين الذين هاجروا إلى مصر بغرض التزود من علوم شيوخها ومعارفهم، الشيخ محمود العركي (راجل القصير)، الذي تلقى العلم في الجامع الأزهر، على يدي الشيخين: ناصر الدين اللقُّاني(873 – 958 هـ)، وشمس الدين اللقُّاني (857 – 935 هـ). وقد جاء في ترجمته في كتاب الطبقات لود ضيف الله، أنه قد أقام عقب عودته من دراسته بمصر، سبعة عشر مدرسة لتعليم القرآن والفقه والعبادات بمنطقة النيل الأبيض، ما بين (ألِيس) جنوباً بالقرب من مدينة (الكوَّة) الحالية، وجزيرة (توتي) شمالاً، وأنه قد ألفى الناس في تلك المنطقة، في حيرة وضلال من أمور دينهم، فأرشدهم وعلمهم عدَّة النساء المُطلقاَّت، لأنه – كما قال ود ضيف الله – وجدهم يُزوِّجون المرأة المُطلقَّة في يومها من غير عدَّة.[1]

كما هاجر إلى مصر في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، طائفةٌ من طلاب العلم السودانيين، من بينهم أولاد جابر الأربعة، وأولهم الشيخ إبراهيم البولاد الذي تفقه على يد الشيخ البنوفري، وأخذ عليه علوم الفقه والأصول والنحو ثم رجع إلى موطنه بجزيرة (ترنج) بشمال السودان، فدرَّس فيها مختصر خليل بن إسحق، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشُدَّت إليه الرِحال. وهو يُعتبر أول من درَّس مختصر خليل في بلاد الفونج (سلطنة سنار)، مدرسته في خليل سبع ختمات وعلَّم فيها أربعين إنساناً، صاروا كلهم أولياء وأقطابا، كما قال ود ضيف الله.[2]

---

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م ، ص 41

2 محمد النور ولد ضيف الله ، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 46.

وقد سار أخوه عبدالرحمن بن جابر على نهجه، فسافر إلى مصر، وتتلمذ على الشيخ البنوفري، وكذلك كان اخوهما إسماعيل كثير التردد على مصر، حتى أجُيز من قبل الشيخ البنوفري أيضا.[1]

وإلى مصر أيضاً، شخص الشيخ السوداني علي ود عشيب، الذي تلقى العلم على يد الشيخ البنوفري بالأزهر، فهو زميل الشيخ إبراهيم البولاد في الأخذ والتتلمذ على الشيخ البنوفري. وفي حين أنَّ الشيخ إبراهيم البولاد بن جابر قد اشتهر بتدريس العلم والفقه، اشتهر الشيخ علي ود عشيب بالقضاء الذي تولاهَّ في مملكة سنار، وعدَلَ فيه وحكم بالمُتَّفَق عليه والقويِ من الخلاف.[2]

وعند الشيخ البنوفري شيخ المالكية بالجامع الأزهر أيضاً درس الشيخان عبد الرحمن بن حمدتو، ومحمد بن سرحان الملقب ب (صغيرون) وهو ابن فاطمة أخت الأولياء أولاد جابر الأربعة المذكورين، ونظيرتهم في العلم والصلاح كما وصفها ود ضيف الله. وقد جاء في ترجمة الشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو في الطبقات أن شيخهما البنوفري قد أثنى عليهما معاً، وقال في حقهما: محمد أي صغيرون، صلح للتدريس لكونه يسأل عن تحقيق صورة المتن، وعبد الرحمن يصلح للفتوى لكونه يسأل عن خفايا الشُّراح.[3]

أما الطلاب والعلماء السودانيون الذين ارتحلوا إلى الحجاز فمنهم الشيخ (محمد بن عدلان الشايقي (الذي حجَّ إلى بيت الله الحرام، فقرأ علم الكلام والمنطق والأصول والعربية على الشيخ عبد الله المغربي عالم المدينة المنورة. فيمكن إذ اً اعتبار هذا الشيخ من غرس التأثيرين المغربي والحجازي على حدٍّ سواء. وبعد أن نهل الشيخ ما شاء الله له أن ينهل من تلك العلوم من شيخه عبد الله المغربي بالمدينة، قدم الشيخ محمد بن عدلان إلى موطنه ببلدة (تنقاسي) بشمال السودان، فأوقد بها نار القرآن ونار الكرم، ودرَّس علوم الفقه والتوحيد، وكان هو أول من درَّس كتب كبرى السنوسي ووسطاه والصغرى وهي (أم البراهين)، وصغرى الصغرى. ولم يكن تدريس هذه الكتب معهوداً في جزيرة الفونج، إلا أم البراهين فقط، بحسب ما جاء بكتاب

1 **الطبقات**، المرجع أعلاه، ص 252.

2 المصدر أعلاه، ص 256 – 257.

3 ذات المصدر، ص 257.

الطبقات.[1]

هذا، وقد جاء في تحقيق اسم الشيخ عبد الله المغربي، أستاذ الشيخ محمد ولد عدلان بقلم محقق كتاب طبقات ود ضيف الله نقلاً عن عبد اللطيف السبكي، أنه قد ورد في ترجمة الشيخ علي الصعيدي (1700 – 1775م)، أن شيخاً اسمه عبد الله المغربي كان واحداً من أساتذته، وأن الشيخ عبد الله هذا قد درس على الخرشي (1601 – 1690م)، ويغلب انه عاش في القرن الثاني عشر الهجري، ويفُهم انه كان من علماء المالكية في عصره.[2]

هذا، وقد عثر هذا الباحث في تاريخ الجبرتي، على ترجمة شيخ يدعى (أبوسالم عبدالله المغربي)، كان ذا صلة بالحجاز، وغلب على ظنه أيضاً، أنه ربما كان هو نفسه (الشيخ عبد الله المغربي) أستاذ الشيخ (محمد ود عدلان الشايقي) السوداني. وقد جاء في تلك الترجمة ما نصه:

(ومات الإمام أبوسالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي، الإمام الرحَّالة. قرأ بالمغرب على شيوخ منهم اخوه الأكبر عبد الكريم بن محمد، والعلامة أبو بكر بن يوسف الكتاَّني، وإمام المغرب سيدي عبد القادر الفاسي، والعلامة احمد بن موسى الأبَّار. ورحل إلى المشرق، فقرأ بمصر على النور الأجهوري، والشهاب الخفاجي، وإبراهيم المأموني، وعلي الشبراملسي، والشمس البابلي، وسلطان المزاحي، وعبد الجواد الطريني المالكي. وجاور بالحرمين عدة سنين، فأخذ عن زين العابدين الطبري، وعبد الله بن سعيد باقشير، وعلي بن الجمَّال، وعبد العزيز الزمزمي، وعيسى الثعالبي والشيخ إبراهيم الكُردِي، وأجازوه ورجع إلى بلاده وأقام بها، إلى ان توُفي سنة تسعينوألف [3]. وله رحلة مجلدات، وذكر فيها أنه اجتمع بالشيخ حسن العجمي، وأجاز كلٌّ صاحبه)[4].

وبما أن الشيخ محمد ود عدلان – كما يرجح محقق الطبقات بروفيسور يوسف فضل

1 محمد النور ولد ضيف الله ، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م،ص 460.

2 **الطبقات** المصدر أعلاه، الحاشية رقم) 20(، ص 359.

3 وافق عام1679 – 1680م

4 عبد الرحمن الجبرتي،**عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، الجزء الأول، ص

- هو من تلاميذ الشيخ الزين ولد صغيرون[1] الذي توفي في سنة 1085هـ الموافقة لعام 1685م عن عمر طويل جدا ناهز التسعين عاماً، فيغدو من المناسب والمعقول أيضا أن يكون الشيخ ود عدلان قد تتلمذ وهو في سن الصبا أو أول الشباب بالسودان على الشيخ الزين ولد صغيرون في منتصف مسيرته التعليمية والإرشادية مثلاً، ثم عاد لكي يتتلمذ وهو في سن النضج والكهولة على يد الشيخ عبد الله المغربي بالحجاز في نهاية فترة إقامة الشيخ عبد الله هناك، وقبيل أوان عودته النهائية لبلاده المغرب.

وأتاحت الرحلة إلى الحجاز بغرض الحج وغيره، الفرصة للطلاب والعلماء السودانيين لكي يظُهروا تبريزهم ونبوغهم هناك، إلى درجة أن بعضهم قد حاز على تقدير وإعجاب علماء الحرمين الشريفين أنفسهم. ومن ذلك ما ذكره ود ضيف الله من أنَّ الشيخ الجنيد ولد طه، (قد أعطاه الله القبول التام عند الملوك والسلاطين، ولا سيما أهل الحرمين والحجاز وجدَّة).[2]

وأنَّ عبد اللطيف بن الخطيب عمَّار، قد برع في مجال التدريس بالحجاز حيث درَّس هناك جميع الفنون، واتصل بعلماء المغرب والروم والتكرور، حتى أن أحد علماء الحجاز قد مدحه ووصفه ب: (عالم الديار السنَّارية، وعلامَّة الأقطار الإسلامية).[3]

وإلى الحجاز أيضاً، سافر الشيخ حمد بن محمد المجذوب 1693 – 1776م طلباً للعلم، وأخذ الطريقة الشاذلية هناك عن الفقيه علي الدراوي، تلميذ الشيخ أحمد بن ناصر الشاذلي (1676 – 1717م). [4]

وإلى الحجاز كذلك، ذهب الشيخ (عمارة بن شايقي)، فأدى فريضة الحج بمكة المكرمة، وجاور بها، وقرأ الفقه والتجويد وعلوم العربية والتفسير هناك، ثم رجع إلى السودان، فأسس خلوته بالحلفاية، وشرع في تدريس سائر الفنون.[5]

أما الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري، الجد الأعلى لأسرة آل عيسى الأنصاري الدينية

---

1 ذكر ذلك ود ضيف الله عرضاً في معرض ترجمته للشيخ شُمُّو ولد محمد ولد عدلان. انظر الطبقات، الهامش 4، ص 76.

2 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م،ص 132

3 **الطبقات**، المصدر أعلاه، ص 300

4 ذات المصدر أعلاه، ص 189

5 ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات**، ، ص 310

المشهورة بالسودان، فقد وُلد هو نفسه كما تقول سيرته بالمدينة المنورة، وبها حفظ القرآن الكريم، ثم ارتحل من الحجاز إلى مصر، فطلب العلم في الأزهر الشريف برهة، حيث درس على أيدي المشائخ: زكريا الأنصاري المتوفى سنة 926 هـ، ومحمد البنوفري المتوفى سنة 998 هـ، وبرهان الدين بن أبي شريف وغيرهم. وبعد ذلك انتقل إلى السودان في أوائل عصر سلطنة سنار، فأسس مسجده ومدرسته ببلدة (كُترانج) جنوبي الخرطوم، على الضفة اليمنى للنيل الأزرق، وذلك في أوائل القرن العاشر الهجري الموافق لبدايات القرن السادس العشر الميلادي.[1]

ونجد للحجاز أثراً آخر غير مباشر على السودان الشرقي بفضل الرحلات العلمية،فقد جلب منه علماء السودان وطلابه مختلف الكتب وأمهات المراجع في مجال الفقه واللغة العربية، والعلوم الإسلامية. وكان من بين اولئك على سبيل المثال، الشيخ عبد الرحمن بن صالح بن بان النقا، الذي ملأ من الكتب التي طلبها من الحجاز ومصر ست خزانات [2]، بينما أحضر الشيخ عمار بن عبدالحفيظ معه من الحجاز، (نحو رحلين او ثلاثة من الكتب.) [3]

وهنالك شيخ عالم سوداني من رجال القرن السابع عشر الميلادي، ليست له ترجمة في كتاب طبقات ود ضيف الله، ولكن المصادر المغربية قد أوقفتنا على شيء من تاريخه وسيرته، ألا وهو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد النوبي اليماني، المولود بحلفاية الملوك بالسودان في عام 1630م، الذي كان من تلاميذ الشيخ دفع الله بن محمد أبوإدريس (1594 – 1683م)، والذي توُفي ودُفن بمدينة فاس بالمغرب في عام 1712م، بعد رحلة طويلة قادته من موطنه بالسودان، عبر بلدان السودان الأوسط والغربي، إلى أن ألقى عصا الترحال واستقر به المقام بمدينة فاس، التي قضى فيها بقية عمره معلماً ومتعلماً، ومرشداً ومسترشدا، وناشراً للطريقة القادرية بنسختها السودانية أيضا، حتى بلغ في نباهة الذكر وحسن الصيت شأوا كبيراً بين معاصريه من فقهاء المغرب وعلمائه، ومتصوفيه في عصره على نحو ما يرد في بعض المصادر المغربية مثل كتابي: نشر المثاني

1 محمد عبد المجيد السَّراج،**إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري**، منشورات سنار عاصمة للثقافة الإسلامية 2017م، كتاب سنار (101)، الخرطوم، 2017م، ص 12.

2 **الطبقات** لمحمد ود ضيف الله، مرجع سبق ذكره، ص 292.

3 نفس المرجع أعلاه، ص 260.

والتقاط الدُّرر لمحمد الطيب القادري.[1] ولا شكَّ في أنَّ سيرة الشيخ أحمد اليماني النوبي، تعُتبر نموذجاً مثالياً للرحلة العلمية، التي كانت شائعة في شتى أرجاء العالم الإسلامي.

وفي أواخر عصر الفونج، تقابلنا سيرة علم سوداني شهير وذائع الصيت جداً، وقطب كبير من أقطاب التصوف، ألا وهو الشيخ أحمد الطيب بن البشير (1742 – 1823م). إن هذا الشيخ، هو مُدخِل الطريقة السمَّانية، نسبة لمؤسسها الشيخ محمد عبد الكريم السمَّان المدني (1719 – 1776م)، وناشرها في السودان الشرقي. وهو شيخٌ كان له باع طويل في مجال الرحلة العلمية والإرشادية والسياحة الروحية والدعوية التي نحن بصددها في هذا الباب .

فعلاوة على سفره إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، في أوائل ستينيات القرن الثامن عشرأو أواخر الخمسينيات منه، وهو بعد فتىً يافع، وتلقيه العلم على طائفة من المشائخ والعلماء هناك، وعلى رأسهم شيخه محمد بن عبدالكريم السمَّان المدني (1719 – 1776م) الذي أخذ عنه طريقته، نجده قد سافر إلى مصر، حيث ساح فيها وطاف على مدنها ونجوعها وقراها من أقصى جنوب الصعيد إلى أن بلغ القاهرة، فكان فيها جميعاً موضع الترحاب والتكريم، بل تفيدنا المصادر أنَّ بعض المصريين قد سلكوا الطريقة السمَّانية على يده، منهم الشيخ إسماعيل بن تقاديمالنقشبنديبدراو، والشيخ عبد الله خليفة الولي الكبير الشيخ عبدالرحيم القناوي بقنا، والشيخ سليم العريان المجذوب دفين (هُو) بهوارة، والشيخ شيخون الوزي بسوهاج، والشيخ أحمد الأسيوطي بأسيوط. ثم إن الشيخ أحمد الطيب وصل إلى القاهرة فقابله أهلها بالحفاوة والترحيب كما يقول صاحب ازاهير الرياض، ودخل الجامع الأزهر، وشهد به درساً للشيخ محمد الأمير(1742 – 1817م).[2] وبهذه المناسبة، فقد أورد العلاَّمة محمد مرتضى الزبيدي في كتابه (المُعجم المختص) أو(معجم المشائخ) عَرَضاً، ذكر

---

1 حول سيرة الشيخ أحمد اليماني المذكور انظر: John E. Lavers, ‘ Diversions on A Journey or the Travels of Shaykh Ahmed Al-Yamani (1630 –)3171 From Halfaya to Fez ’, in Yusuf Fadl Hasan & Paul Doornbos, **The Central Bilad Al Sudan, Tradition & Adaptation**, IAAS, University of Khartoum, El Tamaddon Printing Press, Khartoum, 1977, pp.216 – 232. وكذلك انظر، يوسف فضل حسن،**ملامح من العلاقات الثقافية بين المغرب والسودان**، معهد الدراسات الإفريقية جامعة محمد الخامس،الرباط، المملكة المغربية، 2009 م، ص 57 – 64.

2 الشيخ عبد المحمود نور الدائم، كتاب: **أزاهير الرياض** في مناقب العارف بالله الشيخ احمد الطيب بن البشير، مطبعة الفجالة الجديدة، بدون تاريخ نشر، ص 51 – 54.

شيخٍ سمَّاهُ: (الطيِّب) ونسبَهُ هو إلى السودان، وذلك حين يقول في معرض إشارته للقائه بالصعيد الشيخ عبدالحق بن يوسف بن الحسن بن أبي الحجاج الأقصري المالكي:

(... لقيته بالصعيد، وذاكرته، ورأيت له عدة تآليف في شرح صيغة صلاة للشيخ الطيب السوداني، أجاد فيها. ولما ورد مصر سنة (1189 هـ)، اجتمع بي في مشهد القطب أبي محمود الحنفي قدُس سره، فسمع مني الأولية إذ ذاك، وأتى إلى منزلي) أ.هـ[1]هذا، ولا نستبعد أن يكون الشيخ الطيب الذي يذكره العلامة الزبيدي هاهنا، هو الشيخ أحمد الطيب البشير نفسه، وذلك نظراً لمعاصرته للزبيدي في إبان إقامته بمصر، لأن الأخير قد عاش فيها لسنين عديدة، واشتهر أمره بها، وانتشر علمه منها، إلى أن توُفي ودفن بها في عام 1791م، عندما كان الشيخ الطيب نفسه حينها، في حوالي الخمسين عاماً من عمره، شيخاً واصلاً وذائع الصيت آنئذٍ. وكذلك بقرينة ثبوت زيارة كلٍّمن الشيخ الطيب والمرتضى الزبيدي، لمناطق صعيد مصر، مواصلة لبعض المشائخ والأعيان هناك، فضلاً عن ثبوت زيارتهما لتلاميذهما ومريديهما في تلك المنطقة.

1 محمد مرتضى الزبيدي،**المعجم المختص**، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2006م، ص 326.

الفصل الثاني
المبحث الأول
التصوف والطرق الصوفية في سلطنة سنار

تزامن تاريخ نشوء سلطنة سنار 1504 – 1821م، مع أواخر أيام دولة المماليك في مصر، ومطالع سِنيِ سيطرة الدولة العثمانية على مصر والمشرق الإسلامي. وقد فرضت الدولة العثمانية سيطرتها على سائر البلدان الإسلامية التي خضعت لهيمنتها عزلة فكرية ومعرفية وثقافية رهيبة، وأحاطتها بسياج منيع، حال بينها وبين العالم الخارجي، ولم تسع إلى تشجيع العلم والعلماء على نحوٍ جاد، حتى تضاءل الاهتمام بالعلم، بعد أن كان مزدهراً، ويتميز بحراك عقلي خصب في كثير من أجزاء العالم الإسلامي، ومنها مصر التي عانت من تلك العزلة المفروضة، وخاصةً السودان الذي ظل يتلقى جل ثقافته ومعارفه الدينية والفكرية واللغوية من علماء مصر.

على أن من الملاحظ بصفة عامة، أن سلوك المتصوفة الذي يتسم على وجه العموم بالبساطة، والميل للزهد والقناعة، والتواضع، والصدق، والإخلاص، وحب المساكين والحنو على العامة، ومناصرتهم، والوقوف إلى جانبهم، فضلاً عما كانوا يتمتعون بها من مكانة أثيرة في نفوس الحُكَّام، كل ذلك ساعد على اجتذاب عامة الناس إليهم وهو الأمر الذي ساعد في نهاية المطاف، على انتشار التصوف، وحماسة العامة وكثير من الخاصة بمن فيهم أعداد مقدرة من طبقة العلماء والفقهاء، للانخراط في شتى الطرق التي كانت موجودة في الساحة آنئذٍ وهي:

أولاً: الشاذليـــة

لا يدري أحدٌ على وجه الدقة، متى دخلت الطريقة الشاذلية إلى بلاد سودان وادي النيل، بيد أن هنالك ما يشُبه الإجماع بين سائر الباحثين على أنها ربما تكون أول الطرق الصوفية دخولاً إلى البلاد، وذلك بالمقارنة مع ما ثبت لديهم من تواريخ دخول الطرق الأخرى. فهم يذكرون في هذا الخصوص بينة ظرفية وردت في الرواية الشفاهية الخاصة بقدوم الشريف (حمد أبو دنانة) صهر الشيخ محمد بن سليمان الجزولي الشاذلي، مؤلف كتاب (دلائل الخيرات) في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، من المدينة المنورة

إلى السودان، ووصوله إلى بلدة (سقادي) غرب المحمية بشمال السودان، في حوالي سنة 1445م، وهو كما نرى، تاريخ متقدم على قيام سلطنة سنار نفسها بنحو ستين عاما .

إن ذلك التاريخ مقدَّمٌ أيضاً على مولد الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (1507 – 1651م) بنحو اثنتين وستين عاما، وهو الذي يزُعم أنه أول من أوقد نار الشيخ عبدالقادر الجيلاني في بر السودان، أو مملكة الفونج كما ورد على لسان الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن في كتاب الطبقات.[1]

وكذلك هو سابق لتاريخ قدوم الشيخ تاج الدين البهاري خليفة الطريقة القادرية إلى السودان من الحجاز في حوالي عام 1577م، وتسليكها لعدد من أعيان السودان الذين انتشرت هذه الطريقة فيما بعد على أيديهم، في شتى بقاع السودان، حتى صارت أكثر الطرق أتباعاً في البلاد .

على أنه قد ورد في بعض المصادر التاريخية أيضاً، ما يحمل على الاعتقاد بأن الشيخ أبا الحسن الشاذلي (1196 – 1258م) مؤسس هذه الطريقة نفسه، قد ألمَّ بالتخوم الشمالية الشرقية لبلاد سودان وادي النيل، وذلك في طريق ذهابه من مصر إلى الحج، وعودته منه كذلك. ذلك بأنه كان يمر بميناء (عيذاب (السوداني على البحر الأحمر، ولا يسُتبعد إذ ذاك أن يكون جماعة من أهل عيذاب من بجاة وعرب وغيرهم، قد سلكوا على يديه الطريقة الشاذلية. وفي ذلك يقول الدكتور بشير إبراهيم بشير ما نصه:

(.. ولعل أشهر من دخل عيذاب من الحُجَّاج، الإمام أبوالحسن علي بن عبدالله الشاذلي، الصوفي مؤسس الطريقة الشاذلية .وكان اتخذ الأسكندرية موطناً، وكان يخرج منها كل عام إلى الحج عن طريق عيذاب، إلى أن توُفي صادراً من الحجاز ودُفن بموضع قريب من عيذاب يعُرف بحُميْثِرا، وذلك في عام 1258م.) [2]

فلا يسُتبعد أن تكون هنالك جماعة من السودانيين من أهل ذلك الثغر، قد أخذوا العهد في الطريقة الشاذلية على الشيخ أبي الحسن الشاذلي مباشرة، في إبان تردده

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 57 .

2 بشير إبراهيم بشير، (عيذاب: حياتها الدينية والأدبية (، مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، العدد الثاني، المجل د الخامس، يوليو 1979م .الصفحات 54 – 84.

الثابت على تلك البلدة .

أما أبرز دُعاة الشاذلية وشيوخها المشهورين في سودان وادي النيل في عصر الفونج فهماالشيخان: خوجلِي بن عبد الرحمن بن إبراهيم (1645 – 1743م)، الذي كان في الأساس قادري الطريقة، ثم انتقل منها إلى الطريقة الشاذلية لاحقاً، بعد أن سلكها على يد الشيخ أحمد التنبكتي أو التنبكتاوي، كما في الصيغة العامية السودانية، قاطن المدينة المنورة، والذي أخذها بدوره، إما عن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي(1602 – 1676م)، أوعن ابنه وخليفته الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي(1643 – 1717م)، والشيخ حمد بن محمد المجذوب(1693 – 1776م) الذي سلك الطريقة الشاذلية في الحجاز أيضاً، على يد الشيخ (علي الدراوي (، الذي أخذها بدوره عن الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي .

ثمة شيخ شاذلي آخر، قوي الصلة بالسودان، وخصوصاً الأجزاء الشرقية منه على ساحل البحر الأحمر، ويبدو أنه كان ذا مكانة رفيعة في سلسلة مشائخ الطريقة الشاذلية وطبقاتهم عموماً، وإن كان ما بين أيدينا من المصادر، لا تسعفنا بالتاريخ الذي عاش فيه بالضبط، وإن بدا من المؤكد ضمناً، أنه قد عاش على الأقل في بحر القرن الثامن عشر الميلادي، وربما قبله بكثير. ذلكم هو الشيخ أبو الفتح السواكني الشاذلي، المنسوب إلى مدينة سواكن، ميناء السودان القديم والأشهر على البحر الأحمر.

وقد جاء عن الشيخ أبي الفتح السواكني في كتاب أزاهير الرياض للشيخ عبد المحمود ود نور الدائم (ت 1915م)، وذلك في معرض وصفه لأوبة جده الشيخ أحمد الطيب البشير (1742 – 1823م) من زيارته الثانية للمدينة المنورة، في سبعينياتالقرن الثامن عشر الميلادي، ما نصه:

(ثم توجَّه إلى البحر وركبه إلى أن خرج إلى سواكن، وقد زار القطب الجليل سيدي أبا الفتح الشاذلي قدِسسرُّه، وكان كثيراً ما يحثُّ على زيارة هذا الولي أهل بلدة سواكن. ومنها توجَه إلى بلاده، وعند قرية الدامر، أرسل إلى الفقيه العظيم حمد ولد المجذوب رضي الله عنه يخبره بقدومه عليه لمزيد الإلف القديم والود العظيم، وكان ذلك في آخرعمر الفقيه حمد المذكور، وانتهائه بالسير في طريقه) .[1]

1 الشيخ عبد المحمود نور الدائم،**أزاهير الرياض في مناقب العارف بالله تعإلى الأستاذالشيخ أحمد الطيب**، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، بدون تاريخ، ص 62.

ويبدو من الاقتباس أعلاه، أن الشيخ الطيب إنما زار الشيخ أبا الفتح السواكني في ضريحه، ولم يزره وهو على قيد الحياة. والله أعلم متى عاش هذا العلم الشاذلي ذو المكانة الرفيعة، الشيخ أبو الفتح السواكني.[1]

ولكن، لما كنا نعلم أنَّ الشيخ حمد المجذوب قد توُفي في عام 1776م، فإنه يلزم من ذلك أن تكون زيارة الشيخ الطيب له بالدامر قد تمت في تاريخ قبل ذلك، كما يلزم منه أيضاً أن يكون الشيخ أبا الفتح الشاذلي السواكني، الذي حضَّ الشيخ أحمد الطيب أهل بندر سواكن على زيارة ضريحه ومقامه غالباً، قد عاش في زمان قبل ذلك التاريخ أيضاً، ليكون بذلك في عداد كبار شيوخ الطريقة الشاذلية في السودان في عصر الفونج، وربما قبله .

كذلك جاء عن الشيخ أبي الفتح السواكنيالشاذلي في كتاب: المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزَّان، للشيخ الصوفي الليبي الفزَّاني، أحمدالدردير بن محمد العالم الحضيري،(1875 – 1910م)، ما نصه:

(وما أحسن قول العارف بالله سـيدي علي بن عمر القـرشي بن المِيلي عن الشيخ أبو الفتح الشاذلي المدفون بسواكن رحمه الله: أنا شاذليٌّ ما حييتُ، فإن متُّ فمشورتي في الناس أن يتشذَّلوا !) [2]

هذا، ومن آيات التواصل والتعارف، والتبادل الثقافي والمعرفي الروحي، التي ظلت قائمة بين سائر أجزاء العالم الإسلامي في القرون السابقة، ولم يشذ السودان عنها بالطبع، ذكرُ مؤلف هذا المصنف الليبي نفسه، للشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين (1796 – 1832 م)، وابنه الشيخ محمد الطاهر المجذوب، وإشارته لأسلافهما من الفقهاء والأولياء المجاذيب، مما يدل على أن أطرافاً من سيرهم وأخبارهم ومؤلفاتهمقد كانت منتشرة ومعروفة على نطاق واسع، تجاوز حدود وطنهم السودان حتى وصل إلى بلاد فزَّان بليبيا، وذلك حين يقول:

---

1 أفادني الدكتور بدوي الطاهر أستاذ التاريخ بجامعة البحر الأحمر، أن الرواية الشفاهية المتداولة بمنطقة سواكن حيث عاش هذا الشيخ وتوفي وُدُفن تقول ان اسمه هو: الشيخ محي الدين أبو الفتح محمد بن عبد الأعلى، وهو من ذرية الشيخ الحسن بن علي بن عمر الأموي القرشي المدفونبمدينة موخا باليمن. وهو يقدر تاريخ وصوله إلى سواكن ما بين منتصف القرن السادس عشر الميلادي إلى بدايات القرن السابع عشر.

2 أحمد الدردير الحضيري،**المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان**، تحقيق أبو بكر عثمان الحضيري، الشركة العامة للورق والطباعة، الخُمُس، ليبيا، 1996م، ص 142.

(قال سيدي محمد الطاهر بن سيدي محمد المجذوب بن قمر الدين في كتابه الذي ألفه في كرامات والده (ثبوت الكرامات للمريدين من أتم دلا لة اليقين))[1]

وفي الهامش رقم(2) بنفس الصفحة، يوضح محقق هذا الكتاب، أنه لم يقف على ترجمة للشيخ الطاهر المجذوب، بيد انه يقول مستطردا:

(لم أقف على ترجمة له، وإنما وقفت على بعض التقييدات التي نقلها الدرديرالحضيري من كتابه الذي ألفه في كرامات والده المسمى) ثبوت الكرامات للمريدين من أتم الدلالة واليقين).. مخطوط، حيث وجدت بخط الدردير في كُنأَّشته سلسلة سند والده الشيخ محمد المجذوب في الطريقة الناصرية المتفرعة عن الطريقة الشاذلية وهي سلسلة الشيخ سيدي محمد المجذوب في الطريقة الشاذلية. فقد تلقى الذكر عن والده الفقيه قمر الدين، وهو عن والده الفقيه حمد بن المجذوب، وهو عن سيدي علي الدراوي، وهوعن سيدي محمد بن ناصر (الدرعي)، وهو عن الفقيه سيدي عبد الله بن حسين إلى آخر السند المشار إليه في الترجمة. ([2]. والمعروف أن الشيخ محمد الطاهر المجذوب المذكور، علاوة على تمسكه بالشاذلية طريقة آبائه، قد ناصر الإمام محمد أحمد المهدي، وجاهد في ثورته ضد المستعمرين هو وتلاميذه في جبال البحر الأحمر، وعلى رأسهم البطل الشهير (عثمان دقنة (1840 – 1926م. ولم يكتف الشيخ الطاهر المجذوب بالجهاد بالسيف فحسب، فجاهد بالقلم، إذ كان شاعراً مجيدا له قصائد كثيرة في وصف حروب المهدية بشرق السودان .

وثمة إشارة نادرة ذات صلة وثيقة بالطريقة الشاذلية وتاريخها في السودان، وردت بمخطوطة كاتب الشونة، تتحدث عن وجود قرية كانت تسمى (شاذلي)، وكانت تقع قريبة من سنار، ويعود تاريخها على الأقل للقرن الثامن عشر الميلادي إن لم يكن قبل ذلك، مما يشي بقوة باحتمال وصول تأثير الشاذلية إلى تلك البقعة بالسودان منذ ذلك التاريخ.[3] ويمضي سبنسر ترمنقهام في كتابه الإسلام في السودان، مستطرداً في هذه

---

1 أحمد الدردير بن محمد، **المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزّان**، تحقيق أبو بكر عثمان الحضيري، الشركة العامة للورقوالطباعة، الخُمُس، ليبيا، 1996م.، ص 61

2 المرجع السابق نفسه، ص 61.

3 **تاريخ ملوك سنار والحكم التركي المصري**، تأليف أحمد بن الحاج أبو علي (كاتب الشُّونة)، حققه وقدَّم له وعلق عليه، يوسف فضل حسن، دار نشر سوداتك المحدودة، الخرطوم، 2018م، ص 112، الهامش (19).

النقطة غالباً انطلاقاً من معلومة مخطوطة كاتب الشونة عن وجود قرية بالقرب من سنار اسمها (شاذلي) في السابق، لكي يكتب ما نصه: (.... توجد في سنار مجموعة تسمي نفسها شاذلية، وكان الفكي سليمان محمد الشاذلي (توفي1924م) آخر خليفة يقوم بالتدريبات (أي الرياضة الروحية للمريدين والشرح من الباحث). أما قرية الشاذلي بالقرب من سنار والتي ذكرها بروس فهي الآن أطلال) .[1]

ومهما يكن من أمر، فقد تكون الطريقة الشاذلية قد شقت طريقها إلى منطقة سنار وأحوازها، على يد الشريف عبد الله الفاسي المغربي نزيل الحلفاية، وتلميذ الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي، الذي كان قد قدم إلى السودان وأقام فيه ببلدة (الحلفاية)، وأرشد الناس فيها إلى طريق الله تعإلى كما قال عنه صاحب الطبقات. ذلك بأن ولد ضيف الله قد نص على أن هذا الشيخ الشاذلي المذكور، قد توفي بسنار، وقبره بها ظاهر يزار على حد تعبيره.[2]

ثانيا: القادريـــــة

الطريقة القادرية هي من أقدم الطرق وروداً إلى السودان، وبالتأكيد هي أوسعها انتشاراً، وأكثرها أتباعاً في ربوعه. وقد انتشرت هذه الطريقة على نطاق واسع في سلطنة سنار السودانية على يد الشيخ تاج الدين البهاري، خليفة مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد، وذلك على إثر قدومه من الحجاز رفقة التاجر السوداني الحاج داؤود بن عبد الجليل، وبدعوة منه، وذلك على خلافٍ من الباحثين في تعيين تاريخ ذلك الحدث الذي يقدره البروفيسور يوسف فضل حسن بالعام 1577م، ويقدره الشيخ البروفيسور حسن الفاتح قريب الله بعام 1566م، بينما يضع له الدكتور يحي محمد إبراهيم سنة 1563م.

وعقب وصوله إلى مملكة سنار، سلك الشيخ البهاري عدداً معتبراً من أهل البلاد فيالطريقة القادرية، كان أهمهم خمسة من كبار أعيانهم الذين كانوا ينتمون لأسر وعشائرذات مكانة اجتماعية مرموقة وهم: الشيخ عجيب المانجلك شيخ العبدلاب ونائب سلطان مملكة سنار، وشاع الدين ود التويم زعيم قبيلة الشكرية البدوية الكبيرة،

---

1 سبنسر ترمنجهام،**الإسلام في السودان**، ترجمة فؤاد محمد عكود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001م، ص 215.

2 كتاب **الطبقات** لود ضيف الله، مرجع سبقت الإشارة إليه، ص 311.

والشيخ محمد الهميم ولد عبد الصادق الركابي حفيد الشيخ غلام الله الذي مرَّ ذكره آنفا، والشيخ بان النقا الضرير جد قبيلة اليعقوباب التي نبغ فيها عدد كبير من الأولياء والصالحين، وحجازي بن معين مؤسس مدينة (أربجي) بإقليم الجزيرة بوسط السودان.

ويذكر محمد النور ولد ضيف الله أيضاً، أن الشيخ تاج الدين البهاري قد طلب من الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي، أن ينتظم في سلك الطريقة القادرية على يده فامتنع في بادئ الأمر، مكتفياً بما ناله من الفقه والعلوم الشرعية الظاهرة، فلما رأى ما صار إليه تلاميذ البهاري بالسودان من حالة مرضية ومعجبة، سافر إليه في الحجاز ولكنه ألفاه قد ارتحل إلى الدار الآخرة، فسلك ذات الطريقة على يد تلميذه وخليفته حبيب الله العجمي، ثم عاد إلى السودان مرشداً للناس في علمي الظاهر والباطن ومنه تكرست الطريقة القادرية وخصوصاً بين رهطه العركيين، الذين عملوا على نشرها في سائر أرجاء البلاد.[1] على أن هنالك رواية تنُسب للشيخ خوجلي بن عبد الرحمن (1645 – 1743م)، مفادها أن أول من أوقد نار عبد القادر الجيلاني ببر السودان، هو الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (1507 – 1651م)، قيل أخذها بمدد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل أيضاً إن شيخاً يدعى عبد الكافي، قد قدم عليه بالخطوة من المغرب فلقنها أياه.[2]

وإلى ذلك، جاء في سيرة الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب الذى عاش في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، أنَّ شيخا يسميه كتاب الطبقات لود ضيف الله بالشيخ التلمساني المغربي، قد قدم عليه من المغرب فلقنه الطريقة القادرية[3]، كما يزعم المجاذيب أن جدهم الحاج عيسى ولد قنديل، هو أول من أخذ الطريقة القادرية على الشيخ البهاري، وقد ظل هو وحفيده وغيرهم على القادرية، حتى ظهر حفيده حمد بن محمد المجذوب (1693 – 1776م) فتحول ولاء هذه العشيرة إلى الشاذليــة.[4]

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 254.

2 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 42.

3 **الطبقات**، المرجع السابق، ص 42.

4 يحي محمد إبراهيم،**تاريخ التعليم الديني في السودان**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م ، ص 52

ثالثا: السمانــية

هي الطريقة التي أسسها الشيخ محمد بن عبد الكريم السمَّان الصديقي المدني (1132هـ 1719م / 1189هـ 1776م) دفين المدينة المنورة، ونشرها بالسودان تلميذه الشيخ أحمد الطيب بن البشير(1155 هـ 1742م – 1239 هـ 1823م)وهي طريقة - كما يقول شيوخها ومنظِروها – مثل الراحل الشيخ البروفيسور حسن الفاتح قريب الله (1940 – 2006م)، حفيد وأحد خلفاء مؤسسها، اسمٌ اصطلاحي لجماع أوراد خمسة طرق هي: القادرية، والنقشبندية، والخلوتية، وطريقة الأنفاس وطريقة الموافقة الأسمائية .

ولقد أتى بها الشيخ أحمد الطيب البشير من الحجاز إلى وطنه السودان في حوالي عام 1766م، أي قبل نهاية دولة الفونج أو سلطنة سنار، بأكثر من نصف قرن تقريبا، ولذلك ناسب أن نذكرها من ضمن الطرق الصوفية التي ازدهرت في أواخر عصر الفونج في السودان .

انتشرت الطريقة السمانية في السودان، وخارج السودان أيضاً، مثل صعيد مصر والحبشة، ونيجيريا، بفضل نشاط الشيخ الطيب نفسه، وأبنائه، وخلفائه، وتلاميذه ومريديه الكثيرين. فمن أعلام هذه الطريقة البارزين من ذرية الشيخ الطيب نفسهاالمشائخ: نور الدائم، وإبراهيم الدسوقي، وأبو صالح، وغيرهم. ومن تلاميذه الكبار: الشيخ أحمد البصير، والشيخ التوم ولد بانقا، والشيخ الأمين ود أم حقين، والشيخ القرشي ود الزين، والشيخ حسيب الكوباوي وغيرهم. ومن هؤلاء وأبنائهم وأحفادهم وتلاميذهم، وتلاميذ تلاميذهم لبضعة أجيال، انتشرت هذه الطريقة في شتى أرجاء السودان وخارجه .

تحظى هذه الطريقة بتراث فكري وتوثيقي وإبداعي غزير ومتنوع، مكتوب ومطبوع نثراً وشعراً، حيث تأتي على رأس أدبياتها، مؤلفات الشيخ الطيب نفسه، ومؤلفات حفيده الشيخ عبد المحمود نور الدائم مثل كتابيه (أزاهير الرياض (و) الكؤوس المترعة، (ومصنفات حفيده الآخر الشيخ قريب الله أبي صالح، ثم مؤلفات البروفيسور حسن الفاتحقريب الله حفيد هذا الأخير، وكذلك مؤلفات أحفاد الشيخ عبد المحمود نور الدائم مثل الشيخعبد المحمود الحفيان، ونجله الشيخ الجيلي، وغير ذلك من المصنفات الكثيرة لمنتسبي هذه الأسرة .

رابـعـا: التجاْنيــة

هي الطريقة المنسوب تأسيسها للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد المختار التِجَّاني الذي وُلد بعين ماضي بجنوب الجزائر في عام 1737م، وتوفي ودُفن بمدينة (فاس) بالمغرب في عام 1815م. وعلى الرغم من أنَّ هذه الطريقة لم تبدأ في الانتشار حقيقةً على نطاق واسع في بلاد السودان الشرقي إلاَّ في ثلاثينيات القرن التاسع عشر على أبعد تقدير، أي بعد زوال مملكة سنار، وسيطرة أسرة محمد علي باشا على حكم البلاد بنحو قرابة العقدين من الزمان، إلا أنَّ مؤسسها، وبعضاً من كبار أبنائه وخلفائه الذين نشروا هذه الطريقة، قد عاشوا بالفعل في أواخر عهد الفونج في السودان، بدليل أن الشيخ التجاني نفسه قد انتقل إلى جوار ربه في عام 1815م أي قبل الغزو التركي المصري للسودان بنحو ستة اعوام، لأنه قد اكتمل بسقوط العاصمة (سنار) نفسها في أيدي قوات إسماعيل كامل باشا نجل محمد علي، في عام 1821م .

على أننا قد لاحظنا شيئاً من اللبس والاضطراب بين الباحثين، في تعيين اسم أول من نشر الطريقة التجانية في السودان عامة، وفي غرب السودان بصفة خاصة، حيث تنتشر هذه الطريقة هناك على نطاق أوسع مما هو عليه الحال في بقية أرجاء سودان وادي النيل. إذ تذكر بعض المصادر أنَّ أول من نشر التجانية في السودان مُطلقاً هو الشيخ محمد بن المختار بن عبد الرحمن الشنقيطي(1820 - 1882م)[1] المشهور بلقبه (ابن العالية) نسبة لأمِه فاطمة التي كانت تلُقبَّ بالعالية، بينما يذهب بعض الباحثين إلى أن أول من نشرها في غرب السودان هو الشيخ عمر قنبوالهوساوي(ت 1918م)، وكل ذلك غير صحيح، وإنما الراجح هو أنَّ أول من أتى بالطريقة التجانية إلى السودان هو الشيخ (مولود فال اليعقوبي الشنقيطي) (ت 1851م)، الذي قدم إلى السودان، فسلك عنه هذهالطريقة الشيخ محمد ود دوليب الركابي (1800 – 1880م) بقرية (خُرسِي) الواقعةبالقرب من مدينة (بارا) بشمال كردفان، وكان ذلك في عام 1838م.[2] وكان الشيخ مولود فال المذكور، قد سلك هذه

1 عـن سيرة الشيخ محمـد بـن المختار بـن عبد الرحمن الشـنقيطي وتواريخ مولـده ووصوله إلى السـودان، وتحركاته داخل السـودان وخارجـه ، ووفاتـه، انظـر يوسـف فضـل حسـن، **ملامـح مـن العلاقـات الثقافيـة بين المغـرب والسـودان**، معهد الدراسـات الإفريقيـة، جامعـة محمـد الخامس،الربـاط، المملكـة المغربيـة، 2009 م، الصفحـات 57 – 64.

2 معلومة استقاها الباحث شفاهة عن الخليفة مجاهد أحمد النور الزاكي التجاني

الطريقة على يد الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي (ت 1822م)، الذي أخذها بدوره عن مؤسسها الشيخ أحمد التجاني .

ولعل الصحيح أن يقال بالأحرى، إن الشيخ محمد بن المختار الشنقيطي، هو اول من نشر الطريقة التجانية في شمال السودان تحديداً، حيث أخذها عنه بعض الوجهاء والأعيان من قبيلتي الجعليين والشايقية مثل الشيخ أحمد قاضي المتمة، والشيخ محمد الخير عبد الله خوجلي، والشيخ أحمد هاشم الجودلابي وأبنائه، والشيخ مدثر إبراهيم الحجاز، والشيخ أحمد الهِديْ الشايقيالسوارابي وغيرهم. ذلك بانه قد أقام في اواخر سني عمره بجزيرة (أم حراحر) بالقرب من شندي، إلى ان توفي ودُفن بها في عام 1882م.

ولئن كان الشيخ مولود فال الشنقيطي، وتلميذه محمد ولد دوليب أول من نشرا الطريقة التجانية في السودان كما نر جح، إلا أن هنالك شخصيةً سابقة لهما في اعتناق هذه الطريقة، لم يعرها الباحثون الاهتمام اللائق بها، ربما لنقص البيانات الكافية عن سيرتها، ونعني بذلك الشيخ: (الماحي الدارفوري)، الذي ورد في بعض المصادر أنه ربما كان الشخص السوداني الوحيد الذي التقى بالشيخ احمد التجاني كفاحاً، وسلك على يده هذه الطريقة مباشرةً.

وقد ذكره علامة المغرب الحاج أحمد سكيرج العياَّشي في كتابه (كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب (فقال في ذلك نظما:

ومنهم الماحي الرَّضي الدارفوري من قلبه ممتزجٌ بالنورِ

لقنَّهُ الســـــيفيَّ والأسماءا فـــــــنال فتحاً جاوزَ الجوزاءا[1]

هذا، وربما كان السبب الرئيسي في غفلة الباحثين عن تدوين سيرة الشيخ الماحيالدارفوري التجاني المذكور، أنه لم يخْلِف نسلاً مشهوراً، أوتلاميذ معروفين في السودان، خصوصاً وأن بعض المصادر تذكر انه قد توُفي ودُفن بالقرب من أحد الحرمين بالحجاز.

فقد جاء – على سبيل المثال - في سند الشيخ محمد الحافظ بن عبد اللطيف سالم التجاني المصري (1898 – 1978) في العلوم الدينية، الذي نقله عنه رفعت فوزي

1 الحاج أحمد سكيرج،**كشف الحجاب عمن التقى بالشيخ التجاني من الأصحاب**، نسخة الكترونية مبذولة بالشبكة العنكبوتية، من دون دار نشر، 1381 هـ 1961م.

عبدالمطلب، وأثبته في مقدمة رسالته للماجستير التي حصل عليها من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ما نصُّه:

(... ونروي العلوم الدينية، ومصدرها كتاب الله عزَّ وجلَّ والسُنَّة المحمدية والفقه والتفسير وما يتعلق بذلك، عن حافظ المغرب أبي الإقبال السيد محمد عبدالحي بن عبد الكبير الكتاني، وعن الشيخ محمد الصادق الرياحي التونسي حفيد شيخ الإسلام سيدي إبراهيم الرياحي، كلاهما عن العلامة الشيخ الطيب النيفر التونسي عن العلاَّمة الشيخ الماحي الدارفوري المتوفىَ قرب المدينة المنورة. وهو عن شيخنا سيدي أحمد بن محمد التجاني الشريف الحسني رضي الله عنه. وقد سافر الشيخ الماحي من دارفور إلى المغرب ليأخذ عن الشيخ، وقد أخذ عنه العلم والطريق.. وأخذ الشيخ سيدي أحمد التجاني الإجازات العامة عن الشيخ سيدي محمود الكُردي المدفون بالقاهرة عن شيخ الإسلام محمد بن سالم الحفني) .. [1]

على أنَّ من الثابت عند سائر المشتغلين بتاريخ وأخبار الطريقة التجانية في السودان، أنَّ أعلى الأسانيد وأقصرها في الطريقة التجانية في السودان قاطبة، بخلاف الشيخ الماحي المذكور، يعود إلى الشيخ الشريف عبد المنعم احمد سلامة، رجل (ام سعدون (بشمال كردفان (ت 1935م) عن سن عالية للغاية. ذلك بأنه قد أخذ هذه الطريقة عن الشيخ محمد الغالي بو طالب الحسني (ت 1829م)، الذي أخذها بدوره عن مؤسسها الشيخ أحمد التجاني. ويذكرون أن الشريف عبد المنعم والشيخ المجاهد عمر بن سعيد الفوتي(1784 – 1864م) مؤسس الدولة التجانية بغرب إفريقيا، أخوان في الطريق، لأنهما سلكا معاًعلى يد الشيخ محمد الغالي المذكور.[2]

-

1 رفعت فوزي عبد المطلب،**عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وأثره في علوم الحديث**، رسالة ماجستير منها نسخة الكترونية مبذولة على الشبكة العنكبوتية، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، 1972م، ص 3

2 معلومة استقاها الباحث شفاهة عن صديقه الأستاذ إبراهيم الدلالَّ الشنقيطي التجاني.

سلطنـــة دارفـــور

المبحث الأول

لمحة عن صلة دارفور بالعروبة والإسلام

ليس من اليسير او المُستطاع تحديد تأريخ لبداية الوجود الإسلامي، وانطلاق مسيرة الدعوة الإسلامية في دارفور على وجه الدقة. بيد أنَّ هنالك من الشواهد والقرائن التي تدل على أن ذلك الوجود، هو أقدم بكثير من تاريخ قيام سلطنة الفور التي يؤرخ لتأسيسها بالعام 1640م .

والراجح هو ان العناصر البشرية العربية والمستعربة، ومؤثرات الدعوة الإسلامية، قد جعلت تتسرب إلى دارفور رويداً رويدا مع هجرة القبائل والمجموعات العربية والمستعـربة والمسلمة، سواء من صعيد مصر مباشرة، أومن بلاد السـودان النيلي أومن غرب ووسط إفريقيا، أو من بلاد المغرب العربي وشمال إفريقيا .

ويميل نفرٌ من الباحثين إلى الاعتقاد في أنَّ عنصر (التنُّجُر) الذي كان سابقاً للفور في السيادة على تلك البلاد، قد كان هو نفسه عنصراً على قدر كبير من الاستعراب على الأقل والأسلمة أيضا ً تبعاً لذلك، إن لم يكن عربياً صليبةً، وذلك بقرينة عدم استخدامه لأية لغة أخري غير العربية كلغة أساسية. وتربط الروايات المحلية التنجر ببني هلال، أصحاب التغريبة الشهيرة من نجد بالجزيرة العربية إلى مصر، ثم من هذه الأخيرة إلى تونس التي يبدو أن بعض بطون قبيلة بني هلال فيها قد نزحت منها جنوباً إلى نواحي حوض بحيرة تشاد، ثم واصلت طائفة منها طريقها شرقاً حتى استقر بها المقام فيما صارت تعرف لاحقاً بدارفور، ربما في بحر القرن الثالث عشر الميلادي.[1]

وقد ورد بموسوعة ويكيبيديا المبذولة على الشبكة العنكبوتية تحت مادة (تنْجُر)، أن أقدم أثر لهيكل بناء عُثر عليه بمدينة (أوُري) عاصمة التنجر، كان مسجداً يعود إلى حوالي عام 1200 ميلادية، كما نقل يحي محمد إبراهيم عن المؤرخ الشعبي

1 خالد محمد فرح، (نبذة عن تاريخ الدعوة والثقافة الإسلامية في دارفور (، مقال نشره هذا الباحث بصحيفة سودانايل الالكترونية بتاريخ 28 . www.sudanile.com فبراير 2011م

الشيخ محمد عبد الرحيم (1878 – 1966م) قوله إنه هو شخصياً، قد وجد في أعلى قمة جبل مرة، أنقاض مسجد قديم جدا.[1]

وينقل يحي محمد إبراهيم عن بيتر شيني قوله في كتابه: موجز تاريخ السودان:) أن الإسلام صار دين الدولة الرسمي في عهد التنْجُرْ، واللغة العربية صارت لغة البلاد وذلك حوالي 1500م، وهي الفترة التي بلغت فيها مملكة التنُّجُر أوج مجدها)[2] وقد لاحظ إبراهيم إسحق إبراهيم مُحقاً، أنَّ الرحالة الألماني غوستاف ناختيقال، قد رأى في تحدُّث التنجر بالعربية حصراً، سنداً لمزاعم أصلهم الهلالي، وذلك على الرغم من زعم ناختيقال أنهم قد كانوا غير مسلمين في عهود سطوتهم السياسية في دارفور على حد رأيه. وذلك لعمري توصيف يوشك أن يكون متناقضاً، ويصعب تصديقه خصوصاً في السياق الثقافي والحضاري العام لبلدان إفريقيا جنوب الصحراء التي لا يكون فيها المرء مستعرباً تماماً، إلا وهو مسلم كذلك. فليس الوضع هاهنا كوضع نصارى العرب بالشام والعراق على سبيل المثال. فهؤلاء الأخيرين قد كانوا عرباً أساساً قبل أن يعتنقوا أي دين.

ومهما يكن من أمر، فقد ربط نفرٌ من الباحثين مثل آركل ويوسف فضل بالفعل بدايات حركة الدعوة الإسلامية والثقافة العربية في دارفور، بسيادة عنصر التنجر على تلك المملكة، وإزاحتهم لحكم سابقيهم الداجو .

وعلى سبيل التدليل على رجحان البعد الإسلامي في قومية التنُّجر، تشير بعض الروايات إلى أنه كان يوجد هنالك سلطان يسمى يسمى السلطان (شاو بن رفاعة التنُّجراوي) الذي حكم في بحر القرن السادس عشر الميلادي ترجيحاً، والذي يقُال إنَّ أوقافاً باسمه، قد كانت ولعلها ما تزال موجودة في الأراضي المقدسة بالحجاز، مما يدل على إسلامه هو شخصياً، ومما يقوي بالتالي الاعتقاد في ترجيح إسلام أعداد معتبرة من رعايا مملكته، أوعلى الأقل طبقة التنجر الحاكمة، وغيرها من القبائل العربية اوالمستعربة التي انحازت إلى مملكتهم، وصارت تحت سلطانهم آنئذٍ.

وقد أعاد الأستاذ إبراهيم إسحق إبراهيم في أطروحتة للماجستير التي أصدرها في كتابعنوان: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان

---

1 يحي محمد إبراهيم، **تاريخ التعليم الديني في السودان**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م ، ص 236، الهامش رقم (9).

2 يحي محمد إبراهيم، ذات المرجع، ص 235 - 236.

نشرَ وثيقة باسم السلطان شاو بن رفاعة التنجراوي المذكور، تتعلق بأوقافه المشار إليها بأرض الحرمين. وبالنظر الفاحص والمُحقِّق إلى حدِ ما من جانبنا، في محتوى تلك الوثيقة تاريخياً وانثربولوجياًولغوياً، يتعزز لدينا الميل إلى الاعتقاد في صحة هذه الوثيقة، وأصالة نصها، ومعقولية مدلولها ومحتواها إلى حدٍ كبير.

وكان الأستاذ إبراهيم إسحق إبراهيم، قد دعا الباحثين ضِمناً إلى السعي لتحقيق تلك الوثيقة المنسوبة للسلطان شاو التنجراوي، والتي تعود إلى سبعينات القرن السادس عشر الميلادي، وذلك حين قال:

(بيد المؤرخين حالياً، وثيقة مهمة تحتاج إلى تحقيق، ولعلها جاءت من دُور الوثائق القاهرية. فقد وكَّلَ المدعو السلطان شاو التنجراوي شخصاً يدُعى فخر الدين عثمانبن الشيخ نور الدين علي المغربي، أن يوُقف من أملاك السلطان شاو التنُّجراوي التي في المدينة المنورة، أماكن ونخيلاً وبساتين، وقد سُجِّلت وثيقة هذا الوقف في القاهرة في عام 983هـ 1575م) .[1]

فمن آيات صدقية هذه الوثيقة ومقبوليتها في سياقها التاريخي العام، أنَّه توجد هنالك بينة خارجية أخرى تعضدها، هي ما أورده الرحَّالة الإيطالي لورينزودانانياLorenzo d`Anania في كتابه بعنوان: L`UniversaleFabrica الذي نشره بالبندقية في عام 1582م، يفُهم منها ضمناً أن دولة باسم التنُّجُر قد كانت قائمة بالفعل، في شمال درافور في عام 1580م وما قبلها بالطبع، وذكر أنَّ عاصمتها (أورِ ي)، قد كانت مدينة مهمة يخضع لها عدد من المشيخات والكيانات القبلية المجاورة لها مثل: الزغاوة، والميما،والمساليت، والمورقا (البرقو) ؟، والدَّاجو. والشاهد هو أنَّ دانانيا يصف تلك السلطنة التنجراوية بأنها كانت مملكة قوية وحليفة للأتراك وأنَّ تجار القاهرة كانوا يمدونها بالسلاح.[2]

فانطلاقاً من حقيقة أن مملكة التنجر بشمال دارفور قد كانت حليفة للأتراك كما قال دانانيا، ومصطلح الأتراك في السياق التاريخي الذي ألف فيه ذلك الكتاب، قد تعني المسلمين عموماً، وقد تعني الامبراطورية العثمانية بالتحديد، فضلاً عن كون

---

1 إبراهيم اسحق ابراهيم،**هجرة الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلادالسودان**، هيئة الخرطوم للصحافة النشر، الخرطوم، 2013م، ص 164.

2 .R.S. O`Fahey & J.L. Spaulding, **Kingdoms of the Sudan**, METHUEN, CO LTD, London, 1974, p. 111 1.

أن حكامها كانوا شركاء تجاريين لتجار القاهرة، بل موضع ثقة لهم بدليل أنهم كانوا يمدونهم بالأسلحة، وقبل ذلك ما استقر عند سائر الباحثين من أنه لم تعُرف للتنجرلغة أخرى غير العربية، ربما رجَح الرأي القائل بانهم ربما كانوا مسلمين أيضاً وبالتالي فإن التوجه العام لمملكتهم ربما كان إسلاميا تبعاً لذلك منطقيا .

أما وثيقة الوقف المنسوبة لأحد سلاطين التنجر، والتي عُثر عليها في محفوظات دواوين الوقف في القاهرة، والتي تعود إلى العام 983 هـ/ 1575م، فهي متسقة تماماً مع إشارة الإيطالي دانانيا، لجهة دلالتهما معاً على رجحان إسلام سلاطين التنجر، واستعراب وإسلامية مملكتهم ولو إسمياً كذلك، خصوصاً أن هاتين البينتين لا يفصل بينهما سوى خمسة أعوام فقط. فهما في سياق زمني واحد، وظروفه متماثلة غالبا .

وأما إذا مارُمنا محاولة تحقيق نص وثيقة الوقف ذاتها، عن طريق إمعان النظر مليَّاً في بيناتها الداخلية، ولغتها، والمصطلحات المستخدمة فيها، وأسماء الأعلام المذكورين فيها، والتواريخ المحتملة لحيواتهم، فضلاً عن السياق التاريخي والاجتماعي العام للنص، فإننا نجد انفسنا بإزاء نص يتسم بقدر مقنع إلى حدٍ كبير من التماسك، والانسجام، والمقبولية. فمما لاحظناه على نص هذه الوثيقة التي نثبتها ضمن ملاحق هذه الدراسة، ما يلي:

أولاً: أن الصفة: الحاكم الشرعي وخليفة الحكم العزيز بالمدينة المنورة الخ، التي وُصف بها الشخص المذكور في بداية نص الوثيقة باسم: عبد الله بن حسين بن حسام، هي صفة تدل على وظيفة محددة وحقيقية، كان يعُبر عنها بذلك المصطلح (خليفة الحكم العزيز)، وهو مصطلح كان شائعاً في عهد المماليك والعثمانيين. فقد جاء في كتاب) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبل ي(1032 هـ - 1089 هـ) على سبيل المثال، ذكر: (شرف الدين موسى بن عبد الغفار المالكي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة، وكاتب مستندات السلطان الغوري) الخ.[1]

فكأنَّ خليفة الحكم العزيز، هو عبارة عن قاض شرعي رفيع المستوى، مختص بتسجيلالعقودات، والأوقاف، والأحباس، أو هو شبيه في المصطلح المعاصر بقاضي تسجيلات الأراضي والعقارات، أو ما يسمى في بعض البلدان بالشهر العقاري.

1 ابن العماد الحنبلي،**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، الجزء الثامن، ص 96.

ثانياً: سعينا إلى التحقق من هوية: أبو العباس أحمد الفتوحي الحنبلي، خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية وفقاً لهذه الوثيقة، فلم نعثر على ترجمة لشخص بهذا الاسم بالتحديد حتى الآن، ولكننا عثرنا بالفعل في موسوعة ويكبيديا على الشبكة العنكبوتية، على ترجمة لشخص يدُعى: أبو البقاء تقي الدين ابن النجار الفتوحي الحنبلي الذي كان فقيها حنبلياً ومؤلفاً عاش في مصر أيضا بين عامي 1492 – 1564م وواضح من تركيبة الاسم، وخصوصا من قرينة النسبة للفتوحية وللحنبلية معاً، أنه ربما كان قريباً جداً لأبي العباس أحمد الفتوحي الحنبلي، ومن المحتمل أن يكون هذا الاخير ابناً للسابق، إذ لا تفصل تاريخ وفاة أبي البقاء في عام 1564م، عن تاريخ وثيقة الوقف التي سجلها أبو الفتوح في عام 1575، إلا احد عشر عاما فقط .

ثم عثرنا في كتاب الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزِّي، ترجمة لفتوحي آخر هو: (أحمد بن عبد العزيز بن علي، الشيخ الإمام العلامة، شيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين الفتوحي الحنبلي، المعروف بابن النجَّار، قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية. وُلد سنة 862 هـ وتوُفي سنة 949 هـ (أي حوالي سنة 1542م وهذا الشرح من الباحث). [1]

فمن الواضح أن هذا أيضاً قريب للقاضي الفتوحي الحنبلي المذكور بالوثيقة المعنية، ولكنه ليس هو نفسه، لأن هذا قد توفي في عام 1542م، بينما التاريخ الذي أصدر فيه الأول الوثيقة هو 1575م. وبالجملة فإن هذه الوثيقة تشير إلى قاض بعينه من أولئك القضاة الفتوحيين الحنابلة الذيت تعاقبوا على وظيفة (خليفة الحكم العزيز) بالقاهرة في بحر القرن السادس عشر الميلادي، ولن يكون من الصعب التعرف على هويته من خلالالبحث والمقارنة بالوثائق الشبيهة المعاصرة المحفوظة بذات المصدر.

ثالثاً: عثرنا في كتاب: أعلام المدينة المنورة في القرن العاشر الهجري، على ترجمة مقتضبة لقاض بالمدينة، كان حياً في عام 984هـ اسمه: عبد الله بن حسنالمدني[2]. وهو كما يلُاحظ، اسم لايبعد كثيرا عن اسم القاضي المدني المذكور بالوثيقة ذاتها، أي:

1 نجم الدين محمد بن محمد الغزي،**الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، وضع حواشيه خليل المنصور، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، ص 113.

2 **أعلام المدينة المنورة في القرن العاشر الهجري**، إعداد مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، 2013م، ص 65.

عبد الله بن حسين بن حسام، بل من المحتمل ان يكون هو نفس الشخص، بقرينة وجودهما معاً في ذات الحيز الزمني.

رابعاً: يوجد من بين الشهود في الوثيقة من اسمه (يحي بن محمد بن يونس الهواري الدكيراني). وهذا الاسم بهذه النسبة يغلب على الظن أنه اسم صحيح وواقعي وغير ملفَّق، وإنما حدث خطأ في مرحلة ما من مراحل نسخ هذه الوثيقة في الطريقة الصحيحة لرسم لقب هذا الشاهد اونسبته لفرعه في قبيلة الهوارة، حيث رسم هذا اللقب هكذا (الدكيراني) بالدال ونون النسب العربية الفصيحة، وهذا خطأ، وإنما صواب رسم هذا اللقب هو (الضكيرابي) بالضاد عوضا عن الدال، وبالباء عوضاً عن نون النسب الفصيحة، وذلك جرياً على صيغة النسب في العامية السودانية. هذا،والضكيراب فرع معروف من فروع الهوارة، منهم – كما يقُال -الشيخ موسى ود البرد، الذي مرَّ ذكره آنفا، وهو والد الأولياء أولاد البرد السبعة المشهورين في عموم أرجاء كردفان خاصة، وهم أسلاف المؤرخ الشعبي المعروف الشيخ محمد عبد الرحيم 1878 – 1966م، من جهة والدته كما قال هو نفسه.

وها نحن مرة أخرى، أمام حقيقة قدم تسرب الهوارة إلى بلاد سودان وادي النيل منذ زمان بعيد، وتأثيرهم على الحياة التجارية والعلمية والثقافية، وخصوصاً في كردفان ودرافور بغرب السودان .

خامساً وأخيراً: هنالك من الشهود في هذه الوثيقة، من اسمه (حسن بن علي بن موسى البرِّي). والشاهد هو اللقب (البرِي)، وهو لقب صحيح وواقعي ومنسجم مع السياق التاريخي واللغوي والاجتماعي الذي حُررت فيه الوثيقة، في القرن السادس عشر الميلادي. فالصفة (بري) كانت تعني: سوداني مطلقاً، أي من بر السودان كما زعم بعضهم. وهذا المصطلح ورد بهذه الصيغة نفسها وبذات الدلالة أكثر من مرة في طبقات ود ضيف الله. فعلى سبيل المثال، وصف الشيخ علي الأجهوري (1560 - 1656م) علي ود أبوعقرب تلميذ الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (1507 – 1651م)، بأنه (برِي)[1]

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 55.

ولكن الناسخ الأصلي، أو لعل بعض الناسخين المتعاقبين أيضاً، قد اخطأوا حين جمعوا (البريِ) على (البَرَرَة) وهو جمع فصيح للصفة (بَرْ)، بينما أنَّ الصفة (بَرِيَّ) التي تعني (سوداني مطلقاً)، فكانت تجمع على (بَرَارة) على وزن (مَغارة) بألف بعد الراء، وهذا هو الصواب فيها بحسب الصيغة السودانية الدارجة .

وهكذا، نجد أنفسنا أمام نص متماسك وذي معنى في سياقه التاريخي، نعتقد أن من شانه أن يقدم إضاءات باهرة على تاريخ تلك الفترة الغامضة والمظلمة من تاريخ درافور، على أن يخُضع أيضاً إلى المزيد من البحث والتحقيق.

وإلى جانب ذلك، فقد لاحظ البروفيسور يوسف فضل حسن في مقدمة تحقيقه لكتاب (الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان) لمحمد النور بن ضيف الله، وجود إشارات نادرة في ذلك الكتاب – كما قال – تعكس صدىً خافتاً لنشاط بعض العلماء والفقهاء والمتصوفة، الذين نزحوا إلى دارفور من بلاد السودان النيلي، فاستوطنوها ومارسوا نشاطهم الدعوي والعلمي فيها، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وربما قبل ذلك .

فمن بين أولئك المتصوفة والفقهاء الذين ارتبط نشاطهم بدارفور، وورد ذكرهم في كتاب الطبقات المشار إليه: الشيخ أبو سرور الفضلي الجعلي، تلميذ كل من الشيخ الزين ولد صغيرون، والشيخ علي ود بري، وهو من مواليد الحلفاية، وينتمي إلى ذات الأرومة التي ينتمي إليها المؤلف ود ضيف الله نفسه.[1]

ومنهم كذلك الفقيه أبو زيد بن عبد القادر، من رجال القرن السابع عشر الميلادي. عاش في دارفور ونشر فيها العلم والفقه، وأقام فيها بالتحديد في قرية (كسَّاب) الواقعة على بعد ثلاثة أميال شمال مدينة (كُتمْ)، و توُفي بتلك القرية ودفن في ثراها.[2]

ومنهم أيضاً الشيخ (جميل الله العمُرابي) المذكور في معرض ترجمة الشيخ (علي بندياب القريشابي) [3]

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 106.

2 **الطبقت، المصدر اعلاه**، ص107.

3 **كتاب الطبقات، نفس المصدر**، ص 288.

على أن من بين ألمع الأسماء التي نبغت في مجال الدعوة الإسلامية ونشر العلم والفقه في ربوع دارفور خلال القرن الثامن عشر، يبرز بصفة خاصة اسم الشيخ (عبدالرحمن كاكوم)، الذي كان يلقب ب (كاكوم بحر العلوم) الذي قدم إلى دارفور من بلاد السودان النيلي في أواخر عهد السلطان تيراب 1752 – 1787م، واستقر ببلدة (كوبى) شمال الفاشر، ثم هاجر طالباً للعلم في الأزهر الشريف بمصر، وجاور فيه زماناً، ثم عاد إلى دارفور في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد 1787 – 1806م فقربه إليه، وصار عالم دارفور الأول. ويقُال إن الشيخ كاكوم هو من أشار إلى السلطان عبدالرحمن الرشيد بنقل عاصمة السلطنة من (طُرَّة) إلى (الفاشر) الحالية ففعل.

هذا، وينتمي الشيخ عبدالرحمن كاكوم إلى الهوارة فرع الخطيبية، وليس إلى الحضور كما هو مذكور خطأً في موسوعة الأنساب والقبائل، للعلامة الراحل عون الشريف قاسم. والمعروف أن قبيلة الهوارة هذه التي نزحت من شمال إفريقيا إلى صعيد مصر فأقامت به وعمرته، وارتحلت منها جماعات جنوباً نحو السودان في أزمان مختلفة حيث أقامت طائفة منها بمنطقة الحلفاية شمال الخرطوم، بينما انتشرت طوائف أخرى كبيرة منها في كردفان ودارفور، قد كان لها دورٌ كبيرٌ في التجارة وفي نشر العلوم والثقافة العربية والإسلامية، خصوصاً في غرب السودان. وقد مر بنا من قبل خبر الشيخ موسى ود البرد الهواري وأبنائه السبعة، الذين تنسب اليهم الروايات الشعبية المتواترة أدوارا عظيمة في نشر العلم والفقه في سائر غرب السودان، ويرفع المؤرخ الشعبي محمد عبدالرحيم نسبه من جهة والدته، إلى الشيخ موسى البرد المذكور.

ومن علماء دارفور النابهين في إبان حكم سلطنة الفور أيضاً، الشيخ عبد الرحمن بن علي، المُكنىَّ بأبي آمنة أم كلثوم، الذي ولد في حوالي سنة 1750م، وتلقى العلم في الجامع الأزهر بمصر، وأقام بكل من أم درمان وود مدني برهةً، لكي يستقر به المقام أخيراً بمدينة (كوبى) بدار فور في عهد السلطان تيراب، حيث بنى بها مسجداً لإقامة الصلواتولتدريس القرآن والعلوم الشرعية، فتوافد عليه الناس من سائر أرجاء دارفور ومن وداي وغيرهما يأخذون عنه العلم.[1]

وبالإضافة إلى ذلك، هنالك طائفة أخرى من الشيوخ والعلماء الذين ازدهر نشاطهم

1 خالد محمد فرح، نبذة عن تاريخ الدعوة الثقافة الإسلامية في دارفور، مرجع سبقت الإشارة إليه.

في دارفور على مدى فترات مختلفة، نذكر منهم: الشيخ (حسين ود عماري) من قبيلة العريقات، وهم فرع من الرزيقاتالأبالة بشمال دارفور، وهوأيضاً من الذين هاجروا للدراسة في الجامع الأزهر بمصر، وإليه ينُسب التبغ (ود عَماري) كما زعم الشيخ محمد عبد الرحيم، وذلك لأن أحد سلاطين دارفور كان قد أقطعه أرضاً خصبة، فزرع فيها (التمباك) فأنتجت انتاجاً وفيراً، ومن نوعية ممتازة.

ومنهم الشيخ عز الدين الجامعي الجعفري، وأحفاده الذين تعاقبوا على وظيفة إمام مسجد السلطان وتحفيظ القرآن وتدريس العلم، فأقطعهم سلاطين الفور حاكورة بمنطقة (جديد السيل.)

وكذلك كانت هنالك أسرة من الفقهاء الذين ينتمون إلى قبيلة الجوامعة الجعفرية فرع النالَّية، الذين قدموا من ديارهم بشرق كردفان منذ بضعة قرون، وأقاموا بقرية (ازقرفا) شمال الفاشر، وظلوا يمارسون بها تعليم القرآن، وتدريس العلم والفقه. وقد نبغ فيهم من أجيالهم المتأخرة، العالم الشيخ محمد أحمد سوار (1896 – 1959م)، مؤسس وأول مدير لمعهد الفاشر العلمي، وخريج معهد ام درمان العلمي، الذي حصل فيه على الشهادة العالمية في عام 1943م.[1]

وهكذا تستمر مسيرة الدعوة والثقافة الإسلامية في دارفور عبر القرون وحتى عام 1850م، الذي شهد تأسيس رواق دارفور بالأزهر الشريف .

ومما يفُهم مما جاء في كتاب: إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهلتكرور والصحراء وأهل شنقيط، أنَّ شيخ رواق دارفور بالأزهر الشريف خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، كان هو (الشيخ عبدالرحمن بن سعد الطريفي) المتوفى في عام 1288 هـ الموافق لسنة 1871م. وهو كما هو واضح من طريفيةكوبى[2]، الذين يميل هذا الباحث إلى ترجيح أن يكونوا قد نزحوا إليها مباشرة من ديارهم الأصلية بشمال السودان وهي مناطق كورتي وام بكول والدبة وغيرها

1 **العالم العلامة محمد أحمد سوار**، بأقلام وروايات تلاميذه ومريديه، مطبعة جي تاون، الخرطوم، 2014م، ص 39 – 40.

2 مدينة كانت تقع شمال غربي الفاشر، في أقصى الطرف النهائي لدرب الأربعين الذي كان يربط بين مصر ودارفور انطلاقا من أسيوط عبر الصحراء حتى كوبى المذكورة. كان جل سكانها من التجار القادمين من مناطق الشمال النيلي الذين احترفوا مهنة تجارة القوافل. وقد دُمرت كوبى في عهد المهدية على يد عثمان أزرق الملقب بعثمان جانوه، فهجرها أهلها إلى مناطق أخرى داخل السودان، وحتى إلى تشاد المجاورة .

عبر درب الأربعين، وليسو من الطريفية الذين كانوا قد هاجروا قبلهم من ذات المنطقة ببضعة قرون إلى كردفان، حيث اندغموا في قبيلة الجوامعة وصاروا جزءً أساسياً منها، بل أضحوا يمثلون أحد اكبر فروع تحالفها.

الـمبحث الثانـي
شذرات من تاريخ التصوف والطرق الصوفية في دارفور

أما التصوف في دارفور، وإن لم تكن له مظاهر مادية شاخصة، في شكل قباب، وأضرحة، ومقامات، ورايات، وطبول وما إلى ذلك، كما هو الحال في سائر مناطق وسط السودان، إلا إن هنالك بعض الإشارات التي وردت في بعض المصادر مثل كتاب: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان لمحمد بن عمر التونسي، الذي زار دارفور في عام 1803م، وأقام فيها لبضعة اعوام، والتي يصور فيها المؤلف مشاهد لحلقات ذكر صوفي في دارفور تعود على الأقل إلى تاريخ زيارته لها في مطالع القرن التاسع عشر، يجري فيها ذكر بعض الأولياء القادرية من العركيين مثل الشيخ دفع الله وغيره، مما يدل على تسرب بعض ملامح التصوف الطُرقي إلى دارفور منذ القرن الثامن عشر الميلادي وربما قبله، وذلك بخلاف ما يذهب إلى ذلك عامة الباحثين. وفي ذلك يقول التونسي ما نصه:

(.. ومن ذلك ما وقع أن تلميذ الشيخ دفع الله، حضر حلقة ذكر تلاميذ الشيخ يعقوب. وبين تلاميذ الشيخين معاندة. فلمَّا حميَ الذكر، أراد أحد تلاميذ الشيخ يعقوب أن يبكت على تلاميذ الشيخ دفع الله فقال:

الماعندو شيخاً فراجابا لا يدخل درقة ونشَّابا

الما عندو شيخ مهيوب لا يدخل حلقة يعقوب

فسمع تلميذ الشيخ دفع الله، وعلم أنه عناه بذلك، فقال:

ندخل ونمرق متعافي

بالنية والعمل الصافي

دفع الله فوقي طوَّافِ) الخ [1]

1 التونسي،**تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**، حققه وكتب حواشيه: خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مُسعد، راجعه محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، 1965م، ص 245 – 246.

وعند هذا الباحث، أنَّ ذلك المشهد الذي صوره التونسي، والذي يعود إلى مطلع القرن التاسع عشر، ربما يعكس صدىً لوجود ولاءات وممارسات صوفية في دارفور منذ ذلك العهد وربما قبله، والتي تشي كما هو واضح بنوع من الاستقطاب والتنافس بين مريدي الشيخ يعقوب بن الشيخ بانقا الضرير، وبين محبي الشيخ دفع الله ابن محمد أبو إدريس كما نرجح .

على أن هنالك معلومة نادرة حقاً، وقف عليها هذا الباحث في بعض المصادر، تؤكد أن الطريقة الخلوتية نفسها، قد وجدت طريقها إلى دارفور، ربما منذ خمسينيات أوستينيات القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك حينما بعث الشيخ محمد سالم الحفناوي الخلوتي المصري(1689 – 1767م) تلميذه الجزائري مؤسس الطريقة الرحمانية لاحقاً في بلاده الجزائر، الشيخ محمد بن عبد الرحمن بوقبرين الأزهري (1715 – 1780م بالتقريب) من مصر إلى دارفور لكي يبشر بالطريقة الخلوتية البكرية الحفناوية، فأقام فيها ست سنوات، حيث سلك فيها عدداً من أعيانها في الطريقة الخلوتية، بنسختها المجددة على يد الشيخ مصطفى كمال الدين البكري (1688 – 1749م)، وتلميذه محمد سالم الحفني المذكور.[1]

ولعمري فإن هذه المعلومة الموثقة، تجئرداً مفحماً على زعم من يزعمون أنَّ دارفور لم تعرف التصوف الطرقي والتبشيري قبل القرن التاسع عشر .

ويميل هذا الباحث إلى ترجيح أن تكون مهمة الشيخ الجزائري محمد أبو قبرين الخلوتي إلى دارفور، قد تمت أثناء فترة حكم السلطان محمد تيراب 1752 – 1787م، وذلك لورود معلومة في مصدر ذي صلة يفيد بأن الشيخ أبو قبرين قد سافر من بلده بالجزائر بغرض أداء مناسك الحج في عام 1734م، وتوقف بمصر في طريق عودته من أداء الفريضة، وانه التقى هناك بشيخه سالم الحفناوي، فسك الطريق على يده، ومكث معه نحواً من ثلاثين عاما، حتى انتدبه للسفر إلى درافور، أي في حوالي عام 1764م، وظل فيها لمدة ستة أعوام. وذلك يوافق سني حكم السلطان

1 انظر مادة: سيدي أمحمد بوقبرين على موسوعة ويكبيديا بالشبكة العنكبوتية، وانظر كذلك: R.S. O`Fahey, Islamic Hegemonies in the Sudan , in Louis Brenner, (ed), **Muslim Identity and Social Change in Sub-Saharan Africa**, Indiana University Press, 1993, p.25.

تيراب، الذي اشتهر فوق ذلك، بحبه للعلم والعلماء، وتشجيعه لهم[1].

ومما يجدر بنا ذكره في ختام هذا المبحث، أن هنالك شخصاً من دارفور أيضاً، كان واحداً من التلاميذ المباشرين للعلم الصوفي الكبير، السيد أحمد بن إدريس الفاسي (1750 – 1837م)، ألا وهو الشيخ عبد الله الموازري الملقب بأبي المعالي المعلاوَّي نسبة لقبيلة المعاليا البدوية بجنوب دارفور[2]، والذي التحق بالسيد أحمد بن إدريس في الحجاز، وسلك عليه الطريقة الإدريسية، ولازمه زماناً، ثم رجع إلى السودان، يحمل رسالة شيخه ابن إدريس ويعمل على نشرها، أسوة بإخوته في الطريق من السودانيين الآخرين، تلاميذ السيد أحمد بن إدريس مثل: إبراهيم الرشيد الدويحي، ومكي عبد العزيز، وعبد الله السُّني، وغيرهم .

هذا، وقد استقر المقام بالشيخ عبدالله الموازري المعلاوي بمدينة ود مدني عاصمة إقليمالجزيرة بوسط السودان، إلى أن وافته المنية ودُفن بها، خلال سنيِ الحكم التركي المصري (1821 – 1885م).[3]

1 انظر مقال شويحة عبد الرحمان بعنوان: (سيدي محمد بن عبد الرحمان) بوقبرين (الأزهري، المنشور بتاريخ 17/12/ 2016م، بموقع جزايرس على الشبكة العنكبوتية . www.djazairess.com/djelfa/10498

2 .ر. ش. أوفاهي، **أحمد بن إدريس الولي العالم**، ترجمة أبوذر الغفاري عبد الحبيب، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م، ص .175

3 يحي محمد إبراهيم،**مدرسة أحمد بن إدرس المغربي وأثرها في السودان**، مرجع سبقت الإشارة إليه، ص 369.

الباب الثاني
الأوضاع العامة في القرن الثامن عشرمحليا وخارجياتمهيد

الباب الثاني

الأوضاع العامة في القرن الثامن عشرمحليا وخارجيا

تـمهيـــد

نسعى من خلال هذا الباب، إلى تقديم ملمح عام موجز عن القرن الثامن عشر الميلادي، ذلك القرن الذي وُلد فيه الشريف محمد مرتضى الزبيدي(1732 – 1791م) الذي عليه مدار هذه الدراسة، وعاش فيه، وتوفي أيضا. وذلك من حيث أجواؤه وظروفه العامة، وخصائصه ومجرياته، وما تميز به من تطورات وأحداث على المستويات الدولية والإقليمية، وانعكاساتها بصفة خاصة على المنظومة الإقليمية في افريقيا والعالمين العربي والإسلامي، وبصورة أخص على المستوى المحلي في السودان، بوصفه جزءاً من تلك المنظومة .

ونطمح من ذلك إلى تقديم رؤية شاملة وكلية للأوضاع في السودان في ذلك القرن الصاخب، من خلال إطار أوسع هو إطار الأوضاع والتطورات التي انتظمت العالم بأسره في القرن الثامن عشر، وإطار فرعيٍ آخر بداخل ذلك الإطار وموصول به يتعلق بالأوضاع في المحيط الإقليمي المباشر للسودان، باعتباره جزءً من منظومة الدول والكيانات الإسلامية التي كان يتعاطى معها ويتأثر بها، سواء داخل إفريقيا أوخارجها.

الفصل الأول:

أوضاع القرن الثامن عشر في العالم عموما وداخل الفضاء العربي الإسلامي خصوصا

المبحث الأول

أوضاع العالم وتطوراته في القرن الثامن عشر

شهد العالم الغربي خلال القرن الثامن عشر الميلادي بصفة خاصة، أحداثاً عاصفةكان لها عظيم الأثر ليس على الدول الغربية فحسب، وإنما على مسار العلاقات الدولية والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العالم بأسره. وقد كان السبب المباشر الذي أدى لحدوث ذلك، هو أن أجزاء العالَم وأطرافه التي كانت متباعدةً بعضها عن البعض الآخر في الماضي، قد بدأت تتقارب وتتواصل، ويؤثر بعضها على بعض خلال ذلك القرن، على نحو ملحوظ وعميق الأثر بأكثر مما كان عليه الوضع في أي وقت مضقبل ذلك في تاريخ البشرية .

ولئن كان العالم الغربي على وجه الخصوص، قد خطا خطوة كبيرة على سبيل التأكيد على وجوب إقرار مبدأ سيادة الدول، واعتماد نظام دولي قائم على الدول المستقلة وذات السيادة، مع التأكيد على ضرورة عدم المساس بسيادة الدول (والدول المعنية هنا هي البلدان الأوروبية بالطبع)، بوصفها الوحدات الأساسية التي يتألف منها النظام الدولي الذي ظلَّ قائماً منذ القرن السابع عشر السابق للقرن الذي نحن بصدده وخصوصاً عقب توقيع الدول الأوروبية لمعاهدة (ويستفاليا) في عام 1648م التي كرَّست لذلك النظام العالمي الجديد آنئذٍ، والذي سيستمر متماسكاً وشبه مقدس إلى أن أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب عن قيام النظام العالمي الجديد، مع خواتيم القرن العشرين ومطالع الألفية الثالثة، إلاَّ أنَّ القرن الثامن عشر نفسه، قد شهد سلسلة من الأزمات والاضطرابات والثورات والحروب والمواجهات العسكرية الدامية بين القوى الأوروبية خاصةً، بسبب الصراع على فرض النفوذ والهيمنة والتوسع بصفة أساسية. ومن أبرز الثورات والحروب والمواجهات العسكرية التي شهدها ذلك القرن على سبيل المثال:

- الحرب النمساوية، أو بالأحرى حروب التنازع حول خلافة العرش النمساوي التي انخرط فيها عدد من القوى الأوروبية 1740 – 1748م .
- حرب السنوات السبع 1754 – 1763م بين فرنسا من جانب، وحلف بريطانيا وإسبانيا من جانب آخر .
- الثورة الأمريكية 1776م، وما تلاها من حرب خاضها الأمريكيون ضد بريطانيا العظمى من أجل نيل استقلال بلادهم 1776 – 1783م .
- الثورة الفرنسية 1789م التي أطاحت بالنظام الملكي في فرنسا، وأرست مبادئ الجمهورية، وغيرها من شعارات الحرية والإخاء والمساواة، إلى جانب مبادئ سيادة حكم القانون، وحقوق الإنسان، والتي سوف تؤثر بصورة عميقة في الفكر السياسي والقانوني، ومفاهيم حقوق الإنسان على مستوى العالم بأسره .
- حروب نابليون بونابرت في أوروبا التي ظلت مستمرة منذ تسعينيات القرن الثامنعشر، ولم تتوقف إلا بهزيمته في معركة (وترلو (في عام 1815م .

وقد شهد ذات القرن، تحوُّلاً في موازين القوى الأوروبية، بالمقارنة مع ما كان سائداً خلال القرن السابع عشر. فبينما كانت القوى التي كانت تعُتبر قوىً عظمى في ذلك القرن هي بالترتيب: فرنسا، والنمسا، وإسبانيا، وهولندا، والسويد، تبدل الحال في القرن الثامن عشر، فصارت القوى الأوروبية العظمى والناهضة في ذلك القرن هي بالترتيب: بريطانيا العظمى، ففرنسا، ثم النمسا، وبروسيا، ثم روسيا.

وقد دخلت بروسيا في عهد ملكيها فردريك الأول 1713 – 1740م، وفردريك الثاني 1740 – 1786م، بينما صعدت روسيا بفضل امبراطورها الشهير بطرس الأكبر

1689 – 1725م، ثم بفضل امبراطورتها كاترين العظمى 1762 – 1796م.

أما على صعيد تطور القانون الدولي، فإن توقيع معاهدة (أوترخت) Utrecht في عام 1713م التي وضعت نهاية لصراع عدد من القوى الأوروبية أيضاً على خلافة العرش الإسباني، يعُدُّ خطوة مهمة في هذا الباب، لأنها قد كرست لمبدأ توازن القوى الأوروبية، بحيث لا تكون هنالك دولة واحدة مهيمنة على حساب الأخريات، مما

أدَّى إلى سيادة نوع من الاستقرار النسبي في أوروبا.[1]

وقد لعبت بريطانيا بوصفها قوة عظمى ناهضة آنئذٍ، ومتنامية القوة الحربية والثروة والنفوذ، دوراً كبيراً في ذلك التطور، الذي هدف – في الأساس – إلى كبح محاولات الهيمنة لدى النظام الملكي الفرنسي واحتوائه، في حقبة ما قبل قيام الثورة الشهيرة في فرنسا في عام 1789م .

لقد جاءت تلك الفترة من الهدوء والاستقرار النسبي في بعض عقود القرن الثامن عشر، في محصلتها النهائية، في مصلحة بريطانيا العظمى، لكي تصبح أكبر قوة عالمية، وذلك بصفة أساسية، بفضل تفوقها البحري والتجاري والمالي .

وبالطبع فإن مبدأ توازن القوى ذاك، قد كان يتطلب قوة عسكرية تفرضه، وهو ما تولته بريطانيا، الأمر الذي أدى إلى نشوب سلسلة من الحروب والمواجهات العسكرية بينها وبين غريمتهااللدودة فرنسا بالذات، بدءاً من أربعينيات القرن الثامن عشر لكي تبلغتلك المواجهات أوجها كما أسلفنا، بهزيمة القبطان الإنجليزي نلسون لنابليون في معركة (واترلوُ (في عام 1815م .

وكان نابليون قبل هزيمته تلك، قد خاض حروباً طاحنة في أوروبا الغربية، وسجل فيها سلسلة من الانتصارات الباهرة على جيوش كل من النمسا وبروسيا وبريطانيا وهولندا وبلجيكا تباعا، إلى أن تمكنت بريطانيا أخيراً بفضل تحالفها مع كل من هولندا وبروسيا والنمسا والامبراطورية العثمانية، من إيقاع الهزيمة به والانتصار عليه، ثم نفيه إلى جزيرة (سانت هيلانة)، بل أدى ذلك التطور في سياسة الدول القوى الأوروبية المنتصرة في المواجهة ضد نابليون، إلى إعادة الملكية وحكم آل البوربون مجددا إلى فرنسا، مُمثلاً في شخص الملك لويس الثامن عشر، شقيق لويس السادس عشر، الذي كان ثوار الثورة الفرنسية قد أعدموه بالمقصلة في عام 1789م.

ولكن القرن الثامن عشر لم يكن كله قرن سعد ومسرات بالنسبة لبريطانيا العظمى ذلك بان ذلك القرن قد شهد هزيمة قواتها هزيمة ماحقة بواسطة قوات الثورة الأمريكية على الساحل الغربي للمحيط الأطلنطي، حيث انتزع الأمريكيون استقلال

---

1 حول أوضاع العالم في القرن الثامن عشر الميلادي عموماً، انظر ما هو منشورٌ عن ذلك بموقع موسوعة ويكبيديا بالشبكة العنكبوتية تحت الرابط: https://en.wikipedia.org/wiki/18th_century

بلادهم عنوةً واقتداراً من بريطانيا في عام 1776م، بعد أن كبدوا جيشها خسائر فادحة في الأرواح والعتاد .

أما على الصعيد الفكري، فقد تميز القرن الثامن عشر الميلادي، بأنه القرن الذي بزغت فيه وازدهرت، ما تسُمى بحركة التنوير، كما عُرف ذلك القرن بعصر التنوير أوعصر الأنوار كذلك، على الصعيد الفكري والمعرفي والفلسفي .

وتُعرِّف موسوعة ويكبيديا حركة التنوير بأنها: (حركة سياسية واجتماعية وثقافية وفلسفية واسعة، تطورت بشكل ملحوظ في أوروبا خلال القرن الثامن عشر. نشأت في إنجلترا، ولكن التطور الحقيقي لها كان في فرنسا. وتحول مفهوم التنوير ليشمل بشكل عام أي شكل من أشكال الفكر الذي يريد تنوير العقول من الظلام والجهل والخُرافة مُستفيداً من نقد العقل، ومساهمة العلوم) .[1]

إنها باختصار، دعوة للانسان لكي يكون حُرَّاً ومستقلاً، وغير مُنقاد في تفكيره واعتقادهوسلوكه في الحياة، وأن يرفض الوصاية والتبعية والانقياد الأعمى لأية سلطة دينية كانتأو زمنية، وألا يركن إلى الكسل والخمول، وان يكون مبادراً وإيجابيا، وألاَّ يستسلم للمقدر والمكتوب. والمسؤولية التربوية للمفكر، الملقاة على عاتق المفكر التنويري هي - بحسب جان جاك روسو أحد رموز تلك الحركة وأقطابها الأساسيين - هي أن يسعى لتحرير المجتمع من الميتافيزيقيا كما قال، ومما دعاها بالظلامية الدينية أيضا، ومن طغيان النظام الملكي المطلق .

هذا، ومن الملاحظ بشكل عام، هو أن حركة التنوير تلك، قد كانت تنطوي على إرهاصات وأوجه شبه واضحة، لما تسمى بنزعة (الحداثة) التي تبلورت لاحقا .

وأما على الصعيد العلمي والتقني، فقد شهد القرن الثامن عشر في أوروبا في ذات الوقت، نهضة علمية شاملة، مستفيداً بكل تأكيد من أفكار عصر التنوير، وما اقتضاه من تحرير العقول وتفجير الطاقات، وكذلك مستفيداً من الثروات المالية الهائلة التي توفرت بسبب حالة الانتعاش والاستقرار النسبي الذي عاشته أوروبا خلال ذلك القرن وخصوصاً بريطانيا العظمى، التي انقدحت فيها أولى شرارت تلك الثورة

---

1 انظر مادة: تنوير بموسوعة ويكبيديا

الصناعية باختراع الآلة البخارية في ذلك القرن نفسه، ثم تسارعت فيها وتيرة التقدم التقني والثورة الصناعية، نتيجة لتراكم رؤوس الأموال لديها بفضل تجارتها الواسعة العابرة للمحيطات، وكذلك نسبة لابتعاد أراضيها نسبياً عن أجواء الحروب والنزاعات بصورة مباشرة، مستفيدة من عزلتها الجغرافية والاستراتيجية كجزيرة .

ولكن بريطانيا – على الرغم من ذلك – لم تستطع الاحتفاظ طويلاً بأسرار تفوقها التقني والصناعي، إذ سرعان ما سعت العديد من الدول الأوروبية الأخرى، إلى استنفار قواها البشرية، وحشد إمكانياتها العلمية، وثرواتها المادية، من أجل إحداث ثوراتها الصناعية الخاصة بكل منها. ولم يوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء، حتى امتدت الثورة الصناعية إلى مناطق مختلفة من العالم، وخصوصاً في أوروبا الغربية، وأمريكا الشمالية، واليابان .

ولقد كانت للثورة الصناعية، نتائجها السياسية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسيةعلى نطاق العالم أجمع، وما تزال نتائجها وتداعياتها تتوإلى اطراداً مع حركة التطورالعلمي والتقني المستمرة، بما لا يتسع المجال هنا للتفصيل فيه .

ولعل أهم و أخطر ما في الثورة الصناعية الغربية التي شهدها ذلك القرن، انها قد أدت إلى تطور صناعة السفن البخارية الضخمة العابرة للمحيطات، والأسلحة النارية الفتاكة التي لم يكن للإنسان عهد بها من قبل، مما مكن القوى الغربية، من فرض سيطرتها وإرادتها على سائر الدول والشعوب عن طريق وسائل النقل البحري الحديثة، التي أمَّنت السيطرة على أعالي البحار، واستخدام الأسلحة النارية الفتاكة التي لا تضُارع بالأسلحة التقليدية البيضاء. ولقد كان لكل ذلك أثر وأي أثر على مختلف بقاع العالم، بما في ذلك العالم الإسلامي المتمدد ما بين قارتي آسيا وإفريقيا.

المبحث الثاني

انعكاس أحداث وتطورات القرن الثامن عشرعلى الأوضاع في العالمين العربي والإسلامي

يذهب جلُّ المؤرخين، وغيرهم من سائر المشتغلين ببقية العلوم الإنسانية، إلى أن القرن الثامن عشر الميلادي، قد شهد أحداثاً تاريخية، وتطورات حضارية وعلمية وتقنية، وتحولات سياسية وفكرية واستراتيجية جسيمة، كان لها تأثيرها الحاسم والمصيري، على مجمل المنطقة العربية والإسلامية، فضلاً عما وراء ذلك مما تسُمَّى ببلدان العالم الثالث، تلك التأثيرات التي سيظل أثرها وتداعياتها ماثلة وشاخصة منذ ذلك التاريخ وحتى يوم الناس هذا .

ففيما يلي الفضاء العربي والإسلامي بالتحديد، الذي كانت تسيطر على معظم أجزائه الإمبراطورية العثمانية باسم الخلافة الإسلامية، نجد أن تلك الإمبراطورية قد دخلت في مرحلة التقهقر والتداعي والاضمحلال، وبدأ التغلغل الأوروبي في المقابل، يتمدد في مناطق نفوذها. وتجرَّأتْ الدول الأوروبية، مزهوة بتقدمها العلمي والتقني، وبثمار ثورتها الصناعية، وتنامي ثروتها المالية، وقوتها العسكرية، فصارت تطلق على الدولةالعثمانية لقب (الرجل المريض (، بل بدأت تطرح عملياً ما سُمي ب (المسألة الشرقية)، ألا وهي مطالبة الدول الأوروبية بالحصول على امتيازات تجارية وقانوينة محددة داخلأراضي الإمبراطورية العثمانية، كما جعلت تطالب بحقها في حماية رعايا الإمبراطوريةالعثمانية من المسيحيين والأقليات الأخرى التي كانت تعيش في كنفها .

ويذكر المحللون والمؤرخون، جملة من العوامل الداخلية والخارجية التي أدت إلى انحدار وتضعضع كيان الدولة العثمانية. فمن بين العوامل الداخلية يذكرون على سبيل المثال:

- ضعف الحكام العثمانيين وإهمالهم لشؤون الدولة، بدءاً من السلطان سليمان القانوني، وحتى آخر سلاطين العثمانيين .
- الفساد في الإدارة المركزية، والفوضى والتعسف والقسوة في عملية جمع الضرائب.

- تدهور نظام الجيش العثماني، جراء سيطرة جيش الإنكشارية على أجهزة الدولة وأثره السلبي .

وأما العوامل الخارجية فقد أتت من جراء الهزات الخطيرة على يد الممالك الأوروبية التي ألحقت بالدولة العثمانية هزائم مريرة في صراعاتها وحروبها في الجانب الأوروبي من الدولة، وأهمها الحروب مع روسيا القيصرية، حيث غزا بطرس الأكبر الامبراطورية عن طريق بيسارية في عام 1769م، وأحرز بعد ذلك انتصارات برية وبحرية عليها في البحر المتوسط، ومدَّت روسيا خطوطاً واتصالات بالعناصر السلافية والأرثوذكسية الثائرة على الدولة العثمانية، وأمدتهم بالمساعدات كالسلاح والمعدات والخبراء العسكريين .وأقامت الامبراطورة كاترينا علاقات مع بعض الحركات الاستقلالية في المنطقة العربية، مثل حركتي علي بك الكبير، والشيخ ضاهر العمر في فلسطين .

ومن جهة ثانية، وبعد اندلاع الثورة الفرنسية، احتلت جيوش نابليون بونابرت مصر في أواخر ذلك القرن، وبالتحديد في عام 1798م، مما أدى إلى فتح أبواب التنافس بين بريطانيا وفرنسا للسيطرة على مصر وباقي ممتلكات الدولة العثمانية. وقد شهد ذلك القرن أيضا، بروز حركات انشقاقية واستقلالية كبيرة عن كيان الدولة العثمانية، نذكر منها: حركة علي بك الكبير في مصر، الذي أعلن في عام 1769م، استقلاله عن الدولة العثمانية، ولقب نفسه سلطان مصر وخاقان البحرين، وحركة ضاهر العمر بفلسطين، والحركة الوهابية التي أفلحت في القضاء على سيطرة الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، وقداعتبرها الكثير من المؤرخين والباحثين باعتبارها حركة إسلامية صرفة، استهدفتإصلاح الفساد والتحلل والانحراف الذي سيطر على الحكم العثماني في بلاد الحرمين، كما وسم العديد من مظاهر الاعتقاد والممارسات والشعائر الإسلامية.[1]

هذا، وسيكون للحركة الوهابية وما زامنها، أو سبقها بقليل من حركات الإصلاح والبعث والنهضة التي انتظمت العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، الأثر البالغ على مجمل الحركة الفكرية والعلمية والثقافية والسياسية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي بما في ذلك بروز حركة التصوف السني التجديدي، وكذلك الحركات الجهادية والاصلاحية

1 إبراهيم شمس الدين، مقدمة تاريخ الجبرتي: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، الصفحتان 3 و 4.

والسياسية التي ظهرت في عدد من أقطار العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا خلال القرن التاسع عشر بصفة خاصة .

وبالطبع فإن الضعف والتفسخ الذي أصاب الامبراطورية العثمانية، مما أغرى الدول الأوروبية بالاعتداء عليها، والتوسع الإمبريالي على حسابها، قد نتجت عنه حركات ونزعات استقلالية كبيرة أخرى ستظهر في مطلع القرن التاسع عشر، ولكن جذورها تعود إلى القرن الثامن عشر. ومن أبرز تلك الحركات والنزعات، حركة محمد علي باشا بمصر، الذي استبد بحكم مصر عن الباب العالي، بتشجيع ومساعدة مؤكدة من القوى الأوروبية .وقد توسع نفوذ محمد علي لاحقاً، فاحتلت جيوشه خلال الفترة ما بين عامي 1811 و1841م، كلاً من الجزيرة العربية، وسواحل البحر الأحمر الغربية حتى مصوع، واليونان، وبلاد الشام، وسلطنتي سنار (الفونج)، وكردفان (المُسبعَّات)، بالسودان الشرقي، وتوغلت جنوباً حتى أعالي النيلين الأبيض والأزرق، وزحفت على أراضي تركيا ذاتها حتى وصلت إلى كوتاهية، بل أشرفت على القسطنطينية نفسها .

وفي القرن التاسع عشر، بدأ التغلغل الأوروبي اقتصادياً وثقافيا، ثم سياسيا وعسكريا باتجاه العالم الإسلامي، وتحولت الهيمنة الغربية من مجرد حقوق وامتيازات تجارية ومعاملات دبلوماسية وقنصلية خاصة، إلى نفوذ سياسي وهيمنة اقتصادية، وضغط عسكري، ما لبث أن تحول إلى احتلال مباشر، فاحتلت فرنسا الجزائر في عام 1830م، وتونس 1881م، و مراكش 1912م، وفرضت انتدابها على سوريا ولبنان 1920م، واحتلت إيطاليا ليبيا 1911م، واحتلت بريطانيا ميناء عدن بجنوب اليمن في عام 1830م، ومصر 1882م، والسودان 1898م، والعراق 1920م وفرضت انتداباً على فلسطين في عام 1920م، ثم سلمتها لقمة سائغة للاحتلال الصهيوني فيما بعد، ليتحقق وعد رئيس وزرائها بلفور لليهود بذلك، الذي كان قد قطعه لهم في عام 1917م .

وبذلك أطبقت الدول الاستعمارية الأوروبية هيمنتها على كل البلاد العربية تقريباً وفقدت المجتمعات العربية وحدتها، وتكرست تجزئتها السياسية، وتخلفها الاقتصادي والاجتماعي.[1]

1 **التحولات الفكرية في العالم الإسلامي من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الهجري**، تحرير الدكتور عليان الجالودي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن / الأردن، 2014م، ص 22

على أنَّ من الآثار الإيجابية للتهديد الأوروبي للدولة العثمانية، وما دونها من البلدان والكيانات الإسلامية الأخرى، أنه كان محفِّزاً ودافعاً أكيداً من وراء محاولات التحديث التي انتهجتها الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر، وخلال القرن التاسع عشر، بدءاً بإصلاح الجيش والتعليم، إلى تحديث الإدارة والقوانين، وامتد ذلك إلى مصر، خصوصاً في عهد محمد علي باشا 1805 – 1848م، ومن تلوه على سُدَّة الحكم فيها من أبنائه وأحفاده، وفي المغرب منذ أواسط القرن التاسع عشر.[1]

---

1 **التحولات الفكرية**، المرجع السابق، ص 22.

المبحث الثالث

الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر

مع إطلالة القرن الثامن عشر الميلادي، توقف الزحف العثماني تجاه أوروبا بعد معاهدة كارلوفتز مع النمسا الموقعة في عام 1699م، وشهد عهد السلطان أحمد الثالث، تحولات جديدة في الإمبراطورية العثمانية، بإنشاء أول مطبعة في اسطنبول سنة 1729م .

وقد ظلت أنظار المسلمين عموماً، تتجه صوب الامبراطورية العثمانية بوصفها حاميةالإسلام، وحامية الديار المقدسة، وحاملة عبء الخلافةالإسلامية، وحصن الإسلام القوي، ورمزه للمواجهة مع الغرب المسيحي .

ولكنَّ قلب العالم الإسلامي نفسه، ممثلاً في بلاد الشام، والعراق، ومصر، قد انتهز تراخي قبضة السلطان العثماني على تلك الولايات خلال القرن الثامن عشر الميلادي، فأنشأ ولاتها حكومات وأنظمة مستقلة فعلياً من أمثال: علي بك الكبير ومحمد أبوالدهب في مصر، وأحمد باشا الجزار وآل العظم في سوريا، وضاهر العمر في فلسطين، والشهابيين في جبل لبنان، والأسرة الجليلية في الموصل، وولاة بغداد والبصرة، والأسرة القرمنلية في طرابلس الغرب، والباشوات العثمانيين من (الدايات والبايات) في الجزائر وتونس.[1]

وبالمقابل، خضع اليمن شكلياً فقط للحكم العثماني، غير أ نَّ السلطة الفعلية قد كانت بأيدي الأئمة الزيدية، الذين كانوا يتولون شؤونه الداخلية. كذلك قامت أسر عسكرية حاكمة في كل أقطار المغرب العربي في ظل الدولة العثمانية مثل: البايات في تونس، والدايات في الجزائر، إلى جانب الكيانات القطرية الأخرى التي لم تخضع لسلطان الدولة العثمانية مثل الأشراف العلويين والحسنيين في مراكش، فضلاً عن السلطنات التي كانت قائمة في بلاد السودان الشرقي والأوسط والغربي، بينما خضع الحجاز لحكم الأشراف، وسيطرت أسرة آل سعود على نجد .

---

1 **التحولات الفكرية في العالم الإسلامي من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الهجري**، تحرير الدكتور عليان الجالودي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن / الأردن ، ص 25- 26.

وقد حدت حالة الجهل المطبق، وانحراف العقيدة، وانتشار الدجل والخرافات، وانعدام الأمن حتى في المشاعر المقدسة والطرق المؤدية إليها، بالشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي(1703 – 1792م)، إلى إطلاق حركته الإصلاحية الدينية، وقد قيُض لتلك الحركة ان تنتشر سياسياً ودينياً، عندما تبناها الأمراء من آل سعود بنجد، وتمكن الأمير عبد العزيز بن سعود (1163 – 1224 هـ) من السيطرة على الشطر الأكبر من الحجاز والجزيرة العربية في عام 1218 هـ \ 1803 م، إلا أنها عادت مُجَدَّداً ولو إسمياً – لنفوذ السلطان العثماني، وذلك بفضل جهود والي مصر محمد علي باشا، وخصوصاً ابنهالأكبر إبراهيم باشا .

وفي ذات القرن أيضاً، وبتأثير مزدوج راجح من قبل حركة الإصلاح العلمي والفقهيوالفكري التي انتظمت بلاد المغرب الأقصى، ومن قبل حركة الشيخ محمد بن عبد الوهابودعوته بالجزيرة العربية، ظهرت في غرب إفريقيا المسلمة حركة الشيخ والمجاهد المجدد عثمان دان فوديو 1754 – 1817م، الذي دعا إلى إصلاح المجتمع المسلم في شمال نيجيريا الحالية، وتنقية الاسلام مما لحق به من البدع والخرافات وسائر المظاهر الشركية، بل تمكن من إقامة دولة إسلامية بولاية (صكوتو (في عام 1804م بعد جهاد طويل، تستهدي بهدي الإسلام، والحكم النبوي والخلافة الراشدة، بل مارست الجهاد بالسيف فعلياً ضد مخالفيها ومناوئيها في تلك المنطقة، كما تركت لنا تراثاً فكرياً وإبداعياً عظيماً من منظور ومنثور، خطته أقلام الشيخ عثمان نفسه وشقيقه عبد الله بن فودي، والسلطان محمد بلوُّ وهو ابن الشيخ عثمان، وشقيقته أسماء بنت الشيخ عثمان.

أما بلاد سودان وادي النيل، فقد كانتتعيش في بحر القرن الثامن عشر الميلادي تحت ظل سلطنات سنار، وتقلي، والمسبعات، والفور الإسلامية. وقد كانت أقدم تلك السلطنات تاريخياً، وأكبرها مساحة وأقواها، ألا وهي سلطنة سنار أوسلطنة الفونج 1504 – 1821م خلال ذلك القرن، في حالة من الضعف والتدهور العام وخصوصاً خلال النصف الثاني منه، إذ انتقلت السيطرة الفعلية على مقاليد الأمور فيها من إثنية أو بالأحرى من طبقة (الفونج) وهم الحكام السابقون والمؤسسون لهذه السلطنة، لكي تتحول إلى وزرائهم (الهَمَج) ابتداءاً من عهد زعيمهم الشيخ محمد أبو لكيلك (1710 – 1776م)، الذي عزل السلطان بادي الرابع (أبو شلوخ) من العرش في سنة

1762م، وولىَّ ابنه (ناصر) سلطاناً صوريا بدلاً عنه، فصارت السلطة الفعلية منذ ذلك التاريخ، وحتى نهاية حكم تلك السلطنة على أيدي قوات إسماعيل باشا بن محمد علي باشا والي في عام 1821م، بأيدي الوزراء الهمج.

الفصل الثاني
حركات التجديد والإحياء الديني في القرن الثامن عشر

المبحث الأول
نبذة عن حركات التجديد والإحياء العلمي والفكري والفقهي والصوفي في القرن الثامن عشر

على الرغم من حالة الركود والانحطاط العام الذي شاب أوضاع العالم الإسلامي بصفة عامة خلال القرن الثامن عشر الميلادي، ولا سيما في الجوانب الفكرية والعقلية والثقافية، إلا أن من الملاحظ – مع ذلك – أن القرن الثامن عشر، قد شهد بروز عدد مقدَّر من كبار العلماء، وخصوصا علماء التراث العربي والإسلامي، في شتى المجالات على امتداده، شرقاً وغربا.

ففي علم الحديث على سبيل المثال، برز العلامة أبو الحسن السِندي (ت 1138هـ) الذي درَّس في الحرم المكي الشريف، والشيخ إسماعيل العجلوني الشهير بالجرَّاحي (ت 1162 هـ) الذي كان من كبار محدثي الشام. وكان الحرمان الشريفان من أكبر مراكز تدريس الحديث الشريف على يد الشيخين أبي طاهر الكوراني الكردي والشيخ حسن العجمي.وبرز في اليمن عدد من المحدثين الكبار في مقدمتهم الشيخ سليمان بن يحي الأهدل (ت 1197 ه)، الذي يعُدُّ من أجل المحدثين في عصره، والشيخ محمد بن احمد السفاريني (ت 1188 ه)، والأمير محمد بن إسماعيل الحسن الصنعاني (ت 1142 ه)، المحدث والمحقق. وفي مصر العلامة محمد عبدالباقي الزُرقاني (ت بعد 1122ه) الذي كان يعتبر خاتمة المحدثين بالديار المصرية. وفي الشام الشيخ والولي القطب عبدالغني النابلسي(ت 1143 ه)، والعلامة إسماعيل حقي (ت 1127هـ). وفي العراق الشيخ عبد الله بن حسين السويدي (ت 1174 هـ). وفي تركيا برز عدد من العلماء والمحققين الكبار، في مقدمتهم أبو السعود أفندي (ت 1574م)، وأحمد مصطفى خليل، المعروف بطاش كبري زادة (ت 1561م)، ومصطفى عبدالله شلبي الشهير بحاجي خليفة (1609 – 1657م). وبالمغرب العربي أيضاً، ظهر محدثون كبار ومصلحون صوفيون في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي،

منهم على سبيل المثال: محمد بن محمد بن سليمان(ت 1094 هـ)، ومحمد بن الطيب الفاسي (ت 1113هـ)، ومحمد بن عبدالقادر الفاسي (ت 1116 هـ)، والشيخ أحمد بن محمد بنناصر الدرعي الشاذلي (ت 1129 هـ \ 1717م) .

وعلى الرغم من حالة الضعف والتفكك التي اعترت بلاد الهند المسلمة تحت حكمالامبراطورية المغولية، خصوصاً بسبب استهداف الاستعمار البريطاني لذلك الحكمالإسلامي فيها، إلا أنها قد شهدت مع ذلك، نبوغاً علمياً ملحوظاً في ذلك العصر، نهض به عدد من العلماء الأفذاذ في القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، مثل الشيخ أحمد بن سعيد الأميتهوي (ت 1130 ه) والشيخ حمد الله السنديلوي (ت 1160 هـ)، والشيخ رستم علي القنوجي (ت 1178 هـ)، والقاضي محي الدين البهاري (ت 1119 هـ)، والشيخ محمد بن علي التهانوي (ت 1158 هـ). أما على مستوى حركة التجديد العلمي والصوفي في شبه القارة الهندية في ذلك العصر، فقد سيطر منهج نظام الدين اللكنوي (ت 1161 هـ) الدراسي المعروف بالمنهج النظامي، على الأوساط العلمية في الهند، وامتد إلى بخارى وسمرقند في آسيا الوسطى. وفي التصوف اشتهر الشيخ ميرزا مظهر جانان (ت 1195 هـ) من كبار المجددين في الطريقة الصوفية النقشبندية، والشيخ عبد الرزاق اليانسوي(ت 1136 هـ)، مجدد الطريقة القادرية، والشيخ كليم الله الجهانآبادي (ت 1140 هـ)، مجدد الطريقة الجشتية النظامية .

وبإزاء حالة الانحطاط الخلقي والاجتماعي التي كانت سائدة في معظم أرجاء العالم الإسلامي فيما قبل القرن الثامن عشر وفي غضونه أيضا، وانتشار الأوهام والخرافات، والتعلق المفرط بالقبور والمقامات، والغلو في تبجيل الأولياء والصالحين، واستشراء الجهل، والركون إلى التمائم والتعاويذ والأحجبة، وانتشار السحر والشعوذة والتواكل والبطالة، والتعلق بأرباب السلطان، انبرى عدد من رجال الإصلاح للتصدي لتلك الأوضاع العقدية والاجتماعية والأخلاقية السيئة والمزرية، والنهوض بمحاولات الإصلاح و التجديد الفكري في مجال العقيدة، ولم تقتصر بصماتهم على القرن الثامن عشر، بل امتد أثر جهودهم لكي ينعكس إيجاباً على حركات الإصلاح والتجديد في القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين .

وقد كان في مقدمة اولئك الدعاة والعلماء المصلحين والمجددين، العلاَّمة الهندي شاه وليالله أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي (1114 هـ / 1703م – 1176 هـ /

1762م) الذييعد أبرز علماء شبه القارة الهندية في القرن الثامن عشر، إذ دعا في مؤلفاته إلى إصلاحالعقائد، والدعوة إلى القرآن، ونشر الحديث الشريف، وحض على فتح باب الاجتهاد، وعرض الشريعة الإسلامية بصورة متناسقة مدعمة بالأدلة والبراهين والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها، كما دعا إلى رفض الجمود الفقهي والتعصب المذهبي، وإلى إصلاح التصوف، وإلى تربية العلماء الراسخين في العقيدة والعلم بالدين، للنهوض بدورهم في نشر العقيدة الصحيحة وتنقيتها من البدع والشوائب، وحثَّ على إحياء نظام الخلافة، فأبان مكانتها، وشرح خصائصها ومميزاتها.

وعلى خطى العلامة ولي الله الدهلوي بالهند، برز في نجد بقلب الجزيرة العربية المصلح والمجدد الديني الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي (1703 – 1792م) فدعا إلى مثل ما دعا إليه الدهلوي من ضرورة فتح باب الاجتهاد، والدعوة إلى التوحيد، ونبذ البدع والخرافات، ومحاربة مظاهر الشرك التي شاعت في زمانه، وغيرها من الانحرافات الاعتقادية والسلوكية لبعض المتصوفة الذين عاصروه وأتباعهم. وقد قُدِّر لتلك الحركة أن تتطور إلى إطار ايديولوجي وفكري متكامل، نشأت على أساسه دولة آل سعود في نجد، بل استطاع آل سعود أن ينشروا هذه الحركة في مناطق واسعة داخل الجزيرة العربية، واستولوا على الحجاز، وهددوا هيبة ونفوذ السلطان العثماني نفسه، بوصفه حامي حمى الحرمين الشريفين كما كان يلقب نفسه لولا استعانته بوالي مصر محمد علي باشا، الذي استطاعت قواته أن تجلي الوهابيين عن الحجاز .

ولكي نأخذ فكرة مجملة وكاشفة معاً، عن مناحي الحياة والظروف والبيئة التي ولد وعاش فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهي لعمري بيئة القرن الثامن عشر الميلادي بأكمله تقريبا، لأنه ولد في أوله في عام 1703م، وتوفي قريباً من نهايته في عام 1792م، فبحسبنا أن نتأمل هذه الفقرة التالية من مقال بعنوان: (الإمام محمد بن عبدالوهاب: مجدد القرن الثاني عشر (الهجري بالطبع .. وهذه الزيادة من الباحث): (لا يعرف قيمة دعوة الشيخ وأهميتها، إلا من عرف ما كانت عليه حال الأمة في عصرهوالعصور التي سبقته. فقد بلغ الانحطاط الفكري مداه في العالم الإسلامي بعد إغلاق بابالاجتهاد، وصار العلماء والطلاب يعكفون على متون المتأخرين وحواشيهم، وانتشرتالضلالات، وشُوهت العقيدة بما داخلها من تشوهات

قاربت شركيات الجاهلية الأولى أوكادت، في نجد وسواها من بلاد المسلمين. وانتشرت الخرافات والبدع وظنوها من الدين .

كانت الحياة السياسية سيئة وفاسدة،والحروبات بين الزعامات فاشية، والبلاد مقسمة ممزقة، قسمتها الأهواء، ومزقتها الجاهليات المستحدثة، والعلماء أنصاف جهلة وأنصاف عجزة، لا يقوون على إنكار منكر، قطاع الطرق يعبثون بأمن البلاد ويعتدون على حرمات العباد، ويسطون على الحجيج، يسلبونهم أموالهم وطعامهم وشرابهم. كانت الخلافة العثمانية ضعيفة، دبت في أوصالها عوامل الضعف وفقدت سيطرتها على أطرافها البعيدة، ولم تستطع أن تبسط سلطانها على شبه الجزيرة العربية التي تتبعها بالاسم فقط، واوروبا لا تخفي أحقادها على العرب والمسلمين والخلافة، تسوقها روحٌ صليبية لم تهدأ منذ غزوة مؤتة، مروراً بالحملات الصليبية، وحتى الاستعمار الحديث ويوم الناس هذا، وقد يستمر إلى يوم الدين. وأوروبا تطمع في (الرجل المريض) واقتسام تركته، والمسلمون في حالة عجز تام. فوضى في السياسة، وفوضى اجتماعية، وفوضى وانحراف في العقائد والعبادات وكل ما يمت إلى هذا الدين العظيم بصلة) [1].

ولكن يبقى أعظم تأثير خلَّفته الحركة الوهابية، هوما أحدثته من حالة النهوض الفكري، الذي نجم عما أثارته من حراك وجدال فكري على الساحة الإسلامية، ما بين مؤيد ومعارض لها، حيث أسهمت مجالس المناظرة والرد، والرسائل المؤيدة والمناهضة لهذه الحركة، في إحداث حالة من الحراك الفكري الخصب والإيجابي، والبعيد الأثر على الساحة الإسلامية في مجملها .

ولعل من ثمرات ذلك الحراك الفكري، أن ظهر في جنوب الجزيرة العربية لاحقاً، مصلحدديني بارز، هو الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت1250 هـ / 1834م) الذي يعدمن كبار المجددين، والذي دعا بقوة لفتح باب الاجتهاد، وحمل حملة شعواء على منكريه، وحث على التحرر من القيود الفكرية التي كبلت العقول بدعوى قفل باب الاجتهاد، وإعلان وجوب التقليد. وكان الشوكاني مدركا لما يدور حوله من أحداث وعبر عن ألمه الشديد لما حصل في ديار الإسلام، وعدَّ غزو نابليون لمصر فيما

1 عبد الله الطنطاوي، (الإمام محمد بن عبد الوهاب: مجدد القرن الثاني عشر (، مقال منشور بموقع (مداد (الالكتروني، بتاريخ 8 / 11 / 2007م، يمكن العثور عليه بالموقع www.midad.com

عُرف بالحملة الفرنسية، رزية عظيمة، كما أبدى تعاطفه مع القوات العثمانية ضد الحملة الفرنسية، كما لم يجد بأساً في التحالف العثماني البريطاني ضد الفرنسيين.

وفي غربي إفريقيا المسلمة، برز المصلح والمجدد الشيخ عثمان دان فوديو(1754 – 1817م)، استمراراً وتأثراً بذات السياق من الحركات الإصلاحية والتجديدية التي انتظمت سائر العالم الإسلامي في ذلك القرن، ولم يكتف بمجرد الدعوة والتنظير للتجديد والإصلاح فحسب، بل عمد عملياً، عن طريق الجهاد في سبيل الله بالسيف إلى إقامة دولة إسلامية على منهج النبوة والخلافة الراشدة، وعلى أسس أحكام الشريعة الإسلامية بإقليم (صكتو) بشمال نيجيريا الحالية في عام 1804م، وذلك عبر اجتهاد فقهي متميز، وتأصيل شرعي سديد .

أما فيما يتعلق بمجالات النهضة والإصلاح الفكري والثقافي والحضاري في القرن الثامن عشر الميلادي، فقد شهد ذلك القرن ظهور عدد من نوابغ المؤلفين في عدة مجالات في بعض أمصار العالم الإسلامي. ففي اسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية – على سبيل المثال – ظهر كل من المؤرخ لطف الله المعروف بمنجم باشي صاحب كتاب (جامع الدول)، الذي يعتبر آخر تاريخ مطول عام للبلاد الإسلامية، كما أثار العديد من الأفكار الإصلاحية في رسالته الشهيرة (أصول الحكم في نظام العالم) التي تتضمن كثيراً من الرؤى النقدية والإصلاحية، في السعي لإصلاح الدولة العثمانية للوقوف في وجه أعدائها الغربيين. كما يبرز العلامة إبراهيم متفرقة (1672 – 1745م)، رجل الدولة العثماني التنويري، الذي يعد من نوابغ الإصلاح في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، ومن أُتيح لهم الاطلاع على جوانب النهضة الأوروبية، ونزعة التقدم والتحديث التي بدأت تسود في الغرب، في وقت كانت تعاني فيه الدولة العثمانية من حالة الانحطاط والتخلف والعزلة، المسؤولة عن كثير من الهزائم التي لحقت بالدولة العثمانية أمام الجيوش الأوروبية. ويعد مفرقة واحداً من رجال الإصلاح الذين انتبهوا مبكراً لأهمية استلهام النهضة، ويعود له فضل السبق في إدخال الطباعة في الدولة العثمانية، بتأسيس أول مطبعة في اسطمبول في سنة 1729م.[1]

1 **التحولات الفكرية في العالم الإسلامي من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الهجري**، تحرير الدكتور عليان الجالودي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن / الأردن ، ص 25- 30.

وأما في مصر، فقد تربع العلامة السيد مرتضى الزبيدي الحنفي (ت 1205هـ)، والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي(1754 – 1822م) على عرش الحياة الفكرية في ذلك القرن، إذ تصدى الزبيدي إلى إحياء الدين في زمنه، وتنقيته مما لحق به من تشويه، فقام بشرح آراء الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ)، فألفَّ الزبيدي كتابه: إتحاف السادة المتقينبشرح إحياء علوم الدين، كما أدرك أهمية إحياء اللغة العربية بوصفها ركناً في النهوض الإسلامي، وإحياء الثقافة العربية الإسلامية، فألف معجم: تاج العروس من جواهر القاموس، فجاء التاج لإثراء القاموس المحيط للفيروزبادي، بالجديد من المواد اللغوية التي لم تكن في زمانه، والجديد من الأساليب والأفكار. ولم يكن الزبيدي مجرد ناقل لمادة القاموس المحيط فحسب، بل اجتهد كثيراً في تضمين المادة اللغوية خلاصة خبراته اللغوية، وجهوده في البحث والدرس، والجمع والمقارنة.[1]

1 **التحولات الفكرية**، المرجع السابق، الصفحتان 29 - 30.

المبحث الثاني

أثر حركة الإصلاح الفكري في القرن الثامن عشرفي ظهور موجة التصوف السني التجديدي

لئن كان القرن الثامن عشر الميلادي، هو القرن الذي تردَّى فيه العالم الإسلامي من أقصى مشرقه إلى أقصى مغربه، في درك سحيق من التدهور والانحطاط، والضعف السياسي والعسكري، والهزال الأمني والثقافي، والتمزق الاجتماعي الذي شاب سائر مجتمعاته، إلا أن من الملاحظ أيضاً، أن ذلك القرن نفسه، واستجابةً لذات التحديات والأدواء وأوجه القصور التي ذكرناها آنفا، قد شهد نهضة علمية معتبرة، وبعثاً فكرياً ملحوظاً، تمثل بصفة خاصة، في تبلوُّر حركة علمية جادة، انطلقت من أرض الحجاز وبلاد الحرمين الشريفين، نهضت بها طائفةٌ من العلماء والفقهاء المبرزين والمتصوفة الورعين المستنيرين، ودارسي وحُفاَّظ الحديث النبوي المتبحرين، الذين كانوا متعاصرين جميعاً خلال ذلك القرن، وانصرفت هممهم بصفة خاصة إلى الاشتغال والعناية بعلوم الحديث النبوي الشريف، التي أوشكت أن تندرس وتكسد سوقها، خاصةً خلال العصر العثماني.

لقد جعل رواد تلك الحركة التجديدية التي انطلقت من بلاد الحرمين في القرن الثامن عشر الميلادي من علوم الحديث في الواقع، مدار حركتهم تلك وقطب رحاها، وذلك انطلاقاً من وعيهم وإدراكهم بأنه لا سبيل إلى الإصلاح، إلاَّ باتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، واتباع سنته القولية والفعلية. ولما كانت الأحاديث والسنة النبوية الصحيحة، متناً وسنداً وروايةً، هي المصادر المعتمدة التي تسُتقى منها معالم ذلك الهدي النبوي على الوجه الصحيح، باعتباره الركيزة الأساسية للإصلاح والنهضة، فقد صرفت تلك الطائفة من العلماء والفقهاء، جل اهتمامها للعناية بكتب الحديث والسنةالنبوية جمعاً، ودراسةً، ومدارسةً، وتدريساً، وحفظاً، وتدويناً، ونقداً وتمحيصاً للمتون والأسانيد وهلم جرا.

ويرى بعض الباحثين أن دراسة الحديث في بعض أمصار العالم الإسلامي قبل القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، قد كانت تتبع مناهج وأساليب

متباينة، ومعزولة بعضها عن البعض الآخر نوعاً ما. ففي شمال إفريقيا أوبلاد المغرب الأوسط مثلاً، كانت سلسلة الأسناد التقليدية المشتركة، في تلقي الحديث وروايته، تضم بصفة أساسية: محمد بن جابر الوَادياَشي(673 هـ/ 1274م – 749 هـ/ 1348م)، كما كانت تضم في زمان لاحق: أبا عثمان بن سعيد بن احمد المقري(930 – 1010هـ) الذي كان مفتياً لمدينة تلمسان لنحوٍ من ستين عاما، والشيخ سعيد قدورة (ت 1066 هـ / 1656م) .

وأما في المغرب الأقصى، فقد كانت لهم سلسلة إسنادهم المميزة في تلقي الحديث وروايته ودراسته، بيد أنهم كانوا يركزون جل اهتمامهم على دراسة موطأ الإمام مالك بن أنس، ولا يعيرون دراسة أمهات كتب الحديثة الستة الأخرى، نفس القدر من العناية والاهتمام . وأما في مصر وبلاد الشام، فإن دراسة الحديث قبل القرن الثامن عشر الميلادي، وإنكانت تعُنى بالعكوف على كتب الحديث الستة (صحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبيداؤود وابن ماجة والنسائي والترمذي)، فقد تميزت بدورها بالتزام سلسلة إسناد مشتركة، تمر عبر محدثي مصر في العصور الوسطى المتأخرة مثل: الحافظ احمد بن حجر العسقلاني (ت 1449م)، وزكريا الأنصاري (ت 1520م)، وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 1505م) .

وثمة اتجاه ثالث في دراسة الحديث بدأ يتبلور في الهند قبل القرن الثامن عشر الميلادي، لم ين على مدرسة معينة وذات تقاليد مرعية سبقته، وإنما كانت مجرد اجتهادات فردية لبعض العلماء، غلب عليها شيء من التشدد نوعاً ما، حتى برز في الهند اتجاه في دراسة الحديث، تأثر بنتائج التفاعل بين مدرسة المشارقة، ومدرسةعلماء الحديث بالحرمين الشريفين، يمثله الشيخ عبد الحق الدهلوي (ت 1052 هـ/ 1642م).[1]

وفي بحر القرن الثامن عشر الميلادي، سوف تلتقي هذه التيارات الثلاثة من علماء الحديث النبوي الشريف بمدارسهم المختلفة سابقاً، في أرض الحرمين، لكي تنطلق منها حركةٌ موحَّدة ومتكاملة ومتجانسة لدراسة الحديث النبوي الشريف، وتنشأ

1 John O. Voll, 'Hadith Scholars and Tariqahs: An Ulama Group in the 18th Century Haramayn and their Impact in the Islamic World ', Journal of Asian and African Studies, XV, 3 – 4, 1980, p.205.

منها ما يشبه الشبكة المعرفية والمفاهيمية العامة في هذا المجال، والتي سوف تنتظم المشتغلين بعلوم الحديث في سائر أرجاء العالم الإسلامي .

وهكذا سيجتمع في أرض الحرمين محدثون أفذاذ مثل الهندي شاه ولي الله الدهلوي (ت 1176 هـ / 1762م)، إلى جانب ثلة معتبرة من تلاميذ المحدث المصري الكبير الشيخ محمد بن علاء الدين البابلي (1000 – 1077 هـ)، من أمثال المشائخ: عبد الله بن سالم البصري (ت 1134هـ / 1722م) ، وأحمد بن محمد النخلي (1044 – 1130ه)، وحسن بن علي العجمي(1049 – 1113 هـ) وإبراهيم بن حسن الكوراني(1025هـ / 1616م – 1101هـ / 1689م)، ومحمد عبد الرسول البرزنجي(1040 – 1103هـ)، وأبو الحسن محمد بن عبد الهادي السِندِي (ت 1138 ه)ـ .

ومن المغرب انضم إلى تلك الكوكبة من المحدثين الكبار المجاورين بالحرمين الشريفين، العلا مة محمد بن محمد بن سليمان المغربي (1037 – 1094هـ)، الذي جمع بين معرفة التراثين المغربي والمشرقي في دراسة الحديث النبوي الشريف، ومحمد بن محمد بن الطيب الفاسي(ت1113هـ)، ومحمد بن عبد القادر الفاسي (ت 1116هـ)، والشيخ أحمد بن ناصر الدرعي (ت 1129هـ / 1717م) .

وبالإضافة إلى الإسهام المقدر للعلامة شاه ولي الله الدهلوي في تلك الحركة، شهدت شبكة علماء الحديث بالحرمين الشريفين في القرن الثامن عشر الميلادي، جهود علماء كبار آخرين، قدموا من بلاد الهند الإسلامية، مثل: أبو الحسن السندي (ت 1138هـ)، ومحمد حياة السندي (ت 1165 هـ)، والعلامة محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ / 1791م)، الذي بدأ دراسة الحديث وغيره من العلوم الإسلامية بالهند موطنه الأصلي، ثم أتمها وتبحر فيها في كل من زبيد باليمن، والحجاز حيث درس هناك على يد عالم مغربي هو الشيخ محمد بن محمد بن الطيب (1110 – 1170هـ)[1]، كما درس على يد السيد عبد الله المحجوب المرغني(ت 1193هـ / 1779م) وغيره من علماء الحجاز .

ويفسِر استيفانرايخمُوت هجرة عدد مقدَّر من علماء ومتصوِفة وفقهاء منطقة شبه القارة الهندية إلى الحجاز في بحر القرن الثامن عشر الميلادي بالذات، بمن فيهم مرتضى

1 John VOLL,‘ Hadith Scholars and Tariqahs: An Ulama Group in the 18th Century Haramayn and their Impact in the Islamic World ‘, Journal of Asian and African Studies, XV, 3 – 4, 1980, p. .602

الزبيدي، يفسره جزئياً، باضطراب الأحوال الأمنية والسياسية في تلك المنطقة، بسبب اجتياح نادر شاه ملك إيران آنئذٍ (حكم 1736 – 1747م) لأفغانستان، وخصوصاً استيلائه على مدينة (دهلي / دلهي (الهندية في عام 1739م.[1]

على أنه بالرغم من عناية تلك الطائفة من العلماء والفقهاء في مجملهم، بعلوم الحديث، ودراسة السنة النبوية المطهرة من مصادرها المعتمدة، إلا أنهَّم فيما يبدو، قد غلبت عليهم ثقافة وقتهم، كما غلب عليهم نمط التد يُّن الذي كان سائداً في عصرهم، ألا وهو ميل سائر الناس إلى التصوف، وحرص كل إنسان في ذلك الزمان على الانتماء إلى واحدةمن الطرق الصوفية التي كانت قائمة آنئذٍ، أوتلك التي خرجت في ثوب جديد خلال ذلكالقرن مثل النقشبندية، وخصوصاً الخلوتية الجديدة التي جدد ديباجتها الشيخ مصطفى كمال الدين البكري (1688 – 1749م)، والشاذلية الجديدة في نسختها الناصرية المغربية، نسبة للشيخ محمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت 1085هـ / 1674م). وربما لا يسُتثنى من ذلك النفر، إلا الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي (1703 – 1792م)، الذي ازورَّ عن جميع الطرق الصوفية،وشدد النكير عليها، وأعلن تمسكه بالكتاب والسنة وحدهما، على فهم الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين وتابعيهم من السلف الصالح كما قال، وخصوصاً وفقاً لمنهج أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي (ت 1328م)، وتلميذه محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (ابن قيم الجوزية) المتوفي في عام 1350م .

ولكن ذلك التفاعل الإيجابي بين تلك المدارس الحديثية، وتلك الملابسة اللصيقة لعلوم الحديث، والحرص على اتباع السنة، سوف ينجم عنها بروز اتجاه تجديدي في التصوف نفسه، يؤذن ببروز تحولات جوهرية فيه، وينقله من مرحلتي محض الزهد والتقشف، وكذلك التفلسف والتجريد والتهويمات، والإيغال في الشطح والتأويل، والقول بوحدة الوجود، وادعاء الاتصال المباشر بالمطلق، والتلقي عن الله كفاحا وما إلى ذلك، إلى نوع من التصوف السُنِّي المعتدل، الذي يرمي إلى إصلاح الفرد وترقيته روحياً، كما يسعى في نفس الوقت إلى إصلاح المجتمع اجتماعياً، وسياسياً، وريادته فكرياً،وتوجيهه ثقافياً وتنظيميا .

1 Stefan Reichmut, op.cit, see especially in the introduction: Zabidi in the context of his times, p. viii.

وقد لاحظ أحد الباحثين أنَّ العلامة محمد مرتضى الزبيدي الذي عليه مدار بحثنا هذا، وهو من غراس تلك الحركة التجديدية، ومعايش ومشاهد لصيق لنمو تلك الحركة وتفاعلاتها أثناء فترة مجاورته بالحجاز، بل يعُد هو نفسه أحد رموزها البارزين، قد حرص على إصدار كتابه بعنوان: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدينأي شرح كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، بأنه صادر عن رغبة أكيدة وحرص مقصود من جانبه، وكانعكاس لأثر تلك المدرسة التجديدية التي انطلق منها، كإسهام منه في الانتقال بالتصوف من دائرة محي الدين ابن عربي – كما قال – إلى دائرة أبي حامدالغزالي ومدرسته السُنيَّة الوسطية التصالحية، التي من شأنها أن تعين المسلم وتهديه إلىمقاربة مسائل الوجود والعدم والمطلق، وطرائق تلقي العلوم والهداية والإرشاد والفتح، وما شاكل ذلك من متعلقات عالم الغيب والماورائيات عموما بطريقة شرعية ومأمونة يكون فيها بمنجاة من مزالق الشرك والزندقة والضلال. إنها المدرسة التي تعول بالدرجة الأولى على اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وتقليده وترسُّم خطاه، والاهتداء بهديه، وفقاً لما جاء في صحيح السنة والأثر، ثم ذكر الله بالأذكار المسنونة و الجائزة شرعاً، ومداومة الصلاة على رسوله الكريم، حتى يحدث الفتح والإشراق للسالك والمريد أو العابد.[1]

وفي ذات الإطار، يبرز اتجاه لتسمية ذلك التيار الجديد من التصوف السني التجديدي، الذي يتوسل إلى بلوغ ذرى الكمالات الروحية عن طريق تقليد النبي صلى الله عليه وسلم والتأسي به، واتباع سنته قولاً وفعلا، ب (الطريقة المحمدية).

وقد عرَّف السيد محمد بن علي السنوسي(1787 – 1859م)، تلميذ السيد أحمد بن إدريس الفاسي(1750 – 1837م)، أحد رواد حركة الإصلاح والتجديد، فضلاً عن أن السنوسي نفسه، هو مؤسس حركة صوفية وسياسية واجتماعية منبثقة عن ذات المدرسة، عرَّف تلك الطريقة المحمدية نقلاً عن الشيخ أبي البقاء العجمي المكي (ت 1702م) كما يلي:

(إن مبنى هذه الطريقة على استغراق باطني، صاحبها في شهود ذاته صلى الله عليه وسلم عمارة ظاهرِهِ بمتابعته قولاً وفعلا، وشغل لسانه بالصلاة عليه وعكوفه عليها

1 John VOLL, John VOLL,‘ Hadith Scholars and Tariqahs: An Ulama Group in the 18th Century Haramayn and their Impact in the Islamic World ‘, Journal of Asian and African Studies, XV, 3 – 4, 1980 p. 270.

في غالب أوقاته، في خلواته وجلواته، إلى أن يستولي على قلبه، ويخامر سره تعظيمه صلى الله عليه وسلم، بحيث يهتز عند سماع ذكره، ويغلب على قلبه مشاهدته وتصير تماثيله بين عيني بصيرته، فيسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فتكثر رؤياه في غالب أحيانه في منامه أولا، ثم في وقائعه في سِنة غفوته، ثم في حال يقظته).[1]

وكان شاه ولي الله أحمد عبد الرحيم الدهلوي، أحد أساطين حركة التجديد هذه التي انطلقتمن أرض الحرمين في القرن الثامن عشر الميلادي، وانبثقت عنها ما سُميت بحركةالصوفية الجديدة، قد سعى بكل ما أُوتي من قوة وعلم إلى إصلاح التصوف،وأنكر على الكثير من طرائقهم وشطحاتهم، ورد عليهم، ووقف أمامهم، ودحض الكثير من اعتقاداتهم، ونصحهم بالوقوف مع تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وعدم السير خلف الضالين والممخرقين من أدعياء التصوف، الذين يخدعون الناس بالطلاسم وغيرها. ودعا الشيخ الدهلوي إلى التصوف السُنيِ القائم على الاعتقاد والعمل بما جاء في الكتاب والسنة، وجرى عليها جمهور الصحابة والتابعين، وقام بتنقية التصوف من الشوائب التي لحقت به من الفلسفات غير الإسلامية، وعمل على إبراز الجانب الإسلامي فيه. ودلَّ الناس على معنى التزكية والزهد والتصوف السليم الخالي من البدع والشطحات والخرافات.[2]

1 ر. ش. أوفاهي،**الولي العالم أحمد بن إدريس والمدرسة الإدريسية**، ترجمة أبو ذر الغفاري بشير عبد الحبيب، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م، ص 9.

2 شاه ولي الله الدهلوي، مقال منشور بموقع قصة الإسلام علي الشبكة العنكبوتية. https://islamstory.com/ar/artical/3407748/%D8%B4%D8%A7%D9%87%D9%88%D9%84%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%87%D9%84%D9%88%D9%8A

المبحث الثالث

الحركات الدينية والطرق الصوفية التي خرجت من عباءة حركة التجديد أو تأثرت بها

علاوة على بعض الطرق الصوفية التي غشيتها نفحة من نشاط مجمع علماء الحديث المسلمين بالحرمين الشريفين خلال القرنين السابع عشر وخصوصا الثامن عشر الميلادي، وحركة التواصل والتدارس والتفاعل بين علماء الأمصار الإسلامية المختلفة بالحجاز خلال ذينك القرنين، فعمدت إلى تجديد نفسها فخرجت في أثواب جديدة وقشيبة مثل النقشبندية، وخصوصاً الخلوتية على يد الشيخ مصطفى كمال الدين البكري وتلميذه الشيخ محمد سالم الحفناوي، والتي خرجت منها لاحقاً الطريقة الرحمانية الخلوتية بالجزائر، لمؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن ابو قبرين (1715 – 1780م) تلميذ الشيخ الحفناوي المذكور، وكذلك الشاذلية الجديدة ممثلة في المدرسة الناصرية الدرعية بالمغرب، يشير الباحثون إلى عدد من الحركات الدينية والطرق الصوفية الجديدة التي انبثقت عن حركة الإحياء والتجديد الفكري والعلمي التي انتظمت العالم الإسلامي وخصوصا بلاد الحرمينفي بحر القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي .

وتأتي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي (1703 – 1792م) التوحيدية السلفية بسماتها وخصائصها المميزة، على رأس تلك الحركات التجديدية، بل يميل بعض الباحثين إلى أن عدوها هي نفسها، بمثابة الباعث والمحفز الحقيقي على حركة التجديد الديني، بما في ذلك ظهور الطرق الصوفية والجهادية الجديدة مثل حركة الشيخ عثمان بن فودة (1754 – 1817م) ببلاد هوسا بشمال نيجيريا.[1]

ولئن كنا قد تطرقنا من قبل في هذا البحث إلى مجادلة الأكاديمي المغربي المعاصر

---

1 محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان،دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها فيالعالم الإسلامي، منه نسخة مبذولة بالشبكة العنكبوتية بالرابط أدناه: https://d1.islamhouse.com/data/ar/ih_books/single/ar_Invitation_of_Sheikh_Mohammed_AbdelWahab_and_its_impact_in_the_Muslim_world.pdf

الدكتور عبد العلي الودغيري، بأن يكون الشيخ عثمان دان فوديو قد تأثر في حركته التجديديه والإصلاحية بالتراث الفكري والعلمي المغاربي حصراً، مع استبعاد أن يكون قد تأثر بالدعوة الوهابية تحديداً، فإننا نميل مع ذلك إلى تبني موقف توفيقي يقول بتعرض ابن فودة لتأثير مزدوج من قبل العلماء المغاربة، وكذلك من علماء الحرمين في إطار الحركة الإصلاحية والتجديدية التي تمخض عنها نشاط شبكة علماء الحديث بالحجاز في القرن الثامن عشر، بما في ذلك ما أسهمت به حركة الشيخ محمد عبد الوهاب في ذلك النشاط .

فإذا كان من الثابت والمقطوع به أن الشيخ عثمان دان فوديو لم يحج إلى بيت الله الحرام، ولم تتهيأ له بالتالي فرصة الاتصال المباشر مع رواد تلك الحركة التجديدية في مكانهم، إلا أن أستاذه الذي تأثربه أيما تأثر، وهو الحاج جبريل بن عمر الطارقي(ت 1789م)، قد حجَّ إلى بيت الله الحرام، واتصل بالتحديد بالعلامة محمد مرتضى الزبيدي هناك، وتتلمذ عليه، ولا بد انه قد تشرب أفكار التجديد والإصلاح، والثورة على البدع والخرافات، وغيرها من مظاهر الانحراف الاعتقادي والسلوكي من الزبيدي ومن غيره من علماء الحجاز آنئذ، علاوة على ما أثارته الدعوة الوهابية من قضايا وتنبيهات مهمة في هذا الجانب، ثم أشربها لتلميذه الشيخ عثمان بن فودة بعد عودته. وقد جاء في بعض المصادر ان الشيخ جبريل بن عمر قد جلب معه إلى بلاده عقب عودته من الحجاز، نسخة منكتاب: إتحاف السادة المتقين بإحياء علوم الدين للزبيدي، ونسخة أخرى من معجمهالشهير: تاج العروس من جواهر القاموس.[1]

---

1 أمين يهوذا، (دور رحلة الحج في نشر التعليم العربي الإسلامي بغرب إفريقيا: شمال نيجيريا نموذجا (، بحث نشره هذا الباحث الذي يعمل محاضرا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة ولاية كادونا بنيجيريا، بتاريخ 3/ 1/ 2017م، وهو مبذول على الشبكة العنكبوتية بالرابط:

http://qaindex.com/Content/%D8%AF%D9%8E%D9%88%D9%92%D8%B1-%D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D9%91-%D9%81%D9%8A-%D9%86%D8%B4%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A-%D8%A8%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A5%D9%81%D8%B1%D9%8A%D9%82%D9%8A%D8%A7-%D8%B4%D9%85%D8%A7%D9%84-%D9%86%D9%8A%D8%AC%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D9%86%D9%85%D9%88%D8%B0%D8%AC%D8%A7?CtID=3&CID=1578&TId=20&PN=0&PS=0&Dir=0

بيد أنَّ عامة الباحثين يوشكون أن يجمعوا على أ نَّ الطرق الصوفية الجديدة، التي تمخضت عنها تلك الحركة التجديدية الإحيائية بالحجاز، مُمَثلة في نشاط علماء الحديث النبوي وثمرة تواصلهم ومدارساتهمالعلمية، بالإضافة إلى أثر الدعوة الوهابية وما أثارته من جدل، وما طرحتها من إشكاليات على الساحة الإسلامية، تتمثل في التالي:

- الطريقة الإدريسية لمؤسسها السيد أحمد بن إدريس الحسني الفاسي (1750 – 1837م)، وهذه قد انبثقت منها بدورها الطرق التالية:
- السنوسية لمؤسسها السيد محمد بن علي السنوسي، الذي ولد بمستغانم بالجزائر في عام 1787م، و توُفي ودفن بالزاوية البيضاء بليبا في عام 1859م .
- الختمية لمؤسسها السيد محمد عثمان المرغني الختم (1793 – 1853م) الذي وُلد بالطائف وتوُفي ودفن بمكة المكرمة، وهو سليل أسرة من الأشراف الذين عاشوا في الحجاز حيث اشتهروا هناك بالعلم والصلاح، ومن بينهم جده المباشر السيد عبد الله المحجوب المرغني(1119 – 1193هـ)، الذي كان من كبار علماء الحجاز في القرن الثامن عشر الميلادي. وقد قدم السيد محمد عثمان المرغني إلى السودان في أواخر سني سلطنة سنار، وتزوج سيدة سودانية من مدينة بارا بكردفان، وأنجب منها ابنه وخليفته الأول بالسودان السيد محمد الحسن المرغني(1819 – 1869م). وقد انتشرت الطريقةالختمية في كل من السودان ومصر والحبشة، وصارت من بعد، ركناً أساسيا من أركانمجمل المشهد الروحي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي بالسودان على وجه الخصوص.[1]

ومن عباءة الطريقة الختمية،خرحت الطريقة الإسماعيلية لمؤسسها الشيخ اسماعيل بن عبد الله الولي(1793 – 1863م)، الذي كان تلميذا للسيد محمد عثمان الختم، وسلك عليه طريقته الختمية بمسقط رأسه مدينة الأبيض بغرب السودان، ولكنه آثر أن يستقل بنفسه لاحقاً، على رأس طريقة خاصة به أطلق عليها اسم الاسماعيلية.

---

1 حول تاريخ الختمية انظر: جون فول، **تاريخ الطريقة الختمية في السودان**، ترجمة محمد سعيد القدال، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، 2002م .

- ومن الإدريسية أيضا خرجت الطريقة الرشيدية نسبة للشيخ إبراهيم الرشيد بن محمد صالح الدويحي(1813 – 1874م) تلميذ السيد أحمد بن إدريس، وهو سليل أسرة عريقة من المتصوفة بمنطقة (الكُرو) بشمال السودان، وقد انتشرت تعاليم وأوراد وأحزاب ابن إدريس بفضل هذا الشيخ حتى بلغت الهند واندونيسيا والصومال ومصر والحجاز. إذ في مصر خرجت منها الطريقة الدندراوية بصعيد مصر، ولاحقاً طريقة الشيخ صالح الجعفري بكل من مصر والسودان، وفي الصومال خرجت عن الرشيدية المتفرعة عن الإدريسية، الطريقة الصالحية.[1]

وقد أخطأ القس سبنسر ترمنقهام حين زعم بغير دليل في كتابه بعنوان: الإسلام في السودان، أن الشيخ إبراهيم الرشيد الدويحي هو (من أسرة مؤسس الطريقة الرشيدية الجزائرية)، وهو ما لم يقله الشيخ الرشيد السوداني مطلقاً، ولم يذكره أي من الباحثين والمؤلفين الكثر من سودانيين وأجانب الذين تناولوا باستفاضة تاريخ الطريقة الإدريسية في السودان، وتراث الشيخ إبراهيم الرشيد الدويحي على وجه التحديد.[2]

- ومن الطرق الصوفية الجديدة ذات الصلة بحركة الاصلاح والتجديد، الطريقة السمانية نسبة للشيخ محمد عبد الكريم السمان المدني(1719 – 1775م)، وقد نشرها باسمه في السودان ومصر والحبشة وبلغت حتى نيجيريا لاحقا،ا لشيخ أحمد الطيب البشير(1742 – 1823م) وأبناؤه وخلفاؤه وتلاميذه في السودان .

- ومن تلك الطرق أيضاً، الطريقة التجانية لمؤسسها الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد المختار التجاني الذي ولد ببلدة (عين ماضي (بالجزائر في عام 1737م وتوفي ودُفن في زاويته الشهيرة بمدينة فاس بالمغرب في سنة 1815م. وربما جاز لنا أن نجادل بأنَّ حركة الإصلاح خصوصا على المستوى الشعائري والسلوكي، ربما بدت متجلية في الطريقة التجانية هذه بصفة خاصة، بأكثر مما هو عليه الحال فيما سواها من الطرق الصوفية الجديدة الأخرى. ذلك بأن الطريقة التجانية بصفة

1 للمزيد عن الطريقة الإدريسية خصوصا في بالسودان انظر: علي صالح كرار،**الطريقة الإدريسية في السودان**، دار الجيل، بيروت، 1991م.

2 ج. سبنسر، ترمنقهام، **الإسلام في السودان**، ترجمة فؤاد عكود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2001م، ص 194.

عامة، لا تهتم كثيراً بالقباب، ولا يعرف مريدوها لبس الجبب المرقعة، وقرع الطبول، وحمل الرايات كما ان أذكارها لا يصاحبها ضرب على الدفوف، ولا ترنح وتواجد كما في بعض الطرق الأخرى، هذا فضلاً عن أن منتسبيها يرددون كثيراً في زهو بأنَّ طريقتهم هي طريقة العلماء. وبالفعل، قد نبغ فيها علماء كبار في شتى البلدان الإسلامية التي تنتشر فيها هذه الطريقة، وبمختلف أجيالهم المتعاقبة .

الفصل الثالث

الأوضاع العامة في وادي النيل في القرن الثامن عشر

المبحث الأول

أولاً: مصـــــر

استقبلت مصر القرن الثامن عشر الميلادي، وهي تعيش في خضم فترة اضطرابات سياسية رهيبة، وصراع دامٍ على الحُكم، بين السلطة العثمانية التي جثمت حديثاً نسبياً على صدر البلاد منذ ما يزيد على قرن واحد فقط، أي منذ احتلال السلطان سليم لها وضمها إلى الامبراطورية العثمانية في عام 1517م، وبين عقابيل النظام القديم من بقايا المماليك، وسائر القوى الاجتماعية التي كانت مرتبطة بهم، فضلاً عن الصراعات الداخلية المحتدمة بين مكونات السلطة العثمانية الجديدة وبكواتها أنفسهم، إلى جانب الكـــيانات العسكرية والسياسية المتناحـــرة التي نشـــأت آنئذ داخل البـــلاد، أو استمرت موجودة منذ القرن السابق مثل: المماليك الإنكشارية، والفقارية والقاسمية، والأيواظية، والشنبية، والقازدوغلية، والقطشامية، والبلفية، والجلفية، وهلم جرا.[1]

وكذلك تأثر الوضع السياسي في مصر سلباً، ببوادر الصراع والمواجهات العسكرية بين القوى الأوروبية المنتشية آنئذٍ بمظاهر القوة الحربية والثروة المالية التي جنتها من نتائج ثورتها الصناعية وتوسع تجارتها من جانب، وبين الإمبراطورية العثمانية التي بدأت تدخل في مرحلة الانحدار والتدهور من جانب آخر .

أما التركيبة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في مصر في القرن الثامن عشر، فقد كانت تعتمد بصفة أساسية على نظام إقطاعي وشبه إقطاعي زراعي بالدرجة الأولى في الوجه البحري، ونظام قبلي و عشائري، زراعي وبدوي - رعوي في الوجه

---

1 لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع، انظر مقال ر. فيسيلي، (الفتح العثماني لمصر (، الفصل السادس من المجلد الخامس من كتاب **تاريخ إفريقيا العام: إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرنالثامن عشر**، إشراف ب. أ. أوغوث، اليونسكو، باريس 1997م، ص 175 .207 –

القبلي، على غرار النفوذ الذي كانت تتمتع به قبيلة (هوارة) – على سبيل المثال – وزعيمها (شيخ العرب همَّام) خلال ذلك القرن، في الصعيد.

وبالطبع فقد كان لرجال الدين من الفقهاء والعلماء، وخصوصاً الأولياء والمتصوفة حظوة ونفوذ كبير بين أهل مصر من الحكام والمحكومين على حدٍّ سواء.

وقد شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ظهور بعض القادة المحليين الطموحين والأقوياء، من ذوي النزعات الانفصالية والاستقلالية عن الدولة العثمانية، مثل علي بك الكبير (1728– 1773م)، ومحمد بك أبو الدهب(1735 – 1775م)، بيد أنَّ تلك النزعات قد تمثلت وتكرست بصورة أوضح واكثر فعالية في حركة محمد علي باشا (1769 – 1848م)، الذي سيستقل هو وأسرته من بعده، بحكم مصر ابتداءاً من مطلع القرن التاسع عشر، وحتى قيام ثورة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر في يوليو 1952م .

أما فيما يتعلق بالحركة الفكرية والنشاط العقلي في مصر في القرن الثامن عشر، فقد أفرد الدكتور عبد الله العرباوي – على سبيل المثال - لهذا الموضوع كتاباً بعنوان: الفكر المصري في القرن الثامن عشربين الجمود والتجديد، ساق من خلاله جملة من الحجج والبراهين التي تقول بأن النصف الأول من القرن الثامن عشر قد شهد نهضة في التأليففي شتى مناحي العلوم، وإن استحوذت العلوم الدينية واللغوية على اهتمام غالبية العلماء، كما ساق هذا المؤلف عدداً من الأدلة على ظهور تباشير نهضة فكرية في أوائل ذلك القرن نفسه، وصلت إلى درجة عالية من النضج في آخره، ويذكر ما شهدته مصر في تلك الفترة، من بوادر إنتاج رأسمالي في مؤسسات النسيج، وازدهار البيوت التجارية الكبرى.[1]

ومصداقاً لما ذهب إليه الدكتور العرباوي في كتابه آنف الذكر، وخصوصاً فيما يلي بروز بعض الإشراقات المضيئة في مجال التأليف اللغوي في مصر في القرن الثامن عشر، يقول فيسيلي في مقاله بعنوان: (الفتح العثماني لمصر) المنشور بكتاب تاريخ إفريقيا العام لليونسكو ما نصه:

1 عبد الله العرباوي،**الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمود والتجديد**، دار الشروق، القاهرة، 2006م.

(... أما الشروح والحواشي فقد تضمنت رغم اتسامها بالعقم أحياناً كثيرة، إنتاج عمل مهم لمحمد مرتضى الزبيدي (المتوفىَّ عام 1791م)، وهو (تاج العروس)، الذي يقع في أجزاء عديدة، ويتضمن شرح جواهر القاموس للفيروزبادي) .[1]

وإلى جانب ذلك، فقد شهد ذلك القرن استمرار الأزهر الشريف في مواصلة دوره القديم، ومسيرته التقليدية في تدريس العلوم الشرعية، وغيرها من علوم الآلة المساعدة لها من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب ومنطق وغيرها. كما شهد ذات القرن بصفة خاصة، نبوغ طائفة من الفقهاء والعلماء والمتصوفة الأفذاذ في مصر، الذين انتشر علمهم وفتاواهم ومؤلفاتهم وأورادهم وأحزابهم في شتى أرجاء العالم الإسلامي، أمثال المشائخ: مصطفي كمال الدين البكري (1688 – 1749م)، وسالم الحفناوي (1688 – 1768م)، وأحمد الدردير العدوي (1715 – 1786م)، وعلي الصعيدي (1700 – 1775م)، ومحمود الكُردي (1715 – 1780 م)، و محمد البليدي (ت 1176 هـ / 1763م)، ومحمد الأمير (1742 – 1817م)، وأحمد الصاوي (1761 – 1825م)، وغيرهم .

كذلك شهد القرن الثامن عشر الميلادي بمصر، ازدهار الطرق الصوفية والاهتمام بها، وحرص العامة على الانضمام إليها، بل شمل ذلك الحرص والاهتمام، حتى الخاصة من طبقة العلماء والفقهاء ممن ذكرنا أسماءهم آنفا، والذين كانوا يوصفون بانهم ممن جمعوا بين الفقه والتصوف في آن واحد معا .

وقد حرص الناس عامتهم وخاصتهم كما أسلفنا، على الاندراج في سلك الطرق الصوفية، سواء تلك التي كانت قائمة أصلاً من قبل مثل: الرفاعية، والأحمدية البدوية، والقادرية، والدسوقية، والشاذلية، والنقشبندية، والخلوتيةوالقنائية(نسبة للشيخ عبدالرحيم القناوي) وغيرها، أو ما استجد من طرق أخرى في ذلك العصر .

كما تميزت خواتيم تلك الفترة بصفة خاصة، بظهور عدد من الطرق الصوفية والحركات الدينية ذات النزعة التجديدية والإصلاحية، مثل الحركة الوهابية السلفية، إلى جانب الإدريسية نسبة للسيد أحمد بن إدريس الفاسي(1750 – 1837م)، وما تفرع منها

1 .ر.فيسيلي، (الفتح العثماني لمصر (، الفصل السادس من المجلد الخامس من كتاب **تاريخ إفريقيا العام: إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرنالثامن عشر**، إشراف ب. أ. أوغوث، اليونسكو، باريس 1997م، ص 196.

من الطرق السنوسية والختمية والرشيدية والدندراوية والجعفرية (نسبة للشيخ صالح الجعفري)، فضلاً عن الطريقتين التجانية والسمانية. وقد كان لجميع هذه الطرق المذكورة، حضور وتأثير على المشهد الصوفي العام في مصر منذ خواتيم القرن الثامن عشر، وحتى مطالع القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده .

ثانيا: سودان وادي النيل:

اتسم القرن الثامن عشر الميلادي في سودان وادي النيل، وخصوصاً كبرى سلطناته التي كانت قائمة فيه آنئذٍ، ألا وهي سلطنة سنار، أو سلطنة الفونج (1504 – 1821م)، بقدر كبير من الفوضى السياسية، والاضطرابات الأمنية، والانفراط الاجتماعي. على أنه قد اتسم في ذات الوقت، بقدر ملحوظ من الانفتاح والتواصل مع العالم من حوله، إذ صارت عاصمتها (سنَّار (آنئذٍ، واحدة من كبريات الحواضر في القارة الإفريقية قاطبة، بل أن بعض الرحالة الأوروبيين قد قال في حقها إنها لا تضاهيها من حيث العمران والاتساع والتمدن أية مدينة أخرى في القارة كلها، إلا القاهرة. وينقل البروفيسور يوسف فضل عن الرحالة البفاري (تيودور كرُمب) الذي زار سنار في عام 1700 / 1701م في هذا الخصوص ما نصه:

(في إفريقيا كلها، فيما يتعلق بالأراضي الإسلامية على الأقل فإن سنار تكاد تكون أكبرمدينة تجارية. فالقوافل تأتيها باستمرار من القاهرة ودنقلة والنوبة، وعبر البحر الأحمر من النوبة وإثيوبيا ودارفور ودار برنو وفزَّان وغيرها من الممالك. وهي مدينة حرة يستطيع الناس فيها من كل جنسية وعقيدة أن يعيشوا دون أي عائق) .[1]

وقد شهد ذلك القرن في السودان الشرقي أيضا، توسعاً في الحركة و الانفتاح التجاري لسلطنة سنار على سائر البلدان القريبة منها والبعيدة كما بيناه آنفا، وفي المقابل، شهد منتصف ذلك القرن أول حرب حقيقية مع دولة خارجية، ألا وهي الحرب التي وقعت في عام 1744م، بين قوات سلطنة الفونج في عهد السلطان بادي الرابع (أبو شلوخ)1724 – 1762م، وجيش الحبشة في عهد الملك (إياسو الثاني) 1730 – 1755م، والتي كُتب فيها النصر للجيش السناري، مما كان له أعظم الأثر داخل البلاد، وتردد

1 يوسف فضل حسن وب. أوغوت، السودان من 1500 إلى 1800، الفصل السابع، المجلد الخامس من كتاب **تاريخ إفريقيا العام: إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر**، مرجع سبقت الإشارة إليه، ص 222.

صداه الطيب في سائر أرجاء العالم الإسلامي، حيث تلقاه جميع المسلمين بالفرحة والاستبشار .

وفي ذلك يقول مؤلف مخطوطة كاتب الشونة الحاج أحمد بن الحاج أبوعلي ما نصه:

(وفرح الملك بادى وأهل سنار ووفوا بنذورهم، وعملوا الموالد وذبحوا الولايم، ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام. وسمع سلطان الروم (أي السلطان العثماني) بذلك، ففرح بنصرة الإسلام والدين. وتلك الواقعة في شهر صفر الخير سنة الف وماية وسبعة وخمسين من الهجرة النبوية .)[1]

وكتب المؤلف اللبناني نعوم بك شُقير في ذات السياق: (ونالت سنار بهذا النصر شُهرةً طبقَّت الآفاق، حتى بلغت مصر، والشام، والحجاز، والأستانة، وتونس، والهند، فتقاطر الناس إليها أفواجا من كل الجهات، وأقاموا فيها) .[2]

كذلك شهد القرن الثامن عشر، وصول عدد من الرحالة و المستكشفين الأوروبيين وغيرهم من الزوار إلى مملكة سنار، حيث كتبوا عن مملكة الفونج وأحوالها في ذلك القرن، مما يعتبر من المصادر الخطية المهمة عن تاريخ تلك السلطنة مثل: القس البافاري ثيودور كرُمب الذي زار سنار في حوالي عامي 1700 – 1701م، وبعثة الاباء الكاثوليكاليسوعيين الذين أرسلهم ملك فرنسا حينئذٍ إلى ملك الحبشة في بداية القرن الثامن عشر، فعبروا إليها مروراً بسنار، بالإضافة إلى بعثة (دي رول)[3] التي مرت بسنار أيضاً في حوالي عام 1705م، وقد كان مصير أفرادها مأساوياً، إذ أنهم قتلوا في نواحي سنار بإيعاز وتحريض من ملك الحبشة، وخصوصا الكنيسة الأرثوذكسية في بلاده التي خشي قادتها من سعي ملك فرنسا عبر تلك البعثة، إلى تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي، كما يقُال إنه قد كانت لطائفة الآباء اليسوعيين يدٌ في ذلك، بدافع الغيرة والتنافس. ثم زيارة الرحالة الأسكتلندي جيمس بروس لسنار في عام

---

1 تاريخ ملوك سنار والحكم التركي المصري في السودان، تاليف: أحمد بن الحاج أبو علي (كاتب الشونة)،تحقيق، يوسف فضل حسن، دار سوداتك المحدودة للنشر، 2018م، ص 93.

2 نعوم شقير،**جغرافية وتاريخ السودان**، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، 2007م، ص 388.

3 لونوار دي رول، كان يشغل منصب قنصل فرنسا بالقاهرة في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، كلفه ملك فرنسا بالقيام بمهمة دبلوماسية في ظاهرها، وسياسية وتبشيرية في باطنها، مما أثار شكوك ملك الحبشة وخصوصا قساوسة الكنيسة الأرثوذكسية في بلاده، فأوعزوا لملك سنار فقضى عليه هو ومرافقيه بسنار في عام 1705م.

1772م، وعبوره البلاد قادماً من الحبشة في طريقه إلى مصر، حيث أصدر عن زيارته تلك كتاباً بعنوان: أسفار من أجل اكتشاف منابع النيل .

ومن آيات اضطراب الأحوال في سودان وادي النيل، وخصوصاً مملكة سنار في ذلك القرن، أنه قد شهد أولَّ تمرد حقيقي لطبقة الفونج التي ظلت حاكمة منذ مطلع القرن السادس عشر على السلطان نفسه. ذلك بأن مطالع ذلك القرن قد شهدت تمرد نبلاء الفو نج على السلطان بادى الثالث الملقب ببادىالأحمر، الذي حكم بين عامي 1689 و1715م.

وقد مالأهم وأعانهم على حربه، الشيخ أرادب ولد عجيب، زعيم العبدلاب في بلدة (قرِّي) شمال الخرطوم الحالية، بل أنه أمدهم بجيش قاده هو بنفسه، ولكن الملك بادى الأحمر انتصر على ذلك الحلف العسكري، وقتل الشيخ أرادب العبدلابي، وشتت شمل تلك القوات المتحالفة، وطردهم إلى محل يقال له (العطشان) ورجع سالماً منصورا.[1]ومن دلائل عدم الاستقرار السياسي والأمني في سلطنة سنار في ذلك القرن المعني، وهو القرن الثامن عشر الميلادي، أنه قد شهد وحده فقط، تعاقب خمسة عشر سلطاناً فيه على العرش، من بين جملة السبعة وعشرين سلطاناً الذين تعاقبوا عليه طوال عمر تلك السلطنة الذي تجاوز الثلاثة قرون. هذا، علماً بأن ستة منهم قد لقوا مصرعهم إما غيلةً، أو في مواجهات حربية، وبعضهم عُزل عنوة من العرش مثل السلطان أونسة الثالث (1715 – 1718م)، الذي عزله جنود (لولو (من العرش، لضعف شخصيته، وسوء سلوكه الأخلاقي.[2]

كذلك شهد القرن الثامن عشر الميلادي في سلطنة الفونج، تنامي النزعات الاستقلالية لبعض الكيانات القبلية، على حساب السلطة الكونفدرالية الكُبرى بين كياني الفونج وحلفائهم العبدلاب في (قرِّي) أولاً ثم في (الحلفاية) لاحقا. ففي هذا الإطار، كان الشايقية قد استقلوا فعلياً عن سلطان العبدلاب والفونجمعاً منذ أواخر القرن السابع عشر، كما استقل شيوخ المجاذيب بإدارة مدينة (الدَّامر) وأحوازها في بحر ذات القرن، وفعل الجعليونالسعداب نفس الشئ في إقليمي شندي والمتمَّة، كما

1 نعوم شُقير،**جغرافية وتاريخ السودان**، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، 2007م، ص 395.

2 انظر قائمة كايو لسلاطين الفونج المنشورة في كتاب نعوم شقير: **جغرافية وتاريخ السودان**،المصدر المذكور اعلاه، ص 414

انتفض الشكريةوالعركيون والحلنقة وغيرهم من القبائل على السلطة المركزية في سنار، مما أضعف هيبتها، وهزَّ سلطانها جدا .

وفي ظل ضعف السلطة المركزية في سنار، خصوصاً بعد أفول نجم الفونج وصعود نجم وزرائهم الهمج، أوشك كيان الدولة أن يتداعى ويضمحل من جراء الثورات والانتفاضات والحروب القبلية والمناطقية، وتجرؤ عدد من الكيانات وأحياناً الأفراد على السلطة وعلى النظام العام، وهو ما وصفه الباحث الأمريكي جاسبولدينق خير وصف في كتابه بعنوان: (عصر البطولة في سنار (، الذي تحدث فيه عما أسماها ب (المحميات، (وعن أمراء الحرب في ذلك القرن نفسه، باعتبارها بعض مظاهر الضعف والتفسخ التي شابت مجتمع سنار وسلطتها المركزية في القرن الثامن عشر.[1]

وعطفاً على إشارتنا آنفاً لاستقلال أسرة المجاذيب الدينية بإدارة شؤون مدينة الدامر وضواحيها خلال القرن الثامن عشر الميلادي، تجدر بنا في ذات السياق، الإشارة إلى ملاحظة أبداها اسبولدنق وغيره من الباحثين، عن تنامي نفوذ رجال الدين خلال ذلك القرن، وتحوله من مجرد نفوذ روحي ومكانة اجتماعية يمنحها السلاطين والرعايا على حد سواء، إلى من يرون أنهم يستحقون ذلك من العلماء والفقهاء والمتصوفة، إلى نوع من التطلع السياسي والتصدي للزعامة القبلية والجهوية، ومثال ذلك تصدى الشيخ أحمد الريحَّ العركي لقيادة رهطه العركيين في وجه عسف سلطة الهمج في سنار.

وقد لاحظ الدكتور عبدالسلام سيد احمد في كتابه بعنوان: الفقهاء والسلطنة في سنار: قراءة في تاريخ الإسلاموالسياسة في السودانكذلك، بأن الفقهاء قد تقدموا في السلم الاجتماعي في سلطنة الفونج خلال القرن الثامن عشر. وقد مضى الأستاذ حوى النبي علي صالح في معرض استعراضه لكتاب الدكتور سيد احمد المشار إليه فقال في هذه النقطة بالتحديد:

(أما على المستوى المجتمعي، فقد بحث الباحث في الأدوار السياسية المختلفة للفقهاء في الأحداث السياسية الحافلة، بل والحروب التي طبعت الأحوال في سنار في الحقبة الأخيرة من تاريخ السلطنة، وقد تركز البحث في هذا المستوى على دراسة الأحوال في

---

1 جاي سبولدنق،**عصر البطولة في سنار**، تعريب أحمد المعتصم الشيخ، هيئة الخرطوم للصحافة و النشر، الخرطوم، 2011م.

سنار في القرن الثامن عشر، والمتغيرات السياسية والمجتمعية التي حدثت خلال تلك الحقبة، والتي شكَّلت من ثمَّ الإطار الذي نشط فيه بعض الفقهاء سياسياً إما كأفراد، او بحكم زعامتهم لعائلات دينية مرموقة تلتف حولها مجموعات معتبرة من السكان في مختلف بقاع السلطنة.

وأشار الباحث إلى أن الفقهاء قد سجلوا حضوراً ملحوظاً في خضم المتغيرات التي ماج بها المجتمع السناري والسلطنة، كما لعب الفقهاء دوراً في هذه التغيرات إما كفاعلين أصليين، أوحلفاء لقوى أخرى، أو حملة أفكار وإيديولوجيات جديدة مثلت عنواناً للقوى التي أسهمت بشكل أو بآخر، في تقويض مؤسسات الفونج التقليدية، وأطاحت بعروشهم وسلاطينهم).[1]

بيد أن الدكتور عبد السلام سيد أحمد، مؤلف هذا الكتاب، عاد وزعم أن ذلك التقدم في السلم الاجتماعي بالنسبة لطائفة الفقهاء ورجال الدين، إنما ازداد بسبب مكانتهم الاجتماعية وليست الدينية كما قال، وهو زعم يحمل عناصر تناقضه بداخله في تقديرنا. ذلك بأن (الفقرا (وشيوخ التصوف ورجال الدين عموماً، إنما تقدموا في السلم الاجتماعي، الذي يحدد درجة مكانتهم الاجتماعية ويعبر عنها، بسبب مكانتهم الدينية في الأساس، وليس لأي اعتبار آخر غيرها. ذلك بأن المرء مهما كان وضعه في بدايته متواضعاً أو حتى وضيعاً اجتماعيا، فإنه يرتقي فوراً في درجات السلم الاجتماعي في أعين الناس (فيمجتمع مثل المجتمع السوداني المسلم بالطبع)، حال استشعارهم شيئاً دينياً أو روحياً مميزاً فيه، واقتناعهم به.

بل يمضي سيد احمد فينسج على منوال جاسبولدنق نوعاً ما، في كتابه آنف الذكر: عصر البطولة في سنار، فيقول إن الدين لم يكن ركناً أساسياً في ايديولوجيا الحكم في سلطنة الفونج حتى منتصف القرن الثامن عشر كما زعم، وهولعمري قول يعوزه الدليل المقنع أيضا. إذ كيف نفسر الرواية الشفاهية الشعبية المتواترة عن خطاب عمارة دونقس أول سلاطين الفونج للسلطان سليم العثماني الذي احتل مصر في عام 1517م، وقيل إنه هم بغزو السودان واحتلاله أيضا، والذي ذكر له فيه ما معناه

---

1 حوى النبي علي صالح،**من تراث الدولة السنارية: قراءة وعرض في سلسلة كتاب سنار**، منشورات مشروع سنار عاصمة للثقافة الإسلامية، كتاب سنار(72)، الطبعة الأولى، الخرطوم، 2017م، ص 37.

أن أهل سلطنته مسلمون يحكمون بالشرع الإسلامي، وأنهم عرب الخ، بل أرسل له كما يزعمون أنساب القبائل التي تقطن سلطنة الفونج، بل كيف نفسر ذلك القدر الملحوظ من الإجلال والتبجيل والإكرام الذي ظل يحظى به رجال الدين من قبل سلاطين الفونج أجمعين من أولهم إلى آخرهم، ومنذ قيام السلطنة في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ونزول الكثيرين منهم عند نصائحم ومشورتهم وشفاعاتهم من حيث أنهم حكام مسلمون يحكمون رعايا مسلمين حكما إسلاميا كما كانوا يرونه على كل حال، على نحو ما نجد ذلك – على سبيل المثال - في سيرة الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (1507 – 1651م)، الذي جاء عنه في كتاب طبقات ود ضيف الله، أنه دخل سنار إحدى وسبعين مرة في مصالح المسلمين.[1] وأما إقليم كردفان الذي كان يمثل عظم تنازع بين سلطنتي الفونج من الشرق، ودارفور من الغرب، فقد شهد حراكاً سياسياً وعسكرياً صاخباً ومضطرباً خلال القرن الثامن عشر، تمثَّل بصفة خاصة في مواجهات عسكرية طاحنة بين الفونج والعبدلاب وحلفائهم من بعض القبائل المحلية وعلى رأسها (الغِديَّات (من جانب، والمسبعات القادمين من دارفور ومن ورائهم بنو عمومتهم الفور، رغم ما كان بينهم من صراعات على السلطة من جانب آخر .

وقد أدى اضطرار الشيخ محمد أبو لكيلك (1710 – 1776م) كبير الهَمَج وقائد قواتسلطنة الفونج في كردفان، لترك ذلك الإقليم، وتحركه نحو سنار من أجل تسوية الأوضاع المضطربة هناك، والتي انتهت بعزله السلطان الشهير (بادى أبو شلوخ) عن العرش في عام 1762م، وتعيين ولده (ناصر) بدلاً عنه تحت وصاية أبي لكيلك نفسه، إلى أن انتهى الأمر بعودة المسبعات مظفرين للحكم في كردفان وفرض سيادتهم عليها مجددا، حيث ظلوا حكاماً عليها منذ ذلك التاريخ، وحتى هزيمة قوات محمد بك الدفتردار صهر محمد علي باشا، جيش حاكم كردفان من قبل سلاطين الفور (المقدوم مُسلمَّ) في معركة (بارا) في أبريل 1821م، التي لقي المقدوم المسلم نفسه مصرعه فيها. وفي المقابل، كان القرن الثامن عشر، بمثابة ما يمكن أن نطلق عليه العصر الكلاسيكي بالنسبة لسلطنة دارفور بغرب السودان. ذلك بأنَّ تلك السلطنة قد شهدت في ذلك القرن، أوج اتساعها ومجدها وعظمتها، وخصوصاً بسبب توسع

1 **محمد النور ولد ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 61.

تجارتها عبر القوافل عن طريق درب الأربعين مع مصر، وكذلك عبر طرق القوافل الأخرى مع الممالك والسلطنات المجاورة مثل فزان، ووداي، وكانم برنو، وتقلي، وسنار وغيرها، مما حقق لها ولسلاطينها ثروة مادية معتبرة، وموارد مالية ضخمة.

كذلك شهد ذلك القرن، اعتلاء عدد من السلاطين الأقوياء والمرموقين في دارفورمن ذوي الهمة العالية، والعزيمة الماضية، والرؤية الثاقبة، والأذهان المنفتحة للعرش، مثل السلطان أحمد بكر 1726 – 1746م، والسلطان محمد تيراب 1752 – 1787م، والسلطان عبد الرحمن الرشيد 1787 – 1801م.

كما شهد ذلك القرن أيضاً، انفتاح سلطنة دارفور على نحو أوسع وأكثف نحو العالم الخارجي، وازدهرت تجارتها، وتراكمت ثروتها، وازدادت قوتها العسكرية، إلا أنها قد شهدت في المقابل، جملة من الصراعات الداخلية والحروب الخارجية على السلطة والنفوذ والسيادة، سواء فيما بين السلاطين أنفسهم والمتطلعين لاعتلاء العرش من الأمراء الآخرين، او مثل حروبهم مع المسبعات على السيادة على كردفان،أوغزو السلطان تيراب لأراضي مشيخة العبدلاب، تعقباً للسلطان هاشم المسبعاتي الذي كان قد فر من جهه إلى تلك النواحي، واصطدامه معهم في معـــركة بالقرب مـــــن أم درمان، وهي التي توفي على إثر قفوله منها بمدينة (بارا (بكردفان، بسب مرض أصابه في عام 1787م، وهو فيطريق عودته إلى سلطنته.

وقد كان ذلك القرن أيضا بالنسبة لدارفور، عصر الانفتاح الثقافي والعلمي والمعرفي على العالم الإسلامي من حولها، فقد شهد نبوغ عدد من العلماء والفقهاء الذين أشرنا إلى بعضهم فيما سبق أمثال الشيخين عبد الرحمن كاكوم وحسين ودعماري وغيرهم، كما شهد اهتمام السلاطين باستجلاب أمهات كتب الفقه واللغة والتراث الاسلامي من الخارج، وتشجيع العلماء للقدوم إلى دارفور من أجل رفد الحياة الثقافية والعلمية والروحية فيها، على غرار بعثة الشيخ محمد بن عبد الرحمن ابو قبرين الخلوتي الجزائري (1715 – 1780 م) في منتصف ذلك القرن إلى دارفور، ومكوثه فيها لستة اعوام في عهد حكم السطان تيراب كما نرجح.

أما المشهد العلمي والثقافي والتعليمي في بلاد سودان وادي النيل خلال القرن الثامن عشر بصفة عامة، فقد تميز بحراك ملحوظ، وتطور وتقدم نوعي كما وكيفاً، كما شهد

قدراً مُعتبراً من الانفتاح على العالم الاسلامي من حوله، وازدادت وتيرة الرحلة العلمية من قبل السودانيين خاصة نحو مصر والحجاز. ولعل الهدف الأساسي من بحثنا هذا نفسه، هو تسليط الاضوء على حقائق التواصل والرحلة العلمية في سودان القرن الثامن عشر، عبر نموذج الأثر الذي أحدثه العلامة مرتضى الزبيدي كواحدٍ من الرموز العلمية السامقة في العالم الإسلامي بأسره آنئذٍ، على المشهد العلمي والثقافي في السودان الشرقي.

ففي ذلك القرن نهضت بضع حواضر داخل السودان، كان يؤمها الطلاب لكي ينهلوا من معين علمائها مثل: سنار، وسواكن، وكُترانج، والدامر، وشندي، ودنقلا ودويم ود حاج، ونوري، وبربر، وأربجي، والأبيض، وبارا، وخُرسي، وكوبي والفاشر، وغيرها .

وقد واصل السودانيون عموماً ،الانخراط كالعادة في الطرق الصوفية القديمة التي كانت معروفة لديهم، وخصوصا القادرية والشاذلية التي لم يكونوا يعرفون سواهما تقريبا فيما قبل نهاية القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر، ولكنهم سرعان ما تجاوبوا أيضاً مع الطرق الصوفية الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح والتجديد بالحجاز في القرن الثامن عشر. فعن دخول هذه الطرق إلى السودان وعلاقتها به، نستطيع أن نقول إنتلك الطرق الصوفية الجديدة، قد تمثلت وتمظهرت في السودان، على نحو ربما بذَّ فيه سائر أقطار العالم الإسلامي .

ذلك بأن طرق: الإدريسية، والختمية، والرشيدية، والإسماعيلية، والسمانية، والتجانية جميعها ظلت حاضرة بقوة في المشهد الديني الطائفي، والثقافي، والاجتماعي والعلمي في السودان منذ بداية ظهورها، وكان للسودانيين سهم وافر في ترقيتها ونشرها، وتطويرها جميعا. بل حتى ان الحركة الوهابية السلفية نفسها وإن لم تكن طريقة صوفية بالمعنى المفهوم، بل هي على النقيض من ذلك تماماً، وإنما تشترك مع تلك الطائفة من الطرق الصوفية الجديدة، في تاريخ وظروف وملابسات النشأة والبيئة الجغرافية والمعرفية التي انطلقت منها كما أوضحنا من قبل، قد قدمت إلى السودان منذ مطلع القرن العشرين كما جاء في بعض المصادر[1]، وجعل عودها يشتد رويدا رويدا، وصار لها أنصار ومؤيدون كثيرون في مختلف بقاع السودان.

1. أبو بكر الصديق محمد شريف،**تاريخ جماعة انصار السنة المحمدية بالسودان في الفترة من 1904 – 1958**م، بدون دار أو مكان نشر، 2009م.

المبحث الثاني
السودان والطرق الصوفية الجديدة

فيما يلي استعراض موجز لأبرز ملامح علاقة السودان والسودانيين بالطرق الصوفية الجديدة، في إبان ظهورها في خواتيم القرن الثامن عشر، ومطالع القرن التاسع عشر الميلاديين:

1- الإدريسية:

هي الطريقة أو المدرسة التي أسسها السيد أحمد بن إدريس الحسني الفاسي (1750 – 1837م)، وانطلق نشاطها بصفة خاصة من كل من مكة المكرمة بالحجاز وبلدة (صبيا (باليمن حيث كان يقيم هذا الشيخ علي التوالي، وقد التحق به تلاميذه فيهما معاً، وحملوا عنه تلك الدعوة، وعملوا على بث تعاليمها وأورادها وأحزابها في سائر أرجاء العالم الإسلامي.

أما فيما يلي السودان بالتحديد، فقد أحصى الدكتور يحي محمد إبراهيم – على سبيل المثال– ثلاثة عشر تلميذا سودانياً مباشراً للسيد أحمد بن ادريس، صحَّت لهم صُحبته، وأخذوا عنه العهد كفاحا، وهو لعمري عدد كبير لا يفوقه إلا عدد تلاميذه المشهورين باليمن فقط، من دون سائر الاقطار الاسلامية الأخرى التي انتشرت فيها هذه الطريقة، خصوصا من بين أقطابها المعروفين. وتفسير ذلك أنه كان قد عاش في اليمن لسنين عديدة، حتى وافته المنية ودُفن بها.

واولئك التلاميذ الإدريسيون السودانيون، أومن لهم صلةٌ قوية بالسودان هم: السيد محمد عثمان المرغني الختم (1793 – 1853م)، والشيخ إبراهيم الرشيد الدويحي (1813 – 1874م)، والشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين (1796 – 1832م)، والشيخ مكي بن عبد العزيز، والشيخ عبد الله أبو المعالي(1798 – 1861م)، والشيخ عربي ولد كنين الهواري (ولد 1779م) ، والشيخ حسن محمد بلول السني، والشيخ علي إبراهيم شاع الدين، والشيخ محمد بن الشفيع، والشيخ إبراهيم بن عكود

الشايقي(1796 – 1856م)، والشيخ إبراهيم دليل المحسي، والشيخ صالح السناري، والشيخ محمد عبد الصادق الركابي.[1]

وقد لاحظنا أن الدكتور يحي محمد إبراهيم قد عدَّ الشيخ (عبد الله السُنِّي (من تلاميذ ابن ادريس الليبيين، بينما هو في الواقع سوداني مائة بالمائة، وإنما نزح إلى ليبيا واستقر فيها إلى أن توفي ودفن بها، وله فيها عقب. ويقال إنه من ذرية الشيخ محمد ود مدني السني، مؤسس مدينة ود مدني عاصمة ولاية الجزيرة بوسط السودان .

وبالإضافة إلى ذلك، قدمت طائفة من أسرة السيد أحمد بن إدريس نفسه، ممثلة في حفيده المباشر السيد الحسن الإدريسي نجل ابنه عبد العالي، فاستوطن السودان فتفرعت منه أسرة إدريسية سودانية باذخة العطاء في شتى المجالات، وخصوصا في تكريس ونشر طريقة جدهم السيد احمد بن إدريس في البلاد، حيث ما تزال فروع هذه الأسرة تنتشر ما بين منطقة دنقلة بشمال السودان، والعاصمة الوطنية أم درمان .

2- الختمية والإسماعيلية:

وقد سبقت الإشارة منا إلى أن الطريقة الختمية قد خرجت من مشكاة الطريقة الإدريسية،حيث قدم تلميذه السيد محمد عثمان المرغني الختم إلى السودان من الحجاز عبر مصر في حوالي عام 1816م، وسرعان ما أعلن عن قيام طريقته الختمية التي وجدت قبولا منقطع النظير بين عامة السودانيين وخصوصا في شمال البلاد وشرقها وبعض أجزاء كردفان، بل انتشرت في مصر والحبشة وأريتريا .

وكان من كبار تلاميذ السيد محمد عثمان المرغني بكردفان الشيخ إسماعيل الولي بن عبد الله البديري، الذي أنشأ هو أيضاً طريقته الخاصة لاحقاً وأسماها (الإسماعيلية).

3- السمانية:

أما الطريقة السمانية المنسوبة للشيخ محمد بن عبد الكريم السمان الصديقي المدني (1719 – 1775م)، فقد كان الفضل في نشرها في السودان ومصر والحبشة الشيخ أحمد الطيب البشير (1742 – 1823م). فهذه الطريقة إذن، يوشك أن يكون

---

1 يحي محمد إبراهيم،**مدرسة أحمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان**، دار الجيل، بيروت، 1993م، ص 344 – 375.

الفضل في انتشارها بين العالمين للسودانيين، إذ لا نعلم شيخاً آخر من شيوخ هذه الطريقة ممن تتلمذوا على منشئها الشيخ السمان، بلغ بها هذا الشأو الذي بلغه بها تلميذه الشيخ أحمد الطيب البشير وأبناؤه واحفاده وخلفاؤه في نشرها.[1] هذا مع العلم بأن الشيخ أحمد الطيب البشير لم يكن – فيما يبدو – هو التلميذ السوداني الوحيد بالنسبة للشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، فقد عثر هذا الباحث في مرجع سوداني يخص الطريقة السمانية نفسها، على بضعة أسماء لسودانيين آخرين سلكوا هذه الطريقة نفسها على مؤسسها الشيخ السمان، إلا أنهم – لسبب او لآخر – لم يتمكنوا من وضع ذات البصمة التي وضعها الشيخ الطيب في هذا الخصوصربما لسبقه وتبكيره، وخصوصاً لنجاحه في استقطاب ثلة من تلاميذه النجباء والمشهورين والمؤثرين في مجتمعاتهم، مثل الشيخ التوم ود بانقا على سبيل المثال، الذي حوَّل ولاء أهله اليعقوباب جميعهم تقريباً، من طريقة أجدادهم القديمة وهي القادرية، إلى الطريقة السمانية .

واولئك السودانيون الذين أخذوا العهد في الطريقة السمانية أيضاً، على يد منشئها الشيخمحمد عبد الكريم السمَّان هم: الشيخ القرشي السناري المدفون بالقجر، والشيخ إبراهيم القلوباوي، والشيخ مدني ولد الشيخ القلوباوي، والشيخ احمد محمد البقاريوالشيخ حماد المدفون بقلُي، والشيخ زين العابدين السناري، والشيخ جوداتاالسليميالبقاري.[2]فمن الملاحظ أنه ربما بخلاف الشيخ القلوباوي إلى حدٍّ ما، فإن المشائخ الآخرين الذين ذكُروا مع الشيخ أحمد الطيب بوصفهم تلاميذ للشيخ السمان، ليسو معروفين على نطاق واسع داخل السودان نفسه، ناهيك عن خارجه.

4- المهدوية:

هي دعوة الإمام المجاهد محمد أحمد بن عبد الله (المهدي)1843 – 1885م الذي قاد ثورة في السودان دحرت الاستعمار الأجنبي واجلته عن البلاد، وأقام أول دولة وطنية إسلامية مستقلة في افريقيا بعد عام واحد من انعقاد مؤتمر برلين (1884م) الذين

1 للمزيد عن الطريقة السمانية، انظر كتاب الدكتور طارق احمد عثمان، **الطريقة السمانية فيالسودان**، جامعة إفريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، 2009م.

2 الشيخ محمد عبد الكريم السمان: حياته وآثاره (، منتديات مشيخة الطريقة السمانية بطابت المحمود www.tabatal-mahmoud.com

تقاسمت بموجبه القوى الاستعمارية الأوروبية دول القارة السمراء كمستعمرات فيما بينها، فخاب فألها في السودان الذي استمرت الدولة التي اسسها الإمام المهدي فيه صامدة ومستقلة وذات سيادة لثلاث عشرة سنة أي حتى عام 1898م. لقد كان الإمام المهدي من مريدي الطريقة السمانية بل من كبار مشائخها، وقد تأثر قطعا بما تضمنته تلك الطريقة من رؤى إصلاحية وتجديدية ساعدت على بلورة افكاره الثورية والتحررية بكل تأكيد.

5- التجانية:

ومن الطرق الصوفية الجديدة التي خرجت من عباءة حركة الإصلاح والتجديد الطريقة التجانية لمؤسسها الشيخ أحمد بن محمد المختار التجاني (1737 – 1815م)، وهي طريقة واسعة الانتشار خصوصا في غرب ووسط افريقيا المسلمة، وتنتشر في سودان وادي النيل، وعلى وجه الخصوص في اقليمي كردفان ودارفور وإن لم تخل منها جيوب في شمال السودان ووسطه أيضا .

ولعل السودان يتميز بانه ربما كان الدولة الوحيدة من دول افريقيا المسلمة الواقعة جنوبالصحراء الكبرى، التي منها شخص أخذ عهد هذه الطريقة كفاحا على مؤسسها، وذلكهو الشيخ الماحي الدارفوري الذي عرضنا لذكره من قبل .

وإلى ذلك، فقد استأثرت الطريقة التجانية في السودان، ببروز عدد كبير من العلماء الأفذاذ، الذين انتسبوا إليها في البلاد بمختلف أجيالهم، وقد خلفوا أثرا بالغ الأهمية في التراث العلمي والفقهي والثقافي والأكاديمي في السودان. ومن اولئك على سبيل المثال شيخ الإسلام محمد البدوي نقُد(1841 – 1911م) الذي سلك هذه الطريقة على الشيخ محمد ود الزاكي بكردفان، الذي كان قد أخذها بدوره عن الشيخ محمد ولد دوليب(1800 – 1880م) بخُرسي، بل قيل إنه إنما درس العلم والفقه فقط على ود دوليب، وإنه سلك الطريقة التيجانية على شيخ من بلاد السودان الأوسط، يسمى الشيخ (محمد الباقرماوي الفولاني (. ومنهم أيضا، تلاميذ الشيخ محمد المختار بن عبد الرحمن الشنقيطي - ولد العالية (ت 1882م) من أمثال الشيخ أحمد هاشم وابنيه أبو القاسم والطيب، والشيخ مدثر ابراهيم الحجاز والد الشيخ مجذوب مدثر الحجاز (1898 – 1985م) أحد كبار مشائخ هذه الطريقة لاحقاً، ومن علماء السودان الأجلاء في عصره، ونائب مدير جامعة ام درمان الإسلامية سابقا. وقد ظلت تربط هؤلاء

وأبناءهم وأحفادهم وخلفاءهم، صلات واشجة مع رصفائهم التجانيين في شتى أرجاء العالم الإسلامي، حيث ظلت طوائف من رموزهم وشخصياتهم البارزة تتردد على زيارة السودان باستمرار منذ عقود طويلة، مثل أحفاد الشيخ التجاني نفسه، وغيرهم من مقدمي هذه الطريقة مثل: ألفا هاشم بن احمد بن سعيد الفوتي ابن أخي المجاهد الحاج عمر بن سعيد (1784 – 1864م)، والشيخ محمد الحافظ بن عبد اللطيف سالم المصري (1898 – 1978م)، والشيخ إبراهيم نياس الكولخي (1900 – 1975م) من السنغال، والشيخ المعاصر الشريف إبراهيم صالح الحسيني من نيجيريا، وغيرهم .

6- حركة الشيخ عثمان دان فوديو والسودان:

على الرغم من أن الشيخ عثمان دان فوديو كان شيخا مجاهداً، ومصلحاً مجدداً، حارب البدع والمنكرات، ومختلف مظاهر الانحرافات العقدية والسلوكية، بتأثير مؤكد من موجة الإصلاح الحجازية المنشأ في القرن الثامن عشر، والسنية السلفية المخبر في الأساس، إلا أنه كان – مع ذلك – شيخاً متصوفا سالكاً للطريقة القادرية وله سند فيها كان يرفعه إلى الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 1503م) عبر الشيخ محمد المختار الكنتي(ت 1811م) .

وكما أسلفنا فإن نفحة الاصلاح والتجديد التي تأثر بها الشيخ عثمان دان فوديو في مكونها المشرقي على الأقل، إنما جاءته - كما نرجح - من قبل شيخه المباشر جبريل بن عمر الطارقي(ت 1789م)، تلميذ العلامة محمد مرتضى الزبيدي (ت 1791م)، أحد صناع ذلك الحراك التجديدي والإصلاحي .

ومهما يكن من شيء، فإن تأثير حركة الشيخ عثمان دان فوديو على سودان وادي النيل راجحة وعليها شواهد من نواحي شتى. فقد ثبت أن الشيخ عثمان قد حثَّ في كتاباته أتباعه ومريديه، بالهجرة إلى ارض النيل بالسودان، من أجل نصرة المهدي الذي سيظهر هناك كما قال لهم، ويرى بعض الباحثين ان في هجرة حفيده السلطان مايرنو إلى السودان في عام 1903م، استجابة بصورة ما من الصور لذلك النداء.[1]

1 يوسف فضل حسن، (أثر حركة الشيخ عثمان دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل (بحث قدم ضمن بحوث الندوة العالمية للاحتفال بذكرى الشيخ عثمان دان فوديو بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم 19 – 21 فبراير 1995م، إصدار جامعة افريقيا العالمية ومنظمة الأيسيسكو، 1996، ص 29.

ولقد كانت شخصية الشيخ عثمان دان فوديو، وأصداء سيرته العطرة، وما اتصف به من ورع وصلاح وجهاد في سبيل الله، حاضرة بقوة في المخيال الشعبي في السودان قاطبةً، لدرجة ان ذلك الخيال الشعبي نفسه قد اختلق قصة قُصد منها غالباً،التنبيه إلى مكانة السيد الحسن المرغني(1819 – 1869م). ومفاد تلك القصة هو أن كلاً من السيد محمد عثمان المرغنيالختم، والشيخ عثمان دان فوديو شاهدا بعين البصيرة كما زعموا، أنَّ هنالك فتاة صالحة في مدينة بارا بكردفان موعودة بأن تنجب ابناً صالحا سيكون من كبار الأولياء. قالوا، فتسابقا نحوها فسبق الختم الشيخ دان فوديو وتزوج تلك الفتاة، وتأخر رفيقه الأخير ليلة واحدة فقط باتها في قرية قريبة من بارا ادركه الليل فيها. فزعموا انه عندما وصل إلى بارا في صبيحة اليوم التالي، وألفى السيد الختم قد تزوج تلك الفتاة المُسمَّاة: (رقية بنت جلابَّ (، شدَّ على يده مصافحاً وقال له: (أهنئك بالحسن.) !!

ولئن كان من المعروف والمقطوع بثبوته تاريخياً، ان الشيخ عثمان دان فوديو لم يغادر فضاء ديار الهوسا بنيجيريا والنيجر أيضا حيث درس على شيخه جبريل المذكور بمدينة (أغاديس (بشمال النيجر، ولم يذهب إلى أي قطر آخر بما في ذلك الأراضي المقدسة نفسهاولا حتى بغرض الحج مثلا، فإن هذه القصة تندرج قطعا في سياق الفولكلور وقصص كرامات الأولياء ليسغير. ولكن تبقى دلالة هذه القصة مع ذلك، هي تأكيد حقيقة انتشار وذيوع قصص الأولياء والعلماء العابرة للحدود القطرية على امتداد العالم الإسلامي، وتماهي الناس معها حيثما كانوا .

وعلى صعيد ذي صلة أيضاً، استبصر البروفيسور عبد الله حمدنا الله نوعاً من التناص بين قول الشيخ عثمان دان فوديو تواضُعاً منه شعراً:

إن قيلَ فيَّ بحُسن الظنِ مـــــا قيِلا فموجةٌ أنا من أمواج جبريلا [1]

وقول الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب قبل ذلك بنحو قرنين أو يزيد مسرِّياً عن الشيخ إدريس بن محمد الأرباب(1507 – 1651م)، وقد بلغه ان بعض الناس كانوا ينتقدونه، ويقعون فيه، ويتهمونه بالباطل:

1 عبد الله حمدنا الله، (تبادل التأثير الثقافي الإسلامي بين علماء السودان وعلماء حوض بحيرة تشاد (، ورقة مقدمة من ضمن أوراق **المؤتمر الدولي: الإسلام في إفريقيا، المجلد الخامس**، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، 26 – 27 نوفمبر 2006م، ص 254.

والله لو كان بين الناس جبريلا لا بدَّ فيه من قال و قيـــــــــلا[1]

وذلك جائز جد اً في تقديرنا، فقد كانت حركة تداول المؤلفات والنصوص والمتون بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي، وخصوصا الأقاليم المتجاورة التي يجمعها فضاء جغرافي مشترك، مثل بلاد السودان الشرقي وبلاد السودان الأوسط، ظاهرة شائعة وملاحظة، وكانت ثقافة سائر الفقهاء والعلماء وطلاب العلم، متماثلة إلى حد بعيد، لاشتراكها في كثير من المصادر التي تستقي منها .

على أننا لا نميل بصورة مطلقة وحصرية إلى الاعتقاد فيما يقول به البعض من أن الإمام محمد أحمد المهدي، أي مهدي السودان (1843 – 1885م)، قد أخذ فكرة المهدية نفسها، من غرب إفريقيا أو أفكار وكتابات الشيخ عثمان دان فوديو بالتحديد، أو أن يكون الخليفة عبد الله بن محمد تور شين (1846 – 1899م) هو الذي أوحى له بأنه هو المهدي أو زيَّن له ذلك، كما يحلو للبعض أن يردد أيضا.[2] ذلك بان فكرة المهدية قد كانتوما تزال مبذولة في كتب التراث الإسلامي مشرقاً ومغرباً، ولم يكن المهدي بما عُرفعنه من سعة الاطلاع وغزارة العلم، محتاجا لأحد من غرب إفريقيا أو من غيرها، ليطلعه على فكرة المهدية، خصوصا وأنَّه هو نفسه، كان شيخا مقدما في الطريقة السمانية، وهي طريقة تهتم بالعلم والاطلاع وتحض عليهما، وخصوصا بعض مؤلفات كبار المتصوفة التي فيها ذكر المهدي مثل كتاب (عنقاء مُغرب (للشيخ الأكبر مُحي الدين بن عربي (1165 – 1240م)، علماً بان المهدي قد كان طالبا نجيباً للعلم من قبل ذلك، في عدد من مراكز العلم المرموقة في البلاد، مثل مسيد ود عيسى وغيره.

وثمة بينة أخرى تدل على أنَّ الإمام المهدي، قد راودته فكرة المهدية منذ زمان بعيد، قبل التقائه بالخليفة عبد الله بالمسلمية في حوالي عام 1880 م .في مناسبة بناء قبة الشيخ القرشي ود الزين، وهو قول شيخه الأسبق الأستاذ محمد شريف ود نور

1 محمد النور ولد ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 52.

٢ أشـار جبرائيـل واربيرغ إلى ذلـك باعتبـاره قناعـة كانـت فاشـية بين طائفـة مـن المـؤرخين الغربـيين. انظـر في ذلـك مـثلا ترجمـة بـدر الديـن الهاشـمي للفصـل الثـاني مـن كتـاب واربيرغ **European Writings on Ninteenth Century Sudan**، صحيفـة سـودانايل الالكترونيـة، منشـور بتاريـخ 12 فبرايـر 2018م.

الدائم في قصيدته التي مدحه في معظمها، مشيراً إلى تاريخ إفضاء المهدي إليه ببلوغه هذه الرتبة عن طريق حساب الجُمَّل:

لقد جاءني في عامِ زعٍبموضععلى جـــــــبل السلطان في شاطئ البحر

فقال أنا المهديٌّ فقلت له استقمْ فهذا مقامٌ في الطريق لمن يدري .الخ

فعام (زع) هو رمز للعام 1277هـ وهو يوافق العام 1861م . ذلك بأن حرف الزاي يقابله العدد 7 وحرف العين يقابله العدد 70، وبالتالي يكون التاريخ المقصود هو عام 1277 هجرية / 1861 ميلادية. وهو كما نرى، تاريخ يبعد عن تاريخ مقابلته الأولى للخليفة عبدالله بنحو عشرين عاما .

ولما كان بحثنا الحالي هذا، يتعلق بشخصية عالم مشرقي ذائع الصيت، هو الشريف مرتضى الزبيدي، فلعل من المناسب أن نذكر في هذا السياق، أن الزبيدي نفسه قد كان مهتما فيما يبدو بمسألة المهدي المنتظر هذه، وأوان خروجه، وذلك بدليل ما قيل إنه قدكتب رسالة إلى أحمد باشا الجزار أمير عكَّا بالشام، أوعز له بموجبها أنه يرى أنه (أيالجزار) هو المهدي المنتظر.[1] وبالجملة، فإن فكرة المهدي المنتظر، كانت وما زالت،فكرة شائعة انتظمت العالم الإسلامي بأسره وتناولتها العديد من مصادر التراث الاسلامي الشيعي والسني على حد سواء. وبالتالي فإنه من الطبيعي أن تستهوي الإمام محمد أحمد المهدي، وأن يتطلع إلى تجسيدها بصورة مستقلة تماما .

1 عبد الرحمن الجبرتي،**عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، الجزء الثاني، ص 78

الباب الثالث

التراجم والأسانيد والإجازات قديما وحديثا

الباب الثالث
التراجم والأسانيد والإجازات قديما وحديثا
الفصل الأول
عن التراجم والسير والسند والإسناد

استهــــلال

يمثل التأليف في فنون التراجم والأسانيد والإجازات، وما إليها من أبواب التوثيق السيري والعلمي، وإثبات المصداقية والجدارة، جزءً لا يتجزء من باب أوسع من أبواب علم التاريخ، الذي ظل يحظى بمكانة بارزة، وعناية فائقة في رحاب الثقافة العربية والإسلامية، منذ أن أطلت على وجه البسيطة مع ظهور الإسلام، وانبلاج فجر الدعوة الإسلامية في القرن السابع الميلادي .

ولقد كان الباعث الحقيقي بالنسبة للمسلمين أجمعين، على الاهتمام بالقصص والأخبار والتاريخ عموماً، وتمحيصه والتدبر في وقائعه وأحداثه، بغرض استخلاص العبر والدروس منها في المقام الأول، وليس لمجرد التفكُّه والتسلية، هو القرآن الكريم نفسه.

ومصداق ذلك هو قول الله تعالى:

(لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأُلِي الألباب، ما كان حديثاً يفُترَى، ولكن تصديقَ الذي بين يديه، وتفصيلَ كلِّ شيء وهُدىً ورحمةً لقوم يؤمنون) - سورة يوسف الآية 111.

ومع تقدم الحياة العقلية والثقافية والعلمية للمسلمين، تطورت أساليب كتابتهم للتاريخ وتنوعت أجناسها، فألفوا في السيرة، والمقصود بها في هذا السياق خاصةً، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما ألفوا في المغازي، وهي ضرب من التاريخ العسكري، الذي يصف المعارك والحروب التي خاضها النبي وخلفاؤه وأصحابه والمسلمون عموماً ضد أعدائهم، كما ألفوا في الأخبار عموماً، وهي القصص والحكايات المختلفة التاريخية منها والأسطورية وغيرها. وألفوا لاحقاً في شمائل النبي الكريم، وفي مناقب الصالحين من الصحابة والتابعين وغيرهم من كبار الزهاد والعلماء والأولياء، كما ألفوا

في الأنساب، بل ذهب بعضهم إلى التأليف في أخبار الأوائل، أي الشعوب البائدة والمنقرضة، من أصحاب الحضارات القديمة، بل الموغلة في القدم أحيانا .

فمن من ألفوا في السيرة، ابن إسحق (ت151 هـ / 768م) الذي ألف في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قام ابن هشام (ت 218 هـ) لاحقا بتهذيب تلك السيرة .وألف ابن سعد (ت 230 هـ) الطبقات الكبرى في تراجم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لكي يفتح بذلك باباً جديداً في التأليف هو باب (الطبقات (الذي افتنَّ فيه المسلمون جدا، حتى أوشك أن يكون ميسما خاصاً بهم في مجال الكتابة التاريخية، لأن كتابة التراجم في شكل طبقات بالعصر أوالمهنة أو التخصص، اوغيرذلك من الصفات المشتركة والجامعة، قد أضحت سنَّة استنت بها أجيال من المؤلفين في العالمين العربي والإسلامي، عبر القرون .

لقد شملت كتب التراجم في الواقع، أصنافاً كثيرة من النابهين والأعلام في مختلف المجالات، وعبر مختلف العصور. فهنالك كتب لتراجم الرسل والملوك ككتاب الإمام محمد بن جرير الطبري الكبير في التاريخ: (تاريخ الرسل والملوك)، كما أنَّ هنالك، كتبٌ في سير الصحابة والخلفاء والتابعين وقراء القرآن والفقهاء والمحدِّثين والزهاد والصوفية والأدباء والنحُاة والأطباء والقضاة وهلم جرا .

أما التأليف في مجال الإسناد والإجازات، فهو أدخل في باب ما يسمى بعلم الرجال، وهو علم يتُوسَّل به إلى الوقوف على سير الأفراد وأحوالهم، من حيث العدالة والاستقامة الأخلاقية، وسعة العلم، وقوة الحفظ، والعدالة، والضبط، والنزاهة، وغير ذلك من المزايا الأخلاقية كالصدق والموثوقية، فضلا عن مقتضيات الكفاءة العلمية. فكلما كانت سلسلة الإسناد المرتبطة بنقل أثر معين أورواية معينة، تحتوي على اشخاص يتمتعون بتلك الصفات، كانت تلك الرواية أو ذلك الخبر أهلاً للتصديق، وأجدر بالركون إليه، ونقله وروايته إلى من دون أولئك الذين يتلقونه أيضا.

وبالمقابل، كلما كانت إجازة الشخص المستجيز، تضم شيوخاً تتمثل فيهم ذات المزايا والصفات المذكورة آنفا، كلما كانت شهاداتهم له معتبرة ومقيمَّة عند سائر الناس، وخصوصاً أهل العلم والدراية بهذا الشأن بطبيعة الحال .

المبحث الأول
لمحة عن التراجم والسير والطبقات في التراث العربي والإسلامي

اهتمت الأمم المتحضرة قديماً وحديثاً، ومن بينها العرب والمسلمون بطبيعة الحال، بتدوين تاريخ أبنائها البارزين، وعباقرتها النابهين، تخليداً لذكراهم، ولجعل سيرهم وأعمالهم ومناقبهم، قدوةً تتأسَّى بها الأجيال الحاضرة، وتقتدي بها الأجيال الآتية كذلك.

وتهدف كتب التراجم بصفة عامة، إلى تقديم معلومات محددة عن الأشخاص المُتَرَجم لهم، تشمل بصفة أساسية: الاسم، وتاريخ الميلاد والوفاة ومكانهما، ونوع التعليم الذي تلقاه ومكانه، وممن تلقاه، والمهنة والمناصب التي تقلدها، والمؤلفات أوالانتاج الفكري الذي خلفه، والدرجات العلمية التي حصل عليها، وحالته الاجتماعية وأسرته، وأشهر تلاميذه .

وتُعرَّف كتب التراجم في التعريف الاصطلاحي بأنها: كتب مرجعية تُعرِّف بحياة مجموعة كبيرة من الأفراد البارزين في المجتمع، ويتم ترتيبها بطريقة معينة، إما هجائياً، أو وفقاً لتاريخ الوفاة، أو في شكل طبقات. وهي تنقسم إلى قسمين: كتب تراجم غير مرجعية: وتشمل جميع الكتب التي تتعلق بالحديث عن سيرة وحياة شخص واحد، أوعدد قليل من الأشخاص بشكل مفصل، مثل كتاب (عبقرية عمر (للأستاذ عباس محمود العقاد، أو كتاب (نساء النبي (للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ (، على سبيل المثال .

ثم كتب التراجم المرجعية، وهي التي تترجم لعدد كبير من الأعلام بشكل مختصر في الغالب، وقليل منها يكون مفصَّلا، مع ترتيب موادها بشكل من أشكال الترتيب، يسهل الوصول للمعلومات المطلوبة بسهولة. وهذه بدورها تنقسم إلى نوعين رئيسيين هما:

1- كتب التراجـــــم العامة: وهي تلك التي تتناول تراجم المـــــشاهير دون تحيز تاريخي أو موضوعي أو جغرافي واضح، وهي من أكثر كتب التراجم تأليفا ومنها:

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلّكان (ت 681 هـ).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (ت 1089 هـ / 1679م).
- سير أعلام النبلاء للذهبي (ت 748 هـ).
- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء لخير الدين الزركلي (1893 – 1976م)
- مُعجم المؤلِفين لعمر رضا كحالة (1905 – 1987م)

2- كتب التراجم المتخصصة: وهي التي تترجم للأعلام حسب فئاتهم الزمنية أوالموضوعية أو الجغرافية، أو غير ذلك من أنماط التخصص. وهي تنقسم إلى أربعة أقساماأو انماط هي:

أ. التراجم التاريخية أوالزمنية: وتضم الأعمال الشاملة التي تترجم لأعلام كل حقبة زمنية، أو كل قرن على حدة، بغض النظر عن اهتماماتهم وتخصصاتهم ومواقفهم الجغرافية (أي أنها عامة التغطية، لكنها متخصصة أومحدودة الحقبة الزمنية) ومن الأمثلة على ذلك:

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ت852 هـ)
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لمحمد خليل المُرادي (ت1206 ه/1791م)
- نثر الجواهر والدُّرر في علماء القرن الرابع عشر تأليف يوسف المرعشلي (مواليد بيروت 1952م).

ب. التراجم الموضوعية: وهي التي تترجم للأعلام في موضوع أو تخصص معين على حدة، أمثلة:

- طبقات الشعراء لابن سلامّ الجُمحي (ت 232 هـ / 845م)
- طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة(ت 668 هـ / 1270م)
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (ت 630 هـ).
- الاستيعاب لابن عبد البر (ت463 هـ).
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحالة (تاريخ التأليف 1959)
- طبقات النحاة للسيوطي (ت 911 هـ / 1505م).

ج. التراجم الجغرافية (المكانية): وهي التي تترجم للأعلام في حيز جغرافي معين، وقد تكون التغطية هنا: إقليمية (بمعنى مجموعة من الدول التي تجمعها سمات مشتركة مثل الدين أواللغة أو العلاقات السياسية أوالموقع الجغرافي)، كدول الخليج العربية، أو أن يجمعها الانتماء لقارة من القارات، اوالترجمة للأعلام في قطر واحد بعينه، أو الترجمة للأعلام بإقليم معين، أو في مدينة محددة داخل ذلك القطر. ومثال ذلك:

- المقتبس من أبناء أهل الأندلس لابن حيان القرُطبي (ت 469 هـ).
- تاريخ دمشق لابن عساكر (ت571 هـ).
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت463 هـ).
- الفهرست المفيد في تراجم أعلام الخليج لعبدالله الشمري (تاريخ الصدور 1992م).على أنه ينبغي ملاحظة أنه قد يكون هناك تداخلٌ بين هذه الأنواع، فقد نجد مرجعاً يترجم مثلاً للمتخصصين في مجال موضوعي معين، فـــي بلد معين، أو في حقبة تاريخية محددة .

د. تراجم الأنساب والقبائل: وهذه أيضاً يمكن أن تعُتبر من أنواع التراجم المتخصصة، لكنها لا تترجم لأفراد وإنما لقبائل وأسر. فهي إذاً من كتب التراجم المتخصصة لأنها تتخصص في موضوع محدد هو أنساب القبائل والأسر والتعريف بها. وكامثلة على هذا النمط من التراجم:

- جمهرة انساب العرب لابن حزم (ت 456هـ).
- نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكّار (ت 256هـ).
- الأنساب للسمعاني (ت 562هـ).
- معجم قبائل المملكة العربية السعودية للشيخ حمد الجاسر (ت 1421 هـ / 2000م).
- جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد للشيخ حمد الجاسر أيضا .

المبحث الثاني

السند والإسناد ومكانتهما في العلم الإسلامي

قد رأينا فيما ذكرناه آنفا، كيف أولى المسلمون اهتماماً كبيراً لعلم التراجم، ابتداءاً بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها مشتملة على سنته وأحواله وصفاته وأخلاقه التي هي في حد ذاتها، الركن الأساسي الثاني من أركان الدين الإسلامي الذي ينبغي على كل مسلم أن يتمسك به وأن يعضَّ عليه بالنواجذ، إلى جانب القرآن الكريم كلام الله عزَّ وجلَّ.

ولما كانت السنة النبوية المطهرة، هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، وأن هذه السنة النبوية إنما تسُتمد من الأحاديث النبوية الشريفة، فقد عمل علماء المسلمين وفقهاؤهم على حماية الحديث النبوي الشريف من الكذب والتزويروالتدليس والتلفيق، فنشأ فرع من علم التراجم هو (معرفة الرجال)، لتلقي الأخبار عنالناس، وبالذات المشتغلين منهم برواية الأحاديث النبوية، ومن ثم سائر الأخبار المحكيةعن الصحابة والتابعين،ومختلف العلماء بشكل خاص، وغيرهم من سائر الناس بشكل عام .

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن مجاهد قال: (جاء بُشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه فقال: يا ابن عباس، مالي لا أراك تسمع لحديثي ؟ أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع ؟ فقال ابن عباس: إنا كُناَّ مرَّة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلمابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف).[1]

وكان قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لذلك الرجل منذ ذلك العهد المبكر، بمثابة القاعدة الذهبية التي صارت شعاراً لأهل ذلك العلم، وذلك لأهمية معرفة

1 شرح **المسند الجامع للدارمي**، شرح نبيل الغمري، الجزء الثالث، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1999م، ص 179.

حال نقلة الأحاديث النبوية، نسبة لما يترتب على هذه المعرفة من الحكم على صحة الأخبار، والعمل بما جاء فيها، تعبدًّاً وتقربا بما فيها لله تعإلى، أوعدم قبول تلك الروايات وردها .

وفي ذات السياق، روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن سيرين قال: (لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمُّوا لنا رجالكم، فينُظر إلى أهل السُنةَّ فيؤُخذ حديثهم، وينُظر إلى أهل البدع فلا يؤُخذ حديثهم.)[1]

وبناءً على ما تقدم، فإن أهمية الإسناد، وضبطه، والعناية به، تتمثل بصفة أساسية في الاستيثاق من صحة نسبة الروايات إلى رواتها، والمصنفات إلى مصنفيها، والمقولات إلى قائليها، وذلك سداً للذرائع، وصوناً للسنة من الدس والوضع والتدليس، ودرءاً لها من التشكيك في صحة الصحيح والمتواتر منها، ومشروعيته وحجيته .

وعلاوة على ما مضى من بيان أهمية الإسناد، وضرورة التأكد من شخصيات وأحوالحَمَلة العلم، وخصوصاً الأقوال المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ما رأينافي الأثرين المُستشَهد بهما آنفا في هذا الصدد من صحيح الإمام مسلم بن الحجاج القشُيريرحمه الله (ت 261 هـ)، فإن هنالك أقولاً مشابهة وتنسج على ذات المنوال في ذاتالخصوص، صدرت عن طائفة من أئمة الإسلام المتقدمين. فعلى سبيل المثال، قال الإمام الشافعي رحمه الله: (مثل الذي يطلب العلم بلا إسناد، مثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب فيها أفعى تلدغه وهو لا يدري).

وقال عبد الله بن المبارك (ت 181 هـ)، (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء). وقال علي القاري (ت 1014 هـ / 1606م): (أصل الإسناد خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسُنةَّ بالغة من السنن المؤكَّدة، بل من فروض الكفاية).

وقال سفيان الثوري (ت 161هـ): الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي سلاح يقاتل .

وقال يزيد بن زريع (ت 182 هـ): لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد .

---

1 مقدمة **صحيح مسلم.**

وقال الحافظ القسطلاني(ت923 هـ): (الإسناد حقيقة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة، وقد رُوِّينا من طريق أبي العباس الدغولي قال: سمعت من حاتم بن المظفرَّ يقول: (إن الله تعإلى قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسنادٌ موصول، إنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي اتخذوها من غير الثقات).

أما قوله (صحفٌ في أيديهم (، فهو الذي منه وصف أهل العلم والدراية بصفات الرواة، للدارس الذي يعتمد على الاطلاع على ما في الصحف والكتب وحدها بأنه (صُحفي (يتنقصونه بذلك، أي أنه يعتمد على محض الاطلاع على مافي الكتب والمصنفات، ولا يشفع ذلك ويعزِزه بمثافنة العلماء العدول والحفاظ الضابطين، والجلوس إليهم، لكي يأخذ عن أفواههم شفاهة أيضا .

وقال العلامة محمد مرتضى الزبيدي (ت1205 هـ/ 1791م): (ثبت عند أهل هذاالفن أنه لا يتصدى لإقراء كتب أهل السنة والحديث قراءة دراية وتبرُّك ورواية، إلا من أخذأسانيد تلك الكتب من أهلها ممن أتقن درايتها وروايتها، ورحل إلى البلدان فظفر بعواليالمرويات، وباحث الأقران فأحاط بمدارك الدرايات، وجلس بمجالس الإملاءات علىالرُّكب، وتردد إلى المشايخ بالخضوع والأدب، وهذا الآن أقل من القليل.) [1]

هذا، وما يزال علماء الأمة الإسلامية وفقهاؤها، يتمسكون بأهمية الإسناد، والأخذ عن الشيوخ العلماء العدول، والحفاظ والضابطين إلى يوم الناس هذا. ومما يدل على ذلك ان مؤلفاً معاصرا هو الدكتور عبد الفتاح أبو غُدَّة (1917 – 1997م)، قد خصَّ هذا الموضوع بتأليف مصنف خاص به هو كتابه بعنوان: الإسناد من الدين وصفحات مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين. والراجح أن الدكتور أبا غدة قد أخذ صدر عنوان كتابه المذكور من مقولة عبد الله بن المبارك رحمه الله الآنف ذكرها: (الإسناد من الدين).[2]

1 عاطف عبد المعز الفيومي، (التعقيب على من يقول إن الإجازات من ملح العلم (، مقال منشور بتاريخ 27 / 11 / 2014م بموقع الألوكة الشرعية بالشبكة العنكبوتية تحت الرابط أدناه: https://www.alukah.net/sharia/0/79016/

2 عبد الفتاح أبو غدة،**الإسناد من الدين وصفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المُحدِّثين**، دمشق، دار القلم، 1992م.

الفصل الثاني

الإجــازة والإجــازات فــي العلـم الإسلامــي

الـمبحث الأول

الإجــازة والإجازات قديـمـاً وحديـثا

عرَّف العلماء الإجازة بأنها تعني الإذن بالرواية، والسماح للشخص المُجاز بنقل العلم إلى آخرين غيره. وتجوز أن تكون الإجازة لفظاً أو كتابةً.

فالإجازة هي إذاً، إذنٌ بالرواية يمنحها شيخٌ لطالب ليروي عنه مادةً علمية، سواء كانت من مروياته أومن مؤلفَّاته. وقد عُنيَ المسلمون بها كطريقة من طرق نقل الحديث وتحمُّله.

وكان الحرص على نيل الإجازات وسماع الحديث من أفواه رواته، سبباً في جوب الآفاق، وارتياد الأمصار .

والإجازات إما شفهية وإما تحريرية. والشفهية أسبق ظهورا. فقد رُوي أن بشير بن نهيك قال: (كتبتُ عن أبي هريرة كتابا، فلما أردتُ أن أفارقه قلت: يا أبا هُريرة، إني قد كتبتُ عنك كتابا، أفأرويه عنك، قال نعم، أروه). ورُوي أن تلميذاً للإمام جعفر الصادق طلبمنه عندما أراد مفارقته أن يجُيزه قائلاً: أحبُّ أن تزودني، فقال الإمام: إيت أبان بن ثعلب (ت 148 هـ) فإنه سمع مني حديثاً كثيراً، فما روى لك عني فاروه عني.[1]

أما الإجازة التحريرية، فمن الشواهد ما يدل على ظهورها منذ القرن الثالث الهجري، ولكنها فيما يبدو كانت قليلة. لذلك يمكن اعتبار القرن الخامس الهجري البداية الحقيقية لظهور هذا النوع الذي اقترن بظهور المدارس، وكثرة طلابها، وظهور المكتبات. وحينئذٍ عمد الطلاب إلى ظاهرة أن يثُبتوا في ذيل الكتاب أو صدره أسماء من سمعوهم على مصنفه أو على شيخ آخر.[2]

1 الخطيب البغدادي **تقييد العلم**، دمشق، 1949، ص 101.

2 يحي محمد إبراهيم، **تاريخ التعليم الديني في السودان**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ص 188 - 189.

وقد قال الإمام أبو العباس الشمني (ت810 هـ / 1467م) في تعريف الإجازة وأركانها: الإجازة في الاصطلاح: إذنٌ في الرواية لفظاً، أو خطّاً، يفيد الإخبار الإجمالي عُرفاً، وأركانها أربعة: المُجيز، والمُجاز له، والمُجاز به، ولفظ الإجازة.

أنواع الإجـــازة:

1- إجـــازة مُعيَّن لمُعيَّن: كقول أحد الشـيوخ لأحد طلابه: أجزتك صحـــيح البخاري أوأجزت فلاناً جميع ما اشتمل عليه فهرستي، أو أجزتك رواية السُنن مثلا.

2- إجازة معينة في غير معين: كقول شيخ ما لأحد طلابه: أجزتك مسموعاتي أومروياتي

3- إجازة العموم .

4- إجازة المعدوم: كأجزت لمن يوُلد لفلان، واختلفوا فيها، فجوَّزها بعضهم ومنعها آخرون. وصححوا الإجازة للطفل الذي لم يميِّز لأنها إباحة للرواية، والإباحة تصحُّ للعاقل وغيره .

5- إجازة المُجاز: كأجزت لك ما أجُيز لي.

وتسُتحَب الإجازة إذا كان المُجيز والمجاز له من أهل العلم، لأنه بها أحرى، وبحملها أولى. وينبغي للمُجيز بالكتابة أن يتلفظ بها، فإن اقتصر على الكتابة صحَّت.[1]

وإلى جانب ذلك، يورد أهل العلم في هذا الشأن، جملة من الضوابط والتنبيهات التيينبغي على الطالب الذي يبتغي الإجازة أن يتقيد بها. ومن أهمها تحرِّيه الدقة فيما يأخذ منعلم من حيث المتن والسند، إذ عليه أن يتوخَّى مجانبة أهل البدع والأهواء والمُدلِّسينوالكذَبة، كما أنَّ عليه أن يعلم بأنَّ الإجازات في حدِ ذاتها والاستكثار منها، لا تمثل علماً بذاتها ولا تدل على التحلي بالعلم بالضرورة، إن لم يصدق المظهر المخبر .

1 الشيخ عاطف عبد العزيز الفيومي، (أنواع الإجازة وأركانها (، نشر بتاريخ 2/ 10 / 2014 م بموقع الألوكة الالكتروني ص192.

المبحث الثاني
طــرق ترتيب الإجـــازات

يعمد الطلاب والشيوخ إلى طرائق متباينة في ترتيب الإجازات التي يحصلون عليها خصوصاً عندما يقصدون إلى تحريرها في شكل مصنفات.

فمنهم من يجعل الإجازات مرتبة وفقاً لتواريخ الحصول عليها، فيجمع الأقدم فالأقدم بحسب التواريخ التي أجُيز بها من شيوخه ومسنديه.

ومنهم من يجعلها مرتبة على طريقة كتب الحديث، فيجعل في المقدمة الصحيحين ثم السُنن الأربعة، والدارمي، والموطَّأ، ومُسند الإمام أحمد بن حنبل، وهكذا.

ومنهم من يرتبها على طريقة المصنفات والموضوعات، فيجعل إجازة العقيدة أولاً ثم القرآن، ثم الحديث، ثم الفقه، ثم اللغة، ثم سائر العلوم. الأخرى .

ومنهم من يجعلها مُرتبَّة على حسب حروف المُعجَم باسماء شيوخه، فيذكر إجازات الشيخ الفلاني الذي يبدأ اسمه بحرف الألف، ثم الباء، ثم التاء، وهكذا .

ومنهم من يجعلها مرتبَّة على طريقة البلدان كمعاجم البلدان، فيرتب أسماء الشيوخ ومروياتهم بحسب البلد. فهؤلاء شيوخ الحرمين، وهؤلاء من الحجاز، ثم العراق، ثم الشام، ثم مصر، ثم المغرب، ثم الهند وهلمَّ جرا. [1]

---

١ الشيخ عاطف عبد العزيز الفيومي، (أنواع الإجازة وأركانها (، نشر بتاريخ 2/ 10 / 2014 م بموقع الألوكة الالكتروني .

المبحث الثالث
التشدد في الإجازة والتساهل فيها

لاحظ نفرٌ من العلماء والباحثين أن هنالك بعض الشيوخ الذين يتشددون أكثر من اللازم في منح إجازاتهم لمن يطلبونها، ويشترطون اشتراطات مرهقة للغاية من أجل ذلك، كما لاحظوا في المقابل، أن منهم هنالك أيضاً، من يتساهلون في الإجازة فيمنحونها لكل من هبَّ ودبَّ، عالِماً كان أوجاهلا، ودعوا إلى التوسط والاعتدال في ذلك، على أن يكونالمعيار الرئيسي هو الاستيثاق من أهلية الشخص المُجاز علمياً وأخلاقياً لحمل أمانة العلموتأديتها، وإيصالها على أكمل وجه .

المبحث الرابع
أساليب الإجـــازة

هنالك بضعة أساليب وكيفيات ذكرها العلماء، تتم الإجازة عن طريقها، أو تقترن بها ومن ذلك:

1- المناولة: وهي أن يدفع الشيخ للطالب المستجيز أصل سماعه أو فرعاً مقابلاً له، وان يقول هذا سماعي وروايتي عن فلان أجزتُ لك روايته، ثم يبُقيه في يده تمليكاً، أو إلى أن ينسخه المستجيز ويعُيده إليه. أوأن يناول الطالب سماعه فيتأمله وهو عارفٌ متيقِّظ، ثم يتناوله الطالب ويقول: هو حديثي أوسماعي فاروه. ويسمى هذا (عرض المناولة).

2- المُكاتبة: وهي أن يكتب الشيخ لغائب أوحاضر بخطه أو يكُتبَ له. وهي إما مقترنة بالإجازة كأن يكتب: أجزتُ لك، أو مجردة عنها. والصحيح جواز الرواية على التقديرين.

3- الإعلام: وهو أن يعُلِم الشيخ الطالب أن هذا الكتاب روايته من غير أن يقول أروه عنِّي، والأصح أنه لا تجوز روايته لاحتمال أن يكون الشيخ قد عرف فيه خللاً فلا يأذن فيه.

4- الوِجادة: مِن وَجَدَ يَجِدُ، مُولدَّ. وهو أن يقف الطالب على كتاب بخط شيخ فيه أحاديث ليس له رواية ما فيها، فله أن يقول: وجدتُ أو قرأتُ بخطِّ فلان أوكتاب فلان بخطه، حدَّثنا فلان، ويسوق باقي الإسناد والمتن. وقد استمر عليه العمل قديماً وحديثاً، وهو من باب المُرسَل، وفيه شوب من الاتصال. على أن هنالك قوماً شدَّدوا وقالوا: لا حُجَّة إلا فيما رواه حفظاً. وقالوا: تجوز الرواية من نسخ غير مقابلة مقابلة بأصولها.

5- الوصيةَّ: وهي أن يوصي الشيخ المُجِيز عند موته أو سفره بكتاب يرويه، فجوَّز بعض السلف للموصَى له روايته عنه. غير أن بعض أهل العلم مثل الإمام النووي (ت 676 هـ)، وابن الصلاح(ت643 هـ)، وغيرهما غلطَّوا ذلك ولم يجوِزوه.[1]

1 عاطف الفيومي، مقال: (أنواع الإجازة وأركانها (مرجع سبق ذكره وقد استقى بدوره من بعض المصادر المعتمدة في هذا الباب مثل: كتاب الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ت 463 هـ)، وتذكرة الحُفَّاظ للذهبي(ت 748 هـ)، والمقدمة لابن الصلاح، وتدريب الرواي للحافظ جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، ولسان الميزان للحافظ بن حجر (ت 852 هـ)، وغيرها

الفصل الثالث
لمحة عن المعاجم والأثبات والفهارس والمشيخات

توطئـــــة:

حرص علماء الإسلام، خصوصاً بعد عصرالرواية وانتشار المؤلفات بسائر أنواعها، على إثبات أسانيدهم التي تصلهم بتلك المؤلَّفات، وأحقيتهم بروايتها وتدريسها لغيرهم أيضا.

وبنفس القدر الذي تفنَّن فيه المؤلفون في تآليفهم ومصنفاتهم، فقد تفنن أصحاب الأسانيد وجامعوها، في التعريف بطرائق وسلاسل أسانيد رواياتهم، فأنتجوا لنا جملة من أجناس المصنفات تحمل بضعة مسميات مبتكرة، من أجل خدمة هذا الغرض ذاته، فكانت هنالك من ذلك: أثباتٌ، ومعاجم، وبرامج، وفهارس ومشيخات وما إلى ذلك.

لقد كشف لنا أولئك المؤلفون بذلك الضرب من التأليف، عن فوائد كثيرة، مثل النص على سماع الشيوخ أواستجازتهم، فضلاً عن جملة من الفوائد العلمية والتوثيقية والتاريخية والسيرية الأخرى، وغيرها من الفوائد والمعلومات القيمة حول الرحلة العلمية، وتنقل العلماء وطلاب العلم بين مختلف الأمصار والأقطار في العالم الإسلامي، بغرض الالتقاء بالعلماء والشيوخ، والأخذ عنهم، والتبادل العلمي والثقافي، ونشوء مجموعة من الشبكات الهائلة والمتداخلة والمتقاطعة من سلاسل الإسناد، التي قد تمتد من العصر الحالي، وإلى مئات السنوات إلى الوراء، وقد تتجاوز تلك السلاسل الحدود القطرية وحتى الإقليمية، لكي تعانق فضاء العالم الإسلامي من أقصى مشرقه إلى أقصى مغربه، مع كل ما يتضمنه ذلك من الفوائد التاريخية والعلمية غير المنكورة، ولسان حال الجميع يردد في حبور قول الإمام الحافظ أبي القاسم بن عساكر: (ت 571 ه)ـ:

لقولُ الشـيخ أنبأني فـــلانٌ ... وكــــان من الأئمـــةِ عن فلُانِ

إلى أن ينتهي الإســـنادُ أحـــلىَ ... لقلبي مـــــن محادثةِ الحِـسانِ

فـــإنَّ كـــــتابةَ الأخــبارِ ... ترقـىَ بصاحبهاإلى غُرفِ الجـنان

وحفظُ حديثِ خيرِ الخـــلقِ مما ... ينُالُ به الرِضَى بعـــــد الأمــانِ

فأجْرُ العـــلمِ ينمـــو كلَّ حـــينٍ ... وذِكْرُ المرءِ يبـــــقىَ وهو فـاني

وفي ذات السياق عن فوائد هذا الضرب من المؤلفات، يقول الأستاذ الدكتور عمر مسعودالتجاني، في تقديمه لثبت العالم السوداني الشيخ الطيب مونة (1901 – 1995م) ما نصه:

(وللأثبَات فوائد أخرى كثيرة، منها أنها تبرُز علماء كل عصر وأعيانه، وفيها نشرٌ للعلوم وترويجها بين العام والخاص، وفيها صورة حيَّة للمجتمع الذي دُونِت في زمانه، ونوع نشاطه الفكري والاجتماعي. كما أن من فوائدها أيضاً، تصحيح أسماء البلدان والأعيان، فضلاً عن كونها تتضمن معلومات شخصية مهمة عن مؤلفيها، وعن حياتهم العلمية وكيفية تلقيهم عن شيوخهم) .[1]

وعلى ذات المنوال، يعرفنا كاتب تقديم كتاب علا مَّة المغرب، الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتَّاني (1884- 1962م)، الموسوم ب (فهرس الفهارس والأثبَات ومعجم المعاجموالمشيخات والمسلسلات)، ذلك الكاتب الذي رمز لنفسه فقط بأنه (كاتبٌ كبير وشاعرٌ خطير)، يعرفنا على مؤلف ذلك الكتاب النموذجي في بابه، وعلى محتوى الكتاب وفوائده على النحو التالي:

(فهرس الفهارس وهو هذا الكتاب العظيم الشأن، الذي ينبئ أولاً عن سعة وكثرة مؤلفات الإسلام في شوارد أبواب التاريخ الإسلامي، لأن باب الفهارس قليل الطروق. ومع ذلك جمع في الفهرس المذكور ذلك العدد العديد الهائل، وهو ما يقارب من ثلاثة عشر ومائة فهرس. ويدلُّ ثانياً على سعة اطلاع الأستاذ المؤلف اطلاعاً فاق فيه كثيراً ممن غبر، فضلاً عمن حضر. فإن صاحب كشف الظنون (يعني المؤلف التركي حاجي خليفة والشرح من الباحث) إذا تتبَّعه المتتبع، لم يجد فيه من أسماء الفهارس والأثبَات ولا عشر معشار ربع هذا العدد، مع أن صاحب الكشف جمع فأوعى، وانتفع بمكتبة الآستانة التي كانت أوسع في زمانه، وأغنى مكاتب العالم الإسلامي، ومن هنا يظهر لك الفرق. ... وقد جاء هذا الكتاب فهرس الفهارس قاموساً جامعاً لتراجم المؤلفين في السُنةَّ من أواسط القرن التاسع إلى الآن وقبلها،وذيلاً على طبقات الحُفاظ لابن ناصر والسيوطي إلى الآن، فلم تجد عالماً في الإسلام اشتغل بالحديث

1 عمر مسعود التجاني، تقديم كتاب الشيخ الطيب مونة بن سعيد: **ثبْتُ العلوم المُسمَّى سرالأسرار ونور الأنوار الجامع لأسانيد وأثبات الأخيار**، تحقيق عبد الله الطيب مونة، مطبعة حصاد للطباعة والنشر، الخرطوم، 2007م، ص ب .

وعلومه اشتغالاً مُفيداً ارتفع به ذكره إلاَّ وتجد ترجمته فيه مبسوطة، وفيه من التراجم ما يجُمع قبل في ديوان. وبالجملة فإنه الكتاب الذي يجد فيه أهلكل إقليم تراجم أعلامهم ووفياتهم وولاداتهم وآثارهم، فلا عجب أن زيَّن به الهنديُّ مكتبته، ورفع به السوداني منصته (يعني في الراجح بلاد السودان بالمعنى العام وخصوصا السودان الغربي والأوسط وهذا التعليق من الباحث) كما يستفيد منه اليمني في رفيع مقامه، والمصري والشامي على عظيم مجده وهيامه) .[1]

1 محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتَّاني،**فهرس الفهارس والأثبآت ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، باعتناء الدكتور إحسان عباس، الجزء الأول، المقدمة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 33- 34.

المبحث الأول
حول ماهية المعاجم والأثبات والفهارس والمشيخات

كُتب المعاجم والأثبات والفهارس، وتضُاف إليها البرامج أيضاً، أسماءٌ مترادفة تؤدي ذات المعنى والمدلول، ويرُاد بها تلك الكتب التي يسجل فيها الشخص المُجاز مؤلفاته شيخاً كان أو طالب علم، ومروياته، وإجازاته، والكتب التي قرأها على مشائخه أيضا.

وقد لاحظ كثيرٌ من الباحثين المعاصرين، أن هذه الكتب قد حملت أسماء مختلفة فكان منها: البرنامج، والفهرس أو الفهرسة، والمشيخة، والمُعجَم، والثبْت والسَّنَد والتقييد.[1]

على أنه ليس من النادر أن يطلق على ذلك النمط من الكتب، تسميات أو عناوين مخصوصة مثل كتاب (الغنُية) مثلاً، وهو فهرست شيوخ القاضي عياض السبتي (ت 544هـ)، ومن كتب المتأخرين: (الإتحاف) للشوكاني (ت 1250 هـ)، و(حصر الشارد) لعابد السِّندي (ت 1257 هـ)، و(الإسعاد) للكنوي (ت 1364 هـ)، على سبيل المثال .

وقد لاحظ الأستاذ عصام الشنطي فيما نقله عنه يوسف السناري في مقاله بعنوان: (التعريف بكتب المشيخات والأثبَات والبرامج والفهارس والمعاجم)، أن تسميات: مشيخة، ومعجم، وثبت، وسند، أكثر ما تكون استعمالاً في المشرق، أما المغاربة والأندلسيون، فقد شاع عندهم استعمال مصطلحي: الفهرس والبرنامج، كما لاحظ أيضاً أن عناية المغاربة والأندلسيين بهذا الضرب من التأليف، هي عموماً، أكثر من عناية المشارقة به . ولعل من الأدلة على ذلك – على سبيل المثال – أنَّ من أشهر المصادر المعاصرة في هذاالمجال، هو مصدر مغربي، ألا وهو كتاب عالم المغرب ومحدثه الكبير، الشيخ محمدعبد الحي بن عبد الكبير الكتَّاني (ت 1382 هـ / 1962م)، بعنوان: فهرس الفهارس والأثباَت ومعجم المعاجموالمشايخ والمسلسلات الذي أشرنا إليه آنفا .

---

1 يوسف السناري، (التعريف بكتب المشيخات والأثبات والبرامج والفهارس والمراجع (مقال نشر بتاريخ 31 / 1 / 2015م بموقع أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية : https://vb.tafsir.net/tafsir41951/#.XcveQdX7SUk

هذا، ويعدُّ علماء الوثائق والمكتبات، تلك الأنواع من المصنفات ذات الأسماء المترادفة وذات الدلالة الواحدة، من ضمن كتب الببليوغرافيا عموماً بمفهومها العلمي. ذلك بأنها تحتوي على ذكر عناوين تلك المصنفَّات، وأسماء مؤلفيها، بل تواريخ تأليفها أحيانا.

وإلى جانب ذلك، وردت أيضاً أسماء أخرى، تدلُّ على نفس هذا النوع من المؤلَّفات، وإن كانت الاشارة إلى أسمائها بملفوظات أخرى أقل تواتراً نسبياً من سابقاتها. وقد أثبتها يوسف السناري في مقاله الموَمَى إليه، وها نحن ننقلها عنه هاهنا أيضاً، استكمالا للصورة والتوثيق فيما يلي:

1- كتاب الرجال الذين لقيهم (أي المؤلَّف المعني): وترد هذه التسمية في كتب الطبقات للدلالة على الفهرسة. وقد سمَّى ابن بشكوال(ت 572 هـ) في الصلة فهرسة أبي علي الغساني (ت 498 هـ) بذلك. (وذكره أبوعلي الغساني في كتاب رجاله الذين لقيهم).

2- تسمية الشيوخ وتسمية المسموعات أو المرويات .

3- تأليف مفيد في أسماء الشيوخ: ورد ذكره في نفح الطيب تعبيراً على معجم أبي عبد الله التجيبي(ت610 هـ) .

4- مجموع في الشيوخ: وقد ورد غير ما مرة في ذيل ابن عبد الملك (ت 703 هـ) للدلالة على الفهرسة .

5- التقييد: وهو لا يفيد معنى الفهرسة إلا إذا اقترن بإضافة لفظة (شيوخ أوغيرها إليه) وقد أطلقه أبو زكريا السراج (ت 803 هـ) دون إضافة على فهرسته فجعلها تقييدا فقال: (الباب الخامس في ذكر بعض الأسانيد ويخُتم بها إن شاء الله هذا التقييد) أ. هـ

6- جزء فيه خطوط الإجازات،أوتسميةالتواليفأوغير ذلك. مثل قول أبي القاسم التجيبي(ت 730 هـ) بين مروياته من الفهارس في برنامج: (جزء فيه إجازة أبي داوود المقرئ لأبي الحسن بن هذيل المذكور، ولأخيه إبراهيم، وتسمية تواليفالإئمة أبي عمروعثمان، وأبي الفتح بكر محمد مكي المقرئين، وابن أبي زمنين، وتسمية شيخ أبي داؤودوتواليفه أيضا). أ. هـ

7- الدَّرَج: وقد ورد علما على الفهرسة في فهرسة السراج (ت 803هـ) عند ترجمة شيخه أبي الحسن بن باديس القسنطيني - ت 784 هـ (وكتب بخط يده درجاً ذكر فيه جماعة من شيوخه الأفريقيين والمشارقة وغيرهم) أ. هـ

8- الإجازة: وقد اشتهرت بها الفهارس التي هي أصلها إجازة، حتى إنها أصبحت عَلمًا لها، لا تعُرَف إلا بها، كفهرسة أبي السعود الفاسي – ت 1091 هـ (الإجازة)

9- الاستدعاء: وهو صورة الطلب الذي يقدمه الراغب في الرواية والسند إلى شيخه أو شيوخه، ليكتسب شرعية اتصال سنده بواسطتهم عن طريق . ولم يشتهر الاستدعاء ليدل على الفهرسة إلا في حدود ضيقة جدا، كأن يكون الاستدعاء من جماعة من الراغبين في الإجازة، إلى جماعة من الشيوخ المُجيزين، وأن يرُفق بنصوص الإجازات هؤلاء الشيوخ، كما هو الحال في (استدعاء ابن رشيد – ت 721 هـ) ومن معه. وقد عُرف هذا الاستدعاء عند المتأخرين من المغاربة بفهرسة ابن رشيد .

10-الكُناَّشة: وهو مصنفٌّ يجمع فيه صاحبه من يسنح له من التقاييد والنقول المتنوعة والمختلفة، من بينها: الحديث عن شيوخه، ومروياته، وأسانيده، وإجازات الشيوخ له .

وتشتهر الكُناَّشة بهذا الشكل عند المتأخرين من المغاربة. وقد أصبحت كُنَّاشة الشيخ أحمد زروق المغربي الفاسي (846 – 899 هـ) عَلمًا على فهرسته. وقد نقل عنها أحمد بابا في النيل (يعني كتاب: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي - ت 1036 هـ / 1627م، والشرح من الباحث) كثيراً من تراجم الرجال، ويسميها عند كل نقل بالكُناَّشة، إلا مرة واحدة سمَّاها بالفهرسة. وهي ليست على نمط الفهارس المعتادة، وإنما هي خليط من التعريف بالرجال من شيوخه وغيرهم، ومن مناقشة بعض القضايا الصوفية، من بعض النقول من مؤلفَاته.)[1]

1 يوسف السناري، (التعريف بكتب المشيخات والأثبات، (مقال نشر بتاريخ 31 / 1 / 2015م بموقع أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية على الرابط: https://vb.tafsir.net/tafsir41951/#.XcveQdX7SUk

المبحث الثاني

نماذج لبعض أشهر المعاجم والفهارس والأثبات في التأليف الإسلامي عبر التاريخ

ظل علماء المسلمين وطلاب العلم بينهم كذلك، كما رأينا فيما سبق، يهتمون بتدوين أخبار رحلاتهم من بلدانهم إلى سائر الأمصار الأخرى، ولقاءاتهم واتصالاتهم بغيرهم من مختلف العلماء ممن هم أعلى منهم كعباً وأرسخ علماً، أوبنظرائهم، أوممن هم دونهم في هذا الباب، فتكون المدارسة، والمناقشة، وتبادل الأفكار والمعارف، وأخذ الروايات والإجازات وغير ذلك، بما تتراكم منه مادة صالحة للتأليف التوثيقي والعلمي المفيد تاريخياً وموضوعيا، على نحو ما فصلناه آنفا .

وقد صدرت في هذا المجال مؤلفات كثيرة للغاية، غير أننا نود في هذه العجالة أن نستعرض بعضاً من عناوينها، متوخين في ذلك نوعاً من التدرج الزمني من الأقدم إلى الأحدث وفقاً لتاريخ وفاة المؤلف، وكذلك ضرباً من التنويع الجغرافي والمناطقي بقدر الإمكان، وسوف نورد بعض التفاصيل الببليوغرافية الخاصة بالمصنف المعني في حال توفرها لدينا :

1- المعجم في أسامي شيوخ أبي بكر بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي الجُرجاني – ت 371 هـ. طبع في مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1410 هـ، تحقيق زيادة محمد منصور، وفي دار الفكر بيروت.

2- جزء فيه ذكر شيوخ الشريف بن المهدي، محمد بن العباس بن المهدي – ت 444 هـ. دار البشائر الإسلامية، دمشق، 1430 هـ، تحقيق عبد الله محمد الكندري .

3- مشيخة أبي الحسين بن المهتدي بالله الصغرى – ت 465هـ . طبع دار البشائر الإسلامية، دمشق، 1431 هـ، تحقيق قاسم بن محمد ضاهر .

4- فهرست شيوخ القاضي عياض السبتي – ت 544هـ .

5- معجم السفر للسلفي، الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الشافعي – ت 576هـ. طبع دار الفكر، بيروت، 1414هـ، تحقيق عبد الله عمر البارودي.

6- المعجم، تأليف تاج الدين عبد الخالق بن أسد بن ثابت – ت 583 هـ . طبع في دارالبشائر الإسلامية 1434هـ تحقيق نبيل سعد الدين جرار .

7- برنامج شيوخ الرعيني، الحافظ علي بن محمد بن علي الرعيني الشبيلي المعروف بابن الفخَّار – ت 666 هـ. طبع في وزارة الثقافة والإرشاد القومي،1962، حققه إبراهيم مشبوح .

8- مشيخة النعاَّل البغدادي، صائن الدين محمد بن الأنجب – ت 695 هـ. طبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي 1395هـ تحقيق د. ناجي معروف، ود. بشار معروف.

9- مشيخة شرف الدين اليونيني، شرف الدين أبوالحسين علي بن محمد اليونيني – ت 701 هـ. طبع في المكتبة العصرية، بيروت، 1423 هـ، تحقيق عمر عبد السلام تدمُري.

10- معجم الشيوخ، عمر بن فهد الهاشمي المكي الشافعي – ت 885هـ . طبع في المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، تحقيق محمد الزاهي، بدون تاريخ .

11- النهاية في اتصال الرواية لابن المبرد، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي الدمشقي الحنبلي – ت 909 هـ. طبع في دار النوار، دمشق، طبعة أولى، 1432هـ بعناية نور الدين طالب .

12- ثبت الشيخ زكريا بن محمد الأنصاري (ت 926 هـ)، تخريج الشيخ الحافظ شمس الدين السخاوي (ت 902 هـ). طبع دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1431هـ تحقيق محمد إبراهيم الحسين .

13- نوادر الإجازات والسماعات للعلامة المؤرخ محمد بن علي بن طولون الدمشقي – ت 958 هـ. طبع دار الفكر المعاصر، دمشق، طبعة أولى 1419 هـ، تحقيق د. مطيع حافظ .

14- إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء لأبي سالم العياشي المغربي – ت 1090 هـ. طبع في دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة أولى 1999م، تحقيق وتقديم محمد الزاهي.

15- فهرست عبد القادر الفاسي، الإجازة الكبرى، ومعها إجازة عبد القادر الفاسي لأبيسالم العياشي وتسمى الإجازة الصغرى - ت 1091 هـ. دار ابن حزم، بيروت، طبعةأولى، تحقيق محمد بن عزوز.

16- الإمداد في معرفة علو الإسناد، عبد الله بن سالم البصري المكي- ت 1134هـ .دار التوحيد للنشر، الرياض، حققه وعلق عليه العربي الدائزالفرياطي، 2006م.

17- الإرشاد إلى مهمات الإسناد للدهلوي، الشيخ المحدث ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الهندي - ت 1176 هـ. طبع في دار الآفاق،1430 هـ، تحقيق بدر بن علي بن طامي العتيبي .

18- فهرسة الحافظ أبي العلاء إدريس العراقي الفاسي - ت 1184 هـ. طبع في دار ابن حزم، بيروت، طبعة اولى، 1430 هـ، اعتنى بها بدر العمراني الطنجي.

19- معجم الشيوخ او (المعجم المختص (لمرتضى الزبيدي - ت 1205هـ، ويليه معجم شيوخه الصغير، وإجازاته للعلامة محمد سعيد السويدي (البغدادي - ت 1223 هـ / 1808م وهذه الزيادة من الباحث وليست في صفحة عنوان هذا الكتاب). طبع في دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى 1427 هـ، اعتنى به وقابل أصوله نظام محمد صالح يعقوب ومحمد بن ناصر العجمي .

20- النفس اليماني والروح الروحاني في إجازة القضاة بني الشوكاني للأهدل، عبد الرحمن بن سليمان الأهدل - ت 1250 هـ .طبع دار الصميعي، الرياض، طبعة أولى، 1433 هـ، تحقيق عبد الله الحبشي .

21- الإتحاف أو إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر للشوكاني، محمد بن علي الشوكاني - ت 1250 هـ، إصدار مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد، الهند، 1328 هـ.

22- المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، تأليف السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني (تلميذ السيد احمد بن إدريس الفاسي، ومؤسس الطريقة السنوسية. وهذه الزيادة من الباحث وليست في عنوان هذا الكتاب) - ت 1276 هـ . طبعفي دار التوفيقية المسيلة، طبعة أولى، 2011م.

23- حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، محمد عابد السندي الأيوبي الهندي – ت1257 هـ.طبع مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، 1424 هـ، تحقيق، خليل بن عثمانالجبور السبيعي .

24- فهرس الفهارس والأثبَات ومعجم المعاجم والمشيخاتوالمسلسلات، للكتاني، محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني – ت 1382 / 1962م، باعتناء الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982 .

25- الثبت الكبير في مشيخة وأسانيد وإجازات للمشاط،حسن المشَّاط المكي – ت 1399 هـ، طبع مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2005م، تحقيق د. محمد عبد الكريم بن عبيد.

المبحث الثالث

علاقة السودان والسودانيين بكتب التراجم والطبقاتوعالم المعاجم والأثبات والإجازات

بما أن الوجود البشري العربي والإسلامي، وأنَّ الثقافة العربية والإسلامية تبعاً لذلك قد وصلت إلى أرض بلاد سودان وادي النيل، وألقت في ربوعه بجرانها منذ زمان بعيد جداً، كما حاولنا تبيينه فيما مضى، فإن علاقة السودان الشرقي، وأعلام أهله ومشاهيرهم عموماً، بعالم التراجم والطبقات، وصلة علمائه وفقهائهومتصوفته بعالم المعاجم والأثبات والإجازات، ذكراً، وتوثيقاً، بل تأليفاً، وتحقيقاً، أمر ثابت كذلك وإن لم يكن بتلك الغزارة والوفرة الملحوظة في أمصار العالم الإسلامي الأخرى مشرقاً ومغربا، بل حتى بالمقارنة مع بلاد السودان الأوسط وخصوصاً الغربي. ولعل السبب في ذلك هو ما تعرض له سودان وادي النيل من هزات واضطرابات سياسية وأمنية عاصفة منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وما تلاه من غزو قوات إسماعيل بن محمد علي باشا للبلاد، وضمها عنوة لأملاك والده، وخصوصاً حملات صهره محمد بك الدفتردار الانتقامية على السودانيين بعد قتلهم إسماعيل باشا بمدينة (شندي (في عام 1822م، في إطار مقاومتهم لذلك الغزو. ثم تلا ذلك الحكم التركي المصري 1821 - 1885م، وما صاحبه من اجراءات قمعية وتعسفية ضد السكان، ثم ثورة الإمام محمد أحمد المهدي 1843 - 1885م، التي عصفت بذلك الحكم الاستعماري الجائر، واقتلعته من جذوره. ولكن فترةحكم الدولة المهدية 1885 - 1898م نفسها، رغم أنها قد كانت دولة وطنية مستقلةهزمت الاستعمار، إلاَّ أنها قد شابتها فترة اضطرابات، وتعبئة عسكرية دائمة، ومجاعات، وعمليات قمع ضد القبائل والمجموعات المتمردة، وحروب خارجية ضد الحبشة شرقاً، والخديوية في مصر شمالا، فضلاً عن عمليات النزوح والتهجير القسري للسكان. لقد أدى كل ذلك إلى حدوث حالة من الانقطاع الحضاري والثقافي والمعرفي، وقد تأثرت به سلباً بصفة خاصة مراكز التعليم ومدارسه التي كانت قائمة داخل عدد من حواضر البلاد منذ القرن السابع عشر فما قبله، وبتفرق الناس وتشتتهم، وهجرانهم لأماكن العمران

عموما، واندثار الكثير من الكتب والمؤلفات التي كانت قمينة بأن تعطينا صورة أكمل وأكثر وضوحاً للأوضاع الثقافية والعلمية في سودان وادي النيل، وخصوصاً فيما يتعلق بهذه النقطة الخاصة بعلاقة السودان والسودانيين عموما، بعالم التراجم والطبقات والمعاجم والفهارس والإجازات العلمية منها والصوفية، ووضعه بالتالي، من مجمل خارطة التواصل العلمي والفقهي والصوفي، التي ظلت تنتظم جميع أجزاء العالم الإسلامي.

وكمثال على ذلك، يوُقفنا كاتب الشُّونة على المصير المأساوي الذي حلَّ بمكتبة الشيخ حسن ود بانقَّا، فيقول:

(وفي سنة الف ومايتين وتسع وعشرين، توُفي العالم النحرير، والفاضل الشهير الشيخ حسن ولد بان النقَّا المشهور في بلوغ التقُّى والعلم. وله فراسة في الكتب والعالم وكل نفس، وله كتب عديدة وكلها تفرقت في زمن دفتردار بيك، حتى امتلأت منها البلاد) .[1] مهما يكن من أمر، فإن كتاب: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فيالسودان لمؤلفه محمد النور بن ضيف الله (1727 – 1809م) الذي يعُرف اختصاراً ب (طبقات ود ضيف الله)، يعُتبر على نطاق واسع، بمثابة عمدة المصنفات السودانية، سواء في مجال التراجم والطبقات، وكذلك بوصفه هو نفسه ثبتاً جامعاً لأسماء نحو مائتين وسبعين من الفقهاء والعلماء والمتصوفة الذين ظهروا في بلاد السودان الشرقي بين عامي 1500 و 1800 ميلادية، مع بيان تراجمهم وشيء منسيرهم، ولمع عن أعمالهم ومؤلفاتهم، وذكر أسماء شيوخهم وتلاميذهم والرحلات الخارجية التي قام بها بعضهم، واتصالاتهم بمعاصريهم من المشائخ والعلماء في العالم الإسلامي، وأخذهم الروايات العلمية، أو العهود الأوراد الصوفية عنهم فضلاً عنإثبات عدد من الإجازات التي حصل عليها نفر منهم من بعض أولئك الشيوخ والعلماء .

وكنا قد استعرضنا في الباب الثاني من هذه الرسالة، تراجم لطائفة مختارة من الشيوخ الأعلام الذين ترجم لهم ابن ضيف الله في طبقاته .

ولعل مما يجدر بنا ذكره هاهنا، أنَّ مؤلف الطبقات قد أثبت في كتابه – على سبيل

1 أحمد بن الحاج أبو علي (كاتب الشونة)، **تاريخ ملوك سنار والحكم التركي المصريفي السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار سوداتك المحدودة للنشر، الخرطوم، 2018، الصفحتان 195 و196.

المثال – نص الإجازة العلمية التي منحها شيخ الإسلام علي الأجهوري المصري (ت 1656م) لتلميذه السوداني الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن أبي مُلاح، الذي قرأ عليه مختصر خليل في الفقه المالكي، ومنظومته في التوحيد، وهي كالتالي:

(بعد حمده تعإلى، والصلاة على نبيه، وبعد: فقد قرأ عليَّ الشاب النحرير الفاضل، الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن أبي ملاح، الكُباني نسبةً، البرِّي بلدةً، عقيدتي التي ألفتها في أصول الدين والتصوف وشرحها، قراءةً جيدة نافعة إن شاء الله تعإلى، وحضر قراءتي في مختصر العلامة خليل في فقه المالكية في نحو نصف الكتاب المذكور، قراءة بحث وتحقيق دلتَّ على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور، وقد استخرت الله تعإلى وأجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لي روايته بشرطه سائلاً منه الاَّ ينساني من الدعاء بسعادة الدارين ونحو ذلك. وبالدعاء والرحمة لأمواتنا وأموات المسلمين، جعله الله من العلماء العاملين، ووفقه لما يحبه ويرضاه من القول والعمل وجعله من عباده المخلصين ونفع بعلومه المسلمين بجاه سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وكتبه علي بن محمود المدعو بزين بن عبد الرحمن الأجهوري المالكي.. انتهى) [1]

ذلك، وكتاب الطبقات المذكور لابن ضيف الله، قد صدر مطبوعاً لأول مرة في عام 1930م في طبعتين غير محققتين، بإشراف كل من القاضي إبراهيم صديق، والسيد سليمان داؤود منديل على التوالي، ثم أصدره من بعد، الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن، في نسخة محققة تحقيقاً علمياً سديداً في عام 1971م عن دار جامعة الخرطوم للنشر، ثمتلت تلك النسخة المحققة، ثلاث طبعات أخرى منذ ذلك التاريخ وحتى الآن

وكان الشيخ إبراهيم عبد الدافع (ت1882م)، قد قام بتشجيع من الشيخ أحمد السلاوي المغربي المالكي (1791 – 1840م)، بنظم أسماء الأعلام الذين ترجم لهم ولد ضيفالله في طبقاته، في شكل نظم شعري، زاد عليه بإضافة أسماء كثيرة لعلماء وفقهاء ومتصوفة سودانيين آخرين، لم يترجم لهم مؤلف الطبقات، أو ظهروا بعده. فألف الشيخ إبراهيم عبد الدافع تلك المنظومة بعنوان: الذيل والتكملة، أي الذيل والتكملة لكتاب الطبقات لابن ضيف الله. وقد ظلت مخطوطة تلك المنظومة التي تعود إلى ثلاثينيات وربما

1 **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م ص 258 - 259

عشرينيات القرن التاسع عشر، قابعة في خزائن دار الوثائق القومية، حتى قيض الله لها المؤرخين المشهورين البروفيسور يوسف فضل حسن والبروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم فحققَّاها وأصدراها في نسخة مطبوعة ومحققة في عام 1981م، كما أعيد طبعها مؤخرا في إطار الاحتفال بمدينة سنار كعاصمة للثقافة الإسلامية في عام 2017م.[1]

هذا، والشيخ السلاوي المذكور، هو فقيه مالكي مغربي الأصل من بلدة (سلا (المعروفة بالمغرب، قدم إلى السودان مرافقاً لقوات إسماعيل كامل بن محمد علي باشا، حين غزوها البلاد آتيةً من مصر في عام 1820م، ولكن طاب له المقام في السودان، وتزوج إحدى كريمات الشيخ) أحمد الطيب البشير (1742 – 1823م، مؤسس الطريقة السمَّانية بالسودان، وتلميذ الشيخ محمد بن عبد الكريم السمَّان الصديقي المدني (1719 – 1775م)، وقد خالط الشيخ السلاوي السودانيين وعاشرهم، وخصوصاً علماء البلاد وفقهائها، كما لعب دوراً معتبراً في الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية فيها، وما يزال أحفاده يمثلون جزءاً لا يتجزَّأ من النسيج الاجتماعي في السودان.

ولعل عنوان هذا الكتاب المشار إليه أعلاه نفسه أي (الذيل والتكملة)، يمثل في حد ذاته انعكاساً وتجسيداً لحقائق التبادل العلمي والمعرفي، والتأثير والتأثُّرُ الثقافي الذي ظل يمور به الفضاء الإسلامي بأسره. ذلك بأن هذا العنوان (الذيل والتكملة) مطابق حذوك القذة بالقذة لعنوان كتاب: (الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة) لمحمد بن عبد الملكالمراكشي (ت 703 هـ) ، على سبيل المثال.[2]

ومن المؤلفات السودانية التي تتجلى فيها مظاهر الرحلة العلمية، والأخذ والعطاء العلميوالثقافي من إجازات علمية وصوفية ونحو ذلك، كتاب: أزاهير الرياض في مناقب العارفبالله الشيخ احمد الطيب البشير 1742 – 1823م، لمؤلفه الشيخ عبدالمحمود نور الدائم (ت 1915م)، وهو حفيد الشيخ الطيب المذكور، وقد بسط فيه الشيخ عبد المحمود سيرة جده الشيخ أحمد الطيب تلميذ الشيخ محمد بن عبدالكريم السمَّان المدني 1719 – 1775م، ومؤسس وناشر الطريقة السمانية في السودان ومصر والحبشة.

1 **الذيل والتكملة**: رجز إبراهيم عبد الدافع، تحقيق بروفيسور يوسف فضل وبرفيسور محمد إبراهيم أبو سليم، مشروع سنار عاصمة للثقافة الإسلامية، كتاب سنار (2)، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، الخرطوم، 2017م

2 محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي،**الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق: إحسان عباس، ومحمد بن شريفة، وبشار عوَّاد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012م.

ففي هذا الجانب من سيرة الشيخ أحمد الطيب البشير يقول المؤلف على سبيل المثال: (ولما تنسَّمتْ عليه نسماتُ العناية الأزلية، بالحج وزيارة خير البرية صلى الله عليه وسلم، استأذن والديه وسافر إلى الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في عام إحدى وسبعين بعد الألف والمائة[1] فلما وصل مكة وأدى حجه المبرور ورزق من كبير الفتح والفيض الإلهي، ما استنارت به أحشاؤه من أنوار المعارف الربانية، وابتهج به من السرور، لازم الصلوات بالمسجد الحرام، وقراءة القرآن والأذكار و القيام، ثم خطر بخاطره الطاهر أن يدور على أهل الطريقة الهزاير المشهورين في مكة بمعرفة الحقيقة والشريعة، ولم يزل دائراً بينهم، سامعاً لأقوالهم، ملاحظاً لأحوالهم، إلى أن ظفر بروض المكارم الوريف الوارف، وحوض المعارف المتدفق باللطائف، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، المنفرد بالكمالات والحظ الوافر، سيدي الشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد السلام الزمزمي المكي الشافعي رضي الله عنه وعنا به على الدوام، وكان من أكبر الأشياخ بمكة وأعرفهم. سمع الحديث من الشيخ محمد بن عقيلة المكي، والسيد عبد الله الميرغني، والشيخ عبد الله بن سالم البصري، والشيخ عطا الله المصري، وابن الطيب، وحضر على الشيخ أحمد الأشبولي الجامع الصغير وغيره، والشيخ عبد الله الشبراوي وغيرهم من المشائخ. وقد أخذ الطريقة النقشبندية عن سيدي العارف بالله الشيخ عبد الرحمن العيدروسوالخلوتية عن سيدي مصطفى كمال البكري، وأذن له في الوِردوالطريقة، وكان له معرفة بعلم الفلك والأوفاق والاستخراجات والرسم. فلما رأى الشيخالمترجم رضي الله عنه ما حواه هذا الشيخ من الكمالات المذكورة وغيرها، أخذ عنهالطريقة النقشبندية وطرفاً من العلم، إلاَّ أنه لم يلبث في صحبته إلاَّ أياماً قلائل وذلك منأمر حصل له إلاَّ من طريق كشف البصيرة، على أنه لا شيخ له إلاَّ قطب المدينة المنورة ذوالأحوال والأخلاق المعطَّرة، سيدي الشيخ محمد بن عبد الكريم السمَّان قُدِّس سرُّه.)[2] وكذلك يعُلمنا الشيخ عبد المحمود نور الدائم أن جَدَّه الشيخ أحمد الطيب قد سلك الطريقة القادرية ولبس خرقتها من الشيخ من الشيخ

---

1 توافق عام 1758م

2 **أزاهير الرياض** للشيخ عبد المحمود نور الدائم، طُبع على نفقة أحمد المصطفى أحمد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، بدون تاريخ نشر، الصفحتان 36 و37

محمد عبد الكريم السمَّان بالمدينة المنورة في عام ثلاثة وسبعين بعد المائة وألف.[1]

وكان الشيخ السمان قد أخذها عن الشيخ محمد طاهر الكُردي المدني، عن الشيخ من الصادق، عن الشيخ محمد عقيلة الحنفي المكي، عن الشيخ قاسم بن محمد البغدادي، عن السيد محمد بن علي الأحمدي والسيد عبد الله بن علي أبا حسين السقاَّف، وأجاز له السيد علي بن عبد القدوس الساكن ببندر سوت من أرض الهند وأخذ الطريقة ولبس الخرقة الشيخ قاسم المذكور عن الشيخ عايذ الفتاح، وهو قد تلقن الطريقة ولبس الخرقة عن الشيخ قريب الله السائح عن الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس هذه الطريقة.[2]

وأما سند الشيخ أحمد الطيب في الطريقة الخلوتية، فإنه قد أخذها عن الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، عن مصطفى كمال الدين البكري، عن عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي، عن مصطفى أفندي الأدرنوي، عن علي قرة باشا أفندي الذي اشتهرت به الطريقة، عن إسماعيل الجرومي، عن عمر الفؤادي، عن محي الدين القسطموني، عن الشيخ شعبان، عن خير الدين التوفادي، عن جلبي سلطان الأفسدائي الشهير بجمال الخلوتي إلى آخر سلسلة السند الذي يمر عبر الجُنيد بن محمد البغدادي، عن السري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داؤود الطائي عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن الإمام عليبن أبي طالب، عن النبي صلى الله عليه وسلم.[3]

لقد سبقت منا الإشارة من قبل، إلى أن الطريقة السمانية ورموزها في السودان، قد خلفوالنا أثاراً علمية وأدبية غزيرة ومتميزة كماً وكيفا، فعلاوة على ما جاء في كتاب أزاهيرالرياض فيما نحن بصدده من علاقة الأعلام السودانيين عموماً بكتب التراجم ودنيا الأسانيد والإجازات، نجد أن الأستاذ الدكتور حسن محمد الفاتح قريب الله رحمه الله (1940 – 2006م)، شيخ الطريقة السمانية الطيبيةالقريبية، ومدير جامعة أم درمان الإسلامية سابقا، قد أفرد مصنفاً لأسانيد رموز هذه الطريقة، هو كتابه: السلاسل الذهبية فيأسانيد الطريقة السمانية، كما خصَّ جدَّه الشيخ قريب الله بن أبي صالح بن الشيخ

1 توافق عام 1760م.

2 **أزاهير الرياض** للشيخ عبد المحمود نور الدائم، طُبع على نفقة أحمد المصطفى أحمد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص 88 - 89.

3 **أزاهير الرياض** للشيخ عبد المحمود نور الدائم، المصدر السابق ذكره اعلاه، ص 106- 107.

الطيب بمؤلف لوحده بعنوان: الشيخ قريب الله ودوره في الفكر والدعوة إلى الله.[1]

ففي كتاب السلاسل الذهبية – على سبيل المثال – يخبرنا المؤلف أن الشيخ قريب الله أبا صالح قد سلك الطريقة الشاذلية على الشيخ محمد عليش مفتي المالكية بمصر (1802 – 1882م)، وأن الشيخ عليشاً قد أخذ هذه الطريقة عن الشيخ الأمير الصغير، عن الأمير الكبير، عن أحمد الجوهري الخالد، عن الشيخ عبدالله بن محمد القصري الكنكي المغربي، عن عبدالله بن إبراهيم الشريف العلمي عن علي بن أحمد الأنجيري، عن ابن مهدي عيسى المصباحي، عن أبي عبدالله محمد الطالب، عن أبي محمد عبدالله القزواني، عن عبدالعزيز الدباغ، عن أبي عبدالله محمد الجزولي صاحب دلائل الخيرات، عن محمد أمغار، عن أبي سعيد الهتاني، عن عبدالرحمن الرجراجي، عن أبي الفضل الهندي، عن الشيخ عينوس البدوي راعي الإبل، عن شيخ الإسلام القرافي، عن عبد الله المغربي السائح، عن أبي الحسن علي بن عبدالله الشاذلي الإدريسي الحسني (595 – 656 هـ) إلى آخر السند الموصل إلى رسوال الله صلى الله عليه وسلم.[2]

ومن المصنفات السودانية التي جمعت بين بعدي التراجم والاهتمام بالإجازات والأسانيد في آن واحد معاً كتاب: إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري من تأليف محمد عبد المجيد السرَّاج، وهو نموذج لذلك النوع من كتب التراجم الذي يدور حول كيان عشائريأو قبلي أو جهوي، أو خاص بأعلام مدينة محددة بعينها. ذلك بانه يضم تراجم طائفة منالعلماء والفقهاء الذين ينحدرون من صلب رجل واحد هو الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري المدني، الذي هاجر من الحجاز إلى السودان عبر مصر في أوائل القرن العاشر الهجري، الموافق للسادس عشر الميلادي، فطاب له المقام في السودان، فتزوج فيه، وخلف ذرية طيبة، اشتغل معظم أفرادها بطلب العلم ودراسته وتدريسه، حيث صاروا من أشهر الأسر العلمية في السودان الشرقي.

ويُعرِّف مؤلف هذا الكتاب الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري بأنه (هو الفقيه الأصولي المتكلم النحوي، أحد أئمة الدين والعلماء العاملين. وُلد بالمدينة المنورة في أوائل القرن

---

1 حسن الفاتح قريب الله،**الشيخ قريب الله ودوره في الفكر والدعوة إلى الله**، أم درمان ، 2000م

2 حسن الفاتح قريب الله،**السلاسل الذهبية في أسانيد أعيان الطريقة السمانية**، مركز محمد بشير للدراسات السودانية، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، 2005م، ص161- 162.

العاشر الهجري، وبها حفظ القرآن، وسافر إلى مصر في طلب العلم، تفقه على شيوخ الإسلام زكريا الأنصاري المتوفى 926 للهجرة، ومحمد البنوفري المتوفى سنة 998 هـ وبرهان الدين بن أبي شريف وغيرهم، وسمع منهم الحديث والتفسير، وكان بارعاً في المذهبين الشافعي ومالك، ونابغة في العلوم المعقولة والمنقولة. ثم سافر إلى السودان، واجتمع بملك قبيلة الجمُّوعية (سليمان النار) وتزوج ابنته عائشة. ثم رحل إلى بلدة كُترانج، وأقام بها وأسس بها مسجداً لدراسة القرآن والعلم، وأخذ يدرِّس به وينشر العلم ويحُي السُنة إلى أن توُفي إلى رحمة الله تعإلى في أواخر القرن العاشر تقريبا، ودُفن بكُترانج. ومسجده معمور بالقرآن إلى وقتنا هذا (أي وقت تأليف الكتاب) ونحن في سنة 1375 للهجرة الموافق 1955 للميلاد، وقد أعقب إبناً واحداً وهو عبدالدائم. ([1] ومن أحفاد الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري المبرزين، وكبار علماء السودان وفقهائه في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للثامن عشر الميلادي، الشيخ أحمد بن عيسى بن مضوي بن مدني، وهو أشهر تلاميذ العلامة مرتضى الزبيدي من السودانيين. يقول عنه السراج في كتابه آنف الذكر:

(وُلد بكُترانج سنة 1134هـ وأمُّه رابحة بنت أحمد بن أبي القاسم الولي الشهير. حفظ القرآن بالتجويد ببلده على ابن عمه الفقيه أحمد بن مدني، ثم سافر إلى مصر ومكث بها نحو العشرين سنة، كان يتلقى العلوم في خلالها بالأزهر الشريف.

وتفقَّهعلى شيوخ الإسلام القطب أحمد الدرديري، ومحمد الأمير، وحسن الكفراوي، وعبدالرحمن العريشي، وعبد الله اللبان، ومحمد الحفناوي، وحسن الجداوي، وأحمد جاد الله، والشريف المرتضى الزبيدي وغيرهم. وسمع منهم الحديث والتفسير، وحصل منهم على إجازات، وقد كانت محفوظة عند حفيده القاضي أحمد بن إبراهيم إلى سنة 1286 للهجرة، في عهد الحكم المصري السابق، ثم فقُدت في أيام المهدية، كذا أخبرني الأستاذ محمد شمس الدين الحنفي عالم بلدة المسعودية، وقال إن والده أخبره بذلك.)[1]

وكما كانت لآل الشيخ أحمد الطيب البشير وغيرهم من أعلام الطريقة السمانية في السودان، ولآل الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري مؤلفات اشتملت على تراجمهم وأخبارهم، فإن لأعيان الطريقة التجانية في السودان بضعة مؤلفات في هذا الباب،

1 محمد عبد المجيد السَّراج، **إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري**، إصدرارت مشروع سنار عاصمة للثقافة الإسلامية، كتاب سنار (101)، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، 2017م، ص 16 – 17.

لعل من أشهرها كتاب الأستاذ الفاتح النور بعنوان: التجانية والمستقبل، الذي أثبت فيه تراجم عدد كبير من أعيان ورموز هذه الطريقة في السودان .

ولعل من أهم ما أشار إليه مؤلف هذا الكتاب، مما له علاقة بما نحن بصدده من علاقة العلماء السودانيين بالتأليف في مجال المعاجم والأثباب والفهارس، أن الشيخ الطيب مونة بن سعيد التجاني (1901 – 1995م)، وهو من كبار مشائخ التجانية وعلمائها في السودان، (له كتاب مخطوط بعنوان: ثبت العلوم المبارك سر الأسرار ونور الأنوار الجامع لأسانيد السادة الأخيار، الذي يحتوي على أكثر من ثلاثين ثبتاً، تلقى منهم علوم الشريعة والحقيقة، وكلهم من السادة التجانية، ومن أقربهم إليه، قاضي القضاة بمدينة (سطات) بالمغرب الأقصى، الإمام الحاج أحمد بن سكيرج العياشي التجاني، والإمام الحافظ التجاني المصري، وله به صلة وثيقة وعميقة، والشيخ الكبير مدثر الحجَّاز، والإمام محمد ألفا هاشم بن سعيد الفوتي، وغيرهم من أئمة التجانية وعلماء المسلمين) .[1] على أن ذلك الكتاب أوالثبت المخطوط، قد طُبع بحمد الله بإشراف الأستاذ عبد الله الطيبمونة، وهو نجل المؤلف، الذي قام بتحقيقه ونشره أيضا، وهو ما سوف نعرض إليهاهنا بعد حين بإذن الله.

إن ثبت الشيخ الطيب مونة المذكور، ليدل دلالة واضحة على أن لعلماء السودان إسهاما مقدَّراً، ويداً طولى في مضمار التأليف في مجال المعاجم والأثبات والفهارس والمشيخات. فقد ربطه هذا الثبت بأئمة المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، والحجاز، والشام، والعراق، واليمن، وبلاد الهند الإسلامية. فهو يروي التفسير والصحاح الستة وجميع المسانيد ومتون الأحاديث مع شراحها، والسير والتاريخ، وفقه المذاهب واللغة، والبلاغة والنحو، وعموم أنواع العلوم عن هؤلاء العلماء بالسند المتصل إلى مؤلفيها، وإلى أن تنتهي متون الحديث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.[2]

وقد حوى ثبت الشيخ الطيب مونة، الكثير من أثبات نفر من الأئمة الأعلام في العالم الإسلامي، والتي أجُيز فيها. كثبت الشيخ محمد ألفا هاشم بن أحمد بن سعيد

1 الفاتح النور،**التجانية والمستقبل**، دار كردفان للطباعة والنشر، 1997م، ص 294.

2 الطيب بن مونة بن سعيد، **ثبت العلوم المسمى سر الأسرار ونور الأنوار الجامع لأسانيد السادة الأخيار**، تحقيق عبد الله الطيب مونة، المقدمة، مطبعة حصاد للطباعة والنشر، الخرطوم، 2007م. ص 4.

الفوتي، وثبت الشيخ مرزوق الحسن الأنصاري، وثبت الشيخ محمد الحافظ بن عبد اللطيف سالم التجاني المصري الذي كانت له به صلة تامة ومراسلات عديدة وكذلك ثبت الشيخ مدثر بن إبراهيم الحجَّاز، وثبت الشيخ محمد سعد عبد الله الرباطابي، وثبت الشيخ الحاج أحمد بن الحاج سكيرج العياشي المغربي وله به صلة تامة ومراسلات عديدة، ومن أولئك العلماء أيضا الذين كان على صلة بهم السيد عبد الله بن الصديق الغماري الذي أجازه في أثباته وأثبات الشيخ محمد عبد الباقي الأنصاري اللكنوي ثم المدني، كما أجازه السيد محمد عال بن فتى، والسيد أحمد العناية الماضوي، وكذلك السيد محمد الصغير، والشيخ بشير بن أحمد الفلانَّي.[1]

وفيما يلي نموذج لإحدى الإجازات التي حصل عليها الشيخ الطيب مونة، وأثبتها في ثبته المذكور:

إجازة الشيخ مدثر بن إبراهيم الحجَّاز:

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله سبحانه وتعإلى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد ونبيه ورسوله وصحبه وتابعيه، يقول عبد الله تعإلى وابن عبديه مدثر بن إبراهيم الحجاز، إنَّ العلامة المبارك التقي الإبن الشيخ الطيب مونة سعيد، المدرس بمعهد أم درمان العلمي، قد حسَّن الظن فيَّ وطلب مني أن أجُيزه بما أجازني فيه مولاي أحمد الشمسي، وأستاذي الشريف محمد بن جعفر الكتاَّني، مولاي السيد محمد عبد الحي الكتاَّني. ومع معرفتي بالقصور، أقول إني أسعفته بما طلب وأجزته بما أجازني هؤلاء السادة بما تحرَّر لي منهم من الإجازات، وأرجو له النفع بذلك، واتباع سيرة السلف، وأن يكون من أحسن الخلف، ويدل على الله سبحانه وتعإلى حالاً ومقالاً. وأوصيه بما أوُصِي به نفسي في تقوى الله العظيم، وإكثار الصلاة والتسليم على حبيبه العظيم خاتم الأنبياء وصفوة الأصفياء سيدنا محمد وآله وصحبه والسلام .

تحريراً في 24 ربيع الأول سنة 1355 هـ) [2]

1 الطيب بن مونة بن سعيد،**ثبت العلوم**،المرجع اعلاه، ص 16.

2 ،الطيب بن مونة بن سعيد، **ثبت العلوم المسمى سر الأسرار ونور الأنوار الجامع لأسانيد السادة الأخيار**، تحقيق عبد الله الطيب مونة، المقدمة، مطبعة حصاد للطباعة والنشر، الخرطوم، 2007م، ص 29.

ويطلعنا الشيخ الطيب مونة رحمه الله، على سلسلة إسناده في رواية موطأ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، فيقول:

(يرويه الشيخ الطيب مونة عن طريق سيدي أحمد سكيرج وعن طريق السيد محمد الحافظ التجاني بن عبداللطيف الحسيني الحسني المصري، عن الرحالة العلامة محدث المغرب السيد محمد عبد الحي بن سيدي عبدالكبير الكتاني، عن المعمَّر أحمد بن المُلا صالح السويدي البغدادي الشافعي، عن السيد مرتضى الزبيدي الحسيني، عن المعمَّر محمد بن سنة الفلاني المالكي، عن الشريف الولاتي، عن محمد بن أركماش، عن الحافظ ابن حجر العسقلاني، عن المعمَّر حسين بن أملية المراغي، عن عز الدين أحمد بن إبراهيم بن عمر الفاروقي، عن ابن إسحاق إبراهيم بن يحي الحافظ المكناسي، عن أبي عبد الله محمد بن محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن ذرقون، عن أبي عبد الله أحمد بن محمد غلبونالخولاني، عن أبي عمر عثمان بن أحمد القباطي، عن أبي عيسى يحي بن عبد الله، عن عم أبيه عبد الله بن يحي بن يحي عن أبيه يحي بن يحي، عن إمام دار الهجرة مالكبن أنس – بدأ موطأه بحديثه عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخَّر الصلاة يوماً، فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شُعبة أخَّر الصلاة يوماً وهو بالكوفة، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: (ما هذا يا مُغيرةُ، أليس قد علمت ان جبريل نزل فصلىَّ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلى فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلىَّ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ثم قال بهذا أمُرت ورواه البخاري ومسلم وأبو داؤود والنسائي وابن ماجة – وختم الموطأ بحديثه عن ابن شهاب عن محمد بن جُبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لي خمسة أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وانا الحاشر الذي يحُشرُ الناس على قدميَّ، وأنا العاقب) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.[1]

هذا، ومن المؤلفات السودانية التي صدرت حديثاً، والتي تنم نوعاً ما عن هذا النوع من الكتابة التراثية، التي تنحو إلى الجمع بين السيرة الذاتية او الغيرية من جانب، وبين إلقاء أضواء كاشفة حول الحياة العقلية والثقافية في المجتمع، وذلك من خلال التعرض للرحلات

1 الطيب بن مونة بن سعيد،**ثبت العلوم المسمى سر الأسرار ونور الأنوار الجامع لأسانيد السادة الأخيار**، تحقيق عبد الله الطيب مونة، المقدمة، مطبعة حصاد للطباعة والنشر، الخرطوم، ص 42 – 44.

العلمية والأخذ عن الشيوخ والعلماء، وتدوين الأسانيد والإجازات، كتاب أصدرته أسرة الشيخ محمد أحمد سوار التجاني (1896 – 1959م)، مؤسس ومدير المعهد العلمي بمدينة الفاشر عاصمة دارفور بغرب السودان، وخريج معهد أم درمان العلمي ضمن دفعة عام 1943م. وهذا الكتاب عنوانه: العالم العلامة محمد أحمد سوار: جهوده في نشر العلم والمعرفة في ولايات دارفور الكبرى والولايات الأخرى والدول المجاورة. وقد اشتمل هذا السفر على معلومات تاريخية وتوثيقية قيمة في بابه، كما ضم العديد من صور الوثائق والشهادات والإجازات العلمية والصوفية التي حصل عليها هذا الشيخ المترجم له .

فعلى سبيل المثال، نجد في هذا الكتاب، نسخة مصورة لإجازة منحها الشيخ العالم المُحدِّث مجذوب مدثر الحجاز(1898 – 1985م) شيخ مشايخ الطريقة التجانية في السودان، ونائب مدير جامعة أم درمان الإسلامية سابقا، للشيخ محمد أحمد سوار في رواية (دلائل الخيرات (قراءةً وإقراءً، وهي كما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأله وبعدُ، فأقول وانا العبد الفقير محمد مجذوب بن مدثر بن إبراهيم، قد أجزتُ الأخ الفاضل والمهذب الكامل الموفق السالك أحسن سنن، الشيخ محمد أحمد سوار في دلايل الخيرات قراءةً وإقراءً كما أجازني بذلك شيخي العلامَّة الشيخ أحمد المجذوب من العلامة الشيخ أحمد الحاج علي المجذوب، عن العلامة الشيخ عبد الغني، عن العلامة إسماعيل أفندي ابن إدريس أفندي الرومي المدني، عن العلامة محمد أفندي اخسنحوي، عن العلامة الشيخ مرتضى الزبيدي، عن العلامة محي الدين نور الحق بن عبد الله الحسين، عن السيد سعد الله بن محمد الهندي، عن المُعمَّر الشيخ عبدالشكور الحسني، عن المؤلف سيدي محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عن الكل ووفقنا إلى الإكثار من الصلاة والتسليم على هذا النبي العظيم بفضله آمين. هذا، ولو لم يكن في فضل الصلاة والسلام على رسول الله إلا قول الله تبارك وتعإلى: إن الله وملائكته .الآية، لكفى ذلك مثير الهمم، لا سيما وقد ورد: من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً ولا شيء أحسن للعبد من أن يكون مُصلِ ياً عليه خالقه، ومن ذلك الظفر بكل أمنية . وفق الله إلى مني جميع الأعمال، ورزقنا إخلاص النية، واوصيه بتقوى الله في كل حال، والسلام. يوم 30 ربيع الأول 1356 هـ) [1]

1 **العالم العلامة محمد أحمد سوار**، بأقلام وروايات تلاميذه ومريديه، جمع وإعداد: صفية محمد احمد سوار وأحمد حامد محمد شوقار، مطبعة جي تاون، الخرطوم، 2013م، الملحق (5).

المبحث الرابع

اتصال السند العلمي في السودان عبر المشايخ والعلماء المصريين في العصر الحديث

نعني بالعصر الحديث في هذا السياق، الفترة الممتدة ما بين عام 1821م، وهو العام الذي شهد نهاية مملكة سنار، أوسلطنة الفونج في بلاد سودان وادي النيلى بواسطة قوات إسماعيل باشا نجل محمد علي باشا والي مصر الشهير، وعام 1956م، الذي شهد أولَّ يوم فيه ظهور الجمهورية السودانية المستقلة. وهي ذات الفترة التي التي اعتبرها الدكتور محمد سعيد القدال حقبة لتاريخ السودان الحديث، حيث انه أطلق على أحد أشهر مؤلفاته عنواناً هو: (تاريخ السودان الحديث: 1821 – 1955م) .

وهذه الفترة تضم في الواقع، حقبتين مهمتين في تاريخ السودان الحديث، هما فترة الحكمالتركي المصري 1821 – 1885م، وهي فترة حكم أسرة محمد علي باشا للسودان، وضمه لامبراطوريته التي شملت إلى جانبه كلا من مصر نفسها، وأطرافاً من الشام والجزيرة العربية، وبعض أجزاء من بلاد الحبشة، وأعالي النيل الأبيض الاستوائية. وأما الحقبة الأخرى، فهي ما تسمى بفترة الحكم الثنائي الإنجليزي المصري للسودان، الذي امتد بين عام 1898 وحتى عام 1955م. وهنالك حقبة توسطت هاتين الحقبتين، هي فترة حكم الدولة المهدية الوطنية المستقلة (1885 – 1898)التي أسسها الإمام محمد أحمد المهدي، وقادها بعده خليفته عبد الله بن محمد التعايشي (1846 – 1899م) . وفي كلا الفترتين، كان لمصر وللثقافة المصرية وجود معتبر في السودان، بل بصورة توشك أن تكون مؤسسية ومستدامة. ذلك بأن عدداً كبيراً من المشائخ والعلماء ومقرئي القرآن الكريم والقضاة، قد جاءوا أو جيء بهم إلى السودان، فتقلدوا فيه وظائف رسمية في سلك الحكومة. والافتراض في هذا المجال، قائم بل راجح بأن يكون اولئك المشائخ والعلماء المصريون، قد نشأت بينهم وبين رصفائهم من العلماء والمشائخالسودانيين، وكذلك بينهم وبين تلاميذهم وطلابهم السودانيين، علاقات وصلات علمية، وليس بمستبعد البتة إذ ذاك، أن يكون من ضمنها – بطبيعة الحال – شيء من الإجازات الشفهية منها والمكتوبة، هذا فضلاً عن اندراج أولئك العلماء

والمشائخ والقضاة الزائرين أوالقادمين للعمل في السودان ضمناً، في سلاسل أسانيد من اتصلوا بهم، أو أخذوا عنهم من سائر السودانيين خلال تلك الحقبة .

ولعلنا نذكر بهذه المناسبة، أن إسماعيل باشا، قد اصطحب معه عام دخوله السودان بقواته في سنة 1820م، ثلاثة من العلماء، بغرض تأليف أهالي البلاد واستمالتهم، وإقناعهم بشرعية خطوته تلك. واولئك المشائخ هم: أحمد السلاوي المالكي المغربي، ومحمد الأسيوطي الحنفي، وأحمد البقلي الشافعي. وقد نبه ذكر الشيخ السلاوي المالكي من دون صاحبيه، غالباً بسبب وحدة المذهب الفقهي المالكي الذي كان يعتنقه، مع المذهب السائد في شتى أنحاء السودان، ثم بفضل عامل اجتماعي آخر، هو أن الشيخ السلاوي كان قد أصهر إلى أسرة سودانية دينية مرموقة، هي أسرة الشيخ أحمد الطيب البشير 1742 - 1823م، فتزوج إحدى كريماتها، وأنجب منها ذرية، صار نسلها فيما بعد، جزءً منالنسيج الاجتماعي في السودان.

ومهما يكن من أمر، فإن أولئك المشائخ الثلاثة، لا بد أنهم قد خلفوا أثراً علميا وفقهياوتربويا في سودان وادي النيل منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، ثم استمر توافد المشائخوالعلماء والفقهاء وقراء القرآن والقضاة المصريون على السودان، طوال سني فترة الحكم التركي المصري، وقد كان من أشهرهم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1801 – 1873م)، الذي أرسله الخديوي إلى السودان، لكي يكون ناظراً لمدرسة الخرطوم الابتدائية في خمسينيات القرن التاسع عشر. كما شهدت ذات الفترة وفود طائفة من أجلة العلماء المصريين إلى السودان، كالشيخ حسين المجدي – على سبيل المثال – الذي درس عليه نفر من كبار علماء السودان قبل اندلاع الثورة المهدية في عام 1885م .

أما فترة الحكم الثنائي الإنجليزي – المصري،1898 – 1955م، فهي الفترة التي شهدت حقاً، كثافة ملحوظة، وانتظاماً في قدوم العلماء والمشائخ المصريين للسودان، كأساتذة وقضاة، بل كان منصب قاضي القضاة حكراً عليهم وخصوصاً كمدرسين للغة العربية والعلوم الإسلامية، سواء بكلية غوردون التذكارية أو بالمدارس الثانوية، اوبالجامعات والمعاهد العليا، خصوصاً بعد استقلال السودان.

ومما يذكر في هذا الصدد، أن الإمام محمد عبده (1849 – 1905م)، قد زار السودان قبل وفاته بمدة قليلة في مطلع القرن العشرين، كما أنَّ مشائخوعلماء كبار مثل

الشيخ محمد شاكر، والد العالمين والأديبين أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، قد شغل منصب قاضي القضاة بالسودان، كما شغله أيضاً الشيخ محمد هارون والد العالم المحقق عبدالسلام هارون، وكذلك الشيخ النعمان الجارم من أسرة الجارم العلمية والأدبية الشهيرة في مصر .كذلك وفد إلى السودان في مطلع القرن العشرين، الشيخ محمد ماضي أبو العزائم، الذي انخرط إلى جانب عمله الرسمي أستاذاً للفقه والشريعة بكلية غوردون التذكارية، في نشر طريقته العزمية الشاذلية في السودان، انطلاقا من العاصمة الخرطوم .وإلى جانب ذلك، فقد زار السودان وأقام فيه وتفاعل مع وسطه الاجتماعي والعلمي والثقافي، عدد كبير من العلماء والمشائخ المصريين من غير من ذكرناهم هاهنا على سبيلالمثال فقط .

والشاهد هو أنَّ عدداً كبيراً من العلماء والطلاب السودانيين، قد اتصل سندهم بسائرسلاسل وشبكات الإسناد المنداحة عبر العالم الإسلامي شرقاً وغربا، بفضل اتصالهموأخذهم عن اولئك المشائخ والعلماء المصريين، وذلك نسبة لمكانة مصر العلمية وموقعها الجغرافي، كموئل للعلم والعلماء، و حاضنة للأزهر الشريف، ومقصد مرموق لحملة العلم ولطلابه كذلك من شتى بقاع العالم الإسلامي .

المبحث الخامس
دور معهد أم درمان العلمي

معهد أم درمان العلمي، هو مؤسسة تعليمية تربوية، تأسست سنة 1912م، واستمرت تتطور رويداً رويدا، حتى صارت جامعة أم درمان الإسلامية في عام 1965م .

تأسس المعهد العلمي بأم درمان على أيدي ثلة من العلماء السودانيين الذين وُلد بعضهم في اوائل عهد الحكم التركي المصري (1821 – 1885م)، وبعضهم في منتصفه وبعضهم في أواخره. وهو نتاج لتراكم حراك علمي وثقافي، ظل يتفاعل داخل السودان، وخصوصاً في كنف مجتمع العاصمة السودانية المثلثة، وخصوصاً مدينة أم درمان، مواصلةً للإرث العلمي والتعليمي الذي ظل قائماً في البلاد، منذ أن عرفت العلم الإسلامي، وترسخ بفضل الرحلات العلمية، وقدوم العلماء إلى البلاد منذ عهد الدولة السنارية، وحتى فترة الحكم التركي المصري. وقد أصيب ذلك الحراك بانتكاسة عرضية وجمود مؤقت، خلال فترة حكم الدولة المهدية، نسبة لأن فقه المرحلة آنئذٍ، كان يركز على الجهاد من أجل تثبيت أركان الدولة المستقلة المحاطة بالأعداء والتحديات الداخلية والخارجية، دون الاهتمام بالعلم والتعليم ونشرهما .

على أن واحداً من الرموز العلمية الكبيرة التي تبلورت حولها حركة العلماء الذين أسسوا المعهد العلمي، كان هو نفسه عالماً مرجعياً كبيراً خلال فترة المهدية وحكم الخليفة عبد الله التعايشي (1885 – 1899م)، ألا وهو الشيخ محمد البدوي نقُدُ (1841– 1911م)، الذي كان كبير علماء السودان ومقدمهم منذ أيام المهدية، وقد ظل محتفظا بتلك المكانة خلال أوائل سني فترة الحكم الثنائي، حتى تاريخ وفاته التي حدثت بأم درمان في عام1911م .

وُلد الشيخ محمد البدوي بمدينة الأبيض عاصمة إقليم كردفان، وحفظ القرآن وسلك فيصباه الطريقة التجانية على يد الشيخ محمد الزاكي الذي اخذها بدوره عن الشيخ محمد ولددوليب(1800 – 1880م) الذي يعتبر أول من نشر هذه الطريقة في السودان الشرقي، وكان قد سلكها على يد الشيخ مولود فال الدغيبي الشنقيطي (ت 1851م)، عن الشيخ محمد الحافظ العلوي (ت 1823 م)، عن مؤسسها الشيخ أحمد

التجاني (ت 1815م). وقد هاجر الشيخ محمد البدوي إلى مصر في ستينيات القرن التاسع عشر، ودرس بالأزهر الشريف على يد الشيخ محمد عليش المالكي (1802 – 1882م)، الذي كان يحب تلميذه ولد البدوي جدا، ويقدره حق قدره، وهو الذي أطلق عليه لقب (شيخ الإسلام) في السودان.[1]

ومن بين اولئك العلماء و الطلاب النابهين الذين كانوا يتحلقون حول شيخ الإسلام (محمد البدوي (، الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم (1861 – 1934م)، الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس المعهد العلمي بام درمان في عام 1912م انطلاقاً من مسجد أم درمان العتيق، كمؤسسة جعلت الاحتذاء بالأزهر الشريف، نصُب أعينها في كل شيء تقريبا.

وكان العلماء بالعاصمة المثلثة قبل تأسيس المعهد العلمي، يعقدون حلقات للدرس بمنازلهم، يؤمها سائر الطلاب، لكي ينتفعوا بما كان يلُقى فيها من مختلف دروس التراث العربي والإسلامي بشتى ضروبه المختلفة. فمن العلماء الذين كانوا يعقدون حلقات في منازلهم:

1- الشيخ النذير خالد (1836 – 1929م): كانت حلقة دروسه في منزله بقرية الكلاكلة جنوب الخرطوم، والتي صارت فيما بعد، حيَّاً معروفاً من أحياء العاصمة السودانية.

2- الشيخ أحمد محمد نور السرورابيالجموعي: كانت حلقة درسه قرب جامع عزمي بحي أبو روف بأم درمان .

3- الشيخ الباقر السيد إسماعيل (ت1918م): كانت حلقته بمنزله بحي السيد المكيبأم درمان .

4- الشيخ محمد الجزولي (1833 – 1936م): كانت حلقة درسه بخلوته بالموردة.

5- الشيخ عيسى دوليب(ت في أبريل 1918م): في منزله بحي الركابية بأم درمان.

---

1 أبو قرون عبد الله أبو قرون، (الشيخ محمد البدوي أول شيخ إسلام (، مقال نشر بجريدة الصحافة السودانية، بتاريخ 24 / 5 / 2013م

6- الشيخ حاج احمد المجذوب (ت 1930م): كان يدرس بمنزله بحي ود البناً بأم درمان .

7- الشيخ الجيلي التلب (ت في نوفمبر 1918م): كان يدرس في منزله بحلة حمد بالخرطوم بحري .

8- الشيخ محمد ود الجِريف: كان يدرس في منزله بقرية الجريف (أي حي الجريف غرب الآن) بالخرطوم.[1]

وبعض هؤلاء الشيوخ وخصوصاً الأكبر سناً من بينهم، قد كانوا في الواقع تلاميذ للشيخ المصري (حسين المجدي (، قاضي القضاة بالسودان، في العهد التركي المصري.

1 المعتصم أحمد الحاج،**أزهر السودان: المعهد العلمي بأم درمان تاريخه وتطوره**(1912 – 1965م)، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، 2007م، ص 63 - 64.

المبحث السادس

السودان والسودانيون وكتب التراجم والطبقات

لئن كنا قد رصدنا كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، لمؤلفه الشيخ محمد النور بن ضيف الله (1727 – 1809م)، بوصفه مظهراً من المظاهر الباكرة نسبيا التي وصلت إلينا، التي تدل على عناية السودانيين بمثل هذا النوع من التأليف، ثم عطفنا عليه بذكر كتاب منظومة الذيل والتكملة للشيخ إبراهيم عبد الدافع (ت 1882م) الذي نظم أسماء الأعلام المُترَجم لهم في طبقات ود ضيف الله، وزاد عليهم أسماء أخرى لشيوخ ندَّت أسماؤهم عن ود ضيف الله، او أتوا من بعده، فإنَّ بوسعنا أن نقرر إجمالاً، أنَّ نصيب السودان من هذا الضرب من التأليف، وخصوصاً مما وصل إلينا من الماضي، لم يكن بالكثير حقا، ناهيك بكتب الأثبات والمعاجم والفهارس والمشيخات وما إليها، إذا ما قارناه بما هو الحال عليه في سائر أصقاع العالم الإسلامي الأخرى، ولقد حاولنا التبرير لهذا الواقع ما وسعنا ذلك.

غير أنَّ كتب التراجم والطبقات المعاصرة، بما في ذلك تلك المؤلَّفة بأقلام غير سودانية، لا تخلو بصورة مطلقة عن ذكر بعض الأعلام السودانيين. فخير الدين الزِّركْلِي (1893 – 1976م)، على سبيل المثال، قد أثبت فعلاً تراجم لبعض الشخصيات السودانية في كتابه: الأعلام، ولكننا نأخذ عليه مثلاً، أنه لم يذكر جنسية الشيخ إبراهيم الرشيد الدويحي(1813 – 1874م)، ولا القطر الذي كان ينتمي إليه، وذلك عندما ترجم لهذا العَلَم السوداني النابه تحت المدخل: (الرشيد)، وهو قوله: (إبراهيم بن صالح بن عبد الرحمن الرشيد: متأدب متصوف من مريدي الشيخ أحمد بن إدريس الحسني صاحب الطريقة الأحمدية. جمع من كلامه ومروياته مجموعة سمَّاها) عقد الدُّر النفيس في بعض كرامات أحمد بن إدريس – ط). ومنه مخطوطة في الظاهرية. ولإسماعيل النوَّاب المكي الرشيدي، رسالة مختصرة في (مناقب الرشيد – خ) في الظاهرية (الرقم 6440). أ. هـ[1]

1 خير الدين الزركلي،**الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، مايو 2002م، ص 43 – 44.

ولكن محمد خير رمضان يوسف [1]، قد استدرك على الزركلي، فأثبت تراجم لعدد كبير من الأعلام السودانيين في شتى المجالات والتخصصات في كتابه: تتمة الأعلام للزركلي. وقد عمد معد هذا البحث إلى تأليف مقال عن ذلك الاستدراك، ونشره بصحيفة (الصحافي الدولي) السودانية في عام 2000م.[2]

ومن المفارقات المدهشة في هذا الباب، أن المصادر المغربية دون السودانية، قد انفردت بالترجمة لشخصية سودانية من أعلام القرن السابع عشر الميلادي في العلم والتصوف، في حين أنَّ المصادرالسودانية نفسها، بما في ذلك طبقات ود ضيف الله، قد غفلت عنها تماما: وتلك الشخصية السودانية الصوفية المجهولة بالسودان، والمعروفة والمشهورة بالمغرب، هو الشيخ أبوالعباس السيد أحمد بن محمد النوبي الخليل أبي عبد الله بن السيد الولي العارف بالله أبي قلحة إدريس الشريف الحسني القادري اليمني المالكي. وُلد في حلفاية الملوك (شمال الخرطوم بحري) عام 1040 هـ / 1630م، وترعرع في عشيرة اشتهرت بالعلم والدين، إذ كان أبوه وخاله من أولياء الله الصالحين

درس أحمد بن محمد اليمني في حلفاية الملوك، قبل أن ينتقل إلى أربجي الواقعة علىشاطئ النيل الأزرق الغربي. وفي أربجي العاصمة الجنوبية لمشيخة العبدلابّ،والمركز العلمي المشهور، نهل المعارف على يد عدد من المشائخ على رأسهم الشيخ دفع الله بن محمد العركي المشهور بالمصوبَن، وسلك الطريقة القادرية عليه.[3]

هذا، وقد تُرجم للشيخ أحمد اليمني وشيخه دفع الله بن محمد أبو إدريس (ت 1094 هـ) في كتاب: نثر المثاني في علماء القرن الحادي عشر والثاني للطيب القادري المغربي، وكذلك في كتاب: سلوة الأنفاس فيمن قبُر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس لمحمد بن جعفر الكتاَّني المتوَفىَّ 1345 هـ.[4]

---

1 باحث وكاتب سوري معاصر من مواليد عام 1956م .

2 خالد محمد فرح، تراجم الشخصيات السودانية بكتاب تتمة الأعلام للزركلي، جريدة الصحافي الدولي السودانية، عام 2000م.

3 يوسف فضل حسن، **ملامح من العلاقات الثقافية بين المغرب والسودان**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، 2009م، ص 56 – 58.

4 أشار يوسف فضل إلى ترجمة الشيخ أحد اليمني وشيخه الشيخ دفع الله المصوبَن في كتاب **نثر المثاني** للقادري في كتابه المومى إليه آنفا، بينما أفادني صديقي الخليفة مجاهد أحمد النور الزاكي التجاني، بترجمة كليهما في كتاب **سلوة الأنفاس** للكتاني الذي يحتفظ مجاهد بنسخة منه بمجلداته الثلاثة.

ذلك، وفي مؤلفات المتأخرين في مجال كتب التراجم، تستوقفنا ترجمة يوسف المرعشلي في كتابه: نثر الجواهر والدُّرر في علماء القرن الرابع عشر (أي الهجري)، للشيخ مجذوب مدثر الحَجَّاز التجاني (1898 – 1985م)، شيخ مشائخ الطريقة التجانية، ونائب مدير جامعة أم درمان الإسلامية سابقا. ونص تلك الترجمة هي كما يلي:

(الشيخ مجذوب مدثر الحجاز (1318 – 1405هـ). الشيخ العالم الفقيه المُربِّي، شيخ شيوخ الطريقة التجانية. وُلد بأم درمان حيث كان والده الحاج مدثر إبراهيم الحجَّاز أحد دعامات المهدية وأعمدتها، ومستشار الخليفة عبد الله وجاره اللصيق في المأوى، وجليسه في منتدى العلم وامور الدين.) أ. هـ[1]

1 يوسف المرعشلي، **نثر الجواهر والدُّرر في علماء القرن الرابع عشر**، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006م، ص 2016.

المبحث السابع
كتب التراجم والطبقات في السودان في التاريخ المعاصر

شهدت فترة التاريخ المعاصر بالسودان، وهي الفترة الممتدة منذ عهد الحكم الثنائي بالبلاد وحتى اللحظة الراهنة، أي منذ مطلع القرن العشرين وحتى بدايات هذا القرن الحالي، إنتاجاً معتبراً في مجال التراجم والطبقات، والمذكرات، والسير الذاتية والغيرية، فضلاً عن الكتابة بغرض التعريف والتوثيق للعديد من القبائل والمجموعات العرقية والعشائرية، والمدن، والمهن، والشرائح الاجتماعية والاقتصادية وغيرها في السودان.

وقد ازدادت وتيرة ظهور ذلك النوع من المصنفات الذي يدور حول تاريخ القبائل والمجموعات العرقية بالسودان بصورة ملحوظة، خصوصاً خلال الثلاثة عقود الأخيرة، ربما اطراداً مع تنامي الإحساس بالهويات القبلية والجهوية، والاصطفاف على أساسها على نحو متنامٍ أيضا .

إن بعض تلك المؤلفات، وخصوصاً المبكرة منها، كانت تنحو نحو التأريخ والتوثيق أكثر من مجرد الترجمة والتعريف بالشخصيات السودانية على أساس ترتيب معجمي، على نحو ما صنع الشيخ محمد بن ضيف الله في طبقاته. ومن هذه الطائفة من الكتب التراجمية / التاريخية، كتاب السير هارولد مكمايكل، الإداري الاستعماري البريطاني: قبائل وسط وشمال كردفان الذي صدر بالإنجليزية في عام 1912م، وترجمه مؤخراً إلى العربية الأستاذ سيف الدين عبد الحميد النعيم، وتاريخ العرب في السودان الذي صدر بالإنجليزية في جزئين في عام 1922م، وقام بتعريبه الأستاذ سيد محمد علي ديدان ونشر ترجمته في طبعتين في بحر هذين العقدين، كانت الأخيرة منهما في عام 2013م. ويمكن أن يضُاف إلى ذلك للمشاكلة، كتاب البروفيسور يوسف فضل حسن بالإنجليزية The Arabs and the Sudan، الذي صدر لأول مرة عن دار نشر جامعة ادنبرة ببريطانيا في عام 1967م، ثم أردفه المؤلف بثلاث طبعات أخرى صدرت أخراها بالخرطوم في عام 2005م.على أن الفرق هو أنَّ الشخصيات السودانية، أو ذات الصلة بالسودان المذكورة في كتاب يوسف فضل، هي شخصيات قديمة جداً وليست معاصرة، أوحاضرة بقوة في ذواكر الناس المعاصرين في السودان .

وبوسعنا أن نضيف إلى تلك المؤلفات المذكورة في ذات السياق، بعض المصنفات التي وضعها من دُرج على تسميتهم بالنسابة الوطنيين، أو المؤرخين الشعبيين، مثل الفحل الفكي الطاهر في كتابه: تاريخ قبائل العرب في السودان، والشيخ عثمان حمد الله في كتابيه: سهم العروبة، وسهم الأرحام في السودان، وكذلك الشيخ عبد الله الخبير في كتابه: الحصن المنيع الباس في اتصال إبراهيم جعل بجده العباس، وغيرها.

وفيما يلي، نورد قائمة بعناوين لبعض المؤلفات ذات الصلة بهذه المجالات في السودان، سواء كانت بأقلام سودانيين أو غير سودانيين، متوخين في ذلك، نوعاً من الترتيب الزمني من الأقدم إلى الأحدث تاريخا، ما وسعنا ذلك:

1- محمد النور بن ضيف الله (1727 – 1809م)، الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالشعراء والعلماء في السودان، تحقيق يوسف فضل حسن.

2- إبراهيم عبد الدافع (ت1882م)، الذيلة والتكملة، منظومة شعرية حوت أسماء الأشخاص المترجم لهم في طبقات ود ضيف الله ن مضافاً إليهم أسماء شخصيات أخرى لم يترجم لها المؤلف، صدر بتحقيق الأستاذين يوسف فضل حسن ومحمد إبراهيم أبو سليم .

3- الشيخ محمد عبد الرحيم (1878 – 1966م)معجم الشخصيات السودانية، ما يزال مخطوطاً مودعاً لدى دار الوثائق القومية بالخرطوم.

4- أوراق الشريف يوسف الهندي(ت1942م)، مخطوط بالدار القومية للوثائق بالخرطوم .

5- سعد ميخائيل،معجم شعراء السودان.

6 - Richard Hill, A Biographical Dictionary of the Sudan, 1951 & 1967

7- حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني.

8- محجوب عمر باشري، رواد الفكر السوداني.

9- محمد إبراهيم أبو سليم، أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان.

10- أحمد شاموق، معجم الشخصيات السودانية المعاصرة.

11- نفيسة أحمد الأمين، الرائدات السودانيات، وحدة التوثيق للدراسات النسوية بجامعة الأحفاد بأم درمان، 1993م.

12– عون الشريف قاسم، مؤسسة القبائل والأنساب في السودان، 1996م (في ستة مجلدات).

Richard Lobban, Carolyn Fluehr – Lobban and John Obert VOLL, - 13 .HistoricalDictionary of the Sudan, 2002

14- محمد سعيد محمد الحسن، شخصيات صحفية عرفتها

15- صديق البادي، من رواد الإدارة في السودان، الخرطوم 2004م.

16- المعتصم محمد الحاج،معجم شخصيات مؤتمر الخريجين.

17- محاسن عبد القادر حاج الصافي (تحرير)نساء أم درمان، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية

18- معاوية حسن يس، من تاريخ الموسيقى والغناء في السودان، في بضعة أجزاء.

19- قاسم عثمان نور،معجم المؤلفين السودانيين من عصر الفونج إلى العصر الحديث، المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون، الخرطوم، 2011م .

20- الطاهر محي الدين،عالم الضباط.

المذكرات والسير الذاتية والغيرية:

21: محمد سعيد القدال، الإمام المهدي، لوحة لثائر سوداني.

22- خليفة عباس، الزبير باشا

23- حسن أبشر الطيب،التجاني الماحي سادن المعرفة.

24- بشير محمد سعيد، الزعيم الأزهري وعصره

25– أحمد محمد البدوي، الطيب صالح: سيرة كاتب ونَص.

26- عبد الحليم محمد ومحمد أحمد محجوب،موت دنيا.

27- عبد الله الطيب،من حقيبة الذكريات.

28- مامون بحيري، لمحات من تجارب رجل خدمة عامة

29- فخر الدين محمد، الدبلوماسية والإبداع.

30- عبد الله رجب،مذكرات أغبشمؤلفات في التوثيق للمدن والأماكن:

31- عز الدين الأمين،قرية كُترانج

32- جامعة أم درمان الأهلية، أم درمان.

33- محمد صالح ضرار، سواكن والبحر الأحمر.

34- جبريل عبد الله علي، من تاريخ مدينة الفاشر.

35- محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم.

36- عبد القادر خليفة،مدينة الأبيض

37- عون الشريف قاسم،حلفاية الملوك التاريخ والبشر.

38- الصادق ضو البيت، تاريخ الجزيرة أبا.

39- السر العراقي، كسلا التاريخ والحضارة

40- نصر الدين شُلقامي، كوستي.[1]

1 للمزيد حول المؤلفات السودانية انظر كتاب البروفيسور قاسم عثمان النور: **معجم المؤلفينالسودانيين من عصر الفونج إلى العصر الحديث 1510 – 2010م**،وكذلك المدخل: المؤلفات السودانية تحت محرك البحث بالشبكة العنكبوتية: سُودارِسْ www.sudaress.com

الباب الرابع
محمد مرتضى الزبيدي: سيرته وعصره وأبرز آثاره العلمية والفكرية

الباب الرابع

محمد مرتضى الزبيدي:
سيرته وعصره وأبرز آثاره العلمية والفكرية

الفصل الأول

في التعريف بالزبيدي

المبحث الأول: أضواء على سيرة الزبيدي

هو محمد مرتضى بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق بن عبد الغفار بن تاج الدين بن حسين بن جمال الدين بن إبراهيم بن علاء الدين بن محمد أبي العز بن أبي الفرج بن محمد بن محمد بن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه. هذا في رواية، وفي رواية أخرى:

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق، ينتهي نسبه إلى أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. اشتهر بالسيد المرتضى الحسيني الزبيدي اليماني الواسطي العراقي الحنفي، ويكُنىَّ أبا الفيض وأبا الجود وأبا الوقت.[1]

وجاء عنه في كتاب علامَّة المغرب عبد الحي بن عبد الكبير الكتاَّني في كتابه (فهرس الفهارس) أنه:

(محمد مرتضى بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني العلوي الزبيدي النسب، هكذا وصفه أعلم الناس به شيخه الوجيه العيدروس في ديوانه (تنميق الأشعار). وقال غيره: هو المُكنىَّ بأبي الفيض وبأبي الوقت الملقبَّ مُرتضى محمد بن أبي الغلام محمد بن القطب أبي عبد الله محمد بن الولي الصالح الخطيب أبي الضياء محمد بن عبدالرزاق الحسيني، من قبيل أبي عبد الله محمد المُحدِث الكبير بن أحمد المختفي بن عيسى مؤتم الأشبال بن زين العابدين بن الحسين.) [2]

---

1 انظر ترجمة مرتضى الزبيدي في موسوعة ويكبيديا بالشبكة العنكبوتية

2 الكتاني،**فهرس الفهارس**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، ص 526.

ومما تقدم يتبين لنا خطأ موسوعة ويكبيديا في ذكرها (زيد بن علي بن الحسين (بوصفه جَداً للزبيدي، وإنما الصحيح الذي تجُمع عليه سائر المصادر أنَّ جده هو) عيسى بن علي زين العابدين بن الحسين. (وربما حدث ذلك بسبب التصحيف اوالالتباس بين اسمي) زيد (الذي ينتهي بحرف الدال، و(زين) الذي ينتهي بحرف النون .

وُلد الزبيدي ببلدة تدُعى (بلجرام)، وهي قصبة تقع على بعد خمسة فراسخ من (قنوج) وراء نهر الجَنْج بالهند في عام 1145 هـ الموافقة لسنة 1732 ميلادية. وقد اشتهرت أسرته التي تعود بأصلها إلى مدينة (واسط) بالعراق، بالاشتغال بالعلم والفقه والتصوف في بلاد الهند المسلمة، لعدة أجيال قبل مولد الزبيدي نفسه .

هذا، وقد درج الزبيدي على تعريف نفسه في الإجازات التي كان يمنحها لطالبيها منه على هذا النحو:

(الواسطي العراقي أصلاً، الهندي مولداً، الزبيدي تعلمًّا وشُهرةً، المصري منزلاً، الحنفي مذهباً، القادري إرادةً، النقشبندي سلوكاً، الأشعري عقيدةً .. الخ (.[1]

وبعد أن حفظ القرآن الكريم في صغره، ودرس مبادئ العلوم العربية والإسلامية الشائعة في عصره بالنسبة للصبية والناشئة في سائر أرجاء العالم الإسلامي، سعى الزبيدي للاستزادة والتضلعُّ من هذه العلوم، بالاتصال ببعض العلماء المشهورين في بلده آنئذٍ، فاتصل بكل من الشيخ المحدِث محمد فاخر بن يحي الإله آبادي (ت1164 هـ) ، وكذلك بالعلامة والمجدد ذي الصيت الذائع شاه ولي الله الدهلوي (1703 – 1762م)، فسمع منه الحديث، وأجازه كما يخُبرنا بذلك محمد عبد الحي الكتاَّني.[2]

ثم ارتحل الزبيدي لطلب العلم بعد ذلك، فدخل زبيد المدينة اليمنية المشهورة بالعلم والعلماء منذ قديم الزمان، فأقام بها مدة طويلة حتى قيل له الزبيدي، وبها اشتهر. وحجَّ مراراً، وأخذ عن نحو من ثلاثمائة شيخ ذكرهم في معجميه الكبير والصغير وألفية السند وشرحها، حتى انه قال عن نفسه في الألفية:

---

1 انظر ترجمة المؤلف في مقدمة كتاب: **المعجم المختص** للزبيدي، مرجع سبق ذكره، ص 18.

2 ، الكتاني،**فهرس الفهارس**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م ص 527.

وقَلَّ أن ترى كتاباً يعُتمَدْ إلاَّ ولي فيه اتصالٌ وسَنَدْ

أوعالِماً إلاَّ ولي إليهِ وسائطٌ توُقـفـُـنِي عليــــهِ

واشتهر أمره كما قال الكتاني، وانتشر في الدنيا خبره، خصوصاً بعد استيطانه بمصر. وكان أول دخوله لها سنة 1167 هـ الموافقة لسنة 1754م، وكنّاه السيد أبو الأنوار وفا شيخ الطريقة الوفائية سنة 1182 هـ بأبي الفيض. وأكمل شرح القاموس المحيط في عشر مجلدات ضخمة سنة 1181هـ ومات في سنة 1205 هـ شهيداً بالطاعون، ودُفن بالضريح المنسوب لسيدتنا رُقية بنت علي بن أبي طالب في مصر، تجاه مسجد الدُّر بقرب السيدة سُكينة.

ومات ولم يعُقِّب لا ذكراً ولا أنُثى، ولا رثاه أحدٌ من القرُاء، ولم يعلم بموته أحد من أهل الأزهر مع عظيم الشُّهرة التي كانت له بأرجاء المعمورة، لاشتغال الناس بأمر الطاعون، كما لم يرثه أحدٌ من أهله إلا زوجته.[1]

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الأستاذ عبد الستار أحمد فرَّاج، رئيس التحرير بمجمع اللغة العربية بمصر سابقاً، الذي كان قد حققَّ نسخة غير مكتملة لمعجم تاج العروس للزبيدي، طُبعت بمطبعة حكومة دولة الكويت في عام 1965م، كأنه يشك في معرض تقديمه لتلك الطبعة من (تاج العروس (في حقيقة انتماء المرتضى الزبيدي للهند، ويحاجج بأن صلة الزبيدي بتلك البلاد - إن ثبتت أصلاً كما قال - لا تعدو في رأيه كون أنها مسقط رأسه فقط، بل يلمح إلى احتمال أن يكون الزبيدي قد ألمَّ بالشيخين الهنديين اللذين أخذ عليهما، ألا وهما محمد فاخر الألهابادي، وشاه ولي الله الدهلوي بالحجاز وليس بالهند موطن الجميع، قبل مغادرته لها ميمما صوب اليمن أولاً، ثم الحجاز لاحقاً، وفقاً لما هو المشهور في سيرته، وكما تدل على ذلك عبارة الكتاني وغيره من المصادر.[2]

وعندنا انه ليس هنالك ما يمنع عقلاً، وبقرائن الأحوال أيضا، أن يكون الزبيدي أصله من الهند. بها وُلد، وفيها نشأ وترعرع حتى شبَّ عن الطوق، ثم غادرها إلى اليمن،

---

1 الكتاني،**فهرس الفهارس**، الصفحتان 527 و528.

2 **تاج العروس من جواهر القاموس**، مقدمة المحقق عبد الستار أحمد فرَّاج، نسخة مطبعة حكومة دولة الكويت، الجزء الأول، 1965.

فالحجاز، فمصر. فما أكثر العلماء من بلاد الهند والسند وسمرقند وجاوة وغيرها من بلاد آسيا المسلمة، الذين ظلوا يرتحلون من بلدانهم الأصلية تلك، إلى مختلف الحواضر العلمية والثقافية الكبرى في العالم الإسلامي، مثل بلاد الحرمين، ومصر، والشام، وحتى بلادالمغرب الأقصى، منذ عصر الزبيدي في القرن الثامن عشر الميلادي وما قبله .

هذا، ويوشك الأكاديمي الهندي المعاصر، الدكتور قمر شعبان الندوي، أن يقطع لنا الشك باليقين في هذه النقطة بالتحديد، وذلك عندما يؤكد أنَّ مرتضى الزبيدي كان يعرف اللغات العربية والفارسية والتركية والأُرديَّة.[1]

والشاهد هو قوله (الأُرديَّة) وهي لغة سائر مسلمي شبه القارة الهندية، ولا نعتقد أن هذه اللغة قد كانت منتشرة وتعلمها ميسورا في ذلك العهد، خارج نطاق تلك المنطقة المعنية، بالمقارنة مع اللغات الأخرى المذكورة معها التي كان يعرفها الزبيدي أيضاً، مما يرجح أنها قد كانت لغة أمِه التي نشأ عليها منذ طفولته. ثم إن الزبيدي قد درج على النص على مكان مولده في إجازاته صراحةً، على أنه (الهندي مولدا)، كما تقدَّم.[2]

وعلاوةً على ذلك، يخُبرنا الكتاَّني أنه يمتلك وثيقةً بخط يد الزبيدي نفسه، هي إجازته لعمر بن حمودة الصفاَّر التونسي، ينصُّ في آخرها على أنَّ (أصله من بلجرام قصبةٌ على خمسة فراسخ من قنوج وراء نهر جنج الهند) .[3]

---

1 قمر شعبان الندوي، (مرتضى الزبيدي: إفاداته وآثاره (، مقال نشره هذا الباحث بموقع مجمع البحث العلمي بالهند بالشبكة العنكبوتية، بتاريخ 18 يونيو 2013م، يمكن العثور عليه تحت الرابط أدناه: http://majmaulbahs.blogspot.com/2013/06/blog-post_6633.html

2 حول مولد الزبيدي بالهند ونشأته،ودراسته بها في طفولته وصباه، والشيوخ الذين تعلم عندهم، انظر: Stefan Reichmut, **The World of Murtada Al-Zabidi**, op.cit, especially the introduction.

3 **فهرس الفهارس**للكتاني، مرجع سبق ذكره، ص 527.

المبحث الثاني
بيئة الزبيدي الأولى وخصائص عصره مجملاً

وُلد الشريف مرتضى الزبيدي كما تقدم، ببلدة بلقرام أو بلجرام بالجيم القاهرية، مثل صوت حرف ال G في الفعل الإنجليزي Go. وينقل عبد الستار أحمد فرَّاج عن دائرة المعارف الإسلامية، أن تعريف بلجرام كما جاء في ذلك المصدر: (مدينة بولايات الهند، على خط 27:10 :30شمالاً، وخط طول 80:4:30 شرقا، وقد اشتهرت بنوع خاص بأنها مركز من مراكز الثقافة الإسلامية من أيام أكبر[1] إلى القرن التاسع عشر (الميلادي) . ويردُّ سادة بلكرام نسبهم إلى السيد أبي الفرج الواسطي، الذي يقُال إنه هاجر إلى الهند بعد غزوة هولاكو لبغداد) .[2]

ونستطيع أن نستنتج من خلال هذا التعريف لبلدة (بلقرام (انها قد كانت تمثل بيئة علمية وثقافية إسلامية مثالية، لنشأة ونبوغ عالم موسوعي مبرز لاحقا كمحمد مرتضى الزبيدي.هذا فضلاً عن أن بحث مُعد المقال الخاص بالتعريف بهذه البلدة في موسوعة دائرة المعارف الإسلامية، قد أفضى به بصورة مستقلة عن علاقتها بالزبيدي من عدمها كما نفترض، إلى أن أهل تلك المدينة الذين وصفهم بانهم) سادة (، وهو لقب لا يطُلق عادة إلا على الأشراف، أو من يتمسكون بالانتساب إلى العترة النبوية الشريفة، يرجعون بنسبهم إلى جد لهم يسُمى أبا القرح الواسطي، الذي يقُال إنه هاجر إلى الهند، بعد غزو هولاكو لبغداد، وفقاً لما جاء في ذلك المقال، وقد مرت الإشارة إليه آنفا .

أما البيئة العلمية والثقافية والفكرية التي تفتحت عينا مرتضى الزبيدي عليها، ودرج في كنفها حتى مطلع شبابه في بحر القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، فيصفها عليان الجالودي على النحو التالي:

---

1 السلطان جلال الدين محمد أكبر، امبراطور الدولة المغولية بالهند الإسلامية 1542 – 1605م. أعظم ملوك الهند في العصر الوسيط واطولهم حكما، فقد حكم خمسين عاما. تميز بالشجاعة والإقدام والقوة البدنية الخارقة، فضلا عن تميزه بغزارة الاطلاع، وبعد النظر، وانفتاح الأفق سياسياً وفكريا. توسعت الامبراطورية المغولية في الهند في عهده. (انظر ترجمته في موسوعة ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية) .

2 عبد الستار أحمد ف راج، مقدمتة كمحقق لكتاب **تاج العروس من جواهر القاموس** للسيد محمد مرتضى الزبيدي، الجزء الأول، مطبعة حكومة الكويت، 1965م .

(.... على الرغم من الضغف والتفكك الذي حلَّ بالامبراطورية المغولية في القرن الثامن عشر، إلا أنها شهدت نبوغاً علمياً بارزاً، نهض به عدد من العلماء الأفذاذ، مثل الشيخ أحمد بن سعيد الأميتهوي(ت 1130 هـ)، والشيخ حمد الله السنديلوي (ت 1160 هـ)، والشيخ رُستم علي القنوجي(ت 1178 ه)، والقاضي محي الدين البهاري (ت 1119 هـ)، و الشيخ محمد بن علي التهاوني(ت 1158 هـ). وسيطر منهج نظام الدين اللكنوي (ت 1161 هـ) الدراسي المعروف بالمنهج النظامي على الأوساط العلمية في الهند، وامتد إلى بخُارَى وسمرقند في آسيا الوسطى. وفي التصوف اشتهر الشيخ ميرزا مظهر جانان (ت 1195ه) من كبار المجددين في الطريقة الصوفيةالنقشبندية، والشيخ عبد الرزاقاليانسوي(ت 1136 هـ) مجدد الطريقة القادرية، والشيخ كليم الله الجهان أبادي (ت 1140 ه) مجدد الطريقة الجشمية النظامية) [1].

وبالطبع فإنه يتعين علينا كذلك، أن نذكر من ضمن أولئك العلماء الهنود البارزين، الشيخ ولي الله الدهلوي (ت1167 هـ)، أحد أساطين حركة البعث والتجديد الديني والحضاري، التي انطلقت من حلقات علماء الحديث النبوي في الحجاز في القرن الثامن عشر الميلادي، وخصوصاً من خلال كتابيه: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، وحُجَّة الله البالغة (في علم أسرار الشريعة وفلسفة التشريع).[2]

أما خصائص العصر الذي عاش فيه مرتضى الزبيدي على مستوى العالم الإسلامي باسره، فقد اتسم بحالة ملحوظة من مظاهر الضعف، والتفسُّخ السياسيوالتوهان الفكري، والتفكك الاجتماعي، والفقر الاقتصادي، والوهن المادي والعسكري خصوصاً في مقابل صعود نجم سائر القوى الأوروبية مالياً، وعسكرياً، وتقنياً آنئذٍ.

1 عليان الجالودي (تمهيد بقلمه (لكتاب: **التحولات الفكرية في العالم الإسلامي من القرن العاشر إلىالثاني عشر الهجري،** تحرير الدكتور عليان الجالودي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطون / عمَّان، 2014م، ص 27 – 28.

2 حول دور مجتمع علماء الحديث بالحجاز والتفاعل المعرفي والفكري فيما بين مكوناته، في ظهور الحركات الدينية الإصلاحية والطرق الصوفية الجديدة، انظر على سبيل المثال: John O. VOLL, Hadith Scholars and Tariqahs: An Ulama Group in the 18th Century Haramayn and their Impact in the Islamic World ‘, Journal of Asian and African Studies, XV, 3 – 4, 1980, p.205

- Nehemia Levitzion, The Role of Shari`a – oriented Sufi Turuq in the Renewal Movements of the 18th and 19th Centuries. in **El Sufismo y las normas del Islam**, Tarbajos del IV Congreso Internacional de Estudios Juridicos Islamicos: Derecho y Sufismo, may 2003, Alfonso Carmona (ed), Editora Regional De Murcia, Spain, 2006, pp. 377 – 407

فبالنسبة للامبراطورية العثمانية، قائدة ذلك العالم الإسلامي، ورأس الرمح فيه في ذلك الزمان، فقد ضعفُت سلطتها المركزية ونفوذها، من جراء الحروب المتتالية التي خاضتها، خصوصاً مع جوارها الأوروبي، واضمحلال مؤسسات الحكم فيها ففقدت أقاليمها في الشمال لصالح القوى الأوروبية الصاعدة، بل بسطت تلك القوى نفوذها على بعض المناطق داخل حدود الامبراطورية نفسها .

وأما الحكم العثماني في المنطقة العربية، فقد جعل يتصدع هو الآخر، بل ظهرت فيه في نحو منتصف القرن الثامن عشر، بوادر تمرد ونزعات استقلال عن كيان الامبراطورية العثمانية، بواسطة نفر من الولاة المحليين الأقوياء والطموحين، مثل علي بك الكبير في مصر، وضاهر العمر في فلسطين، وأحمد باشا الجزار في الشام، والقرمنليين في ليبيا .

وطالت حالة الشقاق والتناحر والنزاع، حتى أشراف الحجاز الذين كانت لهم هيبة في نفوس سائر المسلمين، ولكن تلك الصراعات فيما بينهم، أضعفت من شانهم، وقللت من مكانتهم في نفوس الناس، فلم يكونوا هم الذين ألهموا دعاة التجديد والإصلاح، وإنما جاء الإلهام من جمهرة العلماء والدُّعاة والزهاد الذين كانوا يفدون إلى أرض الحرمين الشريفين من كل حدب وصوب. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي، تعززت حركة الاصلاح والتجديد وقويت، بانتصار الحركة الوهَّابية.

وهكذا كانت بلاد الحجاز في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وبحكم وضعها المتميز في العالم الإسلامي، هي الأرض التي نبتت فيها حركات التجديد الإسلامي، وفي نفس الوقت، بقيت الأراضي المقدسة بعيدة سياسياً عن الامبراطوريات الكبرى، مما جعل مجتمع العلماء والدعاة في مدن الحجاز، وكذلك عشائر الأشراف وصراعاتهم الداخلية، تساعد في تحديد طبيعة تحركات التجديد التي تفتحت في الحجاز.[1] فمن تفاعُل شبكة العلماء والمتصوفة والفقهاء والمحدِثين بالحجاز، والتي ازدادت عنفواناً بظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب(1703 – 1792م)، انبثقت جملة من الحركات الدينية الإصلاحية، والطرق الصوفية السلفية الجديدة، مثل الحركة الوهابية، ودعوة السيد احمد بن إدريس الحسني (1750 – 1837م)،

1 جون فول،**تاريخ الختمية في السودان**، ترجمة محمد سعيد القدال، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، 2002م، ص 30 – 35

وما تفرع منها من طرق مثل، الختمية، والسنوسية، والرشيديةوالمجذوبية. هذا إلى جانب الطريقتين السمَّانيةوالتجانية، وكذلك حركة الشيخ عثمان دان فوديو(1754 – 1817م)، ببلاد (هوسا (بشمال نيجيريا الحالية.

ومن آيات ذلك التفاعل المعرفي والفكري ذي المضمون السلفي والأصولي في الأساس الذي كانت حاضنته بلاد الحجاز – على سبيل المثال -، ما لاحظه البروفيسور عبد الله الطيب في كتابه: الاتجاهاتالحديثة في النثر العربي في السودان(القاهرة 1959م)، فيما نقله عنه الدكتور يحي محمد إبراهيم، من مخايل نزعة سلفية، ودعوة إلى التمسك بعقيدة التوحيد في بعض تراث الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين(1796 – 1832م)، وهو أحد الشهود المعايشين لعقابيل وآثار حركة الإصلاح الديني والفكري التي انطلقت من أرض الحجاز في القرن الثامن عشر، على أساس من علم الحديث والتمسك بالسنة النبوية المطهرة، فضلاً عن أنَّ المجذوب نفسه، قد كان أحد تلاميذ السيد أحمد بن إدريس الفاسي بمكة، وإن كان قد استقل بطريقته المجذوبية لاحقاً، بانياً على تراث الطريقة الشاذلية، التي هي طريقة آبائه وأجداده.[1]

في هذا الخضم الصاخب من الحراك السياسي والفكري والعلمي المحتدم، الذي انتظم العالم الاسلامي كله في القرن الثامن عشر الميلادي، وُلد الشريف محمد مرتضى الزبيدي، ونشأ وعاش، وازدهر نشاطه، إلى أن لقي وجه ربه في خواتيم ذات القرن بمصر في عام 1791م .

وقد عدَّ الأستاذ محمود محمد شاكر مرتضى الزبيدي، أحد خمسة رجال أعلام، ظهروا في بحر القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، في مناطق شتى من العالم الإسلامي، أحسوا بالخطر المحدق بأمتهم آنئذٍ – كما قال – فهبوُّا بلا تواطؤٍ بينهم، يرومون إصلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام .... وبأناة وصبر، عملوا وألفَّوا وعلموا تلاميذهم، وبهِمَّة وجدٍّ، أرادوا أن يدُخلوا الأمة الإسلامية في عصر نهضة خاصة بدار الإسلام .

وأولئك الخمسة الأعلام هم:

---

1 يحي محمد إبراهيم،**مدرسة احمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان**، دار الجيل، بيروت، 1993م، ص 365- 366.

1- عبد القادر بن عمر البغدادي صاحب خزانة الأدب 1030 – 1093 هـ/ 1620– 1683م في العراق .

2- الجبرتي الكبير (حسن بن إبراهيم الجبرتي العقيلي 1110 – 1188 هـ / 1698 – 1774م في مصر وهو والد عبد الرحمن الجبرتي، المؤرخ المشهور .

3- محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي 1115 – 1206 هـ / 1703 – 1792م، في الجزيرة العربية .

4- المرتضى الزبيدي (محمد بن عبد الرزاق الحسيني) صاحب (تاج العروس،) 1145 – 1205 هـ / 1732 – 1791م في الهند ومصر .

5- محمد بن علي الشوكاني، 1173 – 1250 هـ / 1760 – 1834م، في اليمن .

وقد قال شاكر عن المرتضى الزبيدي بالتحديد ما نصُّه:

(وهبَّ المرتضى الزبيدي، يبعثُ التراث اللغوي والديني، وعلوم العربية، وعلوم الإسلام، ويحُيي ما كاد يخَفَى على الناس بمؤلفاته ومجالسه (.[1]

فبوسعنا أن نقول إجمالاً في ختام هذا المبحث، أن مرتضى الزبيدي قد كان نتاج عصره تماماً، بل كان لحسن الحظ أحد رموزه وصُناَّعه البارزين في مجاليه الفكري والعلمي، وذلك بفضل فعله الإيجابي، وإسهامه النوعي الذي كان يستهدف الإصلاح والتجديد من وجهة نظره بطبيعة الحال، وذلك اتساقاً مع ما يسُمى بمنظور التحدِي والاستجابة كما يقول آرنولد توينبي، انطلاقاً من موقعه الشخصي ورؤيته الذاتية لسبيل الإصلاح

ففي معرض إشارته لدور الشيخ (أحمد سرهندي (مجدد الطريقة النقشبندية في الهند في القرن السابع عشر، وشجب هذا الأخير لأفكار محي الدين بن عربي، وضرورة استبدالها بأفكار أبي حامد الغزالي، يكتب الباحث والأستاذ الجامعي الأمريكي جون فول ما يلي:

(وكانت الشخصية الرئيسية في هذا الاتجاه: محمد مرتضى الزبيدي. يعتبر هيورث – ديون هذا الرجل: هو إلى حدٍ كبير أفضل عالم في عصره، ليس في مصر، بل في كل

1 محمود محمد شاكر،**المتنبي: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار المدني، جدَّة، 1987م، ص 81 – 83

العالم الإسلامي، ونجح عن طريق تعاليمه في بعث الاهتمام العلمي لدراسة التراث، وكتب دفاعاً مكثفّاً عن الغزالي، و كان أثره أنه أعاد للوعي الديني الإسلامي المشلول، جدية معنوية، واعتقاداً محتدماً في شخص الإمام الغزالي .

كان هذا العمل على جانب كبير من الأهمية للفكر الإسلامي الحديث. ففي القرن الثامن عشر، رفضت الحركة الوهابية القوية رفضاً تاماً تعاليم ابن عربي، كما رفضت الفكر الصوفي أيضا. ولعل مرتضى سلك طريقاً وسطاً بين النقيضين.

فهل كان يا ترُى من أجل مقارعة حجج ابن عبد الوهاب أن كتب السيد مرتضى الزبيدي حواشيه لكتاب الإحياء للغزالي، فاستعاد بذلك إلى مركز الوعي لدى المسلم، عقيدة أكثر اتزاناً من التي دعا لها ابن تيمية، وأقل خطراً من التي دعا لها ابن عربي؟ فبنى بذلك القنطرة الوحيدة التي يمكن أن تحول دون انشطارٍ عميقٍ في العقل الإسلامي. فبدلاً من الخلاف بين الوهابية وابن عربي، استبدل التوتر الذي يمكن احتماله بيسر بين الوهابية والغزالي، وهو التوتر الذي يقبع تحت سطح بنية الفكر الإسلامي في كل الحركة المعاصرة) .[1]

1 جون فول، **تاريخ الطريقة الختمية**، ترجمة محمد سعيد القدال، مركز الدراسات السودانية، القاهرة،2002م، ص 55.

الفصل الثاني
الزبيـــدي والرحلــة العلميــة
المبحث الأول
الزبيـــدي فــي اليمـــن

يبدو أن الزبيدي قد قدم من بلده بالهند، وهو بعد شاب يافع إلى اليمن أولاً، حيث قصد مدينة زبيد فأقام بها واستوطنها حتى نسُب إليها. وهنا يحُدثنا تلميذه عبد الرحمن بن سليمان الأهدل (ت 1250 هـ)، وهو نفسه سليل إحدى كبريات الأسر العلمية والصوفية في زبيد، قائلاً في مستهل ترجمته لشيخه الزبيدي:

(أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسيني، نزيل مصر، شريف النِّجار، عظيم المقدار، كريم الشمائل،عزيز الفواضل والفضائل. أخذ المذكور العلوم النقلية والعقلية في مدينة زبيد على جماعة أعلام، منهم السيد العلامَّة أحمد بن محمد المقبول ومن في طبقته، كالشيخ عبد الخالق بن أبي بكر المزجاجي، والشيخ محمد بن علاء الدين المزجاجي، وأخذ عن من أخذ عنهم كشيخنا الوالد رحمه الله... واستجاز لي عنه شيخنا الوالد وأجاز.

وكذلك استجاز لي منه السيد العلامَّة أحمد بن عبد الله السعدي مقبول الأهدلوأجاز. واستجاز منه لنفسه ولأولاده شيخنا الوالد القاضي العلامَّة محمد بن إسماعيل الرِّبعي، واجاز (أ. هـ[1]هذا، وقد تلقىَّ الزبيدي كثيراً من الفقه والحديث واللغة بزبيد. ففي تاريخ الجبرتي الذي هو أحد تلاميذه، يقول المؤلف في معرض ترجمته للشيخ عبد الخالق المزجاجي: (وسمع عليه شيخنا السيد محمد مرتضى الصحيحين، وسند النسائي كله بقراءة عليه في (عين الرضا (: موضع بالنخل خارج زبيد، كان يمكث فيه في أيام خراف النخل، والكنز والمنار كلاهما للنسفي[2]، مسلسلات شيخه ابن عقيلة،

---

1 عبد الرحمن الأهدل،**النفس اليماني**، تحقيق عبد الله الحبشي، دار الصميعي، الرياض، 2012م، ص 261

2 النسفي هو الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت 710 هـ /1310م)، فقيه حنفي ومفسر للقرءان. كتابه الكنز أو (كنز الدقائق (يعتبر من أهم المتون المعتمدة في الفقه الحنفي، وأما كتابه (المنار (فهو كتاب في الأصول. انظر ترجمته في موسوعة ويكبيديا.

وهي خمس وأربعون مسلسلاً، وسمع عليه أيضاً المسلسل يوم العيد، ولازَم دروسه العامة والخاصة، وألبسه الخِرْقة. ([1] وفي مقدمة الزبيدي نفسه لمعجمه اللغوي الشهير (تاج العروس من جواهر القاموس (يقول المصنف عن كتاب القاموس المحيط للفيروزابادي:

(وحدَّثنا شيخنا الإمام الفقيه رضى الدين عبد الخالق بن أبي بكر الزين النمري الحنفي، وذلك بمدينة زبيد حرسها الله تعالى، وبحضور جمع من العلماء بقراءتي عليه قدر الثلث، وسماعي له فيما قرُئَ عليه في بعضه. وأجازني به (أي بقراءة القاموس المحيط) شيخي الفقيه أبو عبد الله محمد بن الشيخ علاء الدين عبد الباقي المزجاجي عن والده عن أخيه عفيف الدين) .[2]

وعلاوةً على ما ذكرنا من أعلام زبيد الذين أخذ عنهم الزبيدي، نورد فيما يلي قائمة موجزة بأسماء بعض الأعلام الزبيديين الذين التقى بهم، وتعامل معهم أخذاً وعطاء:

1- أحمد بن الحسن الموفري الصوفي الزبيدي.

2- أحمد بن علي المرحوميالمخائي الزبيدي.

3- إبراهيم بن أحمد بن الأمين الخليل العدناني الزبيدي الشافعي.

4- سعيد بن محمد الكبودي الزبيدي الشافعي.

5- عبد الله بن علي الحسيني الغرابي الزبيدي.

6- عبد الخالق بن أبي بكر بن الزين النمري الأشعري المزجاجي الحنفي الزبيدي.

7- عبد الخالق بن علي بن الزين النمري الأشعريالمزجاجي الحنفي الزبيدي .

8- عبد الخالق بن علي بن الزين المزجاجي الحنفي الزبيدي .

9- سليمان بن يحي بن الحسيني الأهدل الشافعي الزبيدي .

10- عثمان بن علي الجبيلي الشافعي الزبيدي .

---

1 الجبرتي،**عجائب الآثار**، نسخة kitabnet الالكترونية على محرك البحث قوقل، ص 152 .

2 **تاج العروس من جواهر القاموس**للزبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الأول، 1971م، ص 63.

المبحث الثاني
الزبيـــدي فـي الحجــاز

ورد الجبرتي إلى الحجاز قادماً إليه من اليمن، حينما صارت سنُّه حوالي الثامنة عشرة، ويبدو أن أول من لقي هناك من المشائخ، كان هو السيد عبد الله المحجوب الميرغني (ت 1792م)، وكان ذلك في عام 1163 هـ أي في نفس سنة وصوله إلى الحجاز، لأنه من مواليد 1145 هـ كما تقدَّم. والسيد عبد الله المرغني المحجوب المذكور، هو الجد المباشر للسيد محمد عثمان الميرغني الختم(1793 – 1853م) مؤسس الطريقة الختمية في السودان ومصر والحجاز والحبشة. فهو محمد عثمان بن محمد أبي بكر بن عبد الله المحجوب. وبناءً على ذلك، تشتجر سلسلة النسب العلمي للزبيدي من هذا الباب، بسبب تتلمذه على السيد عبد الله المحجوب المرغني، مع أسانيد سائر الختمية في السودان،وغيره من الأقطار التي يوجد فيها منتسبون للطريقة الختمية. وبعد ذلك التقى الزبيدي بشيخه أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد الفاسي المغربي، إذ أنه نص في مقدمته لتاج العروس على ما يأتي: وأخبرنا شيخنا المحدث الأصولي اللغوي، نادرة العصر، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن موسى الشَّرَقي الفاسي، نزيل طيبة طاب ثراه، فيما قرُئ عليه في مواضع منه وانا أسمع منه، ومناولة للكل سنة 1164 هـ , وتلقىَّ أيضاً عن العيدروس بمكة، ثم التقاه بالطائف سنة 1166 هـ . ومن المشائخالذين التقى بهم الزبيدي بالحجاز، أحمد بن عقيل المكي، وعبد الله السقاَّف، والسند محمد بن علاء الدين المزجاجي، وسليمان بن يحي، وابن الطيب واجتمع بالسيد العيدروس بمكة، والشيخ عبد الله ميرغني الطائفي، فقرأ عليه في الفقه وكثيراً من مؤلفاته وأجازه . وقرأ على الشيخ عبد الرحمن العيدروس مختصر السعد ولازمه ملازمة كلية، وألبسه الخرقة، وأجازه بمروياته ومسموعاته. وقال الزبيدي عن هذا الشيخ: (هو الذي شوَّقني إلى دخول مصر، بما وصفه لي من علمائها وأمرائهاوأدبائها، وما فيها من المشاهد الكرام، فاشتاقت نفسي لرؤياها، وحضرت مع الركب، وكان الذي كان) .[1]

---

1 الزبيدي،**تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الستار أحمد فرَّاج، مقدمة التحقيق، الجزء الأول، مطبعة حكومة الكويت.

المبحث الثالث

الزبيـــدي فـي مـــصر

وصل الجبرتي إلى مصر، على ما أثبته تلميذه عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه، في تاسع صفر سنة 1167 هـ الموافقة لعام 1754م. وكان أول مسكن اتخذه الزبيدي بمصر، بمحلة يقال لها (خان الصاغة)، وأول من عاشره وأخذ عنه، السيد علي المقدسي الحنفي من علماء مصر. وقد حضر الزبيدي أيضاً دروس أشياخ الوقت كالشيخ أحمد الملوي، والجوهري، والبليدي، والصعيدي، والمدابغي وغيرهم، وتلقَّى عنهم وأجازوه، وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه. واعتنى بشأنه إسماعيل كتخدا عزبان ووالاه برِّه حتى راجَ أمرهُ، وترونق حاله، واشتهر ذكره عند الخاص والعام.[1]

ولم يكتف الزبيدي بشيوخ القاهرة فحسب، بل رحل إلى العلماء في الصعيد والوجه البحري، كما رحل إلى فلسطين. فهو يقول في رسالة إلى أحد شيوخه، وهي مُثبتة في كتاب أبجد العلوم:[2]

(ثم الذي آجركم مما من الله تعإلى به عليَّ، أني حين وصولي إلى مصر، افترصت المدة، وانتهزت القعدة، فأكببتُ على تحصيل العلوم، وتكميل منطوقها والمفهوم وتشرفت بالسماع الصحيح على مسنديها الموجودين، ورحلت إلى بيت المقدس فحطت بها جماعة مسندين، وفي الرَّملة، وثغر ياوا (يافا) الخ)[3]

ثم إن الزبيدي تزوَّج، وسكن بحي يسمى (عطفة الغسَّال) مع احتفاظه بسكنه الأول بوكالة الصاغة. وهنالك شرع في تأليف كتابه (تاج العروس)، الذي فرغ من تأليف الأجزاء الأولى منه في عام 1181هـ لكي يكمل تأليفه كله بعد سنوات عديدة في عام 1188 هـ. وعندما صدرت الأجزاء الباكرة من هذا المصنف الشهير، قرظه عدد كبيرمن

---

1 عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، الجزء الثاني

2 **أبجد العلوم** كتاب في التعريف بالعلوم والفنون، وخاصة الإسلامية منها، والتاريخ والتراجم. ألَّفه محمد صديق خان القنوجي الهندي) 1832 – 1890م(. وقد اعتمد في تصنيفه على **إحصاء العلوم**للفارابي، و**مفاتيح العلوم** للخوارزمي، و**مفتاح السعادة** لطاشكري زاده، و**كشف الظنون** لحاجي خليفة. انظر: **ابجد العلوم** بموسوعة ويكبيديا الالكترونية.

3 من مقدمة تحقيق **تاج العروس**للزبيدي، الجزء الأول، بقلم عبد الستار احمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، 1965م.

علماء مصر ووجهائها آنئذٍ، بل إن الوالي محمد بك أبو الدهب شخصياً، قد اشتريمنه نسخة بمائة الف درهم فضة، ووضعه في المكتبة الملحقة بمسجده المعروف بالقربمن الأزهر، كما يقول الجبرتي.[1]

وقد تسامَعَ بهذا السفر الجليل ملوك بعض الأمصار الإسلامية، فطلبوا نسخاً منه لخزائنهم، مثل السلطان العثماني، وملك المغرب، وسلطان دارفور، وملوك الحجاز والهند، واليمن وغيرهم. وقد أعرب اولئك السلاطين والملوك عن إعجابهم بالزبيدي وعن تقديرهم لعلمه ومصنفاته عموما، فراسلوه، وأتحفوه بالهدايا والصلات السنية.

وفي ذلك يقول الزبيدي في إجازة من تحريره أثبتها تلميذه وجيه الدين الأهدل في كتابه: النفَّس اليمانيوالروح الروحانيمانصه: (ومما منَّ الله تعالى عليَّ أني كتبتُ على القاموس شرحاً غريباً في عشر مجلدات كوامل، جملتها خمسمائة كراسمكثتُ مشتغلاً به أربعة عشر عاماً وشهرين، واشتهر أمره جدا، حتى استكتبه ملك الروم نسخة، وسلطان دارفور نسخة، وملك الغرب نسخة، ونسخة منها موجودة في وقف أمير اللوا محمد بيك بمصر، بذل في تحصيله ألف ريال، وإلى الآن الطلب من ملوك الأطراف غير متناه .. الخ)[2]

بعد ذلك، نزل الزبيدي منزلاً في محلة يقال لها (سويقة اللالَّا (، على مقربة من مسجد شمس الدين الحنفي، غرة عام 1189 هـ / 1775م، وفتح فيه مجالس للدرس. وبدا يفيد الناس بالوعظ، والتمائم وقراءة الأوراد. فاتجه الناس إليه لزيارته والاستفادة منه، والتشاور معه في أمور دينهم وتعليمهم، حتى انتشر خبره إلى أقاصي البلاد، فتهافت عليه الناس، وأحبوه واحتفوا به وأكرموه .

وقد اتجهت الأنظار إلى الزبيدي، وتطلعت النفوس إلى سماعه، لما تميز به من علم غزير، واطلاع واسع، فأذُن له بالتدريس في القاهرة، فشرع في تدريس صحيح البخاري في جامع شيخون بالصليبة. وكان يحضر دروسه كبار علماء الزهر من أمثال الشيخ احمد الشجاعي، والشيخ مصطفى الطائي، والشيخ سليمان الأكراشي فازداد بذلك صيته، وطبقَّت شهرته الآفاق.

1 عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، الجزء الثاني، ص 74. 75 -

2 عبد الرحمن الأهدل، **النفس اليماني**، تحقيق عبد الله الحبشي، دار الصميعي، الرياض، 2012م، ص 271.

وقد كان مجلسه في البداية مخصوصاً بعلماء الأزهر، ولكن عندما انتشر خبره إلى المناطق البعيدة، جعل عامة الناس يتوافدون عليه بإقبال وشغف شديدين، وعمرت حلقة درسه جدا. ثم غير الزبيدي أسلوبه، وجعل يمُلِي على الحاضرين بعد قراءة حديث صحيح من المسلسلات أو الفضائل، مع سرد أسماء رجال سنده ورواته من ذاكرته، بالإضافة إلى قراءة أبيات من الشعر في شرح المفردات التي وردت في الحديث. وقد أعُجب المجتمعون بهذا الاسلوب الشائق المبدع، وبهذه البراعة والخبرة، فازدادوا في تبجيله وإكرامه .

وافتتح الزبيدي حلقة درس آخر في مسجد الحنفي، واستمر في تدريس كتب الحديث بأسلوب مبتكر وجذاب، وكان يشهد تلك الدروس حتى الأحداث والأطفال والنساء والفتيات من خلف الستائر، ثم يكُتب ما أملاه، مع كتابة اليوم والتاريخ ثم يصححه الزبيدي، وذلك على طريقة المُحدِثين القدامى.

وكانت سُنةَّ الإملاء قد انقطعت بموت الحافظ بن حجر (ت 852 هـ / 1449م)، وتلميذيه الحافظ السخاوي (ت 902 هـ/1497م)، وجلال الدين السيوطي (ت 911هـ/ 1505م)، وبهما خُتم الإملاء، فأحياه الزبيدي بعد مماته، ووصلت أماليه إلى نحو اربعمائة مجلس .

وكذلك كانت للزبيدي مجالس خاصة أخرى بمنزله بعطفة الغسَّال، ومنزله الآخر بخان الصاغة، وكذلك بمنازل بعض تلاميذه في الصنادقية وبولاق. وتلاميذه كانوا يحضرون تلك المجالس، ويدونون ما كان يمليه عليهم شيخهم.[1]

أما تلاميذ الزبيدي المصريون الذين رووا عنه، فقد ذكرهم الكتاني في فهرسه وهم: الشنواني، وعلي الونائي، وداؤود القلعي، ومحمد بن احمد البهي الطنطاوي، والشهاب أحمد الدمهوجي، والعلامَّة الشيخ مصطفى الدهني، والشهاب أحمد السجاعي والشيخ مصطفى الطائي، والشيخ سليمان الأكراشي، وعلي الميلي المصري، وعبد المولى الدمياطي الحنفي، وعبدالرحمن بن حسن الجبرتي (المؤرخ المعروف)، ومحمد بن مصطفى العشابي، وهذا الأخير ذكر الكتاني أن عنده إجازة الزبيدي له المؤرَّخة في سنة1194 هـ وغيرهم.[2]

1 انظر ترجمة الزبيدي في كتاب **عجائب الآثار**للجبرتي، الجزء الثاني، الصفحات 73 – 75، وكذلك انظر ترجمة الزبيدي في كتاب **فهرس الفهارس** للكتاني، الصفحات 526 – 543.

2 محمد عبد الحي الكتاني،**فهرس الفهارس**، ص 539.

الفصل الثالث

لـمــحة عن آثــار الزبيــدي ومؤلفاتـــه

تقدمـــــة:

كان محمد مرتضى الزبيدي عالِماً موسوعياً واسع المعرفة، وغزير العلم في شتى علوم التراث العربي والإسلامي الشائعة في عصره. وقد كان بنفس القدر، مؤلفاً كثير الإنتاج، رغم أنه لم يعمر طويلاً نسبيا، إذ انه توُفي وعمره حوالي 59 عاماً ميلادياً فقط (1732 – 1791م). فكأنه يُذكِّرُنا بالحافظ جلال الدين السيوطي (ت 1505م) الذي توُفي في مثل سنه تقريباً، في كثرة مؤلفاته وتنوعها وقيمتها العلمية والمعرفية العالية .

وقد أحصى أحد الباحثين المعاصرين جملة ما ألفه مرتضى الزبيدي من مصنفات فبلغت 159 كتاباً ما بين صغير وكبير، وما بين شرح، وتعليق، وتخريج، وكذلك ما بين منظوم ومنثور، وفي مجالات مختلفة ومتنوعة شملت: القرآن، والحديث، والفقه واللغة، والأدب، وعلم الأنساب، وعلم الإسناد، والتاريخ، والتصوف، والعقائد.[1]

ولبيان موسوعية الزبيدي، وغزارة انتاجه، بحسبنا ان نقتبس هذه الفقرة من ترجمته بكتاب: فهرس الفهارس لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني:

(هذا الرجل كان نادرة الدنيا في عصره ومصره، ولم يأت بعد الحافظ بن حجر وتلاميذه أعظم منه اطلاعاً، ولا أوسع روايةً وتلماذاً، ولا أعظم شهرة، ولا أكثر منه علماً بهذه الصناعة الحديثية وما إليها. كاتبَ أهل الأقطار البعيدة بفاس وتونس والشام والعراق وكاتبوه. وقد كنت في صغري وقفتُ على أوراق تتضمن ورود استدعاء على الحافظ أبي العلاء العراقي[2] من المشرق، فلم أشك انها للمترجم، حتى ظفرتُ بعد ذلك بما أيدَّ ظني، فهو خِرِيتُ هذه الصناعة، ومالك زمام هذه البضاعة. وكان الناس

1 قمر شعبان الندوي، (مرتضى الزبيدي: إفاداته وآثاره (، مقال بموقع مجمع البحث العلمي بالهند، نشُر بتاريخ 18 يونيو 2013م، بالرابط أدناه: www.majmaulbahs.blogspot.com/2013/06/blog-post6633,html

2 هو الحافظ أبو العلاء إدريس بن محمد العراقي الحسيني الفاسي المغربي(1120 – 1183 هـ). كان من أكبر علماء الحديث بالمغرب في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي. انظر ترجمته بالموقع الاكتروني لمركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث التابع للرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية.

يرحلون إليه ويكاتبونه لتحرير أنسابهم وتصحيحها من المشرق والمغرب، ويظهر من ترجمته وآثاره أن هذه الشعلة الضئيلة من علوم الرواية الموجودة في بلاد الإسلام، إنما هي مُقتبَسة من أبحاثه وسعيه وتصانيفه ونشره، وإليه فيها الفضل يعود، لأنه الذي نشر لها الألوية والبنود) .[1] ولما كانت مؤلفات الزبيدي من الكثرة بمكان، بحيث أننا لا نستطيع استعراضها كلها في هذا المقام فلعلنا نكتفي بالتوقف عند أربعة من أبرز مصنفاته، وذلك نسبة لشهرتها، وكذلك نظراً لصلتها بالمواضيع التي تطرقنا إليها في هذا البحث. وتلك المؤلفات هي: تاج العروس من جواهر القاموس، وإتحاف السادة المتقين بإحياء علوم الدين، ومعجم المشائخ أو المُعجم المُختصَ، وألفية السَّنَد.

1 محمد عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، ص 528.

المبحث الأول

تـــاج العـروس من جواهـــر القامـــوس

هو معجمٌ في معاني ألفاظ اللغة العربية ودلالاتها، شرح فيه الزبيدي مادة القاموس المحيط للفيروزبادي(ت 817 هـ / 1415م) بتوسع واستفاضة، ومناقشات واستدراكات علمية جمَّة، تنم عن علم مكين، وتبحر عميق، في مختلف أبواب التراث اللغوي والأدبي العربي. شرع الزبيدي في تأليف هذا الكتاب في حوالي سنة 1174 هـ أي بعد قدومه إلى مصر بسبعة أعوام، وكانت سنهُّ إذ ذاك حوالي تسعة وعشرون عاما وانتهى من تأليفه كاملاً في سنة 1188 هـ أي أ نَّ تأليفه قد استغرق منه نحو أربعة عشر عاما .

تصف مكتبة الورَّاق على الشبكة العنكبوتية معجم (تاج العروس (، عند تقديمها له بأنهَّ أضخم معاجم اللغة العربية قديمها وحديثها. شُرع في طباعته سنة 1965م وتمت طباعة المجلد 21 منه سنة 1984م، وفي مقدمته تعريف بماهو قيد الطبع منه، ومجموع مجلداته 35 مجلدا.[1]

ولعل الطبعة التي شُرع فيها لهذا الكتاب في عام 1965م المشار إليها، هي نفسها الأجزاءالعشرون الأولى التي أصدرتها مطبعة حكومة الكويت في ذلك العام، بتحقيق الأستاذ عبدالستار أحمد فرَّاج، رئيس التحرير سابقاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة. ومن هذه الطبعةنسخة الكترونية بمحرك البحث الالكتروني الشهير غوغلGoogle books، وقفعليها هذا الباحث تصفحا وقراءة عابرة فقط، لأنها غير متاحة للتحميل والاستنساخ المجاني .

ويصف طائفة من المستشرقين هذا المعجم بانه: آخر المد اللغوي في المعاجم العربية، وبعده توقفوا في هذا المجال.[2] وهو معجم يأخذ باواخر الكلمات، أي يأخذ بالحرف الأخير من مصدر الكلمة، ثم الحرف الأول ثم الثاني، وهو نفس الترتيب الذي ورد في القاموس المحيط .

1 موقع الورَّاقhttp://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=282&option=1

2 http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=282&option=1 موقع الوراق الألكتروني

أما عدد جذور هذا المعجم، فمن الثلاثي 7597، والرباعي 4081، والخماسي 300، المجموع 11978 جذراً. وهو يعتبر بهذا ثاني أكبر المعاجم العربية.[1]

يبدأ الزبيدي كتابه: تاج العروس، بمقدمة ضافية يتناول فيها عشرة مقاصد تتعلق باللغة العربية، يبدأها بسؤال حول الجدل التاريخي والكلامي القديم الذي دار حول عمَّا إذا كانت اللغة العربية توقيفية ام اصطلاحية ؟، ثم يتناول اتساع لغة العرب في المقصد الثاني ويختمه بالقول: (الذي جاء عن العرب قليل من كثير، وأن كثيراً من الكلام قد ذهب بذهاب أهله (. وهكذا يتوسع المؤلف في تلك المقدمة المنهجية والإطارية حتى نهايتها. ومن ثم ينطلق الزبيدي في شرح ألفاظ القاموس المحيط، ويناقش دلالاتها بتوسع واستفاضة، مستنداً إلى محفوظه الكبير من القرآن الكريم والحديث الشريف، ولغة العرب مستشهداً بأشعارها وخطبها ومقولاتها منذ الجاهلية مرورا بمختلف الحقب الإسلامية المتعاقبة، وبالرجوع إلى أمهات كتب العربية ومعاجمها .

وقد وصف احد الباحثين المعاصرين هذا السفر بقوله:

(تاج العروس معجم لغوي يستفيد منه الدارسون، وأيضاً المثقفون بصفة عامة، ومنخلاله لا نتعرَّف إلى معاني الكلمات فحسب، ولكننا نتجول بين آراء علماء اللغة حولالمفردة ودلالاتها، لتتحول الكلمة إلى كائن حي، نشعر بنبضه بين السطور...... في عدة سطور قليلة، يتجول بك الزبيدي بين ابن سيده، والكسائي وسيبويه والشيباني والأزهري.. وبين أعلام اللغة ومنظِّريها، ليتحول المعجم إلى مادة ثقافية قائمة بذاتها، تتجاوز المعاني المباشرة للكلمة، إلى تاريخ وشخصيات وحراك ثقافي شامل، ينتظمه ذلك المضمار المسمى باللغة العربية) .[2]

ويبدو أنَّ صلة الزبيدي بالقاموس المحيط للفيروآبادي قديمة، وأنَّ هذا الكتاب قد كان أثيراً لديه، وكان هو شغوفاً به منذ عهد مبكر. ويرجع الباحثون السبب في ذلك

---

1 انظر التعريف بمعجم تاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي بموسوعة ويكبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki/تاج_العروس_من_جواهر_القاموس

2 محمد إسماعيل زاهر، (مرتضى الزبيدي – العربية ام المعارف (، مقال بصحيفة الخليج، النسخة الالكترونية، نشُر بتاريخ 15 / 10 / 2016م. www.alkhaleej.ae

إلى أنَّ الفيروزابادي نفسه كان قد زار زبيد باليمن، وعاش بها ردحاً من عمره ونشر قاموسه المحيط هناك بين علمائها وطلابها، ومكث بزبيد إلى أن توفاه الله بها، وفقاً لما جاء في ترجمة الفيروزبادي بموسوعة ويكبيديا بالشبكة العنكبوتية .

ولذلك فإن الزبيدي قد ألفى الجو العلمي في زبيد، يفوح بتراث الفيروزبادي وبكتابه القاموس المحيط على وجه الخصوص، حتى أنه يخبرنا أنه قد بدأ قراءة القاموس المحيط بزبيد وسنهٌّ لم تبلغ العشرين عاماً، وذلك إذ يقول: (حدثنا شيخنا الإمام الفقيه اللغوي رضى الدين عبد الخالق بن أبي بكر بن النمري المزجاجي الزبيدي الحنفي، وذلك بمدينة زبيد حرسها الله، وبحضور جمع من العلماء بقراءتي عليه قدر الثلث (أي من القاموس المحيط)، وسماعي له فيما قرُئَ عليه في بعضه.)[1]

1 عبد الستار احمد فراج، مقدمة تحقيقه لكتاب **تاج العروس** للزبيدي، الجزء الأول، مطبعة حكومة الكويت، 1965م.

المبحث الثاني

إتحـاف السادة المـُتقين بإحيـاء علـوم الديـن

يبدو هذا الكتاب ظاهرياً من عنوانه، كتاباً في التصوف والروحانيات، وربما كان منشأه هو انخراط الزبيدي في سلك التصوف وهو في شرخ شبابه بالحجاز، وتعلقه بالتالي بكتب التصوف ورموزه مثل الإمام أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ/1111م) وكتابه إحياء علوم الدين. على أن هذا التفسير صائب على كل حال، لأن الزبيدي قد قرأ كتاب (الإحياء) للغزالي على شيخه عبد الرحمن العيدروسي، الذي كان قد لقيه بمكة، واخذ عنهالطريقة العيدروسية. وقد كانت تلك القراءة هي النواة الأولى لشرح هذا الكتاب

أتمَّ محمد مرتضى الزبيدي إملاء كتابه: إتحاف السادة المتقين بإحياء علوم الدين ببيتهبسويقة اللالّا في مصر في مدة 11 عاما، ليفرغ في 5 / جُمادى الثانية 1201 هـ الموافق 24 مارس 1787م، أي قبل نحو أربعة أعوام من رحيله، ولكي يكون بالتالي، أحد آخر مؤلفاته . ولكنَّ بعض الباحثين المعاصرين، يرون أن تأليف الزبيدي لكتابه: إتحاف السادة المتقين بإحياء علوم الدين، يمثل تجلِّياً وتجسيداً لثمرة الحراك الفكري، والتفاعل المعرفي الذي كان يمور به مجتمع العلماء بالحجاز منذ القرن السابع عشر وخصوصاً في بحر القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك على خلفية بروز شبكة لعلماء الحديث النبوي الشريف، وكبار مُسنديه آنئذٍ. ثم ازدادت ديناميكية ذلك الحراك خاصةً بعد ظهور حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو ما حدا بالزبيدي، بوصفه أحد شهود ذلك الحراك، إلى محاولة الاسهام بهذا الجهد الفكري، الذي يستهدف في نظرهم الانتقال بالتصوف من دائرة محي الدين بن عربي والحلاجَّ وعبد الكريم الجِيلي ومن إليهم، إلى دائرة أبي القاسم الجنيد والغزالي وأضرابهم. أي التصوف السُنيِ القائم على العقيدة الصحيحة، والتمسك بما يثبت من السنة المتواترة، والأحاديث النبوية الصحيحة، مما مهَّد لظهور طائفة من الحركات الدينية الإصلاحية، والطرق الصوفية التجديدية.[1]

1 VOLL, John O., Hadith Scholars and Tariqahs: An Ulama Group in the 18th Century Haramayn and their Impact in the Islamic World ‘op.cit

المبحث الثالث
معجـم الـمشائـخ أو (المعجـم المُختص)

هذا كتابٌ ضخم في التراجم، ألفه الحافظ مرتضى الزبيدي في آخر عمره كما نصَّ على ذلك علامة المغرب عبد الحي الكتاني. وهو يشتمل على نحو ستمائة ترجمة لمشائخه وطلابه الذين أخذوا عنه كذلك .

وقد عرَّفه الزبيدي نفسه في أوله قائلاً:

هذا معجم مختصٌ بذكر من أخذت عنه العلوم والمعارف من شيوخي وآبائي، ومن جالستهأو جالسني من طلبة الحديث من رفيق وصاحب وصالح، أوتبركت به من أرباب الكشفوالأحوال الصادقة، أومن المشاهير، وقد أذكر فيه من أحبني في الله ورسوله وأحببته، أو أنشدني شيئاً من الشعر أوأنشدته، او استفدت منه شيئاًأوسمعت بأخباره فكاتبته أو كاتبني، وبعضهم أميزُ في هذا الشأن من غيره وبعضهم مزجيُّ البضاعة، كما أنبه عليهم بنعوتهم، وبعضهم ليس له عناية بهذا الشأن، ولكني أذكره، لأني بلوت منه معروفاً، مُرتِّباً ذلك على حروف التَّهجِّي، مراعياً الترتيب في اسم أبيه، ومن لم أجد اسم أبيه،ذكرته في آخر الحرف) .[1]

وكأمثلة لتلاميذ الزبيدي الذين رووا عنه، وأثبتهم في المعجم المختص، كما اوردهم الكتاني:

من المصريين: الشنواني، وعلي الونائي، وداؤود القلعي، والشهاب أحمد الدمهوجيوالشيخ احمد السجاعي،والشيخ مصطفى الطائي، وعلي المِيلي المصري، وعبد المولى الدمياطي الحنفي وغيرهم .

ومن الحجازيين: إبراهيم الريِّس الزمزمي، وعبد الحفيظ العجيمي، وإسماعيل بن محمد سعيد المدني، وعمر بن عبد الرسول العطار المكي وغيرهم .

1 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي، ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م، ص 43 - 44.

ومن العراقيين: محمد سعيد السويدي وولده علي، وعثمان بن محمود الهزاري القادري البغدادي، وعمر الآمدي الدياربكري، وغيرهم .

ومن الجزائريين: الشيخ أبو راس المعسكري، ومحمد بن الجندوز، والسيد مصطفى بن عبد القادر الراشدي، وعبد القادر الراشدي، وجميع أهل الراشدية، ومحمد السنوسي وابن سعد التلمساني، وحمودة المقايسي .

ومن التونسيين: عمر بن المؤدب الشاذلي، وأولاد السنح الغرياني، ومحمد بن حمودة الحسني الصفار، وحسونة القصري، وغيرهم .

ومن المغاربة: صالح الفلانَّي، وعبد العزيز بن حمزة المصطاعي المرَّاكشي، وابن عبدالسلام الناصري الدرعي، وابن قدور الرزهوني، وأحمد عبد الكريم مغيرزالمكناسيالحاج، ومحمد بنيس شارح الهمزية، وعبد القادر بن شقرون ..... وأبي الأمانة جبريل بنعمر السوداني، وولده أبي التوفيق عمر السوداني، وغيرهم .

ومن اليمنيين: كأولاد النفيس سليمان الأهدل ذكوراً وإناثاً، والشمس محمد بن إسماعيل الربِّعي الأشعري، وغيرهم من الأعلام.[1]

ولعلنا نلاحظ أن هذا المصدر قد عدَّ الشيخ جبريل بن عمر وابنه عمر من المغاربه على الرغم من أنه قد نصَّ على جنسيتهما السودانية، وهو يريد في هذا السياق، بلاد السودان بالمعنى الواسع القديم وليس المعاصر. وربما لأن جل العلماء الأفارقة الذين تتلمذوا على يد الزبيدي وترجم لهم تعود أصولهم لبلاد السودان الغربي، أي غربي إفريقيا المسلمة، فقد ساغ للكتاني وللزبيدي أيضاً، أن يشملهم في عداد المغاربة بالمدلول الجغرافي وليس العرقي .

هذا، وجبريل بن عمر المذكور هنا، هو الشيخ جبريل بن عمر الطارقيالأغاديسي(ت 1789م)، وهو أستاذ المجاهد الشهير الشيخ عثمان دان فوديو (1754 – 1817م) .وكان الشيخ جبريل قد درس الحديث والفقه على الزبيدي بالحجاز. وانطلاقاً من ذلك، يعتقد بعض الباحثين أن شيئاً من التشدُّد والسلفية نوعاً ما، قد لحقتا بفكر

1 محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني،**فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجموالمشيخات والمسلسلات**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، باختصار من الصفحات 539 – 541.

وسلوك الشيخ عثمان بن فودة. ونظراً لأن شيخ عثمان دان فوديو قد تتلمذ على يد تلميذ محمد مرتضى الزبيدي، فإن تلك الصلة تمثل بكل تأكيد حلقة ترابط ووصل مع سند العلامة الزبيدي، لكثير من العلماء والطلاب في وسط إفريقيا وفي سودان وادي النيل كذلك. ذلك بان أعداداً كبيرة من سكان بلاد الهوسا والفولاني وغيرهم من أبناء الشيخ عثمان وأتباعه بشمال نيجيريا، قد هاجروا إلى السودان الشرقي منذ القرن التاسع عشر بدعوة منه، لكي يكونوا في نصرة المهدي الذي تنبأ لهم بأنه سوف يظهر في أرض النيل. وقد ازدادت وتيرة تلك الهجرة خصوصا في مطلع القرن العشرين، بعد ان قضى الاستعمار البريطاني على الخلافة التي أسسها الشيخ عثمان بولاية صكتو بشمال نيجيريا، وكانت قائمةً منذ عام1804م .

على أننا لاحظنا أنَّ الكتاني قد أغفل ذكر علماء ومشايخ سودان وادي النيل الذين تتلمذواعلى الزبيدي مباشرةً،أواستجازوه بالمراسلة، وهو عدد لا بأس به. وربما كان السبب في تلك الهفوة غير المقصودة غالباً، أن الكتاني لم يكن يعرف حقيقةً سودان وادي النيل معرفة جيدة، ولم يكن – فيما يبدو – مُطَّلعا بصفة خاصة، اطلاعاً عميقاً على تاريخ التعليم الديني، ومظاهر الثقافة الإسلامية فيه، كما لا يظهر عليه أنه قد سبق له زيارة الخرطوم، أوغيرها من الحواضر السودانية مطلقاً، على الرغم من أنه قد عاش حتى أوائل ستينيات القرن الماضي. فبخلاف تلاميذ الزبيدي السودانيين، أعني (السودان المصري) كما كان يعرفه سائر المغاربة من معاصري الكتاني بهذا الاسم، والذين لم يشر إلى أيٍ منهم، نجد أن الكتاني قد ذكر علماً واحداً فقط ذا صلة ما بالسودان، وإن لم تكن تلك الصلة صلة مباشرة تماما. وذلك العلم هو السيد محمد سر الختم الأصغر(1834 – 1917م) بن السيد محمد سر الختم بن السيد محمد عثمان الميرغني الختم الكبير(1793 – 1853م) مؤسس الطريقة الختمية في السودان. والشاهد هو أن السيد محمد عثمان الختم حجازي الأصل، ولكنه زار السودان ونشر فيه طريقته وتزوج فيه، وخلف ذرية كان وما يزال لها دور كبير في الحياة الروحية والسياسية الاجتماعية في السودان، بينما أن جدة حفيده السيد محمد سر الختم الأصغر، المترجم له في فهرس الفهارس للكتاني، أم أبيه محمد سر الختم الأكبر فيمنية الجنسية من بيت الأهدل. وقد تزوجها الختم باكراً، عندما كان ملازماً لأستاذه السيد أحمد بن إدريس الحسني بمدينة (صبيا (باليمن، وذلك قبل

دخوله السودان وزواجه بالسيدة (رقية بنت جلاب (بمدينة (بارا)، وهي والدة نجله السيد محمد الحسن (1819 – 1869م)، مؤسس الفرع السوداني من عشيرة المرغنية. هذا، كما أن ذلك الفرع الذي أسسه السيد محمد سِر الختمالمرغني، قد آثر العيش في مصر فصارت هويتهم مصرية بالأحرى . وبذلك صارت علاقة ذلك الفرع من أسرة المراغنةبالسودان علاقة غير مباشرة.

ذلك، وقد استدرك الكتاني على المؤلف الزبيدي، فأشار إلى أن هذا الأخير قد ذكر فيمؤلفاته الأخرى، أسماء أعلام التقى بهم في مناسبات مختلفة، ولكنه لم يضمن أسماءهم في معجمه الكبير، كما لاحظ الكتاَّني مُحقاً، أن عبد الرحمن الجبرتي قد اتكأ اتكاءاً عظيماً على أستاذه الزبيدي في التراجم التي أثبتها الجبرتي في تاريخه فنقل من معجم الزبيدي نقلاً حرفياً، خصوصاً بالنسبة للعلماء والفقهاء. وختمَ فيشئ من السخرية: (وإنما زاد الجبرتي بتراجم بعض الأمراء والقوَّاد ورؤساء الأجناد، وبعض اليهود.)[1]

1 نظام محمد صالح يعقوب ومحمد ناصر العجيمي، تقديم كتاب: **المُعجم المُختصَ** للحافظ محمد مرتضى الزبيدي نقلا فهرس الفهارس للكتاني، مرجع سبق ذكره، ص 10.

المبحث الرابع
ألفيـــة السنـــد

هي منظومة شعرية من بحر الرَّجز الذي درج مختلف العلماء والفقهاء والتربويين العرب والمسلمين، وخصوصاً في السابق، نظم مناهج مختلف ضروب العلم فيه تسهيلاً لحفظها بالنسبة للناشئة والأطفال وحتى الكبار، وذلك لما يتميز به من سلاسة وعذوبة، تغري بقراءته والتغني به، بل وحفظه أيضا.

وقد نظم الشيخ محمد مرتضى الزبيدي هذه المنظومة في نحو ألف وخمسمائة بيت على شاكلة ذلك النوع من الأراجيز التعليمية التي ذكرناها آنفا، وقد ضمَّنها جملة من المعارف والمعلومات المتعلقة بعلم مصطلح الحديث، والرواية، والسند، والإجازة، وما إلى ذلك .

ثم إنه ذكر فيها أسماء من التقى بهم من المشائخوالعلماء، وأخذ عنهم شيئاً من العلم.

ويبدو أنَّ الزبيدي قد ألفَّ ألفية السَّند أولاً، ثم رجع إليها فوضع منها كتابه المعجم الكبير الذي يعُرف أيضاً بمعجم المشائخ أو المعجم المختص.

على أن بعض الباحثين قد لاحظوا أن ليس كل من هو مذكور في ألفية السند، قد ترجم له الزبيدي في المعجم المختص، ولكننا نستطيع أن نقول إجمالاً أنَّ السواد الأعظم من أولئك الأعلام المذكورة أسماؤهم في منظومة ألفية السند، قد وردت تراجمهم أيضاً في المعجم المختص، وأنَّ المصنفَّيْن هما في الواقع مكمِّلان أحدهما للآخر.

وقد فرغ الزبيدي من تأليف هذه المنظومة في إشراق يوم الجمعة 3 محرم سنة 1190 هـ ثم شرحها في نحو عشر كراريس، واشتهرت هذه المنظومة في الآفاق، وكثرُ رواتها الذين كان من بينهم تلميذه سلامة بن محمد الأشبولي الحنفي الأزهري، الذي حرَّرها وقابلها بنسخة شيخه الإمام الزبيدي في سنة 1197 هـ وأطلَع عليها الناظم، وأجاز تلميذه بروايتها.[1] .

---

1 مرتضى الزبيدي،**ألفية السند**، كتبها تلميذه سلامة بن محمد الأشبولي الحنفي الأزهري،وقابلها بنسخة من خط الزبيدي وأجازه بروايتها، تحقيق وتعليق الدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 2006م، ص 9.

وهاهي ذي – على سبيل التمثيل – أبياتٌ من مطلع منظومة (ألفية السَّنَد) للزبيدي:

يقول راجِـــي عفـــوَ ربيَّ والرِضَى	محمـــــدٌ هو الشريــفُ المُرْتضَى
الحمدُ للهِ المُفيــــضِ الهـــادي	إلى طـــريقِ الوصلِ بالإِسـنــادِ
بحفظـهِ الـفـردَ عـــن الإعــضالِ	ورفعـهِ الصـحيحَ للإكمــــالِ
إليه في كلِ أمــــوري أســتنـدْ	ومـا ينـُـوبُ فعــليهِ أعــتمدْ
ثـــم صـــلاتـــهُ مع السَّـــلامِ	على النبيِ المصـــطفى التهامـي
محمدِ المحمــودِ خيرِ مُــــرسَـلِ	الفـاتح الخـاتمِ أزكـــى مُنسَـلِ
وآلـــــهِ وصحـــبهِ الكـــرامِ	والتـــابعين الســادةِ الأعــلامِ
وهــــذه ألفـــيةًّ مُــنيفـــــهْ	مـَـنظــومةٌ رائعــةٌ لطــــيفهْ
ضمَّنْــــتهُا مالِي من الإسنــــــادِ	عــــن الشيوخ السادةِ الأمـجادِ
مِمَّـــنْ لقـــيتهُ من الأخــيـــارِ	فــــي ســائرِ البلُدانِ والأقطارِ
أوردتهـــــُمْ فـــيها على الــوَلاءِ	في نسَـــقٍ يشُرِقُ بالســــنَـاءِ
وربـــمــــا ذكـرْتُ منْ أجــازا	كـــتابةً وذاكَ أمـــرٌ جـــازا
بالاتفـــاقِ قـــيلَ لمـَّـا قَلُّـــوا	(إن لم يصُبْها وابلٌ فطَــلُّ).. الخ [1]

1 مرتضى الزبيدي،**ألفية السند**، كتبها تلميذه سلامة بن محمد الأشبولي الحنفي الأزهري،وقابلها بنسخة من خط الزبيدي وأجازه برواياتها، تحقيق وتعليق الدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 2006م، ص 50.

الباب الخامس

تلاميذ مرتضى الزبيدي بالسودان

الباب الخامس
تلاميذ مرتضى الزبيدي بالسودان

الفصل الأول
المعجم المُختص للزبيدي كمصدر مهم من مصادر تراجم الأعلام

تمهيـــــد:

كتاب المعجم المُختص أو معجم المشائخ، لمحمد مرتضى الزبيدي، كتابٌ ضخم في التراجم. ألفه الزبيدي في أواخر عمره، وضمَّنه أسماء وسير جُلّ من لقيهم من المشائخ وطُلاب العلم، فأخذ عنهم أو أخذوا عنه، وذكر معظمهم في منظومته المطولة التي تُسمَّى: (ألفية السَّنَد). وهذا الكتاب يحتوي على نحو ستمائة ترجمة لمشائخ الزبيدي وطلابه الذين أخذوا عنه، مع ذكر الأقطار التي ينتمون إليها. وقد كان من اولئك المشايخ والطلاب، مصريون، وحجازيون، وعراقيون، ويمنيون، وهنود، ومغاربة بالمعنيين العام والخاص، وتوانسة، فضلاً عن أعلام من بلاد السودان الأوسط والغربي، بل ومن بلاد سودان وادي النيل، أو السودان الشرقي، كما سوف نرى بعد قليل.

لقد أغرى هذا المنجم المعرفي الضخم في الواقع، نفراً من الكُتَّاب والباحثين، فطفقوا ينهلون من معينه، وذلكعلى نحو ما رأينا من قبل في ملاحظة الكتاني، أنَّ المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، الذي هو نفسه أحد تلاميذ الزبيدي، قد اعتمد اعتماداً شبه كامل على معجم استاذه الزبيدي، في معظم التراجم التي أثبتها في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار).[1]

وإلى جانب ذلك، لاحظنا أنَّ كتاب المعجم المختص، وما احتوى عليه من تراجم جزيلة لعدد وافر من علماء وفقهاء ومتصوفة سائر الأقطار الإسلامية، قد شجَّع بعض الباحثين المعاصرين أيضاً، فجعلوا يضعون أبحاثاً، ويؤلفون مصنفات في التراجم

1 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي، ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م ، مقدمة المحققيْن، ص 10.

والسير المتعلقة بأعلام أقطارهم خاصةً، انطلاقاً من تراجمهم المُدوَّنة في كتاب: المعجم المختص للزبيدي.

وبوسعنا ان نذكر – على سبيل المثال – في هذا المقام، مثالين اثنين على ذلك نوضحهما في المبحثين التاليين:

المبحث الأول

اتصال السند العلمي في ليبيا: تلاميذ العلاَّمة مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ - 1791م)

وهذه هي ورقة علمية، أعدها وقدمها (عمَّار جحيدر) بالمؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا، الذي انعقد بمدينة زليطن بليبيا في عام 1988م، ونُشرت ضمن محتويات المجلد الأول، الذي حوى أوراق ذلك المؤتمر ومداولاته.[1]

ففي تلك الورقة، يُوقفنا الأستاذ عمار جحيدر على تراجم ثمانية من الأعلام الليبيين، استخرجها من مخطوطة (المعجم الكبير) أو) المعجم المختص (للزبيدي. وفيما يلي، نقتبس هذه الفقرة التالية التي يُعرِّف الباحث المذكور من خلالها بالزبيدي، ويبين مدى شهرته الواسعة في العالم الإسلامي في عصره، ثم يوضح ملابسات عثوره هو على مخطوطة المعجم الكبير للزبيدي (قبل طباعته ونشره مؤخَّراً بالطبع)، ثم وقوعه بالذات، على تراجم بعض الأعلام الليبيين بداخله:

(لقد نال الزبيدي آنذاك شهرةً واسعة في العالم الإسلامي، وكان الاتصال به والأخذ عنه من مفاخر العلماء، وكان من بين تلاميذه الذين أثبت تراجمهم في (المعجم الكبير) ثمانية من العلماء الليبيين. وكان الشيخ الكتَّاني قد نوَّه بهذا المُعجم كثيراً كما مرَّ أعلاه، ولكنه ذكر أنه أهمل من كبار الآخذين عنه جماعة لم يترجم لهم، منهم أحمد الطبولي الطرابلسي، ومحمد بن خليل بن محمد بن غلبون الأندلسي الأصل الطرابلسي الدار، وعدَّ معهما جماعة ثم قال (وجُلُّ هؤلاء عندي إجازته لهم إما بخطه، او منقول عن خطه) (أي أن الكتاني ذكر أن الزبيدي قد أهمل ذكر من ذكرهم هو آنفا – والزيادة بين القوسين للشرح من الباحث).

وقد شوَّقتني تلك الإشارات إلى الاطلاع على هذا المخطوط (يعني مخطوط المعجم

---

1 عمَّارجحيدر، (اتصال السند العلمي في ليبيا: تلاميذ العلاَّمة مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ - 1791م) ورقة منشور في مجلد: **أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا: واقعها وآفاق العمل حولها**: زليطن 1988م، الجزء الثاني، وقف على نشرها وقدَّم لها عمَّار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، كلية الآداب والتربية، زليطن، الجماهيرية العربية الليبية، 1992م، الصفحات 1411 – 1442

الكبير او المعجم المختص للزبيدي – الزيادة من الباحث) منذ اوائل سنة 1981م، عند اشتغالي بالتعريف بابن غلبون الحفيد، ثم أُتيح لي مؤخراً بحمد الله تعإلى الوقوف على المخطوط المؤمَّل في أوائل سنة 1988 في نسخته الأصلية التي هي بخط المؤلف بالمدينة المنورة، فسُررتُ باكتشافي للتراجم الليبية (الثمانية) التي بين دفتيه، وفي غياب التصوير بادرت إلى نسخها بيدي، ثم تمكَّنتُ – بحمد الله تعإلى – من الحصول على صورة كاملة للمخطوط على الميكروفلم بمكة المكرمة. والكتاب لا زال في مسودته الأولى، إذ أنَّ به كثيراً من الزيادات في الحواشي ....

وأُرجئ التعريف الشامل بالمخطوط ودراسته إلى فرصة أوسع، آمل أن أُوفق إليها بإذن الله تعإلى، وأبادر هنا إلى تقديم التراجم الليبية التي احتواها، وهو ما يندرج تحت غاية من غايات المؤتمر التي توخيناها... ويتعلق الأمر بمتابعة المخطوطات العربية ذاتالصلة بليبيا في البيئات المجاورة كمصادر أصيلة لدراسة الحياة الفكرية في ليبيا، واتصال سندها العلمي بتلك البيئات.)[1]

ثم يمضي عمار جحيدر في إيراد أسماء العلماء الليبيين المترجم لهم في معجم الزبيدي، ومعها تراجم كل واحدٍ منهم بطولها منقولة من المصدر المذكور، بيد أننا سنكتفي هاهنا فقط، بذكر أسماء اولئك الأعلام الليبيين الذين عثر الباحث المذكور على تراجمهم في كتاب الزبيدي، وذلك على سبيل التوثيق الموجز، دون الإيغال في التفاصيل. واولئك الأعلام الليبيون المعنيون هم:

1- سالم بن احمد بن رمضان بن مسعود الطرابلسي المغربي الأزهري، سمع من الزبيدي الأولية والشعر في آخر جمادى الأولى سنة 1192 هـ.

2- سالم بن راشد البلعزي الطرابلسي المغربي الأزهري، التقى بالزبيدي في فترتين، الأولى في سنة 1172 هـ والأخرى في 1195 هـ .

3- عبد الرحمن بن محمد الغدامسيالمالكي، عرف نسبه بضُوَيْ مُصغَّراً، ورد على الزبيدي حاجاً في سنة 1193 هـ .

1 عمار جحيدر، (اتصال السند العلمالزبيدي في ليبيا: تلاميذ العلامة مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ - 1791م) (، المرجع المذكور اعلاه، ص 1414 – 1416.

4- عبد الرسول بن يوسف بن عبد الله الفزَّاني، زار الزبيدي في عام 1200 هـ وحضر عنده دروسا بمشهد السيدة رقية بالقاهرة.

5- عبد المؤمن بن سليمان المخزومي المالكي الفزَّاني. حضر دروسا للزبيدي بمنزله في عام 1190 هـ.

6- محمد بن أبي بكر بن محمد المغربي الطرابلسي الشهير بالأثرم. قدم على الزبيدي بمصر وزاره بمنزله وسمع منه في سنة 1198 هـ.

7- محمد بن أبي بكر الخويلدي الأوجلي نزيل فزَّان. ورد على الزبيدي في سنة 1197 هـ، فسمع منه الأولية وحضر منزله مراراً لسماع ما يُقرأ عليه.

8- محمد بن خليل المغربي الشهير بابن غلبون. يقول عنه الزبيدي: (فاضلٌ جيد الذهن. ورد مصر سنة 1201 هـ بقصدة المجاورة، فاجتمع بي وسمع مني أشياء، وحضر دروس علماء الوقت في الفنون وأنجَب، وهو من بيت العلم والرياسة.[1]

1 عمار جحيدر، (اتصال السند العلمي في ليبيا: تلاميذ العلاَّمة مرتضى الزبيدي (، ص 1416 – 1430.

المبحث الثاني
صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب

هذا الكتاب هو موسوعة تاريخية وجغرافية شاملة، تتعلق بأخبار قبائل الملثمين وجيرانهم القاطنين ببلاد الصحراء الكبرى وبلاد السودان الغربي. وهو من تأليف الدكتور حماه الله ولد السالم، أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة نواكشوط بموريتانيا.

ويعرِّف الدكتور حماه الله كتابه المذكور هو بنفسه في مقدمته كما يلي:

(هذه موسوعة تاريخية شاملة لمقتطفات تاريخية وجغرافية، بعضها نادر، أو غير متداول على نطاق واسع، من مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب، عن تاريخ وأخبار واوصاف قبائل الملثمين وبعض أهل جوارهم في بلاد الصحراء الكبرى وبلاد السودان، قد وصلتهم من تلك البلاد عبر التجار والمسافرين من الحجاج والرحَّالة من أهل العلم، في سياقات زمانية ومكانية ومجتمعية مختلفة، أثرت على صورة الصحراء وبلاد السودان في الذاكرة العربية الإسلامية، سلباً وإيجابا، تبعا لاهتمام التجار والساسة في الامبراطورية العربية الإسلامية بتلك البلاد وشعوبها.... وهي نصوص متباينة في الطول والقصر، والقيمة والمستوى، والنضج والدِّقة، ومختلفة زماناً ومكانا، باختلاف المؤلفين والناقلين، وتنوع المصادر وطبيعتها.

لذلك فهي نصوص تفيد الباحثين في تاريخ البلاد العربية الإسلامية منذ العصر الوسيط إلى القرن التاسع تقريبا. وهي إلى ذلك تجمع ما تفرَّق في المصادر والأصول المتفرقة، التي يصعب جمعها إلا بجهد وتعب.

وهذه المجموعة تشكل موسوعة حقيقية لم يسبق أن تم جمعها أو تنظيمها وتقديمها في مصنف واحد، منشور ومطبوع. وهي تبدأ بمصدرين إباضيين مهمين

هما الوسياني[1]والدرجيني[2]، وفيهما إشارات ثمينة عن تاريخ الصلات الدينية والتجارية بين الدولة الإباضية في الشمال الإفريقي، والدول السودانية والبربرية في الصحراء وبلاد السودان. وتنتهي بتراجم مُستَخرَجة من معجم المشايخ للزبيدي المصري، لم يسبق نشرها عن رجال من بلاد شنقيط (موريتانيا)، مروا بمصر، مقفلهم من حجهم، أو عبرها ابتداءاً، حيث تلقوا عن علمائها وتلقوا عنهم.)[3]

وتهمنا في هذا السياق بالطبع، وبصفة خاصة، هذه الجزئية الأخيرة من هذا الاستعراض الموجز، الذي قدمه الدكتور ولد السالم لمضمون كتابه، ألا وهي تراجم الأعلام الشناقطة أو الموريتانيين، التي استخرجها المؤلف من كتاب معجم المشايخ

لمحمد مرتضى الزبيدي. وقد صدَّر المؤلف هذا الفصل من كتابه بقوله: (تمثل هذه النصوص مصدراً في غايةالأهمية من علاقة الشناقطة باللغوي المصري مرتضى الزبيدي، وننشرها هنا لأول مرَّةعن أصلها المخطوط بيد المؤلف، وهي هنا مرتبة حسب ورودها في الجزء الأول من المعجم) .. [4]

وفيما يلي نورد باختصار، أسماء الأعلام الشناقطة الذين اتصلوا بالعلامة الزبيدي، وأخذوا عنه، وهم خمسة عشر شخصا، كما أوردها الدكتور ولد السالم في كتابه:

1. أحمد بن عمر الكُنتاوي، التقى بالزبيدي في مصر منصرفاً من الحج في سنة 1195هـ .

---

1 الوسياني (ت 380 هـ - 990م): من كبار علماء الإباضية. برع في علم الكلام، وانفرد فيه بآراء متميزة. وهو من أبناء الحامة بقسطيلية من بلاد الجريد بالجنوب التونسي، نشأ بها وتلقى العلم من جلة علماء عصره. أخذ الأدب وعلم اللسان والفروع عن أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي، واخذ الأصول عن سحنون بن أيوب. تصدَّر هو وزميله أبو القاسم بن يزيد بن مخلد اليهراسني للتعليم، فعقدا حلقات وقصدهما الطلبة من مختلف مواطن الإباضية بالمغرب. انتهج طريقة المدرسة المتنقِّلة بين أحياء مزاتة. ومن تلاميذه: أبو نوح سعيد بن زنغيل، وأبو زكرياء فصيل بن أبي مسور اليهراسني. (نقلا عن **صحراء الملثمين** لولد السالم، ص 11).

2 هو أبو العباس أحمد بن سعيد بن علي بن يخلف الدرجيني (600 – 670 هـ تقريبا). من علماء الإباضية. ترجع أصول أسرته إلى منطقة جبل نفُّوسة بليبيا، هاجر جده يخلف بن يخلف إلى بلاد الجريد بالجنوب التونسي فاستوطن بلدة هناك يقال لها (درجين (. وتقول رواية طائفته إن جده وهو علي بن يخلف تمكن من نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي، بعد أن أسلم ملك مالي على يديه وكان ذلك في سنة 575 هـ حين كان يزاول التجارة بين السودان الغربي وبلاد الجريد. (انظرصحراء الملثمين، ص 12)

3 حماه الله ولد السالم،**صحراء المُلثَّمين وبلاد السودان في نصوص الجُغرافيين والمؤرخين العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011م، ص 3- 4.

4 حماه الله ولد السالم،**صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيينوالمؤرخينالعرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م، ص 630.

2. أحمد الحبيب بن المختار بن القاضي العلوي بن عبدي بن محمد عبد الله الشنقيطي المالكي. ورد على الزبيدي في سنة 1193هـ .

3. إدريس بن عمر بن عبدالقادر التواتي، قابل الزبيدي مرتين إحداهما في سنة 1186 هـ، والأخرى في سنة 1193 هـ.

4. أحمد بن محمد السباعي الإدريسي المعروف بابن الحاج. قابل الزبيدي بمصر وسمع منه الأولية يوم الجمعة في رجب سنة 1193هـ .

5. أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبي نعامة التواتي الملقب بالبكّاي. ورد على الزبيدي حاجّاً في عام 1197هـ .

6. أحمد بن المختار الشنقيطي. ذكر الزبيدي أنه قد ورد عليه من طرابلس حاجاً في رمضان سنة 1303(هكذا في الأصل .. وهنا هفوة طباعية وإنما الراجح هو عام 1203 هـ، أي قبل وفاة الزبيدي نفسهالتي حدثت في 1205 هـ بعامين) .

7. إبراهيم بن الحسين السباعي الشريف. ورد على الزبيدي في اوائل 1303 كم جاء في كتاب حماه الله (وهاهنا خطأ طباعي آخر، وإنما الراجح هو عام 1203 هـ).

8. عبد الله بن محمد الكنتاويالمغربي، الذي قال الزبيدي أنه قد ورد عليه بمصر حاجاً في سنة 1194هـ، فسمع منه في 26 صفر من سنة 1895(هكذا ! وذاك لعمري خطأ مطبعي ثالث، إذ من المؤكد أن المقصود هو عام 1195 هـ، لأن السياق يفيد ذلك) من لفظه الأولية والشعر وحديث إنما الأعمال .. الخ .

9. عبد الله بن أحمد المغفريالشنقيطي، ورد على الزبيدي في عام 1193 هـ في ذهابه وإيابه من الحج .

10. عبد الرشيد الشنقيطي. كان مجاورا بالمدينة المنورة أصلا، ثم ورد إلى مصر والتقى بالزبيدي وسمع منه أشياء في العلم في سنة 1199 هـ .

11. عبد الودود بن المختار العطواني الشنقيطي. سمع الأولية من الزبيدي في يوم الثلاثاء 24 صفر 1192ه، وكتب له إجازة وتوجَّه إلى بلاده.

12. عمر بن عبد الرحمن بن عبد القادر التواتي المغربي. سمع من ابن عمه إدريس بن عمر بن عبدالقادر(الشخص الثالث في هذه القائمة) أشياء، وكتب اسمه في

الإجازة وتوجه مع الركب الفزاني في سنة 1196 هـ. فتلمذته على الزبيدي هي إذاً تلمذة غير مباشرة .

13. عمر بن محمد المغفري الشنقيطي. يقول عنه الزبيدي: (ورد علينا حاجاً في سنة 1193هـ فسمع مني الأولية في يوم الأربعاء لتسع بقين من جمادى الأخيرة منها، وتوجه للحج، ثم عاد إلينا ولازمني في أشياء سمعها مني، واجزت له وتوجه لبلاده بارك الله فيه.) أ. هـ

14. عمر بن المختار الشنقيطي. يقول عنه الزبيدي: (الشيخ الصالح الولي العارف العلامَّة.. ورد علينا سنة 1174هـ ... وعقدْتُّ معه عقد المؤاخاة، وأسمعنا منه قصيدة القطب سيدي علي وفا.[1]

سكن الفؤادُ فعِشْ أيها الجسدْ   هذا النعيم هو المقيم إلى الأبدْ

وأجازنا وأخبرنا أن هذه القصيدة يحفظها عامة أهل بلده ويقرأونها في الكُتاَّب. ثم توجهللحج وعاد إلى طرابلس وبها مات، ودفن بالقرب من مقام سيدي أحمد زروق وبُني علىقبره مقام، وظهرت له كرامات رحمه الله (. وهنا يصرح الزبيدي انه قد تتلمذ لهذا الشيخ الشنقيطي وأجازه، وهو الأمر الذي حدا بنا إلى إيراد تفاصيل أكثر عن ترجمته، لخصوصيتها وتميزها .

15. عمر بن مصطفى بن محمد بن عمر بن زكرياء بن داود بن صالح الكُنتاوي المالكي. ورد على مصر حاجاً في سنة 1198هـ فسمع من الزبيدي الأوليةَّ والشعر، ثم حضر عنده دروساً في كتاب الشفاء للقاضي عياض.[2]

---

1 الشيخ علي وفا) 759 – 804هـ(من الأولياء الصالحين بمصر. شريف النسب من ذرية الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما. تنٌسب إليه كرامةٌ هي أنه عندما توُفي وأنُزل جثمانه في قبره، أنشد قصيدةً جاء في بعض أبياتها:

سكنَ الفؤادُ فعش هنيئاً يا جسدْ   هذا النعيمُ هو المقيمُ إلى الأبدْ أمسيت في كنَفِ الحبيبِ ومن يكنجارَ الحبيبِ فعيشه العيشُ الرَّغد

عِشْ في أمان الله تحت لوائهِ لا ظُلمَ في هذا المكانِ ولا نكَدْ

لو أبصرَ الشيطانُ طلعةَ نورهِ   في وجْهِ آدمَ كان أوَّلَ من سجَدْ لو أبصر النمْرودُ نورَ جمالِهِ   عَبَدَ الجليلَ مع الخليلِ وما عَنَدْ

نقلا عن الطبقات للشيخ عبد الوهاب الشعراوي، موقع مؤسسة الشيخ الأكبر للدراسات العرفانية و الصوفية على الشبكة العنكبوتية www.al-sufia.com

2 حماه الله ولد السالم، **صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيينوالمؤرخينالعرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م، ص 630 – 634

الفصل الثاني

تلاميذ الزبيدي ببلاد السودان الكبري

المبحث الأول

تلاميذ الزبيدي من سودان وادي النيل

وأخيراً، نودُّ أن نوُرد فيما يلي، أسماء وتراجم العلماء وطلبة العلم السودانيين (بالمعنى الخاص) الذين التقوا بالشريف مرتضى الزبيدي كفاحاً، وأخذوا عنه أوراسلوه وأخذوا عنه أو استجازوه بالاستدعاء، وأثبتها في كتابه (المعجم المختص .)

ولعل من الجدير بالذكر، أن أول اسمين وترجمتين على الإطلاق، أوردهما الزبيدي في معجمه، هما لعلمين سودانيين غامضين، ربما لا يعلم الناس عن هويتيهما، وسيرتيهما، ومصيريهما، وحال أسرتيهما في الوقت الراهن، حتى داخل السودان نفسه، شيئا للأسف. وهذان العلمان المعنيان هما على التوالي: الشيخ آدم بن عبد الله الفوراوي المالكي، وابن أخيه آدم بن محمد بن عبد الله الفوراوي المالكي. وهاهي فيما بعدأسماء وتراجم الأعلام السودانيين (بالمعنى الخاص) من تلاميذ مرتضى الزبيدي كما أوردها في كتابه المشار إليه:

1. آدم بن عبد الله الفوراني(الصيغة الشائعة في السودان هي الفوراوِي، نسبة لقبيلة الفور التي تنُسب إليها دارفور. فلعل المؤلِّف أو ناسخاً ما غيره، قد أجراها مجرى بعض صيغ النسب التي تقلب فيها الواو نوناً، مثل النسبة لصنعاء مثلاً بصنعاني، بينما الأصل فيها هو: صنعائي أو صنعاوي – الشرح من الباحث)المالكي... الشيخ الفاضل الفقيه. قدم إلى الجامع الأزهر، وحضر دروس علمائه، ومَهَرَ في معرفة فقه المذهب، وسمع من لفظي (الصحيح) [1] من أوله إلى باب: زيادة الإيمان

1 المقصود بالصحيح في هذا السياق هو صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري(ت 256 هـ - 870م). أشهر علماء الحديث ورواته .سمع من الف شيخ، وجمع ستمائة ألف حديث، اختار منها في صحيحه ما وثق برواته، وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً على هذا النحو. انظر ترجمة البخاري في الأعلام الزركلي وغيره.

ونقصانه، في يوم الجمعة عشرين ذي القعدة سنة(1190 هـ)[1]، ثم لازمني بعد ذلك في دروس (الصحيح) وغيره مشاركاً لجماعة، وفي أثناء ذلك وصله الخبر بشغور منصب الإفتاء في (دارفور)، فطلب مني كتابا إلى حاكمها الرجل الصالح السلطان محمد بيزاب (وهنا تصحيف واضح إذ الراجح هو أن المقصود هو السلطان محمد تيرابلأنهَّ حكم بين عامي 1752 – 1787م – التحقيق والشرح من الباحث) بإكرامه وتوليته المنصب إياه، فكتبتُ له مطلوبه، فتوجَّه إلى (دارفور)، فأكُرم لديه، وقلدَّه المنصب، وهو الآن فيما يبلغني يدرِس ويفتي على حال حسنة – بارك الله فيه[2]

2- آدم بن محمد بن عبد الله الفوراني (الفوراوي) المالكي: ابن أخي المتقدم ذكره . سمع علي ما سمعه عمُّه.[3]

3- الشيخ أحمد بن عيسى بن مضوِي الأنصاري السِناَّري المالكي[4]: شابٌ، فاضلٌ مُشتغل.

---

1 توافق سنة 1775 – 1776م.

2 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي، ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م ، ص 45.

3 المعجم المختص، المصدر أعلاه، ص 45.

4 هو أحمد بن عيسى بن مُضوِّي بن مدني بن عبد الدائم بن عيسى بن بشارة الأنصاري الخزرجي. يروى ان جده عيسى بن بشارة وُلد في المدينة المنورة، ودرس في مصر على الشيخ زكريا الأنصاري ومحمد البنوفري، وقدم للسودان في القرن العاشر الهجري الموافق للسادس عشر الميلادين، وتزوج بنت سليمان النار ملك قبيلة الجُمُّوعيَّة، ثم استقرَّ ببلدة كُترانج على ضفة النيل الأزرق جنوب الخرطوم حيث يقيم جماعة من قبيلة رفاعة، وبنى فيها مسجداً لتعليم العلوم الإسلامية، وظل هذا المسجد يزدهر في كنف أحفاده. وقد وُلد حفيده الشيخ أحمد المذكور بكُترانج سنة 1134 هـ الموافقة لسنة 1737م، فدرس بمسجد جده عيسى بكترانج وبغيره من مراكز العلم والتصوف بالسودان، ثم هاجر إلى مصر طلباً للعلم بها. وصحب في مصر عدداً من أجلة العلماء أمثال أحمد الدرديري، وحسن الكفراوي، والشريف المرتضى الزبيدي وحصل منهم على عدد من الإجازات. وبعد عودته للسودان أخذ يد رِس الفقه في مسجد كُترانج، ثم انتقل إلى سنار.
ومن تلامذته: المشايخ بدوي ولد أبو صفيَّة، والضو ود الراجل، وشنبول وثلاثتهم بكردفان، وجميل الله التعايشي ولد أمبدي، وإبراهيم عبد الدافع أول مفتي بالسودان، والجمري ود الكارب بالقضارف (قاضي محمود ود زايد زعيم قبيلة الضباينة المشهور بالكرم)، وعيسى و داد بالمسلمية، ودفع الله بن شرف الدين بأبي حراز، وجميل الله القاضي الأول للإمام محمد أحمد المهدي. وقد توفي الشيخ احمد بن عيسى الأنصاري عن عمر متقدم، في شهر ذي الحجة سنة 1241 هـ الموافقة لعام(1826م). انظر سيرة الشيخ أحمد ود عيسى بالطبقات، تحقيق يوسف فضل، ص 190، الهامش 8، وكتاب إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري، الصفحتان 17 و18، وتاريخ ملوك سنار (كاتب الشونة)، تحقيق يوسف فضل حسن، ص 260، وكتاب: قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان، للبروفيسور عز الدين الأمين، الصفحات 40 - 47

ورد علينا في سنة 1192 هـ[1] بالاستدعاء[2]من علماء (سنأّر)، فسمع عليَّ في يوم الجمعة 14 ذي القعدة منها الأوليةَّ.[3]وفي يوم الثلاثاء خامس عشر منالشهر، سمععليَّ بقراءة السيد حسين الشيخوني من أوائل كل من: الكتب الستة) [4] (مسند الشافعي)[5]، تخريج (الأم)، و (السُنن) له تخريج الطحاوي[6]، و(مسند أبي حنيفة) [7]للحارثي[8]، و(

1 توافق سنة 1778م

2 2 الاستدعاء مصطلح من مصطلحات التربية والتعليم الإسلاميين. وهو طلب الإجازة الذي يوُجهه المستجيز إلى الشيوخ والعلماء والمُحدَّثين طالباً منهم الإجازة في علم من العلوم، وسند من الأسانيد. ويجوز ان يكون الاستدعاء من الأعلى أو من المساوي أو من الدون، وهو قسمان: 1- استدعاءات يوجهها المستجيزون للعلماء يطلبون منهم الإجازة العامة في المسموعات والمرويات بدون تحديد لكتاب أو فهرس او سند معين ن 2- استدعاءات يوجهها المستجيزون إلى الشيوخ والمحدِثين يطلبون منهم الإجازة بنوع خاص من الفهارس، أو بكتاب معين.

3 الأولية مصطلح حديثي يعني أول حديث يسمعه المستجيز من الشيخ الذي يجيزه، وهو ما تسلسل فيه رجال الإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند روايته على حالة واحدة. إما في الراوي قولاً، أو فعلاً، أو قولاً وفعلا، وإما على صفة. وللزبيدي نفسه بضع رسائل في الحديث المسلسل بالأولية منها: (المرقاة العليَّة في الحديث المسلسل بالأوليَّة).

4 انظر عمار جحيدر، (اتصال السند العلمي في ليبيا (، ص 1416، الهامش(16). الكتب الستة هي:
- 1- صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (194 – 256 هـ).
- 2- صحيح الإمام مسلم بن الحجَّاج القشُيري النيسابوري (206 – 261هـ).
- 3- سنن أبي داؤود سليمان بن الأشعث (202 – 275 ه)
- 4- سنن الترمذي محمد بن عيسى (209 – 279 ه)ـ
- 5- سنن النسائي أحمد بن شعيب بن علي بن سنان (215 – 303 ه)ـ
- 6- سنن ابن ماجة محمد بن يزيد (209 – 273 هـ)

5 مسند الشافعي هو أحد كتب الحديث عند اهل السنة والجماعة. جمعه وصن فه أبو العباس الأصم برواية عن شيخه الربيع بن سليمان صاحب الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت204 هـ) وراوي كتابه. واستخرج الربيع هذه الأحاديث مما روى الشافعي في كتبه مثل: (الأم (و (المبسوط (. ويحتوي على 1675 حديثاً مرتبة عى سائر أبواب الفقه.

6 أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي (238– 321هـ)، فقيه انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر. وُلد ونشأ في قرية طحا في ألمنيا بصعيد مصر، وتفقَّه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفياً. من أشهر كتبه: (العقيدة الطحاوية (. أما سنن الشافعي الذي خرجَّه الطحاوي عن خاله إسماعيل بن يحي المزني، فهو كتاب مطبوع، صدر في عام 1406 هـ عن دار المعرفة ببيروت، من تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي. (انظر ترجمة الطحاوي في موسوعة ويكبيديا بالشبكة العنكبوتية).

7 أبو حنيفة النعُمان بن ثابت (80 – 150 هـ) هو الإمام الأعظم، وأول الفقهاء أصحاب المذاهب الأربعة المعتمدة لأهل السُنَّة والجماعة.

8 أبو محمد عبد الله بن محمد بن يعقوب بن الحارث الحارثي البخاري. فقيه ومحدِث وراوية. أصله من بلاد ما وراء النهر(بخُارى). وُلد في سنة 258 هـ وتوُفي في سنة 340 هـ. (انظر ترجمته في تاريخ بغداد، وميزان الاعتدال للذهبي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي).

الشمائل) [1] و(الشفاء) [2]، و(الأربعين النووية) [3]، و) السنن الكبير (للبيهقي [4]، و) الدلائل)[5] له، و(الشُّعَب)[6] له، و (المُعجم) لابن المقري [7]، و)الرسالة (للقشيري[8]، و) الإحياء (للغزالي[9]، وتحرير ما سمَّعتهُ مبسوطٌ عند كاتبالأسماء. وقد كتبت له إجازة حافلة، ولمن سمَّى في الاستدعاء من علماء بلده، على مايأتي ذكرهم في مواضعه، وعاد بذلك إلى بلاده.[10]

4- إسحاق بن محمد الحربي الفوراني(الفوراوِي): وكيل سلطان دارفور. سمع

---

1 الشمائل المحمدية، وهو أحد كتب السيرة النبوية. من تأليف الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (209 – 279 هـ) صاحب كتاب: سنن الترمذي. وقد أورد في هذا الكتاب صفات النبي صلى الله عليه وسلم الخَلقية والخُلقية، صحيحة وموثقة، وبيَّنَ الشمائل والأخلاق والآداب التي تحلَّى بها صلى الله عليه وسلم، للتأسي به سلوكاً وعملا واهتداءً (انظر تعريف موسوعة ويكبيديا بهذا الكتاب).

2 كتاب في شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، من تأليف القاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي (476 – 544 هـ)، وهو قاضٍ مالكي اندلسي، وعالمٌ وفقيه ومؤرخ ومحدث مشهور. ويعدُّ هذا الكتاب من أحسن الكتب المع رِفة بالنبي صلى الله عليه وسلم. وقد ق سَّمه مؤلفه إلى أربعة أقسام: الأول في تعظيم قدر النبي قولاً وفعلا، والقسم الثاني فيما يجب على العباد من حقوقه عليهم، والقسم الثالث فيما يستحيل في حقه وما يجوز وما يمتنع وما يصح، والقسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام على من تنقَّصَهُ أو سَبَّه. (انظر التعريف بهذا الكتاب في موسوعة ويكبيديا).

3 هي أربعون حديثاً في مباني الإسلام وقواعد الأحكام، جمعها الإمام يحي بن شرف الدين النووي المتوفى عام 676 هـ من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلمَّ.

4 ويقُال السنن الكُبرى للبيهقي أبو بكر اجمد بن الحسين بن علي (384 – 458 هـ): يعُدُّ من أجمع الكتب التي تناولت نصوص الأحكام بكافة صورها المرفوعة وغير المرفوعة،حيث رتبَّهُ المصنِف على الأبواب الفقهية، وأورد تحت كل باب ما يناسبه من النصوص. ويبين المصنف فيه وجوه الاختلاف في الرواية، ويحكم على رواة النصوص في أحيان كثيرة، ويبين علل الأحاديث التي يرويها.. قال عنه ابن الصلاح (ت643 هـ) ممتدحاً له: (إنَّا لا نعلم مثله في بابه.) 6

5 دلائل النبوة. كتاب جمع فيه البيهقي معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته، وبيان شرف أصله، وطهارة مولده، وبيان أسمائه وصفاته، وقدر حياته، ووقت وفاته وغير ذلم مما يتعلق بمعرفته بالرجوع والاستشهاد بالصحيح من الأحاديث والآثار.

6 هو كتاب شُعَب الإيمان للبيهقي. وهو كتاب في بيان الإيمان التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان). رواه مسلم.

7 هو كتاب جمع فيه مؤلفه ابوبكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم الأصبهاني المشهور بابن المقري المتوفى سنة 381هـ اسماء المحديث الذين الذين سمع منهم بالحجاز ومكة والمدينة ومصر والشام والعراق وغير ذلك. وقد رتبهم على حروف العجاء، ولكنه بدأ بمن اسمه محمد إجلالاً للنبي صلى الله عليه وسلم (انظر ترجمته بموقع ويكبيديا).

8 الرسالة القشيرية مصنف لإمام ابي القاسم عبدالله بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري (376 -465هـ) إمام الصوفية وصاحب الرسالة القشيرية في علم التصوف. وهي على اربعة وخمسين باب وثلاثة فصول وتتألف من مجلدين، خصص المجلد الاول من صفحة 61 إلى أخره لتراجم مشائخ التصوف ابتداءً بهذا العنوان: (فصل في ذكر مشائخ هذه الطريقة وما يجب من سيرهم وأحوالهم على تعظيم الشريعة). ثم ذكر تراجم لثلاثة وثمانين شخصاً من كبار زعماء التصوف.

9 شيخ الإسلامِ أبو حامد الغزالي (450-505هـ).

10 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي،ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م، ص 105 - 106.

منلفظي (الصحيح) من حديث هرقل إلى كتاب: زيادة الإيمان ونقصانه، وأشياء مما كان يُقرأ عليَّ في منزلي، وكتبت له الإجازة، وهو يتردد إلى مصر من (دارفور (بعض الأحيان لقضاء أغراض لسيدَّه، وما حصل له حاشية شيخنا ابن الطيب على (القاموس)[1]، ووصل بها إلى تلك البلاد، فعمَّ بها النفَّع. وهو إنسان حسن، وبلغني أن السلطان قد زوَّجه بإحدى أخصَّائه وأثرى، وتموَّل - بارك الله تعإلى فيه - وكان تاريخ سماعه عليَّ سنة (1990 ه).[2]

5- حسن بن عبد الرحمن بن صالح بان الفقاء (صحَّفها المؤلف أو أحد النسَّاخ من بان النقاء او بانقًا. والزيادة والتحقيق من الباحث) الرازقي المالكي السناري[3]: أحد الفضُلاء المدرسين بمدينة (سنار). أجزته بما ذكُر في ترجمة أحمد بن عيسى السناري فياستدعاء من سنار في(14) ذي القعدة سنة(1192 هـ)[4].

6- حسن الكاهلي السناري المعروف ب (سكيكر): كتبت له الإجازة بما ذكُر في ترجمة أحمد بن عيسى السناري في 14 ذي القعدة سنة (1192 ه).[5]

1 حاشية ابن الطيب على القاموس المحيط مُصنِّفُ الفه الشيخ محمد بن الطيب المغربي الفاسي 1110 – 1170هـ،هو أحد شيوخ مرتضى الزبيدي ويرُجَّح أن الزبيدي قد تأثر به في تأليفه لمعجمه: تاج العروس. قال عنه الزبيدي في ترجمته له، في معرض اجازته لتلميذه سعيد بن عبد الله السويدي البغدادي: (الإمام، الفقيه، المحدث، اللغوي، النحوي، الأصولي، البارع، المتكلم، أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد، الفاسي المدني. وُلد بمدينة فاس سنة (1110 هـ)، وارتحل إلى الحرمين، وسكن بالمدينة حتى توُفي بها سنة (1170هـ) عن ستين سنة. انظر إجازة الزبيدي لسعيد السويدي بذيل المعجم المختص، ص 797.

2 توافق حوالي سنة 1775م،**المعجم المختص**، ص 165.

3 عالمٌ وفقيه سوداني، وُلد سنة 1159 هـ الموافقة لسنة 1746م. قرأ القرآن على الفقيه حمد ولد أبي راس، والفقيه بشير والفقيه مقبول ابني عثمان علامة، ومختصر خليل والرسالة على الفقيه عبد الهادي بن إسماعيل، والعقائد (السنوسية) على الفقيه إسماعيل بن الفقيه الزين والفقيه محمد الخناقي، وألفية ابن مالك على الفقيه حمد بن الفقيه نواوي تلميذ الفقيه سكيكرة، والفقيه أحمد بن عيسى الأنصاري، والفقيه عبد القادر بن التويم. واستجاز كتب الحديث ومصطلحها بالمكاتبة صحبة الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري وغيره من الشيخ أحمد الدرديري، والشيخ محمد الأمير، والشيخ السيد الشريف المرتضى. سلك الطريقة القادرية البهارية اليعقوبية على والده. توفي سنة 1229 هـ الموافقة لسنة 1814م .الطبقات، الصفحتان 189 و190، وانظر أيضاً تاريخ ملوك سنار (كاتب الشونة) لتاريخ وفاته التي لم يذكرها ود ضيف الله في طبقاته، لأنها جاءت بعد وفاته هو نفسه التي حدثت في عام 1810م .

4 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي، ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م، ص 191.

5 مذكور في كتاب الطبقات في معرض ترجمة الشيخ حسن بن صالح بن بانقًا بوصفه أحد تلاميذ الزبيدي بالاستدعاء باسم (حسن سكيكرة) بالتاء المربوطة في آخره وهو الصواب. فهو حسن المشهور بأمه سِكيكرة بنت الفقيه أبو زيد، فكأنها تصغير سُكَّرة واحدة السُكَّرْ. عالم نحوي ولغوي وشاعر ماهر، درس على نواوي بن الفقيه ضو البيت(ت176هـ)، وعلى الخطيب عبد اللطي، وعلى الشريف عبد العزيز، وكان كثير الاشتغال بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . ويوقفنا الزبيدي هاهنا على أنَّ الشيخ حسن سكيكرة كاهلي القبيل، وهي فائدة لم نكن بها على علم من قبل,انظر ذكره في ترجمة

7- سعوديٌّ بن خياري بن عمار بن عبد الحفيظ الزُّبيري الشافعي السناري[1] : فاضل مستعد. ورد علينا من مدينة (سنار) في سنة (1190ه)، فسمع عليَّ الأولية، وحديث (إنما الأعمال بالنيات (، واشتغل بالحضور على علماء الوقت، وقد كتبت له الإجازة الغراء، توجه إلى بلاده، وكان هوالحامل لأهل (سنار) في استدعاء الإجازة مني، فأرسلوا رجلاً من خواص طلبتهم يقُال له أحمد بن عيسى السالف ذكره، وقد لازمني المُتَرجَم مدة إقامته في دروس (الصحيح) في منزلي، حتى توجَّه إلى بلده، وأرسل إليَّ كتاباً يتضمن ذكر أحواله – بارك الله فيه -[2]

8- عبد السلام بن عبد اللطيف بن علمك (هكذا – لعله خطأ مطبعي والصحيح هو عمَّار والزيادة والتحقيق من الباحث) بن عبدالحفيظ الزبيري الشافعي السنَّاري[3]: الخطيب بجامعها الكبير. من بيت العلم والحديث، وجدُّه ممن ورد مصر وروى عن جماعة. كتبتإلى المترجم الإجازة في استدعاء بما ذكُر في ترجمة أحمد بن عيسى، حامل الاستدعاء في 14 ذي القعدة سنة (1192 هـ).

هنالك علمان آخران من شيوخ الزبيدي ترجم لهما في معجمه، أحدهما نميل حدساً من غير بينة محسوسة نمتلكها، بأنهَّ ُ ربما يكون من أصل سوداني، والآخر ذو صلة

الشيخ حسن ولد بانقا بالطبقات ص 190، وكذلك بكتاب تاريخ ملوك سنار – تاريخ كاتب الشونة، تحقيق يوسف فضل حسن، ص 156، الحاشية(21) نقلا عن كتاب **الذيل والتكملة**. وانظر ترجمته في **المعجم المختص**للزبيدي، ص 205.

1 - لا توجد ترجمة لسعودي بن خياري بن عمار بن عبد الحفيظ بهذه الصيغة بالتحديد، في كتاب الطبقات لمحمد النور بن ضيف الله، ولا لأبيه خياري المذكور هنا، ولكن توجد ترجمة ضافية لجده الشيخ عمار بن عبد الحفيظ إمام وخطيب مسجد سنار، الذي كان من رجال القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي، والذي كان قد رحل هو نفسه أيضاً إلى مصر لطلب العلم بها، فدرس على جلة من العلماء هناك، منهم الشيخ يحي الشاوي الجزائري (ت 1096 هـ /1695م) وغيره .**الطبقات**، ترجمة عمار بن عبد الحفيظ، الصفحات 260 – 263. ولكنَّ هنالك شخصاً يسمى (إبراهيم السعودي (، ترجم له ود ضيف الله باقتضاب شديد في طبقاته، وووصفه بأنه (خطيب سنار ومدرسها على مذهب الشافعي (. فلعله هو المقصود ترجيحاً، وذلك بقرينة وصفه له بالخطيب. انظر ترجمته في الطبقات ص 90.

2 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي، ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م ، ص 243.

3 لا توجد ترجمة بكتاب **الطبقات** لعبد السلام بن عبد اللطيف بن عمار بن عبد الحفيظ، ولكن توجد ترجمة لوالده عبد اللطيف بصفحة 300 من الكتاب. ولكن مهما يكن من أمر، فإن تراجم هذين الشيخين من آل الشيخ عمار بن عبد الحفيظ إمام مسجد سنار الكبير وخطيبه، والذين لا ذكر لهم في أي مصدر ثاني نعرفه حتى الآن غير معجم الزبيدي هذا، فضلاً عن انه يعزز صدقية الشيخ محمد النور ود ضيف الله ودقته في النقل، فإنه يوقفنا كذلك على أخبار أسرة سودانية علمية مرموقة، تداول افرادها بمختلف أجيالهم منصب (الخطيب) بسنار حتى صار علماً عليهم جميعهم. أنظر ترجمته **بالمعجم المختص** للزبيدي، ص407.

روحية وإسنادية، بل واجتماعية أسرية بسودان وادي النيل، ربما لا تقل – في بعض جوانبها - عن علاقته بالمنطقة التي ولد وعاش، وتوفي ودفن بها نفسها، ألا وهي أرض الحجاز .

وهذان العلمان هما:

9- عيسى بن أحمد بن عيسى بن محمد الزبيري البَرّاوي الشافعي الأزهري: الشيخ الفقيه الدرَّاكة. ورد الجامع الأزهر وهو صغير، فقرأ العلم على مشايخ وقته،وتفقهَّ على الشيخ مصطفى العزيزي، وابن الفقيه، وحضر دروس الشبراوي، والملوي، والجوهري، وتمهَّر وأنجب، ودرَّس في الفقه حتى لقب ب (الشافعي الصغير) لكثرة استحضاره في الفروع، وانتفع به طلبة العصر طبقة بعد طبقة، وصاروا مدرسين. وروى الحديث عن الشيخ محمد الدفري، وكان حسن الاعتقاد في شيخنا العفيفي، وفي سائر الصلحاء، وكان يأتي إلى منزل شيخنا السيد علي المقدسي مراراً، ويعتقد فيه. حضرتُ بعض دروسه في (المشهد الحسيني) في الفقه، وسمعت عليه مجلساً من (الصحيح) بالقصر الذي عند المذبح، وكان ممن يحبني، ويدعو لي كثيرا. واطَّلع على قطعة من شرحي على (القاموس)، فاغتبط به.. . وله مؤلفات مقبولة منها: (حاشية على شرح الجوهرة في التوحيد) [1]، و(شرح على الجامع الصغير)[2] للسيوطي في مجلدَّ، يذكر في كل حديث مايتعلق بالفقه خاصة. ولا يزال يمُلي ويفيد ويدرِس حتى توُفي سحر ليلةالاثنين 4رجبسنة(1182 هـ)[3] وفي صباحه جُهِّز وصُلِّي عليه بمشهد حافل ب (الجامع الأزهر)، ودُفن ب (المجاورين)، وبنُي عليه مقام.[4]

1 جوهرة التوحيد منظومة في علم العقيدة عند أهل السُنَّة والجماعة على مذهب الأشاعرة, ألفها الشيخ إبراهيم اللقاني المالكي المصري (ت 1041 هـ). وهي عبارة عن منظومة شعرية تتألف من 144بيتاً، ولها شروح كثيرة وضعها عدد من المؤلفين. ومطلعها هو:

الحمدُ للهِ على صِلاتِهِ ثمَّ سلامُ اللهِ مع صَلاتِهِ

على نبيٍ جاءَ بالتوحيدِ وقد خلا الدِينُ عن التوحيدِ

2 الجامع الصغير من حديث البشير النذير للإمام جلال الدين السيوطي(ت 911هـ الموافقة 1505م)، كتاب لخصه السيوطي من كتابه (جمع الجوامع، فحذف منه الأحاديث الفعلية وأقتصر فيه على الأحاديث القولية، وقد رتبه على حروف المعجم كما اقتصر فيه على الأحاديث الوجيزة، واعتنى فيه عانية فائقة بتحرير التخريج، وتوخى صحة السند وعدالة الرواه.

3 توافق سنة 1768م.

4 المعجم المختص الصفحات 598 -602.

أما الذي حدا بنا إلى الاعتقاد في احتمال انتماء هذا الشيخ للسودان النيلي، فنسبته المذكورة التي تنمُّ بقوة عن أصل سوداني سناري محتمل. فهو: عيسى بن أحمد بن عيسى بن محمد الزبيري البرَّاوي الشافعي الأزهري. وهذه النسبة نفسها تقريبا، قد قابلتنا في التعريف بعلميْن سودانييْن سنارييْن آخرين ترجم لهما الزبيدي في نفس كتابه هذا نفسه لحسن الحظ، ألا وهما:

سعوديٌّ بن خياري بن عمار بن عبدالحفيظ الزُّبيري الشافعي السناري، وعبدالسلام بن عبداللطيف بن عمَّار بن عبدالحفيظ الزُّبيري الشافعي السناري. فهذا الشيخان الأخيران هما زبيريان وسناريانوشافعيان، أما الشيخ عيسى بن أحمد فهو زبيري وشافعي وبرَّاوي. ونحن نميل إلى ترجيح أن تكون النسبة (برَّاوي) المذكورة في هذا السياق، هي نفسها تعني سناري، أي سوداني بالمدلول المعاصر. ذلك بأن إطلاق الصفة (برِي) و(برَّاوي) كما ذكر هنا للدلالة على أهل السودان الشرقي، قد كان استخداما فاشياً ومعروفا جداً، خصوصا في القرون التي تلت قيام سلطنة الفونج (1504 – 1821م)، وربما من قبل ذلك .

فعل سبيل المثال، جاء في إجازة الشيخ علي الأجهوري(ت1656م) لتلميذه السوداني الشيخ عبدالرحمن بن إبراهيم، وهو والد الشيخ خوجلي (ت 1743م)، والذي سبقت الإشارة إليه من قبل، قوله: (بعد حمده تعإلى، والصلاة على نبيه، وبعد: فقد قرأ عليَّ الشاب النحرير الفاضل، الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن أبي مُلاح الكُباني نسباً، البرِي بلدةً، عقيدتي التي ألفَّتهُا في أصول الدين.. الخ). والشاهد هو قوله: البري بلدةً، وهو يعني السناري، أو السوداني بالمصطلح المعاصر.[1]

10- عبدالله بن إبراهيم بن حسن بن محمد أمين بن علي ميرغني بن حسن بن حسن بن ميرخورد بن حيدر بن حسن بن عبد الله بن علي بن حسن بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن يحي بن عيسى بن أبي بكر بن علي بن محمد بن إسماعيل بن ميرخورد البخُارِي بن عمر بن علي بن عثمان المتقي بن الحسن بن علي الهادي بن محمد الجواد النسفي ثم المكي الطائفي الحنفي: شيخنا القطب،

1 **محمد النور ولد ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان**، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م، ص 258 - 259

عفيف الدين، أبو السيادة الملقبَّ بالمحجوب[1].

وُلد ب (مكَّة) وبها نشأ، وحضر في مبادئه دروس بعض علمائها، كالشيخ النخلي[2] وغيره، واجتمع بقطب زمانه السيد يوسف المهدليّ[3] وكان إذ ذاك أوحد عصره في المعارف، فانتسب إليه ولازمه حتى رقاَّه، وبعد وفاته جذبته عنايةُ الحق، وأرته من المقامات ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فحينئذٍ انقطعت الوسائط، وسقطت الوسائل، فكان أويسياً[4] تلقِيه من حضرة جده صلى الله عليه وسلم، كما أشار إليَّ ببعض ذلك، وظهرت كراماته وبهرت إشاراته، وطار صيته في الآفاق، وصار كلمة اتفاق، ووفد إليه العارفون فوجاً فوجا، وصار يترقىَّ إلى مصاعد المجد العلِيِّ أوجاً أوجا.

أول ما اجتمعت به وتشرفت بلقياه ب (مكة (في رباط الزمامية، وذلك في سنة (1163 هـ)، فلاحظني بانظاره العليةَّ، وشملتني نوافح انواره البهيةَّ، ثم عُدتُ إلى اليمن وأنا بتلك المشاهدة مسرور، وملاحظته أحاطت كليتَّي بالسرور، ثم وردت مكة سنة (1166 هـ)، والمترجم كان انتقل إلى الطائف بأهله وعياله، وشرَّف تلك المشاهد بأحواله، فذهبتُ إليه عائدا، وطرقت الباب فجاء الخطاب، مرحباً بقرَّة أعين

1 السيد عبد الله المحجوب الميرغني المكي الطائفي (ت1207 هـ /1792م). من كبار العلماء والمتصوفة بالحجاز في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، والجد المباشر للسيد محمد عثمان الميرغني الختم (1793 – 1853م) مؤسس الطريقة الختمية في السودان ومصر والحبشة، إذ هو محمد عثمان بن محمد أبي بكر بن عبد الله المحجوب المترجم له. وهو من أوائل من اتصل بهم المرتضى الزبيدي بالحجاز عندما قدم إليه شابا يافعا من زبيد باليمن في سنة 1163هـ فدرس عليه، وأخذ عنه الفقه وغيره من العلوم.(انظر ترجمته في: عجائب الآثار للجبرتي، الجزء الثاني، الصفحتان 103 و104، **والمعجم المختص** للزبيدي الصفحات 269 – 272، ومقدمة كتاب **الإبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الختمية**، تحقيق البروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم، الصفحتان 11 و12).

2 أحمد بن محمد بن أحمد بن علي النخلي الصوفي النقشبندي المكي الشافعي(ت 1130 هـ). متصوف وفقيه من علماء مكة في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، ومن شيوخ السيد عبد الله المحجوب الميرغني. قرأ على عبد الله بن سعيد باقشير المكي، وعبد الرحمن بن أحمد الحسين المغربي المكناسي الشهير بالمحجوب. وممن أخذ عنه محمد بن أحمد بن عقيلة، والسيد عبد الله المحجوب الميرغني المذكور.)انظر كتاب: الزيادة والإحسان في علوم القرآن لابن عقيلة المكي، الجزء الثالث، مركز البحوث والدراسات، جامعة الشارقة، 2006، ص

3 السيد يوسف المهدلي، لم نقف على ترجمة أو خبر له، ولكن يبدو أنه كان واحداً من كبار العلماء بمكة المُكرَّمة في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، وكان أحد مشائخ السيد عبد الله المحجوب المرغني. بيد أننا لا نستبعد أن يكون هذا الشيخ من المهادلة الذين تذكر بعض المصادر أنهم ينتمون إلى فرع صليل من قبائل عُك باليمن، وأن بينهم أشرافاً من ذرية الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما، وهم منتشرون بمناطق بيت فقيه والمراوعة وزبيد باليمن، ومنهم الشيخ الصوفي أحمد بن علي الهاشمي المهدلي المتوفي سنة 1218 هـ الموافقة لسنة 1804م.

4 أويس القرني تابعي جليل، مُرادي القبيلة من اليمن. أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم لكنه لم يره. شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاح والإيمان وبرِه بوالدته، وانه خير التابعين، وأمر صحابته أن يبحثوا عنه، وأن يسألوه لكي يدعو لهم. وقوله أويسي النزعة أو المشرب معناه أنه يتلقى علومه وإرشاده إلهاماً، وليس عن طريق التلقين من شيخ بعينه.

الأحباب، وحينئذٍ لازمته ملازمة العبيد للأسياد، وتشرَّفت بسماع ما يلُقيه من فوائده العالية الإسناد.

وأمرني بكتابة بعض ما تيسَّر من مؤلفاته، فكتبتها بخطِي، وحررتها بضبطي، التي منها: (فرائض الدين وواجبات الإسلام لعامة المؤمنين)، وقد كتبت على ظهرها بخطه الشريف:

من الهزَج:

فروض الدين انواعٌ وهذا الدُّرُ صافيها

فعضُ بنواجـــذٍ فيـها وقلْ يا ر ب صافيها

وهذه النبُّذة عجيبة في بابها، جامعةٌ مسائل العقائد والفقه. وكنت لما وصلتإلى مصر، قد شرحتها شرحاً نفيسا، وقد ذكر في آخرها أنه فرغ من تأليفها في يومي التشريق سنة (1165 هـ)، ومنها: (سواد العينين في شرف النبيين (، ولها قصة في ضمنها كرامة، قال في آخرها: إنه فرغ من تأليفها في رجب سنة (1157 ه)ـ .

ومنها: (السهم الراحض في نحر الروافض (، وهذه قد ألفَّها وأنا عنده، وذلك بعد خروج العجم من مكة، لقصة جرت بينهم وبين أهلها في جمادى سنة (1166ه)ـ. ومنها: (الفروع الجوهرية في الإئمة الاثني عشرية).

ومنها: (الدُّرَّة اليتيمة في بعض فضائل السيدة العظيمة (، ألفَّها في سنة (1164 هـ)، وكتب بخطه على ظهرها:

من مجزوء الكامل:

للهِ درٌّ مــــؤلِفٍ درَّتْبـــــــــه درَرُ المَـــــــــلا

كـــــم دُرَّةٍ يتُمَـــتْ بهِ حـتى أفاقـتْ للألُـــىَ

يا ربِ فاعلِ مقامَهُ كالدُّ رِ في تاج العلُا

ومن مؤلفاته: (الكواكب الثاقبة)، وشرحه، وسمَّاه (رفع الحاجب عن الكوكب الثاقب).

وله ديونان متضمنان لشعره، أحدهما المُسمَّى ب (العقد المنظَّم على حروف المعجم)، والثاني (عقد الجواهر في نظم الفاخر .)

ومنها: (المعجم الوجيز في أحاديث النبي العزيز – صلى الله عليه وسلم (، اختصره

من (الجامع) و(ذيله)، و) كنوز الحقائق)، والبدر المنير، وهو في أربعة كراريس، وقد شرحه صاحبنا العلاَّمة سيدي محمد الجوهري – حفظه الله تعإلى -، وقرأه درسا.

ومنها: (شرح صيغة القطب بن مشيش) [1]، ممزوجاً وهو من غرائب الكلام.

ومنها: (مشارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار)

وقد أجازني بكل ما عنده، وأطلعني على نسبه الشريف، أخرجه من صندوق ملفوفاً عليه بالحرير الأخضر، وهو مُضمَّخٌ بأطيب الأعطار، فتبركت به، وتشرَّفت بالكتابة عليه، واستجزته مرة في صيغة صلاة للقطب الجيلاني – قُدِس سرُّه – فأجازني وكتب لي بخطه، فطلبت سنده فقال: عنيَّ عنه، وطلبت منه مرةً إسناد كتب الحديث فقال: عني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلمت أنه أوُيسي المقامومدده من جَدِه – عليه الصلاة والسلام – ومآثره شهيرة، ومفاخره كثيرة، وكراماته كالشمس في كبد السماء، وكالبدر في غيهب الظلماء، أحواله في احتجابه عن الناس مشهورة، وأخباره في زهده عن الدنيا على ألسنة الناس مذكورة، فلا حاجة إلى الإطالة بها.[2]

وإنما أوردنا ترجمة المرتضى الزبيدي لشيخه السيد عبد المحجوب المرغني(ت1792م) بتمامها، لأن هذا الرجل العَلَم، يمُتُّ للسودان بأقوى الصلات كما أسلفنا. ويكفي أنه الجد المباشر للسيد محمد عثمان المرغني الختم (1793 – 1753م)، مؤسس الطريقة الختمية بالسودان ومصر والحبشة والحجاز، والتي ازدهرت طريقته المتفرعة عن مدرسة السيد احمد بن إدريس الحسني الفاسي(1750 – 1838م) ازدهاراً منقطع النظير في أرض السودان، وضربت فيها بجران، حتى غدت واحدة من أكثر الطرق انتشاراً جغرافيا ومن حيث عدد الاتباع والمريدين، وخصوصا وضعهم المميز في سلم الحياة الاجتماعية والاقتصادية و السياسية في السودان. ذلك بأن السيد محمد عثمان الختم هو ابن السيد محمد أبي بكر بن السيد عبد الله المحجوب المترجم له .

1 هو الشيخ عبد السلام بن سليمان بن أبي بكر بن مشيش العلمي (559 – 626 هـ). عالمٌ ومتصوف مغربي، عاش في زمن الخلافة الموحدية. وُلد بمنطقة بني عروس بالقرب من مدينة طنجة، وانتقل بعدها للعيش بجبل العلم قرب العرائش وتوفي هناك، حيث يوجد ضريحه. يعُدُّ من أعلام الصوفية، وأستاذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية.

2 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي، ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م ، ص 269 – 272.

كما أننا نعتقد أنَّ هذه الترجمة للسيد عبد الله المحجوب بقلم تلميذه محمد مرتضى الزبيدي – وهو من هو -، ربما تكون واحدة من أوعب التراجم لهذه الشخصية، وأغزرها بالمعلومات الموضوعية، الدالة على تراثه الفكري والروحي، وهو تراث موصول بطبيعة الحال بتراث سائر الختمية المنتشرين داخل السودان وخارجه، وربما لم تتح للكثيرين منهم، وكذلك لسائر المهتمين والباحثين بصفة عامة، فرصة الاطلاع على هذا الجانب من التركة الفكرية والروحية الثرَّة للسيد عبدالله المحجوب، بسبب أنَّ هذا المصدر الذي نحن بصدده الآن، ألا وهو كتاب (المعجم المختص) للزبيدي، لم يطبع وينُشر إلا منذ بضعة أعوام فقط، وقد ظل مخطوطة حبيسة لأكثر من قرنين من الزمان.

11- الشيخ أحمد بن عبد الله بن سالم بن إدريس السِنَّاري، تلميذ سوداني مغمور للزبيدي:

لم يترجم الزبيدي لهذا الشيخ في معجمه، ولكن جاء في ترجمته في كتاب: حلية البشر للبيطار، ما يلي:

(أبوالفضل شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن أحمد بن سالم بن إدريس السَّناري (صُحِفت الشاري في الأصل – الملاحظة والتصويب من الباحث). المُتقن البارع، والمُقبل على الله والمُسارع، وحيد دهره، وفريد عصره. وُلد بعد الستين والمائة والألف (أي هجرية، وهي توافق سنة 1747م – والشرح والزيادة من الباحث) ببلدة سنأَّر (كُتبت سناد بالدال في آخرها في الأصل – الملاحظة والتصويب من الباحث) أكبر بلادالفنْجوالتكرور، (هكذا.. ويرى الباحث أن كلمة التكرور هنا، ربما تكون قد أقحمتلاحقا في النص على يد أحد النساخ، لأنه لا علاقة بين سلطنة سنار وبلاد التكرورالواقعة في أقصى غربي افريقيا – والزيادة والتحقيق من الباحث) وقرأ بها مقدمات العربية والفقه على جماعة من أهلها كأبي عبدالله محمد نوري صبر والشهاب أحمد بن عيسى الأنصاري، وعبد الكريم الفلاني (الفلاتَّي؟)، وأبي الحسن علي بقادي. ثم رحل إلى سواكن واستقام بها مدة، ثمن انتقل منها إلى صنعاء اليمن واجتمع بالشيخ العلامَّة أبي محمد عبد الله الجوهري، وقرأ عليه شرح السلم في المنطق والأربعين النووية، وسمع منه وأجاز له بخطه. ثم ارتحل إلى مكة المكرمة وقرأ بها على أبي مروان عبد الملك بن عبد المنعم بن محمد تاج الدين القلعي مفتي الحنفية، وأبي محمد عبد الغني بن سنبل مفتي الشافعية، ومحب الله الهندي الحنفي، وأبي محمد عبد اللطيف بن عبد الغفور المكي، وأبي محمد عبد

الرحمن الفاسي المغربي المعروف بالسمَّان المالكي، وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن التلمساني وغيرهم واستقام بها ست سنوات، وسمع الكثير من الأحاديث والمسلسلات، وأجازه مشايخه المذكورون بخطوطهم. ثم عزم على زيارة النبي الأكرم، والبقيع المعظَّم بطيبة الطيبة فدخلها ولازم الاشتغال والتحصيل، وقرأ على زين العابدين مصطفى بن محمد رحمة الله الدمشقي الحنفي الأيوبي الأنصاري، وفخر الدين عثمان بن محمد المصري الشهير بالشامي، وأبي إسحق إبراهيم بن عبد الله السِندي، وأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الفاسي نزيل المدينة المنورة، واستقام بها سنتين، وسمع أيضاً الكثير من الأشياخ، وتوجَّه منها إلى مصر ولازم أبا عبد الله محمد بن الشهاب أحمد بن الحسن الجوهري، وأبا الصلاح الشهاب أحمد بن موسى العروسي، وأبا عبد الله محمد الأمير،والنور علي الخياط، ومحب الدين محمد المرتضى الزبيدي، وأجازوه وأباحوا له مروياتهم. ودخل قسطنطينية واجتمع بأكثر علمائها، وقرأ على البعض منهم، واستقام بها مدة، وتكرر دخوله إليها. ودخل في حلب في أوائل ذي القعدة سنة خمس ومائتين وألف (توافق عام 1791م والشرح والزيادة من الباحث)، وقرأ رسالة أبي حامد محمد بن محمد البديري الدمياطي المسماة بالجواهر الغوالي في الأسانيد العوالي، علىأبي جعفر منصور بن مصطفى منصور السرميني الحلبي وأجازه بها، وبما تجوز لهروايته بروايته لها. وقرأ بها على شيخه ومرشده أبي المكارم محمد نجم الدين بن سالمبن أحمد الحفناوي الشافعي المصري بسماعه لها وروايتها عن أبي حامد البديري .وحضر مجلس السيد محمد خليل أفندي المرادي بحلب، وسمع منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية، وهو أول حديث سمعه من لفظه بشرطه وأجازه به، وبما تجوز له روايته عن شيوخه، وذلك سنة خمس ومائتين وألف، ولم أقف على تاريخ موته رحمه الله) .[1]

ويلُاحظ أنَّ نص هذه الترجمة يبدو دقيقاً ومتوافقاً مع سياقه التاريخي، مع أن مؤلفه الشيخ البيطار شامي الأصل. ومن آيات ذلك اشتماله على ذكر أسماء ثلاثة أعلام نابهين، من أجلة علماء سنار المعاصرين للمترجَم له، وهم المشائخ: أحمد بن عيسى الأنصاري، ومحمد ولد صبر، وعلي بقادي، الذين يرد ذكرهم باستفاضة في

1 عبد الرزاق البيطار،**حِلية البَشَر في تاريخ القرن الثالث عشر**، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1993م، ص 198 – 200.

المصادر السودانية المعاصرة أو المعنيةَّ بتاريخ تلك الفترة مثل: طبقات ود ضيف الله، ومخطوطة كاتب الشونة، وإرشاد الساري في تراجم آل عيسى الأنصاري، والذيل والتكملة لإبراهيم عبد الدافع، فضلا عن كتاب الوثائق: الفونج والأرض، من إعداد محمد إبراهيم أبو سليم، وغيرها.

المبحث الثاني

تلميذان نابهان للزبيدي من بلاد السودان الأوسط

هنالك شيخان مهمان من علماء بلاد السودان الأوسط، كانا من ضمن تلاميذ العلامة مرتضى الزبيدي، وقد ذكرهما في معجمه. وهذان الشيخان هما: أبو الأمانة جبريل بن عمر السوداني (ت 1789م)، وولده أبو التوفيق عمر بن جبريل السوداني كما سماهما المؤلِّف.[1]. وكان الشيخ جبريل بن عمر الطارقيالغدامسي، نسبةً إلى مدينة (غدامس) بشمال جمهورية النيجر الحالية، قد التقى بالعلا مة مرتضى الزبيدي في الحج.

وتكمن أهمية الشيخ جبريل بن عمر خاصةً، في أنهَّ شيخ المجاهد الشهير الشيخ عثمان دان فوديو (1754 – 1817م)إلذي امتد تأثيره الروحي والفكري والسياسي، وأسانديه العلمية حتى إلى بلاد سودان وادي النيل. وإلى تأثير جبريل بن عمر المذكور، يعزو بعض الباحثين نزعة التجديد، وخصوصا الحرص على سلامة العقيدة، ومحاربة البدع والخرافات التي وسمت فكر الشيخ عثمان دان فوديو ومنهجه، والتي يردونها أيضا إلى تأثير أفكار علماء الحديث بأرض الحرمين في القرن الثامن عشر الميلادي ، فضلاً عن تأثير الحركة الوهابية أيضا، ولو بطريقة غير مباشرة .

وقد كتب الشيخ السلطان محمد بلو بن الشيخ عثمان دان فوديو عن جبريل بن عمر شيخ أبيه، في كتابه: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ما نصه نقلا عن أبيه الشيخ عثمان:

(ومن فضائله رضي الله عنه، أنَّه كان ممن حمل لواء العلم في زمانه، فشرف بزيارة بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مرتين .

ومن فضائله رضي الله عنه، أنه كان أول من قام بهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، وكان كمال ذلك ببركته على أيدينا. ومن فضائله رضي الله عنه، أنه بلغ الغاية في العبادة والخلق الحسن، والغيرة على الإسلام. كان حليماً هيناً لينا، حسن الكلام مع من لقيه، مبتسماً معه، ولا يحقد على أحد، ولا يعبس في وجهه،

---

1 **المعجم المختص**، للحافظ مرتضى الزبيدي، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي، ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2006م، ص 30

ويطيب كلامه لجميع الناس على طريق البسطة، حتى تظن أنَّ كُلَّ واحدٍ صديقه.

ومن فضائله رضي الله عنه أنه ذو بسط ودعابة، مشرف بلباس الهيبة، وهو من أعجب العجائب في شأنه .

ومن فضائله رضي الله عنه أنه بلغ الغاية في تعظيم المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى أنه قلَّ أن يذكره إلا باسمه: أفضل الخلق.

وفضائله رضي الله عنه كثيرة لا تحُصى، وفيما ذكرناه كفاءة لمن تأمل.

ونحن بالنسبة إلى مقامه نسبة الظالع مع الصليع، ونسبة دوي الزنبور مع نغمة الزبور، فوالله لا ندري هل نهتدي إلى سبيل السُنةَّ، وترك العوائد الذميمة في بلادناالسودانية هذه، فهو موجةٌ من أمواجه، ولذلك قلتُ فيه شعراً:

إن قيِلَ فيَّ بحُسْنِ الظ نِ ما قيِلا فموجةٌ أنا من أمواج جِبريلا

- وهو رضي الله عنه كما قال في مدح شيخه مرتضى (يعني محمد مرتضى الزبيدي الزيادة من الباحث):

فريدُ الدهرِ فائقُ كُلِ قرْنِ عجيبٌ شأنهُ في كُلِّ فَــنِّ

ولولا لا تزالُ لقـــــلتُ لا لا وجـــــودَ لمثلِهِ في كُلِ قرْن

وأنا أقول أيضاً (والقائل هنا هو المؤلف محمد بيلو وهذه الزيادة والشرح من الباحث):

شـــيخُ الشيوخ بأرضنا جبريلُ بركاته ما نالها تفصيلُ

كُشفتْ به ظُلَم الضلال كأنهَّ في كشفها ببلادنا قنديلُ

- ولأستاذنا العم عبد الله بن محمد (يعني عمَّه الشيخ عبد الله بن فوده شقيق الشيخ عثمانالزيادة والشرح من الباحث) :

جــبريلُ من جـــــبرَ الإلــــهُ بهِ لنا ديناً حنيفاً مستقيمَ المنهــج

شمسُ الضُحى بزغت بغربٍ فانتهتْ للشرقِ تشُرقُ للقريشِ وخَزرجِ [1]

1 محمد بلو بن عثمان دان فوديو ،**إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، نسخة الكترونية منشورةبموقع (النسَّابون العرب) www.alnssabon.com بالشبكة العنكبوتية.

المبحث الثالث

صلـة الزبيــدي بعلماء غــرب إفريقيـا

انعقدت صلات واشجة بين الشريف مرتضى الزبيدي وعدد من علماء وفقهاء بلاد السودان الغربي وطلاب العلم هناك، خصوصا بعد انتقاله للاقامة في مصر، منذ عام 1167هـ وحتى تاريخ وفاته بها في عام 1205 هـ وذلك بسبب الشهرة الواسعة ونباهة الذكر التي حظي بهما الزبيدي في سائر أرجاء العالم الإسلامي كعالم موسوعي فذ لا يشُق له غبار.

على أن من الملاحظ أن الشيخ عبد الحي الكتاني المغربي، قد جعل في كتابه الشهير في بابه: (فهرس الفهارس (أولئك الأعلام من غرب إفريقيا الذين أخذوا عن محمد مرتضى الزبيدي، في عداد المغاربة عموما، وكان حقه أن يذكرهم منفردين تمييزاً لهم بهويتهمالجغرافية والعرقية. فكان أول من ذكره من تلاميذ الزبيدي من المغاربة للمفارقة، هوالشيخ (صالح الفلّانّي)، ثم ختم الكتاني ذكر اولئك المغاربة بالشيخين: أبي الأمانة جبريلبن عمر السوداني، وولده أبي التوفيق عمر السوداني.[1]

أما الشيخ صالح الفلّانّي، فهو كما تقول ترجمته بكتاب: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المبذول بالشبكة العنكبوية:

(الإمام الأثري الشيخ صالح بن محمد بن نوح بن عبد الله بن عمر العمري المالكي المشهور بالفلّانّي، نسبة إلى فلّانّ، أوفلاتّة من قبائل السودان. وُلد سنة ست وستين ومائة وألف من الهجرة[2]، في بلدة (نسْ) من إقليم (فوُتا جالون) ونشأ بها. طلب العلم وعمره إذ ذاك نحو اثني عشر عاماً، فرحل إلى مراكش، وتونس، ومصر والحجاز، آخذاً من علمائها وأعلامها كالشيخ أبي عبد الله محمد بن سنة الفلاني، وأبي الحسن علي الصعيدي، والسيد مرتضى الزبيدي وغيرهم) .[3]

---

1 **محمد عبد الحي** الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات، مرجع سبق ذكره، ص 540- 541.

2 توافق سنة 1751م.

3 http://al-maktaba.org/book/12223/7224موسوعة مواقف السلف .. المكتبة الشاملة الحديثة

واما الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة بالانترنت[1]، فينقل عن الأعلام للزركلي ترجمة للشيخ صالح المذكور، مختلفة نوعا ما في بعض تفاصيلها عن هذه الترجمة المذكورة أعلاه، إذ أنها تجعل مولد الشيخ صالح الفلاني ونشأته بالمدينة المنورة، وتذكر أن أسلافه كانوا قد سكنوها من قبل. ثم تفيدنا هذه الترجمة ان الشيخ صالح له مؤلفات منها:

قطف الثمر في أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، وإيقاظ أولي الأبصار للاقتداء بسيِد المهاجرين والأنصار، والثمر اليانع، رسالةٌ في تراجم أشياخه.

كما تفيدنا هذه الترجمة بأن الشيخ صالح الفلُانِّي، أحد تلاميذ الجبرتي من غربي إفريقيا، قد توفي بالمدينة المنورة في سنة 1216هـ الموافقة لعام 1802م.[2]

على أن هنالك شيخا ذائع الصيت، وعظيم الأثر في سائر بلاد السودان الأوسط والغربي، والصحراء الإفريقية الكبرى وما وراءها، كان معاصراً للزبيدي، ويبدو أنهَّ قد كان بينهما تعارفٌ ومُراسلات، بل ربما تبادل في الإجازات، على نحو ما استطعنا استشفافه من أفادات الزبيدي نفسه .

وذلك الشيخ العَلَم الذي نقصده هنا، هو الشيخ المختار بن أحمد بن أبي بكر بن سيدي محمد بن سيدي حبيب الله بن الوافي الكُنتِي نسبة لقبيلة (كُنته)، والذي يرتفع نسبه إلى الصحابي عقبة بن نافع الفهري. وُلد الشيخ المختار الكُنتي بحسب ما يرد في المصادر التي ترجمت له، بمنطقة تسُمى (المبروك) أو(كثيب أوجال)، وهي منطقة تقع في شمال جمهورية مالي الحالية، وكان ميلاده في سنة 1142هـ / 1730م، أي أنه كان أكبر من مرتضي الزبيدي الذي ولد في عام 1732م بعامين فقط، فهما نديدان تقريبا. وكان والدا المختار الكنتي معروفين بالرئاسة والعلم، ولكنه افتقدهما كليهما وهو صغير في سنه، لم يتجاوز العاشرة من عمره، فنشأ يتيما. حفظ المختار القرءان الكريم في طفولته، ودرس سائر العلوم النقلية والعقلية ومهر فيها وتبحَّر، على يد شيخه سيدي علي ولد النجيب الذي سلك عليه الطريقة القادرية أيضاً، عبر سلسلة إسناد توصله بالشيخ محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت1503م).

---

1 3571/rohtua/php.xedni/sw.alemahs//:sptth

2 sw.alemahs.www

وبعد ذلك أسس الشيخ المختار الكنتي زاوية (قصر الحلةَّ (في حوالي عام 1754م، للعبادة والذكر، وتدريس العلم والفقه، وتلقين الأحزاب والأوراد الصوفية، وذاع صيته، وشاع ذكره، فأمَّه الطلاب والمريدون والعلماء من مختلف الأصقاع من بلدان شمال إفريقيا، وبلاد السودان الأوسط وخصوصاً الغربي، بل وصلت أخبار علمه وفضله وكراماته حتى إلى مصر وبلاد السودان الشرقي .

أما علاقة المختار الكنتي بمحمد مرتضى الزبيدي، فيدلُّ عليها ضمناً قول الزبيدي نفسه في معرض ترجمته لتلميذه (محمد بن عبد الله الكُنتاوي المغربي (:

(عبدالله بن محمد الكنتاوي المغربي، الشيخ الصالح المتعبِّد، أخذ ببلاده عن المختار بن أبي بكر نزيل أزوات ولازمه واعتنى به وانتفع به، ورد إلينا حاجاً في سنة 1194 هـ مع الركب التواتي، وتوجَّه إلى الحرمين، وحضر على الشيخ صالح الفوتي شيئاً من دروسه، وعاد مع الركب المصري، فسمع مني في 26 صفر 1895(هكذا – والصواب هو 1195 هـ- الزيادة من الباحث) من لفظي الأولية والشعر، وحديث إنما الأعمال بالنيات.... ثم صار يلازمني في أكثر الأوقات، وذكر لي عن شيخه صاحب أزوات أخباراًعجيبة، سنذكر بعضها في ترجمته، وأخذ له مني كتاباً بعد أن بلغَّ سلامه لي، وكتبت لهإجازة حافلة، وأجازني في بعض الفوائد، وتوجَّه إلى بلاده بارك الله فيه).[1]

فمما تقدم، يتضح لنا أنه كان هنالك نوع من التعارف والتواصل والتراسل بين المختار الكنتي (1730 – 1811م)، والمرتضى الزبيدي (1732 – 1791م). والحال كذلك، فإن تلك الصلة تغدو مهمة بالنسبة للباحث في مجالات الرحلة، والتواصل العلمي، واتصال السند الحديثي والصوفي في السودان مع محيطه الإسلامي، وذلك بالنظر إلى المكانة الروحية، والتقدير الذي كان وما يزال يحظى به الشيخ المختار الكنتي في سودان وادي النيل، على بعد الشقة الجغرافية. ولعل من آيات ذلك التواصل الروحي الشفيف بين بلاد سودان وادي النيل، والشيخ مختار الكُنتي، هذه الفقرة التي اقتبسها الدكتور يحي محمد إبراهيم من الشيخ محمد الطاهر المجذوب وهو يتحدث في كتابه: الوسيلة إلى المطلوب، عن مناقب الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين (1796 – 1832م):

1 حماه الله ولد السالم، **صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيينوالمؤرخينالعرب**، دارالكتب العلمية، بيروت، 2011م، ص 632، نقلاً عن **المعجم المختص** للزبيدي.

(ومن هؤلاء أحمد بن إدريس الذي قال فيما روى إبراهيم الرشيد: (لو يعلم الناس مافي المجذوب لتركوا جميع الصالحين وأتوا إلى بابه لما له من الكرامة والمنزلة عند الله) وروى إسماعيل الولي أنه (أي المجذوب) قد سبق جميع الأولياء في الحضرة، حتى صاروا لا يرتضون أمراً إلا بإشارته. وقال عنه الشيخ مختار الكُنتي: إن الله جمع في المجذوب خصائص لم يجمعها في غيره من الأولياء، وأنه أوُتيَ من الهبات ما بلغ به من الكمال منتهاه. وأضاف أنه (ما زاغ عن الشريعة في حياته كلها، ولا جرَّه الباطل إلى أن يفعل أو يقول في حال غيبته ما يخالف ظاهر الشرع) .[1]

وسواء ثبت هذا القول المنسوب إلى المختار الكنتي في حق محمد المجذوب بن قمر الدين وصحَّ، أو لم يثبت ويصح تاريخياً، فإن الشاهد يبقى هو دلالته المعنوية والرمزية في حدِّ ذاتها على التواصل الروحي الثابت قطعا، ولو على مستوى الخواطر والأشواق على الأقل، بين سودان وادي النيل وسائر الفضاء الإسلامي الممتد من لدُن سواحل البحر الأحمرشرقاً، عبر الصحراء الكبرى وبلاد السودان الأوسط والغربي، إلى سواحل المحيطالأطلسي غربا .

على أن تراث المختار الكنتي الفقهي والصوفي، قد وصل إلى بلاد سودان وادي النيل بكل تأكيد، إذ حملته إليها الموجات المتدفقة بلا انقطاع من القوافل التي ظلت تحمل الحجاج من سائر بلاد غرب افريقيا من فولانوشناقيط وطوارق وهوسا وتكاريروغيرهم، وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة عبر سودان وادي النيل، حيث كان وما يزال كثير منهم يطيب له المقام فيستقر في السودان فيستوطنه، وربما تزوج فيه ووُلد له، فيصير عقبه جزءا من نسيجه الاجتماعي .

هذا بالطبع، بالإضافة إلى مظنة أخرى مؤكدة من مظان التراث والسند المختاري الكنتي، ألا وهي مجموعة الفولاني التي هاجرت من موطنها في شمال نيجيريا، وقدمت إلى السودان في أوائل القرن العشرين، إبان الاحتلال البريطاني لكلا الدولتين، فاستوطنت ذريتها السودان، حيث ما تزال تعيش بمنطقة سنار بأعالي النيل الأزرق إلى الآن. وكانت تلك الهجرة بقيادة محمد بيلو الملقب ب (مي ورنو (بن أحمد

1 يحي محمد إبراهيم،مدرسة احمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان، دار الجيل، بيروت، 1993م ص 362.

الزروق، بن أبي بكر العتيق، بن الشيخ عثمان بن فودي.[1] و من المعروف أنَّ للشيخ عثمان بن فودي سنداً فقهياً وصوفيا يصله بالشيخ المختار الكُنتي، ورَّثه حُكماً لأبنائه وأحفاده، فضلاً عن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه جميعا. وفي هذا ينقل الدكتور علي الودغيري عن الشيخ عثمان في كتابه بعنوان: كتاب تعليم الأخوان بالأمور التي كفَّرنا بها ملوك السودان، ما نصُّه:

(ونريد أن نختم هذا الكتاب بذكر سندنا المتصل إليه رضي الله عنه (يعني الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي القادري ت 1503م – الزيادة من الباحث) الذي جاءنا من سيدي محمد المختار بن أبي بكر الكُنتي الأموي، وهو سند ورد القادرية، أجازني به الشيخ العالم نوُح، وهو عن شيخه سيدي محمد المختار المذكور، وهو عن شيخه سيدي الشريف علي بن أحمد، وهو عن شيخه سيدي أبي النقاب السيد الأمير لُقِّب به لكونه يتلثم، وهوعن شيخه أخيه سيدي أحمد، وهو عن شيخه سيدي علي بن أحمد، وهو عن شيخه أبيهسيدي أحمد، وهو عن شيخه الرَّقاد، وهو عن شيخه أحمد الفيرم، وهو عن شيخه عم بنسيدي أحمد البكاء، وهو عن شيخه سيدي محمد بن عبدالكريم المغيلي رضي الله عنه .. الخ)[2]

---

1 إفادة شفاهية تلقاها الباحث من البروفيسور الأمين أبو منقة، أستاذ اللسانيات بجامعة الخرطوم.

2 عبدالعلي الودغيري،اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح التأثيرالمغربي، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2011م، ص 84- 85.

خـــــاتـــمة

وبعدُ، فإنَّ هذه الدراسة قد تناولت بصفة أساسية بالاستعراض والتحليل، فصلاً مُهمَّاً وإن كان مجهولاً، أو على الأقل مُهمَلاً أو منسياً، من فصول التاريخ الاجتماعي والثقافي والفكري لسودان القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، مُمَثَّلاً في الرحلة العلمية، والتأثير والتأثرُّ الثقافي، والتواصل العلمي والمعرفي، واتصال الأسانيد الفقهية والصوفية، كظاهرة ظلت تنتظم سائر أرجاء العالم الإسلامي لقرون عديدة، وتربط فيما بينها، ولم يشذ سودان وادي النيل عنها كما رأينا من خلال صفحات هذه الرسالة ذاتها .

وقد مثلَّت هذه الرسالة بصفة خاصة، مُقاربةً سودانية خالصة، كما تأمل، لشخصية وتراث فقيهٍ ومفكرٍ ولغويٍ ومتصوفٍ وعالِمٍ موسوعيٍ ذائع الصيت من رجال ذلك القرن، هو العلامَّة الشريف محمد مرتضى الزبيدي (1732 – 1791م)وذلك من خلال محاولة تلمُّس أبعاد علاقته بالسودان، والكشف عن مظاهر تأثير إشعاعه على سودان وادي النيل، بل التعرُّف على أسماء وتراجم نفرٍ من تلاميذه من بلاد السودان الشرقي المباشرين منهم وغير المباشرين، إلى جانب إيراد نبُذ مقتضبة من سير أولئك التلاميذ وتراجمهم .

وفي غضون ذلك، عمدَت الرسالة إلى إبراز الإطار الكُلِّي، أو الخلفية التاريخية العامة للبيئة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي اكتنفت حياة الشخصية التي عليها مدار هذه الدراسة، ألا وهو العلامة محمد مرتضى الزبيدي، وهي بيئة القرن الثامن عشر الميلادي بجميع خصائصها ومشخصاتها، سواءً على مستوى العالم بأسره، أو في جميع المواطن التي عاش فيها الزبيدي، فضلاً عن السودان نفسه – بطبيعة الحال – الذي هو موطن أولئك التلاميذ المعنيين، إذ أنهم هم المقصودون بالدرجة الأولى بهذه الدراسة.

وفي إطار تلك الخلفية التاريخية العامة، ناقشت الرسالة بعض الآراء والمقولات ذات الصلة بديناميات وملابسات عملية استعراب السودان الشرقي وانتشار الإسلام في ربوعه، حيث حاول الباحث المجادلة بضرورة عدم ربط الوجود البشري والأثر

الثقافي العربي والإسلامي القديم – كما يرى - في سودان وادي النيل، بقيام الكيانات السلطانية السياسية، ذات الهوية العربية الإسلامية التي نشأت فيه في تواريخ متأخرة نسبياً في البلاد ضربةلازب.

لقد لفتت الأطروحة الأنظار بالفعل، إلى وجود دلائل وبينات على وجود عناصر بشريةومؤثرات عربية أو مستعربة ومسلمة في أجزاء مختلفة من بلاد سودان وادي النيل، على الأقل، منذ القرون الأولى من الهجرة النبوية، كما أوردت بينات جديدة فيما يلي موضوع الأسلمة والاستعراب في السودان النيلي، وقدمت فرضيات جريئة نوعاً ما، وإن كانت جديرة بالتأمل والنظر فيها، كما لفتت الانتباه إلى بينات جديدة في هذا المضمار، أو على الأقل مغمورة، وهي بينات خطية وآثارية، وأخرى ظرفية، تدُرك بقرائن الأحوال.

وتجاسر الباحث فأخضع بعض ما ورد في هذا الشأن، في جملة من المصادر والمراجع الوطنية منها والأجنبية على حدٍ سواء، للنقد وإعادة النظر في عددٍ من مقرراتها التي غدا بعضها كالمسلمات، في كتابة التاريخ السوداني الوسيط والحديث والمعاصر أحيانا .

ومن كل ذلك خلص البحث إلى أن هنالك ما يحمل على الاعتقاد بأن التعليم الإسلامي في بلاد سودان وادي النيل، قد كان هو نفسه قديماً قدم وجود تلك العناصر والمؤثرات الإسلامية المبكرة، ولم ينتظر قيام السلطنات الإسلامية الكبرى مثل سلطنة سنار أو سلطنة الفونج بوسط السودان، وسلطنة تقلي بجنوب كردفان، وسلطنة دارفور بغرب البلاد.

وعمدت الدراسة كذلك، إلى تسليط أضواء كاشفة على موقع السودان عموماً، والعلماء والطلاب السودانيين على وجه الخصوص، من سلاسل وشبكات الأسانيد الفقهية والصوفية التي ظلت تنتظم جميع أرجاء العالم الاسلامي، وتصل وتقرِب فيما بينها ثقافياً وعلمياً ومعرفياً واجتماعياً كذلك، على الأقل منذ القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي فما بعده، وخصوصا في القرن الثامن عشر الميلادي الذي استغرق حياة ونشاط الشريف محمد مرتضى الزبيدي على وجه التحديد، بوصفه أحد الرموز العلمية في ذلك القرن على نطاق العالم الإسلامي، حيث

استعرضت الدراسة أسماءً ونبذاً من سير طائفة من تلاميذ الزبيدي السودانيين، لكي تخلص من ذلك إلى أنَّ سودان وادي النيل، لم يكن معزولاً في يوم من الأيام، من موجة الحراك الثقافي والمعرفي والعلمي الذي كان يمور به سائر العالم الإسلامي من حوله.

وعلى صعيد ذي صلة أيضا، استعرضت الدراسة أبرز روافد التأثير الثقافي والعلمي الخارجية على مسيرة الدعوة والتعليم والإرشاد الإسلامي في سودان وادي النيل عبر القرون الماضية، كما عرضت للطرق الصوفية الرئيسية التي انتشرت في ربوعه، وذلك تحت أضواء جديدة، وبمعطيات وبينات إضافية ناقدة ومتسائلة أحيانا .

وختاماً، عرضت الدراسة إلى بيان علاقة السودان والسودانيين بكتب السير والتراجم عموماً، وذلك من حيث ورود تراجم أعلامهم فيها، وكذلك من حيث التأليف والتصنيف في هذا المضمار، كما خصت بالذكر في هذا الباب، التأليف في مجال طبقات العلماء والفقهاء والمتصوفة، وعلى نحو أخص، تأليف ما تسُمى بكتب الأثبَات والمعاجم والفهارس والمشيخات، حيث تطرقت الدراسة لبضعة نماذج من تلك المصنفات بأقلام مؤلفين سودانيين، مثل كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمحمد النور بن ضيف الله، والذيل والتكملة لإبراهيم عبد الدافع، وأزاهير الرياض في مناقب الشيخ أحمد الطيب بن البشير، للشيخ عبد المحمود نور الدائم، وإرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري من تأليف محمد عبد المجيد السراج، وثبت العلوم للشيخ الطيب مونة، على سبيل المثال. وقد أشارت الدراسة إلى موقع تلك المصنفات ومواقع مؤلفيها كذلك، من مجمل السياق المعاصر وذي الصلة داخل العالم الإسلامي بصفة عامة .

هذا، والله وليُّ التوفيق.

النتـــــائج

1- كشفت الدراسة عن وجود عدد من التلاميذ السودانيين (بالمعنى الخاص أي سودان وادي النيل) للعالم الموسوعي الشهير الشريف محمد مرتضى الزبيدي (1732 – 1791م)، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهو ما لم تشُر إليه سائر المراجع الأخرى، وخصوصا تلك التي كُتبتْ بأقلام غير سودانيين، التي عرضت لكتابه (المعجم المختص أو معجم المشائخ) .

2- أبرزت الدراسة مكانة السودان والسودانيين وحضورهم في المصنفات الخاصة بالتراجم والسير بصفة عامة، وفي المصنفات الخاصة بمجالات الأسانيد والإجازات الفقهية والصوفية على وجه الخصوص .

3- كشفت الدراسة عن جوانب مهمة وعديدة من مظاهر التواصل العلمي والروحي والإسنادي بين العلماء وطلاب العلم في سودان وادي النيل من جانب، ونظرائهم في شتى أنحاء العالم الإسلامي من جانب آخر، مع تركيز خاص في هذه الرسالة،على شخصية العلامة محمد مرتضى الزبيدي وتراثه، الذي هو محور هذه الدراسة .

4- نبهت الدراسة بصفة عامة إلى ضرورة إيلاء اهتمام أكبر بالبحث في مختلف مجالات التاريخ الاجتماعي والثقافي والفكري للسودان، ومظاهرهِ الكثيرة التي لم يتم ارتيادها بعد.

5- عمدت الدراسة إلى مساءلة وإعادة قراءة واستنطاق المعلومات والبيانات المتوفرة عن عملية انتشار العروبة والإسلام في سودان وادي النيل، عبر إدخال بعض البينات والآراء والتفسيرات الجديدة والمغايرة نوعاً ما لما ظل سائداً حتى الآن، مع الحرص على توخي الموضوعية والالتزام بها بقدر الإمكان .

6- ألقت الدراسة أضواء كاشفة على أبعاد عملية انتشار العروبة والإسلام في غرب السودان بصفة خاصة، على نحوٍ يميل إلى الاستقصاء والتحليل، وليس ذلك التعميم والتنميط والابتسار، الذي ظل يسم الدراسات السابقة في هذا المجال عموما كما هو مُلاحظ بصفة عامة.

التـــوصـــــــيات

-1 توجيه الدارسين والباحثين نحو إجراء المزيد من الأبحاث والدراسات في مجالات التاريخ الاجتماعي والثقافي والفكري في السودان، والذي ما يزال مجالاً بكراً وغير مطروق على نحوٍ كافٍ، عند مقارنته بالبحث في مجالات التاريخ السياسي، وكذلك الاقتصادي إلى حدٍ ما.

-2 السعي نحو دور حفظ الوثائق والمخطوطات، بغرض البحث عما عسى أن يكون مودعاً بها من وثائق ومستندات إدارية أو قانونية أو تجارية أو أحكام وحجج شرعية تتعلق بأحداث ذات صلة بالسودان، أو بأشخاص سودانيين أوسناريين أو برَارة(جمع بَرِي) كما كانوا يعُرفون بهذا الاسم، سواءً تلك المحفوظة داخل السودان، أو في المظان المُحتمَلة خارج السودان أيضاً، مثل مصر والحجاز واليمن والشام وإثيوبيا والصومال، فضلاً عن سائر حواضر بلاد السودان الأوسط والغربي المختلفة، وذلك على غرار وثيقة وقف السلطان شاو بن رفاعة التنجراوي التي تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي، وقد سبقت الإشارة إليها، واجتهد الباحث في تحقيقها إلى حد ما في هذه الرسالة أيضا .

-3 تكثيف الجهود، وإجراء المسوحات الميدانية، من أجل جمع وتصنيف ودراسة أكبر قدر ممكن من الوثائق القديمة بالسودان من مختلف مناطقه، وخصوصاً مما له علاقة بالأسانيد الفقهية أو الصوفية، أو أية بيانات أومعلومات أخرى ذات قيمة تاريخية حقيقية، وذلك بالتركيز على الاتصال في المقام الأول، بالأسر والبيوتات الفقهية والصوفية المشهورة والعريقة في البلاد كافة .

-4 توجيه الباحثين والدارسين نحو إجراء الدراسات والبحوث، حول مختلف المصنفات ذات الصلة،المتعلقة بالسير والتراجم عموماً، وبالمعاجم والمشيخات والفهارس والأثبَات خصوصاً، بغرض استقصاء أسماء وتراجم الأعلام السودانيين الذين عسى أن يكونوا مذكورين فيها، بغية بيان موقع السودان والسودانيين من هذا النوع من المصنفات، لغرض التوثيق المعرفي والثقافي، ولمصلحة البحث العلمي بصفة عامة.

5- الاجتهاد في البحث عن المخطوطات المؤلَّفة بواسطة علماء أو طلاب علم سودانيين في مجالات التراجم والطبقات عموما، وفي مجالات الفهارس والمشيخات والأثبات والمعاجم على وجه الخصوص، وذلك بغرض دراستها، وتحقيقها، والمساعدة على نشرها إن أمكن كذلك .

6- ضرورة تبني مقاربة شاملة للسودان كله ما أمكن ذلك، إلاَّ إذا اقتضى الموضوع حصراً في منطقة معينة منه، وحتى عند ذلك، ينبغي أن تكون الصورة الكلية لبلاد السودان الشرقي كلها حاضرة في ذهن الباحث أيضا، بل إن عليه أن يتجاوزها أحياناً، لكي تشمل نظرته جوار السودان الإقليمي شمالاً وشرقاً وغربا، وذلك نظراً للتواشج والتواصل الحقيقي الماثل في هذا الجانب.

7- إيلاء اهتمامٍ أكبر بإجراء البحوث والتنقيبات الآثارية التي تستهدف خصوصاً الكشف عن الآثار المادية لمخلفات الوجود البشري والثقافي والعمراني في العصور الإسلامية الوسيطة منها والمتأخرة، وخصوصاً في غرب السودان وشرقه.

8- توجيه الباحثين لارتياد مجالات ومواضيع جديدة ومبتكرة في البحث التاريخي والآثاري، بغرض إلقاء المزيد من الأضواء على بعض الكيانات والمجموعات ذات الهوية الغامضة نوعاً ما، ومع ذلك ما يزال لها حضور قوي في الروايات الشفاهية الشعبية، رغم أنها قد ظلت خارج دائرة البحث العلمي (الرسمي (لزمان طويل مثل: الهمج بأعالي النيل الأزرق، والجَعَل بمناطق المناصير والرباطاب، والبلو بشرق السودان، فضلاً عن الكيانات العربية والإسلامية السابقة لقيام سلطنتي الفونج والفور بغرب بالسودان، مثل ما تسُمى بمملكة (كردم الفوَّار (وذريته في المنطقة ما بين بئر سرار غرباً، وجبل العرشكول شرقاً، وفقاً لما يرد بكثافة في الروايات الشفاهية المتواترة. ولعل في البحث الذي أنجزه السفير الدكتور أحمد المعتصم الشيخ عن (العنَجْ) – على سبيل المثال - وأصدره في كتاب منشور، أسُوةً حسنةً في هذا الباب.

9- العمل بجدية من أجل الحصول على نسخ من جميع الوثائق الخطية التي تم العثور عليها في سبعينيات القرن الماضي بمنطقة إبريم وغيرها من مواقع بلاد النوبة المصرية، وبجميع اللغات التي كتبت بها تلك الوثائق، بغرض استصفاء

ما ورد فيها مما له علاقة بتاريخ السودان في مختلف حقبه بصفة عامة، وإخضاع تلك الوثائق للبحوث والدراسات العلمية المحكمة، وفق منهج ذي مقاربات متعددة ومتكاملة في ذات الوقت .

10- ضرورة التفكير بأعجل ما يمكن، في إنشاء مؤسسة وطنية (مركز أو معهد)،تُعنى بدراسة المخطوطات وتحقيقها بصورة علمية ونشرها، على أن يشمل اهتمامها إلى جانب المخطوطات السودانية، المخطوطات الأخرى ذات الصلة من دوائر الانتماء اللصيق للسودان في محيطه الإفريقي والعربي والإسلامي كذلك.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصـــادر:

1- القرآن الكريم

2- محمد مرتضى الزبيدي،المعجم المختص، اعتنى به وقابل أصوله: نظام محمد صالح يعقوبي ومحمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2006م.

3- محمد مرتضى الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار أحمد فرَّاج، مطبعة حكومة دولة الكويت، الجزء الأول، 1965.

4- محمد مرتضى الزبيدي، ألفية السَّنَد، كتبها تلميذه سلامة بن محمد الأشبولي الحنفي الأزهري، تحقيق وتعليق الدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 2006م.

5- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، في ثلاثة أجزاء، ضبطه وصححه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.

6- محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحينوالعلماء والشعراء في السودان، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1974م .

7- أحمد بن الحاج أبوعلي (كاتب الشونة)، تاريخ ملوك سنار والحكم التركي المصري في السودان، تحقيق يوسف فضل حسن، دار سوداتك المحدودة للنشر ومكتبة مدارك، الخرطوم، 2018م .

8- أحمد بن الحاج أبوعلي، مخطوطة كاتب الشونة، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، 1961م.

9- محمد عبدالحي بن عبدالكبير الكتاَّني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم

المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م.

10- عبدالرحمن بن سليمان الأهدل،النفس اليماني والروح الروحاني في إجازة القضُاة بني الشوكاني، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، 2012م .

11- محمد خليل المرادي، سلك الُدُّرر في أعيان القرن الثاني عشر، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة،1988م.

11- أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري، مجهول المؤلف تحقيق الدكتور محمد التونجي، دار الشروق للنشر والطباعة، جدة، الطبعة الأولى، 1984م.

12- الشيخ عبد المحمود نور الدائم،أزاهير الرياضفي مناقب العارف بالله تعالى الأستاذالشيخ أحمد الطيب، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، بدون تاريخ.

13- إبراهيم عبد الدافع، الذيل والتكملة : أرُجوزة، شرح أحمد السلاوي، تحقيق بروفيسور يوسف فضل وبروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم، منشورات سنار عاصمة للثقافة الإسلامية، كتاب سنار(2)، 2017.

14- خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء الأول، دار العلم للملايين بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، مايو 2002م.

15- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر العطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

16- نجم الدين محمد بن محمد الغزِي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، 1997م.

17- مصطفى محمد مُسعد،الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، دار المصورات للنشر، الخرطوم، 2011م.

18- الطيب محمد الطيب، المسيد، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الأولى، 1991م.

19- السلطان محمد بيلو بن عثمان دان فوديو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، نسخة الكترونية منشورة بموقع (النسَّابون العرب). بالشبكة العنكبوتية www.alnssabon.com

20- الطيب مونة بن سعيد،ثبت العلوم المسمى سر الأسرار ونور النوار الجامع لأسانيدوأثبات الأخيار، تحقيق عبد الله الطيب مونة، مطبعة حصاد للطباعة والنشر، الخرطوم، 2008م.

ثانيــــاً: المراجـــــع:

أ- كتب باللغة العربية:

21- كتاب: تاريخ إفريقيا العام، إصدار اليونسكو، المجلد الخامس، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى الثامن عشرالميلاديين، إشراف ب. أ. أوغوت، باريس 1997م.

22- عزالدين الأمين، قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، 1975 تأليف البروفيسور عزالدين الأمين

23- محمد إبراهيم أبو سليم،الفونج والأرض، تحقيق، إصدارات مشروع سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار (10)، 2017م.

24- محمد إبراهيم أبو سليم :الفور والأرض: وثائق تمليك، عرض وتحقيق، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، 1975م .

25- عبد العزيز أمين عبد المجيد، التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية التي قامت عليها، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م.

26- عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية، مطبعة التمدن المحدودة، الخرطوم، الطبعة الثالثة، 2005م.

27- يحي محمد إبراهيم، تاريخ التعليم الديني في السودان، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى، 1987م.

28- محمد عبد المجيد السَّراج،إرشاد الساري لتراجم آل عيسى الأنصاري منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار(101)، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، 2017م .

29- الفحل الفكي الطاهر، تاريخ قبائل العرب في السودان، تحقيق الدكتور عمر فضل الله .

30- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

31- يوسف المرعشلي: نثر الجواهر والدُّرر في علماء القرن الرابع عشر(الهجري)، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006م.

32- محمد عبد العظيم الخولي،الأزهر الشريف والسودانيون في العصر المملوكي 2، نسخة الكترونية، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، وبدون ترقيم للصفحات.

33- الفاتح النور، التجانية والمستقبل، دار كردفان للطباعة والنشر، 1997م.

34- العالم العلامة محمد أحمد سوار(1896 – 1959م) وجهوده في نشر العلم والمعرفة، بأقلام وروايات تلاميذه ومريديه، جمع وإعداد: صفية محمد احمد سوار وأحمد حامد محمد شوقار، مطبعة جي تاون، الخرطوم 2013.

35- حسن الفاتح قريب الله،السلاسل الذهبية في أسانيد الطريقة السمانية مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية 2005م.

36- أحمد الدردير بن محمد الحضيري، المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزّان، تحقيق أبو بكر عثمان الحضيري، الشركة العامة للورق والطباعة، الخُمُس، ليبيا، 1996م.

37- حماه الله ولد السالم، صحراء الملثمين وبلاد السودان في نصوص الجغرافيين والمؤرخينالعرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م.

38- نعوم شقير،جغرافية وتاريخ السودان، تقديم فدوى عبد الرحمن علي طه، دارعزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، 2007م .

39- هارولد مكمايكل، تاريخ العرب في السودان(جزءان)، تعريب سيد علي محمدديدان، مكتبة الدار البيضاء للنشر والتوزيع، 2013م .

40- يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية ببلاد السودان الشرقي، الطبعة الخامسة، دار سوداتك للنشر المحدودة، الخرطوم، 2012م.

41- محمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، وراجعه مصطفى محمد زيادة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965م.

42- جوستاف ناختقال، رحلة إلى وداي ودار فور، تعريب الأستاذ سيد علي محمد المحامي، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، 2012م.

43- جون لويس بوركهارت، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007م.

44- وليام ي آدمز، النوبة رواق إفريقيا، ترجمة وتقديم محجوب التجاني محمود، مطبعة الفاطيما، القاهرة، الطبعة الثانية، 2005م.

45- حسن الفاتح قريب الله، التصوف في السودان إلى نهاية عصر الفونج، كلية الدراسات العليا جامعة الخرطوم، الطبعة الأولى، 1987م.

46- مكي شبيكة، السودان عبر القرون، دار الجيل، بيروت، 1991م.

47- يحي محمد إبراهيم،دراساتسودانية في التربية والثقافة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1995م.

48- عبد القادر محمود، الفكر الصوفي في السودان: مصادره وتياراته وألوانه، دار الفكر العربي، مطبعة المعرفة لاظوغلي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1968 – 1969م.

49- تريمنجهام، ج. سبنسر، الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد عكود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001م.

50- محمد عوض محمد، السودان الشمالي: سكانه وقبائله، دار المصورات، الخرطوم، 2013م.

51- عبد القادر محمود، الطوائف الصوفية في السودان: أنسابهم وأصول تراثهم وفلسفتهم، (ب. د)، الطبعة الأولى، 1971م.

52- جاي سبولدنق، عصر البطولة في سنار، تعريب أحمد المعتصم الشيخ، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، الخرطوم، 2011م.

53- يحي محمد إبراهيم، مدرسة أحمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان،دار الجيل، بيروت، 1993م.

54- علي صالح كرار، الطريقة الإدريسية في السودان، دار الجيل، بيروت، 1991م.

55- أوفاهي، ر .ش، أحمد بن إدريس: الولي العالم، ترجمة أبو ذر الغفاري بشير عبد الحبيب، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

56- فول، جون أوبرت، تاريخ الطريقة الختمية في السودان، ترجمة وتقديم الدكتور محمد سعيد القدال، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002م.

57- معتصم الحاج عوض الكريم، الوثيقة العربية في السودان، مدرسة الغُبُشُأ نموذجا، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018م.

58- طارق أحمد عثمان، الطريقة السمانية في السودان، جامعة إفريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية،2009م.

59- الشيخ الأمين عوض الله، أساليب التربية والتعليم في الإسلام، دار القراءة للجميع للنشر والتوزيع، دبي، الطبعة الثانية، 1990م .

60- معتصم أحمد الحاج، أزهر السودان: المعهد العلمي بأم درمان تاريخه وتطوره، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، الطبعة الأولى، 2007م.

61- محمد محجوب مالك،رواد الثقافة الإسلامية في جزيرة الفونج، منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار (13)، شركة السودان لمطابع العملةالمحدودة، 2017م.

62- محمد إبراهيم أبو سليم، أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان، دارالجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1991م .

63- عبد الرحيم أبو الغيث،تاريخ الفقه الإسلامي في السودان، منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار(50)، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، 2017م .

64- عليان الجالودي (محرِر)، التحولات الفكرية في العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر: أعلام وكتب وحركات وأفكار،، من إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، مكتب الأردن، 2014م.

65- جماعة الفكر والثقافة الإسلامية، الإسلام في السودان، مجموعة أبحاث ومقالات، الخرطوم، دار الوسيلة، 2004م.

66- حوَى النبي علي صالح،من تراث الدولة السنارية، قراءة وعرض في كتاب سنار، منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار(72)، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، 2017م .

67- قيصر موسى الزين، فترة انتشار الإسلام والسلطنات في السودان(641 – 1821م)، منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار(58)، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، 2017م.

68- فانتيني، جيوفاني، المسيحية في السودان، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية، 1998م

69- جيوفاني فانتيني، إعادة اكتشاف تاريخ النوبة القديم، كلية كمبوني للعلوم والتكنلوجيا، الخرطوم، 2013م .

70- ريتشارد هل، مُعجَم تراجم أعلام السودان منذ أقدم العصور حتى عام1948م، ترجمة سيف الدين عبدالحميد النعيم، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، 2016م.

71- جاكسون، هنري سيسل، سن النار: بعض الروايات عن مملكة سنار القديمة، ترجمة الحاج سالم مصطفى، مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، 2017م.

72- محمد سليمان، دور الأزهر في السودان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

73- مجد الدين بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، أشرف عليه وقدَّم له: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي، السعودية، 1421هـ .

74- بابكر فضل المولى حسين، مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية، منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار(37)، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، 2017م.

75- الطيب محمد الطيب، فرح ود تكتوك حلالَّ المشبوك، الخرطوم، نسخة الكترونية مبذولة بالشبكة العنكبوتية، بدون دار نشر وبدون تاريخ.

76- محمد عثمان، الأمين محمود، سلطنة الفور الإسلامية: دراسة تحليلية، منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كتاب سنار(36)، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، 2017م.

77- الشيخ أحمد حامد شوقار، أعلام دارفور من موسوعة البروفسورعونالشريف قاسم مع بعض التعليقات والإضافات، شركة جي تاون، الخرطوم، 2013م.

78- أرباب العقائد، أحمد بن علي، الجواهر الحسان في تحقيق معرفة أركانالإيمان، تحقيق: حسين الفضل ومحمد السيد أرباب ومحمد صلاح عصملِي، الخرطوم، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، 2017م .

79- إبراهيم إسحاق إبراهيم،هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمالإفريقيا وبلاد السودان، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، 2011م .

80- سامية بشير دفع الله،السودان في كتب اليونان والرومان، منشوراتجامعة السودان المفتوحة، الخرطوم، 2008م.

81- أحمد بن أحمد بن إدريس الرباطابي، الإبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الختمية، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1991م.

82- يوسف فضل حسن، ملامح من العلاقات الثقافية بين المغرب والسودان، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2009م.

83- عبدالعلي الودغيري، اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح منالتأثير المغربي، جامعة محمد الخامس، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،2011م

84- عون الشريف قاسم، قاموس اللهجة العامية في السودان، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1985م .

85- أبوسليمان صالح ود ادريس، الوصول إلى لغة الأصول: دراسة تثبت أن لغة التقرى تمثل أقدم لغة او لهجة عربية، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، الطبعة الأولى، 2012م.

86- عبد الفتاح أبو غُدَّة،الإسناد من الدين وصفحة مشرقة من تاريخ سماعالحديث عند المحدِّثين، دمشق، دار القلم، 1992م .

87- حسن الفاتح قريب الله، الشيخ قريب الله ودوره في الفكر والدعوة إلى الله، أم درمان 2000م .

88- محمود محمد شاكر، المتنبي: رسالةٌ في الطريق إلى ثقافتنا، القاهرة، دار المدني، جدَّة، 1987م .

89- عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية،1993م.

90- الحاج أحمد سكيرج،كشف الحجاب عمن التقى بالشيخ التجاني منالأصحاب، نسخة الكترونية مبذولة بالشبكة العنكبوتية، من دون دار نشر، 1381 هـ 1961م.

91- الجيلاني كريم، دراسات في تاريخ التصوف في المغرب، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2017م.

92- كمال محمد عبيد، العلاقات السودانية التشادية وأثرها في نشر الثقافة العربيةالإسلامية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، 2001م.

93- يوسف فضل حسن،لمحات من تاريخ مملكة سنار الإسلامية، منشورات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، شركة السودان لمطابع العملة المحدودة، الطبعة الأولى، 2017م.

94- عبد الله العرباوي، الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمودوالتجديد، دار الشروق، القاهرة،2006م.

95- المدني محمد التوم، العلماء السناريون وأثرهم الخارجي في العلم والإرشاد، الخرطوم، 2019م.

ب: كتب بلغـــات أخـــرى:

96- Sudan, 96- Hasan, Yusuf Fadl , The Arabs and the SUDATeK, Limited, Fourth Reprint, Khartoum, 2005

97- Browne,W. G, Travels in Africa, Egypt and Syria from the years 1792 to 1798, 2nd ed, London, T. Cadell&W. Davies.

98- Karrar, Ali Salih, The Sufi Brotherhoods in the Sudan, C.Hurst& Company, London, 1992.

99- R.S. O`Fahey R. S, State and Society in Darfur, C.Hurst& Co, London, 1980.

100- Spaulding, J. & O`Fahey, R.S, Kingdoms of the Sudan, Methuen, & Co, London, 1974.

101- Stefan Reichmut, The World of Murtada Al Zabidi 1732-91, Life, Network and Writings, Gibb Memorial Trust, 2009.

102- Cuoq, M. Joseph, Islamisation de la Nubie chrétienne, VII-XV-Ie siècle, Paris, LibrairizorientlisteGeuthner, 1986.

103- Salih, Abdulgalil Abdallah, The Sammaniya: Doctrine, History & Future, Khartoum, 2015.

104- Brenner, Louis, Muslim Identity and Social Change in Sub-Saharan Africa, Indiana University Press, 1993.

105- Hasan, Yusuf Fadl, (ed), Sudan in Africa, Khartoum University Press, 1985.

106- Yusuf Fadl Hasan & Paul Doornbos, (Eds), The Central Bilad al-Sudan: Tradition &Adaptation,Tamaddon Printing Press, Khartoum, 1977.

107- McHugh, Neil, Holy Men of the Blue Nile, Northwestern University Press, 1974

108- P.M. Holt and Martin Daly, A History of the Sudan from the coming of Islam to the present day,

109- Edward Philips, John, (ed), Writing African History, University of Rochester Press, 2007.

110- Ehret, Christopher, the Civilization of Africa: A History to 1800, James Currey Publishers, 2002.

111- Alexandre Povic et Gilles Veinstein, Les Voix d'Allah : Fayard ; Paris, 1996

112- Carmona Alfonso, (ed), El Sufismo y las normas del Islam, Murcia, Spain, 2006.

113- Welsby D.A & Daniels C.M., Soba: Archaeological research at a medieval capital on the Blue Nile, British Institute in Eastern Africa, London, 1991.

114- Hasan, Yusuf Fadl, Studies in Sudanese History, SUDATeK Limited, Khartoum, 2010.

115- Al-NAQAR, Umar, the Pilgrimage Tradition in West Africa, Khartoum University Press, 1972.

ثالثاً: الاطروحات العلمية

أ- <u>أطروحات علمية باللغة العربية</u>

116- عبدالمطلب، رفعت فوزي، عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي وأثره في علوم الحديث، رسالة ماجستير من جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، منها نسخة الكترونية متاحة بالشبكة العنكبوتية اطلع عليها هذا الباحث، وقد أثبت فيها صاحبها في صفحة 3 سند الشيخ محمد الحافظ بن عبد اللطيف سالم المصري التجاني في رواية موطأ الإمام مالك بن أنس وفيه ذكر الشيخ الماحي الدارفوري، وهو التلميذ السوداني الوحيد المباشر للشيخ أحمد التجاني.

117- ضرار علي حمد، جيهان، تاريخ حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها فيالعالم الإسلامي، بحث تكميلي بكلاريوس عام، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 2013م .

118- محمد بن علي بن محمد السكاكر، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوةالشيخ عثمان بن فودي، دراسة تاريخية مقارنة (رسالة ماجستير)، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1421 هـ / 2000م.

ب: أطروحات علمية بلغات أخرى:

119- AL-Tayyib, Khadija Karrar, Aspects of Sufism in theSudan, MA Thesis, Durham University, UK, April, 1975.

120- Eid, Osman Mohamed, Khalwa as an Islamic Educational Institution in the Sudan,Ph.D Thesis, Edinburgh, November 1985.

رابعاً: المواد المنشورة بالكتب أوالمجلات أو الصحف

أ- مواد منشورة في كتب أو مجلات أو صحف باللغة العربية:

121- يوسف فضل حسن، (الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان) بحث ضمن كتاب: الإسلام في السودان، تحرير مدثر عبد الرحيم والطيب زين العابدين، دار الأصالة، الخرطوم، الطبعة الثانية، 2004م، ص 17.

122- بشير إبراهيم بشير، (عيذاب: حياتها الدينية والأدبية)، مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، العدد الثاني، المجلد الخامس، يوليو 1979م .

123- يحي محمد إبراهيم، (المخطوط السوداني، النشأة والتطور والوضع الراهن (، مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، العدد الثالث عشر، يونيو 1995م.

124- مصطفى أحمد علي، (اللهجات العربية في الحزام السوداني الأوسط والشرقي)، مقال منشور بالعدد السابع والعشرين من مجلة دراسات إفريقية،جامعة إفريقيا العالمية، يونيو 2002م ن ص 152.

125- عوض عبد الهادي العطا، (الأوقاف السنارية في المدينة المنورة)، مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، العدد 25، يونيو 2001م .

126- خالد محمد فرح، (تراجم الأعلام السودانيين في كتاب تتمة الأعلام للزركلي)، تأليف محمد الخير رمضان يوسف، مقال نشر من عدة حلقات بصحيفة الصحافي الدولي السودانية في بحر عام 2000م.

127- أبو قرون عبد الله أبو قرون، (الشيخ محمد البدوي أول شيخ إسلا)م، مقال نشُر بجريدة الصحافة السودانية، بتاريخ 24 / 5 / 2013م .

ب : مقالات بمجلات أو صحف أو كتب بلغات أخرى

128- Holt, P.M., 'The Sons of Jabir and their kins, A clan of Sudanese Notables', BSOAS, Vol XXX, 1967.

129- Arkell, A. J, 'The Medieval History of Darfur 1200 – 1700 A. D.',

SNR, Vol. XXXII.

130- Leavers, John E., 'Diversions on A Journey of the Travels of Shaykh Ahmed AL-Yamani (1630 – 1713) From Halfaya to Fez ', in Yusuf Fadl Hasan & Paul Doornbos, The Central Bilad Al Sudan, Tradition & Adaptation, IAAS, University of Khartoum, El Tamaddon Printing Press, Khartoum, 1977, pp.216 – 232.

131- On prosletizingKhalwatiyya in Darfur in the 18th century, see: O`Fahey, R. S., Islamic Hegemonies in the Sudan , in Louis Brenner, (ed), Muslim Identity and Social Change in Sub-Saharan Africa, Indiana University Press, 1993, p.25.

132- VOLL, O. John ، Hadith Scholars and Tariqahs: An Ulama Group in the 18th CenturyHaramayn and their Impact in the Islamic World ', Journal of Asian and African Studies, XV, 34, 1980, p.205.

133- Hasan, Yusuf Fadl, 'The Fur Sultnate and the Long Distance Caravan Trade c 1650 – 1850 ', ", in Yusuf Fadl Hasan & Paul Doornbos, (eds), The Central Bilad al-Sudan: Tradition &Adaptation, Tamaddon Printing Press, Khartoum, 1977, p 209

134- Levitzion, Nehemia, , The Role of Shari`a – oriented Sufi Turuq in the Renewal Movements of the 18th and 19th Centuries . in El Sufismo y las normas del Islam, Tarbajos del IV Congreso, Alfonso Carmona, (ed), Murcia, Spain, 2006.

135- Al-Karsani, Awad al-Sid, 'Muhamed al-Hafiz al-Tijani and the Sudan' in Mahasin A. Hag al-Safi (ed), TheNationalist Movement in the Sudan, IAAS, U of K, 1989.

136- Haaland, Randi, "The Meroitic Empire, Trade and Cultural Influences in an Indian Ocean Context ", African Archaeological Review, Volume 31, Issue 4, December 2014, pp 649 – .376

خامساً: أوراق باللغة العربية في ندوات ومؤتمرات علمية

-137 يوسف فضل حسن، (أثر حركة الشيخ عثمان دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل)، بحث قدم ضمن بحوث الندوة العالمية للاحتفال بذكرى الشيخ عثمان دان فوديو بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم 19 – 21 فبراير 1995م، إصدار جامعة افريقيا العالمية ومنظمة الأيسيسكو1996، ص 29.

-138 عبد الله حمدنا الله، (تبادل التأثير الثقافي الإسلامي بين علماء السودان وعلماء حوض بحيرة تشاد (، ورقة مقدمة من ضمن أوراق المؤتمر الدولي: الإسلام في إفريقيا، المجلد الخامس، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم 26 – 27 نوفمبر 2006م، ص .254

-139 عمَّار جحيدر، (اتصال السند العلمي في ليبيا: تلاميذ العلامَّة مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ - 1791م) ورقة منشورة في مجلد: أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا: واقعها وآفاق العمل حولها: زليطن1988م، الجزء الثاني، وقف على نشرها وقدَّم لها عمَّار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، كلية الآداب والتربية، زليطن، الجماهيرية العربية الليبية، 1992م، الصفحات 1411 – 1442.

-140 العراقي، تاج السر، (نظام التعليم في العهد السناري1504 – 1821م (ورقة شارك بها الكاتب في مؤتمر (التجربة السنارية وبناء الدولة الحديثة في السودان (الذي نظمه معهد الدراسات السودانية والدولية بجامعة الزعيم الأزهري، في إطار الاحتفال بسنار عاصمة للثقافة الإسلامية في عام 2017م، وذلك بتاريخ 14 مارس 2017م، ونشر بالمجلد الذي حوى أوراق ذلك المؤتمر، الذي كان هذا الباحث ممن شهدوا بعض فعالياته.

سادسا: مواد مأخوذة من الشبكة العنكبوتية: مع ذكر المواقع الالكترونية المنشورة فيها

141- ظاظا، زهير، مقال عن كتاب: تاج العروس للزبيدي بموقع الوراق الالكتروني www.zaza@alwarraq.com

142- أحمد الياس حسين، (صلح عبد الله بن أبي سرح (البقط) مع مملكة مريس (انظر مدونته بمنبر الرأي، بصحيفة سودانايل الالكترونية www.sudanile.com

143- أحمد الياس حسين، (حول فهمنا ودراستنا لدخول الإسلام في السودان)، مقال بمدونة الكاتب بمنبر الرأي بموقع صحيفة سودانايل الالكترونية www.suda-nile.com

144- خالد محمد فرح، (وقفات مع لغة التكاكي) مقال بمدونة هذا الباحث بمنمبر الرأي بموقع صحيفة سودانايل الالكترونيةwww.sudanile.com

145- أحمد الياس حسين، (الممالك الإسلامية في السودان قبل مملكة سنار)، نقلاً عن كتاب: المكتبة السودانية العربية لمصطفى مسعد مقال مبذول بمدونة هذا الكاتب بمنبر الرأي بموقع صحيفة سودانايل الالكترونية www.sudanile.com

146- G. Jackson, John, " The Black Godi: Ethiopia and the Origin of Civilization, Rosta livewire":www.africaresource.com

147- عن قصة وزير الكنداكة الذي تنصَّر على يد الشمَّاس فيليب، انظر النسخة الالكترونية من العهد الجديد (الإنجيل) في الرابط www.biblegateway.com

148- عن الوضع اللغوي التعددي والثري في بلاد النوبة السودانية في العصور الوسطى، انظر: GrzegorgOchala, Multilingualism in Christian Nubia, Qualitative and Quantitative Approaches ,Dotawo, A Journal of Nubian Studies, Firefield University, 2014 , Vol 1, Article 1 Available at: http: IIdigitalcommons.fairfield.edu.

149- عن ترجمة الشيخ محمد بن محمد بن ناصر الدرعي المغربي الشاذلي، انظر ترجمته في موسوعة ويكبيديا www.wikipedia.com

150- خالد محمد فرح، (نبذة عن تاريخ الدعوة والثقافة الإسلامية في دار فور (، مقال نشره الباحث بصحيفة سودانايل الالكترونية بتاريخ 28 فبراير 2011م www.sudanile.com، وهو موجود أيضا بموقع سوداريس الالكتروني.

151- شويحة عبد الرحمن، (سيدي محمد بن عبدالرحمان بوقبرين الأزهري)، عن علاقة هذا المتصوف الجزائري بدارفور في القرن الثامن عشر، انظر هذا المقال بموقع جزايرس على الشبكة العنكبوتية: www.djazairess.com/djelfa/10498

152- عبد الله الطنطاوي، (الإمام محمد بن عبد الوهاب: مجدد القرن الثاني عشر)، مقال منشور بموقع (مداد) الالكتروني، بتاريخ 8 \ 11 \ 2007م بالموقع www.midad.com

153- مقال عن الشيخ شاه ولي الله الدهلوي بموقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية على الرابط: https://islamstory.com/ar/artical/3407748/%D8%B4%D8%A7%D9%87-%D9%88%D9%84%D9%8a%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%87%D9%84%D9%88%D9%8A

154- أمين يهوذا، (دور رحلة الحج في نشر التعليم العربي الإسلامي بغرب إفريقيا: شمال نيجيريا نموذجاً)، بحث مبذول على الشبكة العنكبوتية بالرابط أدناه: http://qaindex.com/Content/%D8%AF%D9%8E%D9%88%D9%92%D8%B1- %D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D9%91-%D9%81%D9%8A- %D9%86%D8%B4%D8%B1- %D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%85- %D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A- %D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A- %D8%A8%D8%BA%D8%B1%D8%A8- %D8%A5%D9%81%D8%B1%D9%8A%D9%82%D9%8A%D8%A7

%A7- %D8%B4%D9%85%D8%A7%D9%84- %D9%86%D9
%8A%D8%AC%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%A7- %D9
%86%D9%85%D9%88%D8%B0%D8%AC%D8%A7?C-
tID=3&CID=1578&TId= 20&PN=0&PS=0&Dir=0

155- (الشيخ محمد عبد الكريم السمَّان: حياته وآثاره)، مقال منشور بموقع منتديات مشيخة الطريقة السمانية بطابت المحمود على الانترنت تحت الرابط: www.tabatalmahmoud.com

156- الفيومي، عاطف عبد المعز، (التعقيب على من يقول إنَّ الإجازات من ملح العلم)، مقال منشور بتاريخ 27\ 11 \ 2014م بموقع الألوكة. ولهذا الكاتب موضوع أخرى تتعلق بموضوع الإجازات العلمية أيضاً موجودة بذات الموقع https://www.alukah.net/sharia/0/79016/

157- يوسف السنَّاري، (التعريف بكتب المشيخات والأثبات والبرامج والفهارس والمراجع)، مقال نشُر بتاريخ 31 \ 1 \ 2015م بموقع أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية.

158- قمر شعبان الندوي، (مرتضى الزبيدي: إفاداته وآثاره)، مقال نشره الباحث المذكور بموقع البحث العلمي بالهند بالشبكة العنكبوتية، بتاريخ 18 \ يونيو\ 2013م، تحت الرابط: www.majmaulbahs.blogspot.com/2013/06/blog-post6633,html

159- محمد إسماعيل زاهر، (مرتضى الزبيدي: العربية أمُّ المعارف)، مقال بالنسخة الالكترونية من صحيفة الخليج، نشُر بتاريخ 15 \ 10 \ 2016م، تحت الرابط: www.alkhaleej.ae

الـمـلاحـــق

ملـحق رقـــم(1)

عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة
ماخوذ عن المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

بسم الله الرحمن الرحيم. عهدٌ من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة، ولجميع أهل مملكته. عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حدِ أرض أسوان إلأى حد أرض علوة. أنَّ عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهُدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمَّة. أنكَّم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم. أن لانحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مُجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو مُعاَهد حتى يخرج عنكم. وأنَّ عليكم ردَّ كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردُّوه إلى أرض الإسلام، ولاتستلوا عليه ولا تمنعوا منه. ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم. ولا تمنعوا منه مصليا. وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته. وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكُران وإناث، ليس فيها شيخٌ هرم، ولا عجوز، ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان. وليس على مسلم دفع عدوٍ عرض لكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو مُعاهَداً، أو تعرضتمٌّ للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأسا، فقد رئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون

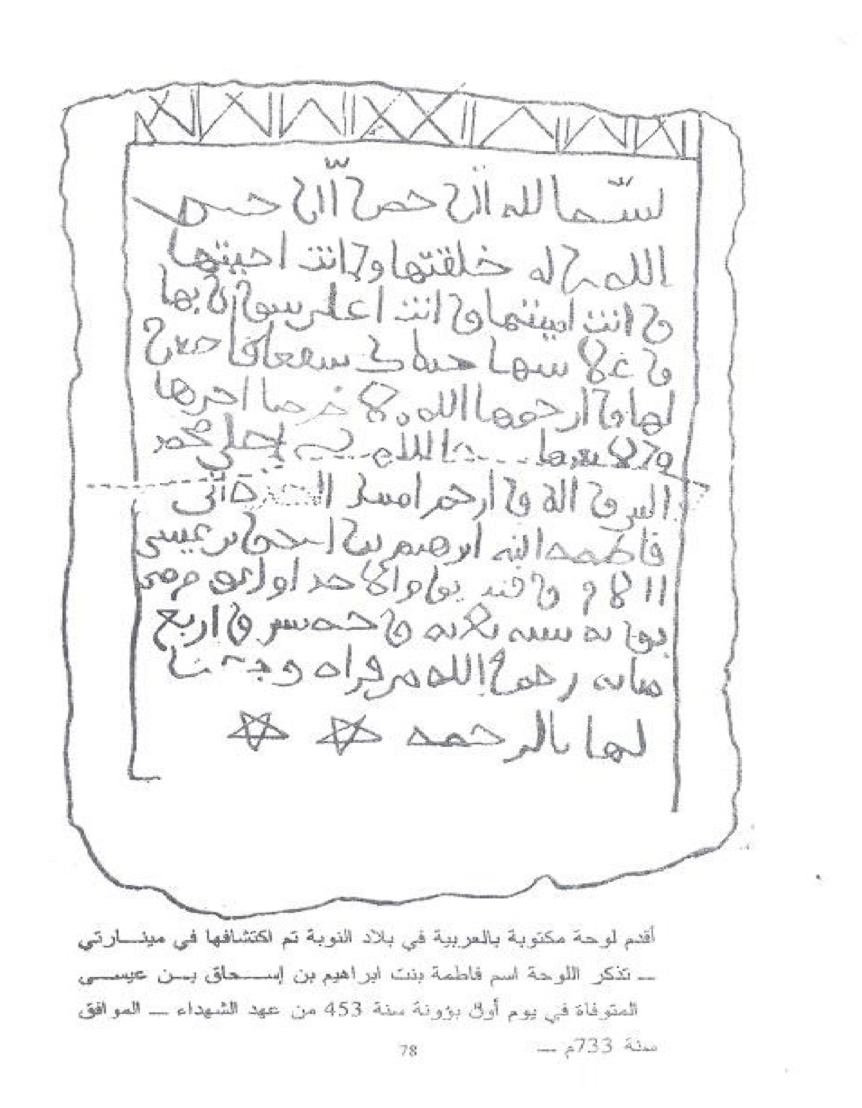
به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. اللع الشاهد بيننا وبينكم على ذلك .

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين .

- المصدر: الإسلام والنوبة، مصطفى مسعد، سبق ذكره، الصفحتان 256/257.

ملحــق رقــم (2)

صورة نقش على شاهد قبر لسيدة عربية مسلمة عُثر عليه بمينارتي بشمال السودان، توُفيت سنة 453 هـ / 1032م



أقدم لوحة مكتوبة بالعربية في بلاد النوبة تم اكتشافها في ميناــرتي ــ تذكر اللوحة اسم فاطمة بنت ابراهيم بن إســحاق بــن عيســى المتوفاة في يوم أول بؤونة سنة 453 من عهد الشهداء ــ الموافق سنة 733م ــ

78

• المصدر: كتاب المسيحية في السودان تأليف الإيطالي جيوفاني فانتيني، سبق ذكره من قبل، ص 78.

ملحـــق رقـــم (3)

نص وثيقة وقف السلطان شاو بن رفاعة التنُّجُراوي بالحجاز

السعودية

الصكوك الصادرة من المحاكم الشرعية

1 قرش سعودي

بسم الله الرحمن الرحيم

تحريره أنه اتصلت هذه الصورة بشروط الاتصال لدى سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي عبد الله بن حسين بن حسام خليفة الحكم العزيز بالمدينة المنورة يوم تاريخه وحكم بثبوته لديه كما ثبت عند مسجل أصله وأمر بتسجيله وحفظه بهذا السجل المبارك الميمون وهذه صورته من غير زيادة ولا نقصان بمجلس الشريعة المطهرة بالباب العالي أعلاه الله تعإلى وشرفه بالقاهرة المحروسة بين يدي سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعإلى الشيخ الإمام العلامة المعمدة ولي الدين شرف الصلحاء أوحد الفضلاء مفتي المسلمين أبي العباس أحمد الفتوحي الحنبلي خليفة الملك العزيز بالديار المصرية أي د الله تعإلى أحكامه وأحسن إليه حضر سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة العمدة فخر الدين عثمان بن الشيخ نور الدين علي المغربي المالكي أدام الله تعإلى النفع بوجوده وعلومه القائم فيما يذكر فيه بطريق وكالته الشرعية من قبل الإمام الباسل الجحجاح الهمام المبجل المعظم السلطان شاو بن المرحوم السلطان رفاعة سلطان التنُّجُر المتقرب إلى الله تعإلى بهذه الصدقة الآتي ذكرها فيه الثابت وكالته المذكورة عنه بالإشهاد بها لدى سيدنا الحاكم المشار إليه أعلاه أدام الله تعإلى علاه بشهادة يحي بن محمد بن يونس الهواري الدكيراني الشهير بأخي حسبون وسلامة بن سليمان بن علي عرف بابن أبي دينار الهواري الدكيراني بعد تزكيتهما لديه بشهادة أبي بكر بن حماد بن عبد الله أكبري وحسن بن علي بن موسى البري ومحمد المدعو فيهم بأكبر بن عبيد الفنجري التزكية الشرعية الثبوت الشرعي وأشهد عليه الشيخ عثمان المشار إليه افشهاد الشرعي وهو بحال الصحة والسلامة والطواعية والاختيار أنَّ موكَّله السلطان شاو المشار إليه أعلاه تقبل الله

بره وصدقته وادام عزه وذخرته وقف وحبس وسب وحرَّم وحللَّ وأبدَّ وأكد وتصدق بما هو جار في ملكه وبيده وحوزه وتصرفه من الأماكن والنخيل والبساتين والدُّور الكائن ذلك بالمدينة الشريفة المنورة على مشرفها سيدنا ونبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى السلام على الاستمرار والدوام على جماعة الفقُراء البررة المقيمين بالمدينة الشريفة المشار إليها أعلاه بالسوية بينهم لا يفضل أحدهم على باقيهم يستقل به الواحد منهم عند الانفراد ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع فإن ماتوا ولم يوجد واحد منهم بها فعلى الفقراء المقيمين بالمدينة المذكورة كذلك فإذا وُجد البررة ولو واحد منهم رجع ذلك إليه وقدِّمُ على غيره وهلم جرا وشرط النظر على ذلك والولاية عليه لنفسه أيام حياته وله أن يسنده ويفوضه ويوصي به لمن شاء فإن مات من غير وصية ولا إسناد ولا ... به أو فعل ذلك وتعذر كان النظر على ذلك للأرشد فالأرشد من أولاده أو لأولاد أولاده وذريته ونسله وعقبه ولكل من يؤول إليه النظر منهم أن يسنده ويفوضه ويوصي به لمن يشاء فإن تعذر فلحاكم المسلمين الحنفي بالمدينة المشار إليه ثم من بعده لمن يلي وظيفته وهلم جرا وأن الموكل المشار إليه صدق على ما وقفه والده المشار إليه وأخوه لأبيه ذياب من النخيل والأماكن والدُّور بالمدينة المذكورة أعلاه كذلك على الحكم المذكور وأنه لا دافع له في ذلك ولا مطعن ولا قدحاً أو نزاعاً ولا تكلماً ولا مقالاً وثبت بالأشهاد بذلك لدى سيدنا الحاكم المشار إليه بأعاليه دامت معاليه بشهادة شهيدين ثبوتاً شرعياً تاماً مُعتبراً مرضياً مسؤولاً في ذلك مستوفياً شرايطه. وأشهد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد بتاريخ رابع عشرين شوال سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة.[1]

• المصدر، كتاب: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلادالسودان، تأليف إبراهيم إسحق إبراهيم، سبق الإشارة إليه فيما مضى، الصفحتان 258 و259.

1 توافق عام 1575م.

ملحـــق رقـــم (4)

نص إجازة الشيخ علي الأجهوري لتلميذه السوداني عبد الرحمن بن إبراهيم والد الشيخ خوجلي

بعد حمده تعالى، والصلاة على نبيه، وبعد: فقد قرأ عليَّ الشاب النحرير الفاضل، الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن أبي ملاح، الكُباني نسبةً، البرِي بلدةً، عقيدتي التي ألفتها في أصول الدين والتصوف وشرحها، قراءةً جيدة نافعة إن شاء الله تعالى، وحضر قراءتي في مختصر العلامة خليل في فقه المالكية في نحو نصف الكتاب المذكور، قراءة بحث وتحقيق دلتَّ على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور، وقد استخرت الله تعالى وأجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لي روايته بشرطه سائلاً منه الاَّ ينساني من الدعاء بسعادة الدارين ونحو ذلك. وبالدعاء والرحمة لأمواتنا وأموات المسلمين، جعله الله من العلماء العاملين، ووفقه لما يحبه ويرضاه من القول والعمل وجعله من عباده المخلصين ونفع بعلومه المسلمين بجاه سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وكتبه في آخر ذي الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف.[1] علي بن محمد المدعو بزين بن عبد الرحمن الأجهوري المالكي.

- المصدر، كتاب الطبقات لمحمد النور بن ضيف الله، سبق ذكره، الصفحتان 258 و259.

1 توافق سنة 1621م.

ملحـــق رقـــم (5)

مقتطف من نص خطاب أرسله مرتضى الزبيدي لسليمان بن يحي الأهدل باليمن

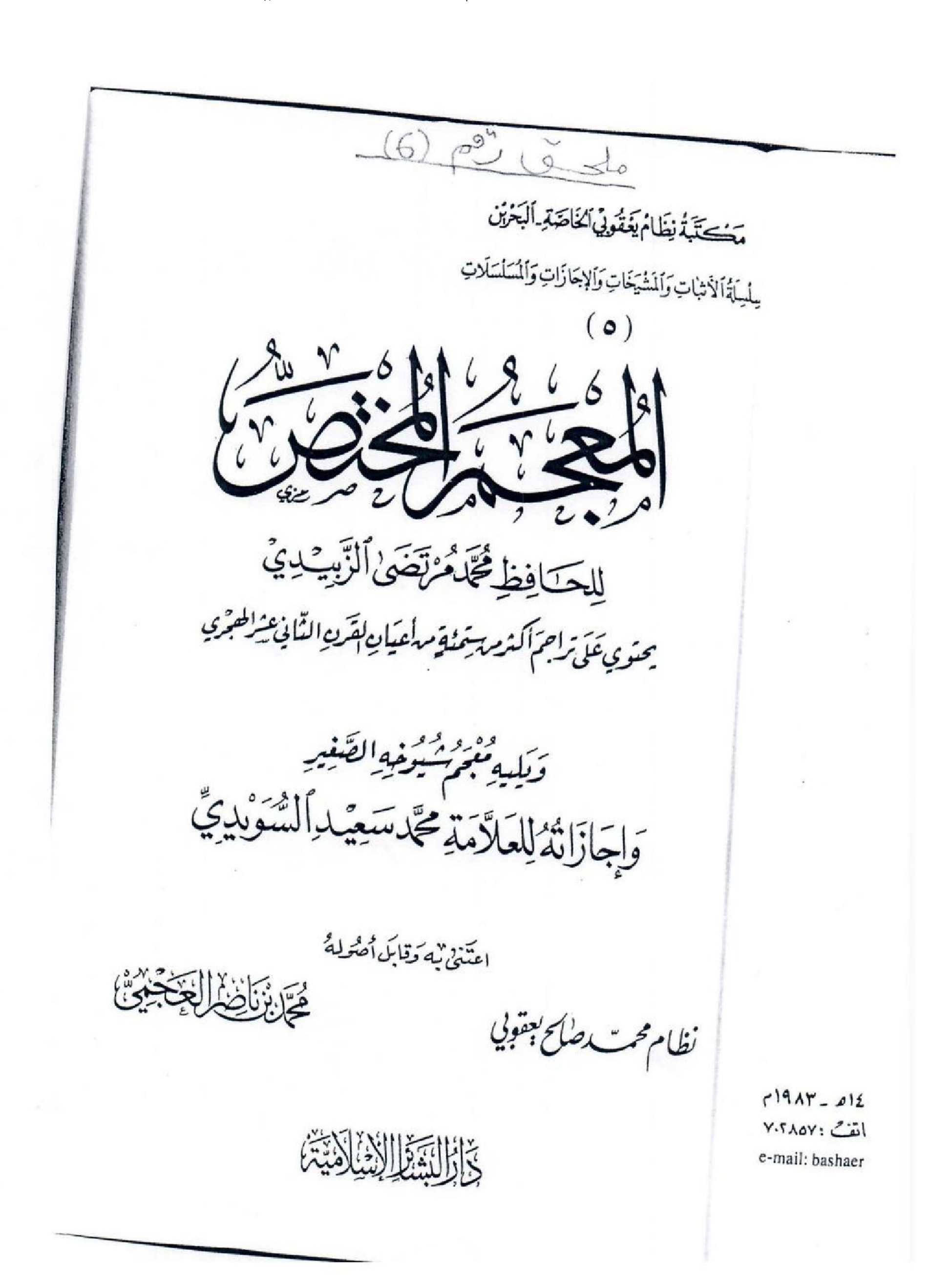
ومما منَّ الله به عليَّ، أن كتبت على القاموس شرحاً غريباً في عشر مجلدات كوامل جملتها خمسمائة كراس، مكثتُ مشتغلاً به أربعة عشر عاماً وشهرين، واشتهر أمره جداً، حتى استكتب ملك الروم نسخةً، وسلطان دارفور نسخةً، وملك الغرب نسخةً ونسخة منها موجودة في وقف الأمير اللواء محمد بيك بمصر، بذل في تحصيله ألف ريال، وإلى الآن الطلب من ملوك الأطراف غير متناهي.......

وكتبتُ إجازةً إلى غزَّة ودمشق وحلب (وعين تاب)، وأذربيجان وتونس والجزائر وتادلا وديار بكر وسنار ودارفور ومدراس وغيرها من البلدان على يد جماعة من أهلها الذين وفدوا عليَّ وسمعوامنِي، واستجازوا لمن هناك من أفاضل العلماء، فأرسلتُ إليهم مطلوبهم. وتلك الأسانيد غالبها مما استفدناه منكم، ومن حضرة شيخنا المرحوم عبد الخالق بن أبي بكر المزجاجي، ولقد حصلت لأسانيدكم شهرة في الديار المصرية والشامية والرومية والمغربية، وأطرافها مما لا أحصي بيانه. والحمد لله الذي وفقني لإحياء مراسيم أشياخي وإنعاش ذكرهم على ممر الزمان .

- المصدر: كتاب النفَّسَ اليماني والروح الروحاني في إجازة القضُاة بني الشوكاني، تأليف عبد الرحمن بن سليمان الأهدل (ت1250 هـ)، مر ذكره من قبل، الصفحات 271 - 273.

ملحـــق رقـــم (6)

صفحة الغلاف الداخلية لكتاب المعجم المختص للزبيدي



ملحق رقم (6)

مكتبة نظام يعقوبي الخاصة - البحرين

سلسلة الأثبات والمشيخات والإجازات والمسلسلات

(٥)

المعجم المختص

للحافظ محمد مرتضى الزبيدي

يحتوي على تراجم أكثر من ستمئة من أعيان القرن الثاني عشر الهجري

ويليه معجم شيوخه الصغير

وإجازاته للعلامة محمد سعيد السويدي

اعتنى به وقابل أصوله

محمد بن ناصر العجمي

نظام محمد صالح يعقوبي

١٤هـ - ١٩٨٣م

اتف: ٧٠٢٨٥٧

e-mail: bashaer

دار البشائر الإسلامية

ملحـــق رقـــم (7)

نص إجازة الشيخ إبراهيم السقا الأزهري الشافعي للشيخ عبد الرحمن بن أحمد البدوي الأنصاي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أجاز من استجازه بوافر الهبات، والشكر للإله الذي أجاز من استجازه واعرالعقبات، وموصول الصلوات ومُسلسل التسليماتعلى مرفوع الرتبة العالية سيدنا محمد وآله وصحبه أولى الهمم السَّامية، أما بعد فقد استجازني الشال الناجح المبارك الصالح الشيخ عبد الرحمن أحمد البدوي الأنصاري فأجزته بما أجازني به أساتذتي الكواكبالدراري كشيخنا الولي المقربالأستاذ الأكبرالشيخ ثعيلب عن شيخيه الشهاب أحمد الملوي والشهاب الشيخ أحمد الجوهري حسبما تضمنه ثبتاهما، كشيخنا الأمير الصغير بما حواه ثبت والده الكبير كشيخنا الشيخ حسن القويسني بما تضمنه أثبات شيوخه كجمعة البجيرمي وغيرهم من الجهابذة وأفاضل الأساتذة .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

أجزته بما تجوز لي روايه، أو تصح عني درايته من فروع وأصول، ومعقول ومنقول، موصياً له ولنفسي بتقوى الله والإخلاص له، وابتغاء رضاه .

إبراهيم السقا الشافعي خادم العلم والفقرا بالأزهر   28* 1268

- المصدر: كتاب قرية كُترانج وأثرها العلمي في السودان، تأليف عز الدين الأمين، سبق ذكره، ص 89.
- 1268 هـ توافق سنة 1851م.

ملحـــق رقـــم (8)

مقتطف من تقديم البروفيسور عمر مسعود التجاني لكتاب ثبت العلوم للشيخ الطيب مونة

الحمد لله على تتابع نعمائه وتاتر آلائه، والصلاة والسلام على سيد رسله وأنبيائه وعلىآله وصحبه أهل صدقه ووفائه وبعد: فقد كان علماء الإسلام يقولون: (الأسانيد أنساب الكتب)، نصَّ عليه الحافظ بن حجر العسقلاني في (فتح الباري). ولأجل ذلك حرص العلماء – بعد عصر الرواية وانتشار المؤلفات بسائر أنواعها – على ذكر أسانيدهم التي تصلهم بتلك المؤلفات. ومثلما تفنَّن المؤلفون في تآليفهم، تفنن أصحاب الأسانيد أيضاً في التعريف بطرائق اتصال رواياتهم إلى: أثبات ومعاجم وبرامج وفهارس ومشيخات، وكشفوا بهذا النوع من التأليف عن فوائد كثيرة مثل سماع شيوخ او استجازتهم من شيوخ أعلى منهم في الطبقة بحيث يظن من لم يطلع على هذه الأثبات عدم السماع أو عدم الاستجازة أو يستبعدها كما فعل غير واحد في استبعاد ذلك في العلامَّة عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني المغربي عن حبيب الرحمن الأعظمي الهندي، أو يظن عدم وجود الشيوخ من أصلهم كما فعل بعضهم في إنكاره على العلامَّة صالح الفلُانَّي في روايته عن محمد بن سنة. وللأثبات فوائد أخرى كثيرة منها أنها تبرُز علماء كل عصر وأعيانه، وفيها نشرٌ للعلوم وترويجها بين العام والخاص، وفيها صورة حية للمجتمع الذي دُ وِنت في زمانه، ونوع نشاطه الفكري والاجتماعي. كما أنَّ من فوائدها أيضا، تصحيح أسماء البلدان والأعيان، فضلاً عن كونها تتضمن معلومات شخصية مهمة عن مؤلفيها، وعن حياتهم العلمية وكيفية تلقيهم عن شيوخهم.

إنَّ أمامي الآن ثبت العلامَّة المُجمَع على جلالته في العلم والورع، الشيخ الطيب مونة بن سعيد السوداني الكردفاني الذي أسماه: (سرُّ الأسرار ونور الأنوار الجامع لأسانيد وأثبات الأخيار (، وهو ثبتٌ متصل بنحو ثلاثين من الأثبات المشهورة المعروفة. إنَّ نشر هذا الثبت يزيِ ف مقولة من ادعى أنَّ علماء السودان ليس لهم إسهام في هذا النوع من العلوم، ويؤكد أنَّ علماء السودان لهم يدٌ طولى في هذا المجال.

- المصدر: كتاب ثبت العلوم للشيخ الطيب مونة بن سعيد، سبق ذكره، الصفحات أ، ب، ج .

ملحـــق رقـــم (9)

نص إجازة الشيخ مجذوب مدثر الحجاز للشيخ محمد أحمد سواربقراءة وإقراء دلائل الخيرات

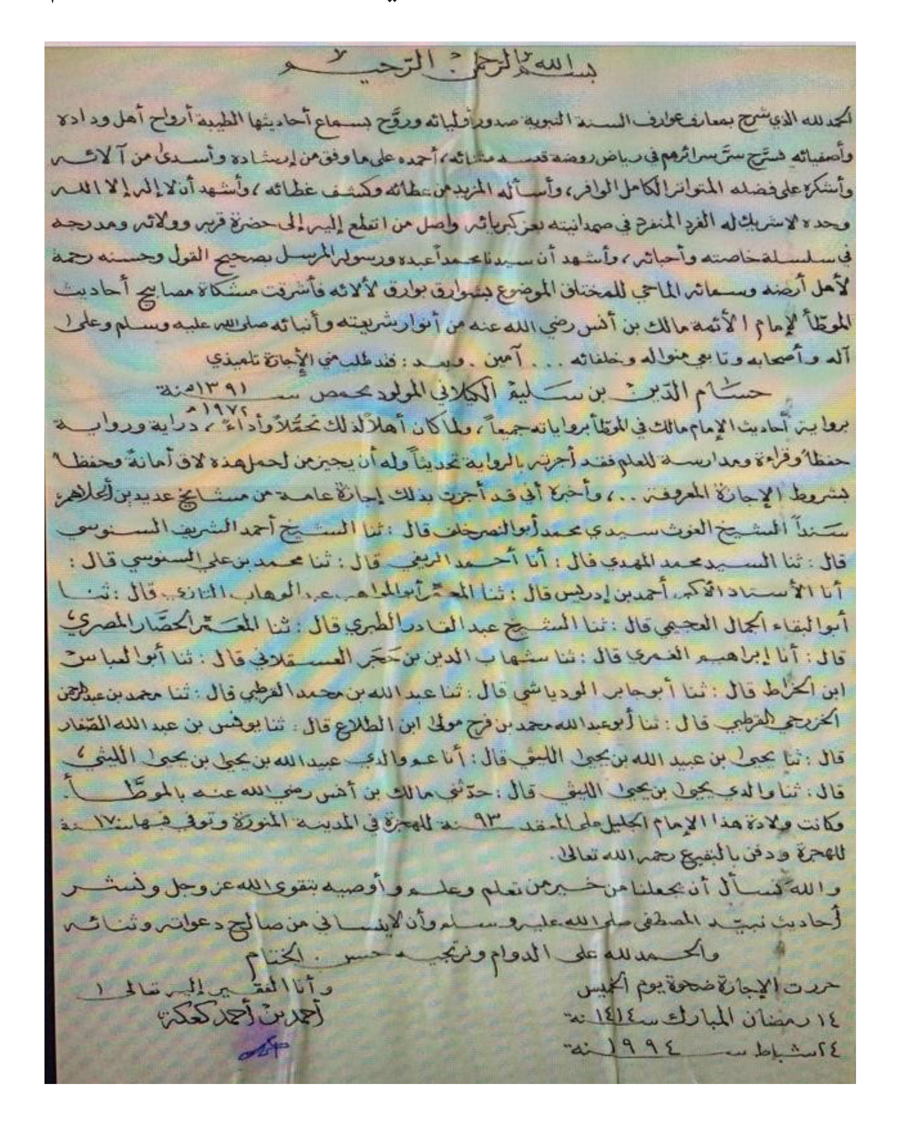
بسم الله الرحمن الرحيم والحمد والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وبعد: فأقول وأنا العبد الفقير محمد مجذوب بن مدثر بن إبراهيم قد أجزتُ الأخ الفاضل والمهذب الكامل الموفقّ السالك أحسن سنن الشيخ محمد أحمد سوار في دلائل الخيرات قراءةً وإقراءً كما أجازني بذلك شيخي العلامة الشيخ الحاج أحمد المجذوب من العلامَّة الشيخ أحمد الحاج علي المجذوب عن العلامة الشيخ عبد الغني عن العلامة اسماعيل افندي ابن ادريس افندي الرومي المدني عن العلامة محمد افندي اخسنحوي عن العلامة الشيخ مرتضى الزبيدي عن العلامة محي الدين نور الحق بن عبد الله الحسني عن السيد سعد الله بن محمد الهندي عن المعمر الشيخ عبد الشكور الحسني عن المؤلف سيدي محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عن الكل ووفقنا إلى الاكثار من الصلاة والتسليم على هذا النبي العظيم بفضله آمين. هذا ولو لم يكن في فضل الصلاة والسلام على رسول الله إلا قول الله تبارك وتعإلى إنَّ الله وملائكته الآية، لكفى ذلك مُثيراً للهمم، لا سيما وقد ورد من صلىَّ عليَّ مرةً صلى الله عليه عشرا ولا شيء أحسن للعبد من أن يكون مُصلِ ياً عليه خالقه ومن ذلك الظفر بكل أمُنية وفق الله إلى محابه من جميع الأعمال ورزقنا اخلاص النية وأوصيه بتقوى الله في كل حال والسلام . يوم 30 ربيع الأولى سنة 1356 هـ [1]

- المصدر، كتاب: العالم العلامة محمد أحمد سوار، ذكُر من قبل، ص 147.

1 توافق عام 1936م

ملحـــق رقـــم (10)

نموذج لإجازة معاصرة: إجازة الشيخ السوري أحمد كعكة للدكتور حسام الكيلاني



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرح بمعارف عوارف السنة النبوية صدور أوليائه وروّح بسماع أحاديثها الطيبة أرواح أهل وداده وأصفيائه فشرح سرّ سرائرهم في رياض روضة قصده مشكاته، أحمده على ما وفق من إرشاده وأسدى من آلائه وأشكره على فضله المتواتر الكامل الوافر، وأسأله المزيد من عطائه وكشف غطائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الفرد المنفرد في صمدانيته بعز كبريائه واصل من انقطع إليه إلى حضرة قربه وولائه ومدرجه في سلسلة خاصته وأحبائه، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المرسل بصحيح القول وحسنه رحمة لأهل أرضه وسمائه الماحي للمختلق الموضوع بشوارق بوارق آلائه فأشرقت مشكاة مصابيح أحاديث الموطأ لإمام الأئمة مالك بن أنس رضي الله عنه من أنوار شريعته وأنبائه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وتابعي منواله وخلفائه ... آمين. وبعد: فقد طلب مني الإجازة تلميذي

حسام الدين بن سليم الكيلاني المولود بحمص سنة ١٣٩١هـ ١٩٧٢م

برواية أحاديث الإمام مالك في الموطأ برواياته جميعاً، ولما كان أهلاً لذلك تحمّلاً وأداءً، دراية ورواية حفظاً وقراءة ومدارسة للعلم فقد أجزته بالرواية تحديثاً وله أن يجيز من لحمل هذه الأمانة وحفظ بشروط الإجازة المعروفة..، وأخبره أني قد أجزت بذلك إجازة عامة من مشايخ عديدين أجلاهم سنداً الشيخ الغوث سيدي محمد أبو النصر خلف قال: ثنا الشيخ أحمد الشريف السنوسي قال: ثنا السيد محمد المهدي قال: أنا أحمد الريفي قال: ثنا محمد بن علي السنوسي قال: أنا الأستاذ الأكبر أحمد بن إدريس قال: ثنا المعمر أبو المواهب عبد الوهاب التازي قال: ثنا أبو البقاء الجمال العجيمي قال: ثنا الشيخ عبد القادر الطبري قال: ثنا المعمر الحصار المصري قال: أنا إبراهيم القمري قال: ثنا شهاب الدين بن حجر العسقلاني قال: ثنا أبو العباس ابن الخراط قال: ثنا أبو جابر الوادياشي قال: ثنا عبد الله بن محمد القرطبي قال: ثنا محمد بن عبد الرحمن الخزرجي القرطبي قال: ثنا أبو عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع قال: ثنا يونس بن عبد الله الصفار قال: ثنا يحيى بن عبيد الله بن يحيى الليثي قال: أنا عم والدي عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي قال: ثنا والدي يحيى بن يحيى الليثي قال: حدثني مالك بن أنس رضي الله عنه بالموطأ.

وكانت ولادة هذا الإمام الجليل على المعتمد سنة ٩٣ للهجرة في المدينة المنورة وتوفي فيها سنة ١٧٩ للهجرة ودفن بالبقيع رحمه الله تعالى.

والله نسأل أن يجعلنا من خير من تعلم وعلم وأوصيه بتقوى الله عز وجل ونشر أحاديث نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم وأن لا ينساني من صالح دعواته وثنائه

والحمد لله على الدوام ونرجو منه حسن الختام

حررت الإجازة ضحوة يوم الخميس
١٤ رمضان المبارك سنة ١٤١٤هـ
٢٤ شباط سنة ١٩٩٤م

وأنا الفقير إليه تعالى
أحمد بن أحمد كعكة

- المصدر: عثر عليها الباحث صدفة بموقع بالشبكة العنكبوتية مهتم بالأسانيد والإجازات، فاستأذن الدكتور حسام الدين الكيلاني بالمراسلة على نشرها، فأذن له بذلك مشكورا.



المؤلف فى سطور
د. خالد محمد فرح الفحل

تاريخ الميلاد: 1963م.

مكان الميلاد: مدينة النهود ولاية غرب كردفان.

الموطن الاصلي: محلية أم دم حاج أحمد ولاية شمال كردفان.

التعليم:

- بكالريوس مرتبة الشرف في اللغة الفرنسية، كلية الاداب جامعة الخرطوم 1984م.
- ماجستير في الدبلوماسية والعلاقات الدولية جامعة واشنطون العالمية بالمراسلة 2003م.
- دكتوراة في نفس المجال من ذات الجامعة 2005م.
- ماجستير آخر في التاريخ، جامعة الزعيم الأزهري، 2021م.
- يحضر حالياً لدكتوراه أخرى في التاريخ بجامعة أم درمان الاهلية.

المهنة:

سفير بوزارة الخارجية السودانية منذ عام 2007م، دبلوماسي مهني منذ عام 1986م.

الوظيفة الحالية:

سفير السودان لدى فرنسا وسفير غير مقيم لدى كل من حاضرة الفاتيكان، والبرتغال وإمارة موناكو.

- باحث حر وكاتب راتب لديه عدد من المؤلفات والتراجم المنشورة في مجالات الدبلوماسية والعلاقات الدولية، والأدب واللسانيات والتاريخ والفولكلور.
- متزوج وأب لأربعة أبناء وبنت واحدة.
- يتحدث اللغات العربية والأنجليزية والفرنسية وقليل من البرتغالية.

القارىء الكريم:

سلسلة الدراسات التاريخية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مركز بحوث ودراسات حوض البحر الأحمر.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات والبحوث التاريخيية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.

